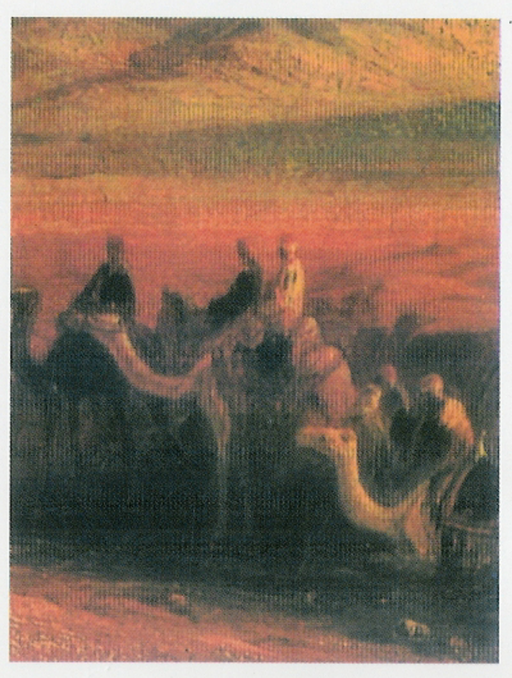
أمين معلوف

سمرقند

رواية







والآن أجِلْ بصرك في سمرقند! أليست مَلِكَةَ
الدُّنيا؟ مزهوّة على جميع المدن، وفي يديها
مصائرهنّ؟

ادغار ألان پو
(1809 ـ 1849)

في أعماق المحيط الأطلسي كتاب. وقصّته هي التي سأرويها.

وربّما كنتم تعرفون خاتمتها، فالصحف قد ذكرتها في حينه، وسجّلتها بعض المؤلّفات مذّاك: عندما غرقت الباخرة «تيتانك» في الليلة الرابعة عشرة من شهر نيسان (أبريل) 1912م في عُرض مياه «الأرض الجديدة» كان أعظمُ الضحايا وأعجبُها كتاباً هو نسخة فريدة من «رُباعيّات» عمر الخيّام، وهو حكيم فارسيّ وشاعر وفلكيّ.

ولسوف يكون حديثي عن هذا الغرق قليلاً. فقد وزن أشخاص غيري المصيبة بالدولارات، وأحصى آخرون الجثثَ وآخِرَ ما سُمع من كلام. وبعد سِتّ سنوات ما زال الوحيد الذي يُرهقني هو ذلك الكائنُ من اللحم والحِبْر الذي كنت في وقت من الأوقات مُسْتَوْدَعَه غيرَ الجدير به. ألستُ أنا، بنجامين ع. لوساج، مَنِ انتزعه من مسقط رأسه آسيا؟ ألم يُبْحِرْ في أمتعتي على متن الـ «تيتانك»؟ ورحلتُه الدهريّةُ ما الذي قطعها غيرُ صلفِ عصري أنا؟

ومذّاك زاد تَسَرْبُلُ العالمِ بالدم والظلّ يوماً إثْرَ يوم، ولم تعُد الحياة تبسم لي قطّ. وكان عليّ أن أبتعد عن الناس كيلا أُصغي

إلى غير صوت الذكرى، ولكي أداعب أملاً ساذجاً، رؤيا ملحّة: غداً سيُعْثَر عليه. وإذ كانت صندوقته المصنوعة من الذهب تحميه فسوف يبرز من الظُلُمات البحرية وقد اغتنى قَدَرُه بمغامرة جديدة. ولسوف تستطيع بعض الأصابع ملامسته وفتحه والإيغال فيه؛ وتتابع عيونٌ مأسورةٌ من هامش إلى هامش وقائع مغامرته فتكتشف الشاعرَ وأبياته الأولى وسكراته الأولى ومخاوفه الأولى. وفرقةَ «الحشاشين». ثم تتوقّف غير مصدِّقة أمام رسم بلون الرمل والزُمُرُّد.

إنه لا يحمل تاريخاً ولا توقيعاً ولا شيء غير هذه الكلمات المتحمِّسة أو المتقزِّزة: سمرقند، أجمل وجه أدارته الدُنيا يوماً نحو الشمس.

الكِتَاب الأوّل

شُعَراء وَعُشّاق

«إلَـهي قُلْ لِي مَنْ خلا مَنْ خطيـئةٍ
وكيـف تُرى عـاشَ البـريءُ مِنَ الـذّنـبِ»
«إذَا كُـنْـتَ تَـجْزي الـذّنْـبَ مِنّي بِمِـثْـلِهِ
فَمَا الفَرْقُ ما بَيْني وبَيْنَكَ يا ربّي؟»[1]

عمر الخيّام

---

(1) اعتمدتُ في تعريب «الرباعيات» على ترجمة الشاعر العراقي المرحوم أحمد الصافي النجفي. [طبعة دمشق 1931م] (المترجم).

1

يحدث أحياناً في مساء بطيء عبوس أن يتسكّع بعض أهالي سمرقند في درب الحانَتَيْن غير النافذ بالقرب من سوق الفلفل لا لكي يذوقوا خمرة الصُغْد المُمَسَّكة، وإنما ليَرقبوا ذهاب الناس وإيابهم أو ليخاصموا شارباً ثَمِلاً. وعندئذٍ يُمرَّغ الرجل في الغبار وتُكال له الشتائم ويُنذَر لجحيم تذكُره نارُها، حتى آخِر الدهور، بحُمرة الخمرة المُغْوِية.

ولسوف يولد من قبل هذه الحادثة في صيف 1072م مخطوط «الرباعيات». فعمر الخيّام في الرابعة والعشرين، ولمّا يَمْضِ على وجوده في سمرقند كبير وقت. فهل كان ذاهباً إلى الحانة في ذلك المساء أم أن صُدْفَة التسكّع هي التي حملته؟ إنها اللذّة النَدِيَّة بذَرْع مدينة مجهولة والعينان مفتوحتان على ألف لمسة من لمسات النهار المنصرِم: صبيّ صغير يجري بقدميه الحافيتين فوق بلاطات شارع «حقل الراوند» العريضة وهو يضمّ إلى عنقه تفّاحة سرقها من بسطة المعروضات؛ وفي سوق البزّازين تجري لعبة نَرْدٍ حامية الوطيس على ضوء سراج داخل دكّان، وقد رمي بالقطعتين وتعالت لعنةٌ وخُنقت ضحكة؛ وفي ممرّ الحبّالين المُقَنْطَر توقّف بغّال قرب بركةٍ وجعل الماءَ ينساب في جوف راحتيه المضمومتين

ثم انحنى ماطّاً شفتيه وكأنّه يقبّل جبين طفل نائم؛ وإذ ارتوى فقد مسح براحتيه المبلّلتين على وجهه وغمغم بالشكر وتناول بطيخة مُفَرَّغة فملأها ماء وحملها إلى بهيمته لتشرب هي الأخرى.

وفي ساحة تجّار الزبل اقتربت من الخيّام امرأة حامل. وإذ كانت قد رفعت نقابها فقد بدا أنها تكاد تكون في الخامسة عشرة من العمر. ومن غير أن تنبس بكلمة ولا أن ترتسم ابتسامة على شفتيها البريئتين اختلست من يديه بضع حبّات من اللوز المحمّص الذي كان قد اشتراه لتوّه. ولم يدهش المتنزّه، فهناك اعتقاد قديم في سمرقند: حين تصادف المرأة التي ستغدو أمّاً إنساناً غريباً يروقها شكله فإنه ينبغي عليها أن تتجرّأ على مشاطرته طعامه، وبذلك يغدو الولد في مثل جماله وقامته الممشوقة وقسماته المليحة التامة.

تباطأ عمر وأخذ يمضغ اللوزات المتبقّيات بفخارٍ ناظراً إلى المرأة المجهولة وهي تبتعد. وإذ ترامى إليه صخب حفزه على الإسراع فإنه لم يلبث أن ألفى نفسه وسط جمهورٍ هائج. وعجوزٌ طويل الأطراف هزيلها مُلْقىً على الأرض حاسر الرأس وشعرُه الأبيضُ مشعّثٌ فوق جمجمة مسفوعة؛ لم تكن صيحاته الناجمة عن الغضب والذعر سوى نحيب مستطيل، وكانت عيناه تضرعان إلى أوّل قادم.

كان حول المسكين زهاء عشرين شخصاً تهتزّ لحاهم في الهواء وتتشفّى هراواتهم، وعلى بُعدٍ منهم حلقة من المشاهدين المغتبطين. وإذ لاحظ أحدهم سحنة الخيّام المُستنكِرة فقد ألقى إليه بنبرة أشدّ ما تكون تطميناً: «ليس في الأمر ما يزعج، إنه ليس غير جابر الطويل!» وأجفل عمر واخترقت حلقه رعدة خجل وتمتم: جابر، رفيق أبي عليّ!».

«أبو علي»، إنها أكثر الكُنى شيوعاً. ولكنْ عندما يذكرها

مُثَقَّف في بُخارى أو قُرطبة أو بَلْخ أو بغداد بمثل هذه النبرة النامّة عن إجلالٍ مألوفٍ فلا مجال للَّبس، فهو أبو عليّ ابن سينا. إن عمر لم يعرفه إذ كان قد وُلد بعد أحد عشر عاماً من موته، بيد أنّه يُجلّه بوصفه مُعَلِّمَ جيله غير مُنازَع، ومالكَ جميع العلوم، وداعية «العقل».

وتمتم الخيّام من جديد: «جابر، تلميذ أبي عليّ المفضّل!» ذلك أنه إذا كان يراه للمرّة الأولى فإنه ما كان ليجهل مصيره المفجع الباعث على الاتّعاظ. فقد كان ابن سينا يرى فيه مُتَمِّماً لطِبّه كما لآرائه في ما وراء الطبيعة، وكان مُعْجَباً بحُججه؛ غير أنه كان يأخذ عليه نشره أفكاره بكثير من الجهر والفظاظة. ولقد كلَّف هذا العيبُ جابراً عدّة إقامات في السجن وثلاثَ عملياتِ جَلْدٍ أمام الملأ كان آخرها في ساحة سمرقند العامة، وكان عدد السياط التي انهالت عليه فيها بحضور جميع ذوي قرباه مئة وخمسين سوطاً. ولم يعُد قط سيرته الأولى بعد تلك الإهانة. فمتى جنح يا تُرى من الجسارة إلى الجنون؟ عند وفاة زوجه ولا ريب. فقد أصبح يُشاهد مذّاك هائماً في الأسمال وهو يَظْلَع ويزعق بتجديفاتٍ خرقاء، وفي أثره صبية متكالبون متضاحكون يصفّقون ويرشقونه بحجارة حادّة تجرحه وتُسيل دموعه.

لم يتمالك عمر وهو يرقب المشهد من التفكير: «إذا أنا لم أحاذر صِرتُ يوماً خِرقة كهذه». وما كان السُكْر هو الذي يخشاه إلى هذا الحدّ، فهو يعرف أنه لن ينغمس فيه، إذ تعلّم هو والخمر أن يحترم كلّ منهما الآخر، ولن يُهرق أيّ منهما الآخر أبداً على الأرض. وأخشى ما يخشاه هم عامّةُ الناس وهَدْمُهم جدار الوقار في ذات نفسه: وشعر أنه مهدَّد بمشهد هذا الرجل الخائر المُكْتَسَح، وودّ لو يُشيح ويبتعد. ولكنّه يعلم أنه لن يترك رفيقاً لابن سينا بين أيدي العامّة. وتقدّم ثلاث خطوات متمهّلة وقورة، واصطنع أشدّ ترفّعاً وقال بصوت واثق مشفوع بحركة سَنيّة:

ـ أطلقوا سَراح هذا المنكود!

كان قائد العصابة عندئذٍ منحنياً فوق جابر، فاعتدل وتقدّم فانتصب بثقله أمام الدخيل. وكان يتخلّل لحيته نَدْبة بليغة من الأُذُن اليمنى حتى طرف الذقن، وكان هذا الجانب المحفور هو الذي صعّره لمخاطبه لافظاً ما يشبه الحُكْم:

ـ هذا الرجل سكّير كافر فيلسوف!

ولقد أطلق هذه الكلمة الأخيرة وكأنها لعنة.

ـ لا نريد أيّ فيلسوف في سمرقند!

وسرت في الحشد تمتمة بالموافقة. فلفظة «فيلسوف» تعني عند هؤلاء الناس كلّ شخص يهتمّ عن كثب بعلوم الإغريق المنافية للدين، وبصورة أعمّ بكلّ ما ليس ديناً ولا أدباً. وكان عمر الخيّام قد أصبح على الرغم من صغر سنّه فيلسوفاً بارزاً، أي صَيْداً أسمنَ بكثير من جابر المسكين هذا.

ولم يكن ذو النَدْبة قد عرفه بالطبع لأنه أشاح عنه وانحنى مجدّداً على العجوز الذي كان قد خرس، فأمسك به من شعره وهزّ رأسه ثلاث مرات أو أربعاً متظاهراً بأنه يريد تحطيمه على أقرب جدار، ثم أفلته بغتة. وقد ظلّت الحركة، على فظاظتها، متحفّظة وكأنّ الرجل كان ـ على الرغم من إظهار عزمه ـ يتردد في ارتكاب جريمة قتل. وقد اختار الخيّام هذه اللحظة للتدخّل من جديد.

ـ دَعْكَ من هذا العجوز، إنّه أرمل مريض مُخَبَّل، ألا ترى أنه يكاد يستطيع تحريك شفتيه؟

واستوى القائد قافزاً وتقدّم من الخيّام مسدّداً إصبعه إلى لحيته وقال:

ـ أنت يا مَنْ يبدو أنّك تعرفه جيّداً، تُرى مَنْ تكون؟ إنك لست من سمرقند! ولم يسبق لأحد أن رآك في هذه المدينة!

وأزاح عمر يد مخاطبه بتعالٍ، ولكن من غير خشونة، محافظةً منه على احترامه من دون أن يمنحه ذريعة للشجار. وتراجع الرجل خطوة، غير أنه ألحّ قائلاً:

ـ ما اسمك أيها الغريب؟

وتردّد الخيّام في الكشف عن نفسه، وأخذ يبحث عن خدعة، ورفع عينيه إلى السماء حيث كانت غيمة رقيقة قد حجبت الهلال. وكان صمت، وكانت تنهّدة. فلقد كان عليه أن ينسى نفسه في التأمّل، أن يسمّي النجوم واحداً واحداً، أن يبتعد، أن يكون في مأمن من الحشود!

لكنّ العصابة كانت قد أحاطت به، وكانت بعض الأيدي قد بدأت تلامسه، فتمالك نفسه وقال:

ـ أنا عمر بن إبراهيم من نيسابور. وأنت من تكون؟

إنه لسؤال شكليّ محض، وليس في نيّة الرجل أن يُعرِّف بنفسه. فهو في مدينته، وهو المُحقِّق. ولسوف يعرف عمر فيما بعد لقبه، فهو يُدعى «الطالبَ ذا النَدْبة». وسيجعل سمرقند ترتعد في المستقبل وفي يده هراوة وعلى لسانه استشهاد. وأما الآن فإن تأثيره لا يتعدّى هؤلاء الشبّان المحيطين به متيقّظين لأدنى كلمة منه ولأدنى حركة.

وأومضت عيناه بغتة. والتفت نحو شركائه. ثم بزهو نحو حشد الناس. وصاح:

ـ يا لَلّه! كيف أمكن ألّا أعرف عمر بن إبراهيم الخيّام من نيسابور؟ عمر، نجم خراسان ونابغة فارس والعراقيْن وأمير الفلاسفة!

واصطنع انحناءة طويلة، وحوّم بأصابعه حول عمامته، مستثيراً بلا ريب قهقهات المتسكّعين.

ـ كيف أمكن ألّا أعرف من نظم هذه «الرباعية» الناضجة بالتقوى والورع:

«كَسَرْتَ يا ربُّ إبريقَ المُدامِ كما
سَدَدْتَ لي بابَ عيشي حيثُما كانا»
«أنا شربتُ وتُبدي أنتَ عَرْبَدَةً
ليتَ الثَّرى بِفَمي، هلْ كُنْتَ نَشوانا؟»

كان الخيّام يصغي مستنكراً قلقاً. إن مثل هذا الاستفزاز دعوة إلى القتل، وعلى الفور. ومن غير أن يُضيع لحظة واحدة أطلق جوابه بصوت مرتفع واضح كيلا ينخدع أحد من المتجمهرين:

– إني أسمع هذه الرباعية للمرّة الأولى من فمك أيها المجهول. ولكنْ إليك هذه الرباعية التي نظمتها حقّاً:

«لا شيء، إنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يريدون أن يعلموا شيئاً،
«أترى هؤلاء الجهلة، إنهم يهيمنون على العالم،
«وإن لم تكن منهم دَعَوْك كافراً.
«أهملهم يا خيّام واتّبع سبيلك»[1].

لقد أخطأ عمر ولا ريب في أن يُرفق قوله «أترى» بحركة ازدراء باتجاه خصومه. فقد امتدّت أيدٍ وجرّته من الثوب الذي بدأ يتمزّق. إنه يترنّح. واصطدم ظهره برُكبةٍ، ثم بصفحة بلاطة. وإذ كان الرهط قد سحقه فإنه لم يحاول أن يتخبّط، واستسلم تاركاً

(1) لم أعثر في «الرباعيات» التي عرّبها أحمد الصافي النجفي ما يطابق هذا المعنى بعض المطابقة سوى الرباعيتين التاليتين:
– الأولى:
«إنّ من أدركوا المناصبَ ذاقوا جُرَعَ الهمّ والأسى ألوانا»
«وعجيبٌ أنّ الذي لَيْسَ يَهوى حِرصَهُمْ لا يَرَوْنَه إنسانا»
– الثانية:
«كُنْ حِماراً في مَعْشَرٍ جُهَلاءِ أيقَنُوا أنّهُمْ أولو عِرْفانِ»
«فَهُمْ يَحسَبونَ للجهلِ مَنْ لَيْـ ـسَ حِماراً، خِلْواً مِنَ الإيمانِ»
(المترجم)

ثوبه يُقطّع وجسده يُنهش، وكان قد سبق له أن أسلم نفسه إلى الخَدَر الرخو الذي يصيب الضحيّة المرجومة، فهو لا يستشعر شيئاً ولا يسمع شيئاً، وقد انحبس داخل ذاته سوراً يناطح الغمام وأبواباً موصدة.

إنه يتأمّل وجوه الرجال المسلَّحين العشرة الذين جاءوا يُوقفون عملية التضحية وكأنه يتأمّل بعض المتطفِّلين. كانوا يرفعون فوق طواقي اللبد التي يعتمرونها الإشارة ذات اللون الأخضر الباهت الدّالة على «الأحداث»، ميليشيا سمرقند البلدية. وما إن رآهم المعتدون حتى ابتعدوا عن الخيّام، لكنّهم أخذوا يصيحون مستشهدين بالجمهور تبريراً لمسلكهم:

– كيميائي! كيميائي!

ولأنْ يكون المرء فيلسوفاً فليس جريمة في نظر السلطات، وأمّا تعاطي الكيمياء فجزاؤه الموت.

– كيميائي! هذا الغريب كيميائي!

ولكنْ لم يكن في نيّة رئيس الدورية أن يجادل. وعليه فقد قرّر قائلاً:

– إذا كان هذا الرجل كيميائياً حقّاً فإنه يجدر بنا أن نقوده إلى قاضي القضاة أبي طاهر.

وبينما كان جابر الطويل الذي نسيه الجميع يزحف نحو أقرب حانة ويندسّ فيها مؤالياً على نفسه ألّا يعود قطّ إلى الخروج، تمكّن عمر من النهوض بلا مساعدة من أحد. ومشى مستقيماً في صمت؛ وكانت سحنته المترفّعة تغطّي، وكأنها حجاب محتشم، ثيابه الممزّقة ووجهه الدامي. وأمامه كان رجال الميليشيا المزوَّدون بالمشاعل يفسحون الطريق. وخلفه مشى المعتدون عليه ثم موكب المتسكّعين.

لم يكن عمر يراهم، ولا كان يسمعهم. لقد كانت الشوارع

بالنسبة إليه مُقْفِرة، وكانت الأرض بلا ضوضاء والسماء بلا غيوم، وكانت سمرقند لا تزال موضع الحلم، ذلك الموضع الذي كان قد اكتشفه قبل بضعة أيام.

وكان قد بلغه بعد ثلاثة أسابيع من السفر، وعزم، من غير أن يتمتّع بأدنى راحة، على أن يتّبع على وجه التقريب نصائح قُدامى الرحّالين. فلقد دَعَوا المسافر أن يصعد إلى شرفة القهندز، وهي القلعة القديمة، وأن يُجيل طَرْفه طويلاً فلا يرى إلا الماء والخضرة والمرابع الزاهرة وشجر السرو الذي شَذَّبَهُ أمهرُ البستانيين في صورة ثيران وأفيال وجمالٍ مُنيخة وفهود متواجهة تبدو وكأنها تستعدّ للوثوب. والحقّ أن عمر لم يرَ داخل حَرَم القلعة بالذات، من باب الدير غرباً حتى باب الصين، غيرَ بساتين ملتفّة وسَواقٍ هادرة. ثم، هنا وهناك، تَطاوُلَ مئذنةٍ من القرميد، أو قبّةٍ منقوشة بالظلال، أو بياضِ جدار من جدرانٍ مقصورةٍ. ومستحمّةً عاريةً تُفْرِد شعرها للريح المُحْرِقة عند حافّةِ بِرْكةٍ تغمرها أشجار الصفصاف الباكي.

ألم يكن مشهد الجنّة هذا هو الذي أراد أن يثيره الرسّام المجهول عندما شرع بعد زمن طويل في تزويد مخطوط «الرباعيات» بالرسوم المعبّرة؟ أوَليس هذا هو أيضاً ما أسرّه عمر في نفسه وهم يقودونه إلى حيّ أسفِزار حيث يقيم أبو طاهر قاضي قضاة سمرقند؟ ولم يكن ينِي يردّد في سرّه: «لن أبغض هذه المدينة. حتى ولو لم تكن المستحمّة سوى سراب. حتى ولو اكتست الحقيقة وجه ذي النَدْبة. حتى ولو قُدِّر أن تكون هذه الليلة الرَّطْبة آخِرَ لياليَّ».

2

كانت الشمعدانات القابعة بعيداً في ديوان القاضي الفسيح تُضفي على الخيّام لون العاج. وما إن دخل حتى كتّفه حارسان كهلان وكأنّه مجنون خَطِر. وها هوذا ينتظر على هذه الهيئة بالقرب من الباب.

وإذ كان القاضي جالساً في طرف الحجرة الآخر فإنّه لم يلحظه، واستمرّ في تسوية إحدى القضايا مناقشاً المتخاصميْن، داعياً أحدهما إلى الاحتكام للعقل، موبّخاً الآخر. وبدا أنه خلاف قديم بين جاريْن وأحقادٌ متراكمة ومماحكات سخيفة. وانتهى الأمر بأبي طاهر إلى إبداء ضيقه وأمر زعيمي الأسرتين بتبادل القُبل هنا أمامه وكأنّه لم يسبق أن حدث ما يُفرّق بينهما. وتقدّم أحدهما خطوة واستنكف الآخر وهو عملاق ضيّق الجبين، فصفعه القاضي بكل ما أوتي من عزم زارعاً الهلع في قلوب الحاضرين. وتأمّل العملاق لحظة هذا الشخص القصير الساخط المتشنّج الذي كان عليه أن يتطاول ليبلغه، ثم طأطأ رأسه ومسح على خدّه وامتثل للأمر.

وإذ صرف أبو طاهر كل أولئك الناس فقد أشار إلى رجال الميليشيا بالاقتراب. وأبلغ هؤلاء تقريرهم وأجابوا عن بعض

الأسئلة وجهدوا في شرح الأسباب التي دفعتهم إلى السماح بمثل هذا التجمهر في الشوارع. ثم جاء دور ذي النَّدْبة لتقديم مسوِّغاته فانحنى على القاضي الذي بدا أنّه يعرفه من زمن طويل وانخرط في حديث شديد الانفعال والحماسة. وأصغى إليه أبو طاهر بانتباه من غير أن يُمكّن أحداً من التخرُّص بما كان يشعر به. وبعد لحظات من التفكير أمر قائلاً:

ـ قولوا للجَمْع أن يتفرّق. وليذهب كل واحد إلى منزله سالكاً أقرب الطرق، وأنتم ـ وهنا كان يخاطب المعتدين ـ أيضاً عودوا إلى منازلكم! فلن يتقرَّر شيء قبل غد. وسوف يقضي المتّهم الليل هنا في حراسة حرّاسي، ولن يكون معهم أي شخص آخر.

وإذ بوغت ذو النَّدْبة لرؤية نفسه مدعوّاً إلى الاحتجاب بهذه السرعة فقد شرع في احتجاج، ولكنّه ما لبث أن غيّر رأيه. وجمع بحذر حاشية ثوبه وانسحب في انحناءة.

وعندما وجد أبو طاهر نفسه وجهاً لوجه مع عُمَر ولا شاهِدَ على ما يجري غيرُ من يثق بهم من رجاله لفظ هذه العبارة الترحيبية المحيِّرة:

ـ إنه لشرف أن يُستقبل في هذا المكان عمر الخيّام النيسابوري الشهير.

ولم يكن القاضي ساخراً ولا مُتحمِّساً. فما كانت هناك أدنى ظاهرة انفعال. فالنبرة محايدة، والصوت مسطَّح، والعمامة مكوّرة، والحاجبان كثّان، واللحية شيباء بلا شاربين، والنظرة متفرِّسة لا تكاد تنتهي.

وزاد في غموض الاستقبال أن عمر كان واقفاً هنا منذ ساعة ممزَّق الثياب عرضة لجميع الأنظار والابتسامات والغمغمات.

وأضاف أبو طاهر بعد لحظات تَفَنَّن في اصطفائها:

ـ لستَ نَكِرة في سمرقند يا عُمَر. فعلى الرغم من صغر سنّك فإن علمك قد غدا مَضْرِب الأمثال، ومآثرك تُتناقل في المدارس. أفليس صحيحاً أنّك قرأت في أصفهان سبع مرات مجلَّداً ضخماً لابن سينا، وأنّك نقلته لدى عودتك إلى نيسابور كلمةً بكلمة من الذاكرة؟

وازدهى الخيّام بأن تكون مَأثُرَتُه، وهي حقيقية، معروفة في طبرستان، ولكنّ ذلك ما كان ليقضي على مخاوفه. فالإحالة على ابن سينا من فم قاضٍ من المذهب الشافعي ليس فيها ما يُطَمْئِن؛ ومن جهة ثانية فإنّه لم يُدْعَ إلى الجلوس. وتابع أبو طاهر يقول:

ـ ليست مآثرك وحدها هي المتناقلة من فم إلى آخر، فالناس ينسبون إليك كثيراً من الرباعيات الغريبة.

الحديث مُحْكَم، فهو لا يتّهِم، ولا يُبَرِّىء قطّ، ولا يسأل إلا مداورةً. وقَدَّر عمر أنه قد حان الوقت لكسر طوق الصمت فقال:

ـ ليست الرباعية التي يردِّدها ذو النَّدْبة من نظمي.

وكَنَسَ القاضي الاحتجاج بحركة من ظاهر يده بشكل نزِق. ولأول مرة غدت النبرة صارمة:

ـ لا يهمّ كثيراً أن تكون قد نظمت هذا البيت أو ذاك. فقد نُمِيَتْ إليّ أقوال من الكفر لو ذكرتُها لشعرتُ بأن ذنبي يماثل ذنب قائلها. إني لا أسعى إلى انتزاع إقرار منك، ولا أسعى إلى إنزال عقاب بك. فاتهامك بتعاطي الكيمياء دخل إحدى أُذُنيَّ ليخرج من الأخرى. إننا وحدنا، ونحن رجلان من رجال المعرفة، وكلّ ما أريد هو معرفة الحقيقة.

لم يُفْرِخْ روع عمر قطّ، وإنه ليخشى شَرَكاً ويتردّد في الإجابة. وها هوذا يرى نفسه وقد أُسلِم إلى الجلّاد ليجدعه أو يخصيه أو يصلبه. ورفع أبو طاهر صوته، إنه يكاد يصرخ، وقال:

ـ عمر، يا ابن إبراهيم صانع الخِيام من نيسابور، أتعلم كيف تتعرّف إلى صديق؟

إن في هذه العبارة نبرة إخلاص تقرع الخيّام وتسوطه. «تتعرّف إلى صديق؟» وقلّب السؤال بجدّ، وتأمّل وجه القاضي، وتفحّص ابتساماته الهازئة وانتفاضات لحيته. وترك الطمأنينة تغمره على مهل. وانفرجت أساريره وتراخت. وتملّص من حرّاسه الذين لم يعترضوا طريقه بناء على حركة قام بها القاضي. ثم ذهب للجلوس من غير أن يُدعى إليه. وابتسم القاضي بطيب قلب، بيد أنه واصل استجوابه قائلاً:

– أتكون الزنديق الذي يصفه بعضهم؟

إنه لأَكْثَرُ من سؤال، إنه صرخة تبرُّم لا يُخيِّبها الخيّام:

– إني أحذر تفاني الأتقياء، لكنّي لم أقل يوماً إن الواحد الصمد اثنان.

– هل خطر ذلك على بالك يوماً؟

– أبداً، واللّه شهيد عليّ.

– هذا يكفيني. وهو يكفي الخالق على ما أظنّ. لكنّه لا يكفي العامّة. إنهم يتربّصون بأقوالك وبكلّ حركاتك، كما يتربّصون بأقوالي وحركاتي، وبأقوال الأمراء وحركاتهم. لقد سُمِعْتَ تقول: «أَذْهَبُ أحياناً إلى المساجد حيث الظلّ مواتٍ للنوم».

– وحده الإنسان المسلم لخالقه يجد إلى النوم سبيلاً في مكان للعبادة.

وعلى الرغم من برطمة أبي طاهر المُرتابة فقد زادت حماسة عُمَر واستطرد:

– لست من أولئك الذين لا يعدو إيمانهم أن يكون خوفاً من يوم الحساب، ولا تعدو صلاتهم أن تكون سجوداً. طريقتي في الصلاة؟ أتأمّل وردة، أعدّ النجوم، أتدلّه بجمال الخليقة، بكمال نظامها وترتيبها، بالإنسان أجمل ما أبدع الخلّاق، بعقله المتعطّش

إلى المعرفة، بقلبه المتعطّش إلى الحبّ، بحواسّه، كلّ حواسّه، متيقّظة كانت أو مُتْرَعَة.

ونهض القاضي وقد لاح التفكّر في عينيه فجلس بجانب الخيّام وألقى على كتفه يداً أبويّة. وتبادل الحرّاس نظرات مشدوهة.

– اسمع يا بنيّ، لقد أعطاك اللّه تعالى أثمن من ما يمكن أن يحصل عليه آدميّ، الفطنة، وفنّ القول، والصحة، والجمال، والرغبة في العلم والتمتّع بالعيش، والإعجاب بالناس، وعلى ما أظنّ، تنهّدات النساء. وأرجو ألّا يكون قد حرمك الحكمة، حكمة الصمت التي لا يُمكن أن يُقدَّر ذلك كلُّه ولا أن يُحفظ من غيرها.

– أينبغي أن أنتظر حتى أصبح عجوزاً لأعبّر عن أفكاري؟

– إنّ اليوم الذي تستطيع أن تعبّر فيه عن كلّ ما يجول بخاطرك سيكون فيه أبناء أبنائك قد وجدوا الوقت الكافي ليصبحوا عجائز. إننا في عمر الأسرار والخوف، وينبغي أن يكون لك وجهان، واحد تريه للناس وآخر لنفسك ولخالقك. وإذا أردت أن تحتفظ بعينيك وأُذُنيك ولسانك فانسَ أنّ لك عينين وأُذنين ولساناً.

وسكت القاضي، وكان سكوته فظّاً. لم يكن من النوع الذي يستدعي كلام والآخر، وإنما من ذلك النوع الهادر الذي يملأ الفضاء. وانتظر عمر وعيناه إلى الأرض تاركاً للقاضي أن يفاضل بين الكلمات المتزاحمة على رأسه.

بيد أن أبا طاهر شهق شهقة عميقة وأصدر إلى رجاله أمراً جافياً فابتعدوا. وما إن أغلقوا الباب حتى توجّه إلى ركن من الديوان ورفع حاشية أحد البُسُط ثم غطاء صندوق خشبي مكسوّ بالدمقس واستخرج منه كتاباً قدّمه إلى عمر بحركة احتفالية. مُلَطَّفةٍ، والحقُّ يقال، بابتسامة واقية.

وذلك الكتاب هو الذي سأحمله ذات يوم، أنا بنجامين و. لوساج، بيديّ. ولقد كان عند اللمس متشابهاً على الدوام فيما أعتقد. جلد صفيق خشن، وتدعيمات بشكل ذيل الطاووس، وحوّاف أوراق غير منتظمة ومُفَتَّتة. ولكنْ عندما فتحه الخيّام في تلك الليلة الصيفية التي لا تُنسى ما كان ليتأمّل فيه غير مئتي وست وخمسين صفحة بيضاء ليس فيها بعدُ قصائد ولا رسوم ولا تعليقات على الحواشي ولا زخارف.

ولكن يُخفي أبو طاهر انفعاله فقد اتّخذ نبرة بائع متجوّل قائلاً:

ـ هذا كاغد صيني، أفضل ورق أنتجته معامل سمرقند على الإطلاق. لقد صنعه يهودي من حيّ «ماتُريد» بناء على طلبي تبعاً لوصفة قديمة قوامها الكامل شجر التوت الأبيض. جُسَّهُ، إن له لَنَسْغَ الحرير نفسه.

وتنحنح قبل أن يوضح:

ـ كان لي أخ أكبر مني بعشر سنوات، وكان في مثل سنّك عندما مات. ممزَّقاً إرْباً في مدينة بلخ لأنه نظم قصيدة لم تَرُق الملك في ذلك العهد. واتُّهم بالهرطقة، ولست أدري إذا كان ذلك صحيحاً، بيد أني أخذت على أخي أنْ غامر بحياته من أجل قصيدة، قصيدة بائسة لا تكاد تكون أطول من رباعية.

وتحشرج صوته ثم ارتفع لاهثاً:

ـ احتفظ بهذا الكتاب. وفي كل مرّة يتشكّل فيها بيت من الشعر في خاطرك ويقارب شفتيك ساعياً إلى الخروج فاكبِتْه بلا تحفّظ واكتبه في هذه الأوراق التي ستبقى طَيَّ الكتمان، وفكِّر وأنت تكتب في أبي طاهر.

أكان القاضي يعلم أنه بهذا التصرف وتلك الأقوال، كان يهب الحياة لأكثر أسرار تاريخ الآداب استغلاقاً؟ وأنه كان يجب

الانتظار ثمانية قرون قبل أن يكتشف العالم شعر عمر الخيّام الرفيع، وقبل أن تُبَجَّل الرباعيات على أنها أكثر الأعمال طرافة على مرّ الزمن، وقبل أن يُعْرَف أخيراً مصير مخطوطة سمرقند العجيب؟

3

عبثاً حاول عمر في تلك الليلة أن يجد سبيلاً إلى النوم داخل مقصورة في جناح خشبي فوق تلّة وسط حديقة أبي طاهر المترامية. وكان بالقرب منه على منضدة واطئة قلم ودواة ومصباح مطفأ وكتابه المفتوح على الصفحة الأولى التي بقيت بيضاء.

وفي السَحَر مشهد: جارية جميلة تحمل له صينيةً فيها بطيخ مقطّع، وثوباً جديداً، ووشاحَ عمامة من حرير «زَنْدان». وبلاغاً مهموساً:

ـ مولاي بانتظارك بعد صلاة الفجر.

ردهة الاستقبال غاصّة بالمتظلّمين والمُلحفين في السؤال والجُلساء والمقرّبين والزوّار من كل الرُّتَب، ومن بينهم الطالب ذو النَدْبة الذي قَدِم ولا ريب لاستطلاع الأخبار. وما إن اجتاز عمر الباب حتى وجّه إليه صوت القاضي الأنظار والهمسات:

ـ أهلاً ومرحباً بالإمام عُمَر الخيّام، الرجل الذي لا يَعْدِله أحد في معرفة سُنّة النبيّ، والمرجع الذي لا يُنْكِره أحد، والصوت الذي لا يعارضه أحد.

ونهض الزوّار واحداً بعد واحد وشرعوا في الانحناء وغمغموا ببعض العبارات قبل أن يعودوا إلى الجلوس. وبنظرة خاطفة

لاحظ عمر ذا النَدْبة الذي بدا مختنقاً في ركنه، وإن لاذ مع ذلك بتكشيرة هازئة على استحياء.

ورجا أبو طاهرٍ عمر بنبرة احتفالٍ لا مزيد عليها أن يجلس إلى يمينه مُكْرِهاً جيرانه على الإسراع في الابتعاد. ثم استطرد:

ـ لقد تعرّض زائرنا الشهير مساء أمسِ لحادثة مزعجة فأُرهِق في شوارع سمرقند، هو المبجَّل في خراسان وفارس ومزندران، هو الذي تتمنّى كلّ مدينة استقباله داخل أسوارها، هو الذي يرجو كلّ أمير اجتذابه إلى بلاطه!

وتعالت هتافات استنكار تبعها هَرْج تركه القاضي يرتفع بعض الشيء قبل أن يُهَدِّئه بحركة من يده ويتابع قائلاً:

ـ هناك أيضاً ما هو أخطر، فقد كادت تنشب فتنة في السوق. فتنة عشية زيارة ملكنا الأجلّ نصر خان، شمس المُلْك، المفترض وصوله هذا الصباح بالذات إلى بُخارى إن شاء اللّه. ولست لأجرؤَ على تصوّر الحَرَج الذي كنّا سنقع فيه لو لم تتيسّر الهيمنة على الناس وتفريقهم. وأؤكد لكم أنّ كثيراً من الرؤوس كانت ستترجَّح فوق الأكتاف!

وقطع كلامه ليستعيد أنفاسه ويُرتِّب على الأخص تأثيره ويُلقي الهلع في القلوب.

ـ ومن حسن الطالع أنّ أحد طلّابي القدامي، وهو حاضر بيننا، تعرّف على زائرنا الشهير وحضر فأعلمني بالأمر.

وأومأ بإصبعه إلى الطالب ذي النَدْبة ودعاه إلى النهوض قائلاً:

ـ كيف تعرّفت على الإمام عمر؟

وكان الجواب بعضَ المقاطع المُتَمْتَمَة. وصرخ القاضي مشيراً إلى لحية بيضاء على يساره:

ـ ارفع الصوت! عمُّنا العجوز هنا لا يسمعك!

وقال ذو النَدْبة بمشقّة:

ـ تعرّفت على الزائر الشهير بفضل بلاغته وسألته مَنْ يكون قبل أن أقوده إلى قاضينا.

ـ أحسنت. فلو استمرّت الفتنة لسالت الدماء. تعال إذن وأجلس بجانب ضيفنا فقد استحققت ذلك.

وفيما كان ذو النَدْبة يقترب متظاهراً بالخضوع همس أبو طاهر في أُذُن عمر:

ـ إن لم يكن قد أصبح صديقك فإنه لن يستطيع على الأقلّ التهجُّم عليك أمام الناس.

وتابع بصوت مرتفع:

ـ هل أرجو ألّا يحفظ «الخوجة» عمر ذكرى سيئة لسمرقند على الرغم من كلّ ما قاساه؟

وأجاب الخيّام:

ـ لقد نسيت كلّ ما جرى البارحة، وإذا فكّرت فيما بعدُ في هذه المدينة فإني سأحتفظ في خاطري بصورة أخرى عنها، صورة رجل رائع. ولست أتحدّث عن أبي طاهر. فأجمل مديح يُوَجّه إلى قاضٍ لا يكون بالإشادة بحميد خصاله، بل باستقامة مَنْ يرعاهم. فيوم وصولي جهدت بغلتي في ارتقاء المُرتفَع الأخير المفضي إلى باب «كِش»، وما إن ترجّلتُ حتى اقترب منّي أحدهم وقال:

ـ أهلاً وسهلاً بك في هذه المدينة، ألك أقارب أو أصدقاء؟

وأجبت أنْ لا من غير أن أتوقّف خشية أن يكون لي شأن مع أحد المحتالين أو المُلْحِفين أو المزعجين. ولكنّ الرجل استأنف قائلاً:

ـ لا تَرْتَبْ في إلحاحي أيها الزائر الكريم. إن مولاي هو الذي أمرني بالوقوف في هذا المكان لترصُّد كل قادم وتقديم القِرى له.

كان هذا الرجل يبدو من طبقة متواضعة بيد أن ثيابه كانت نظيفة، ولم يكن يجهل عادات الناس المحترمين. وتَبِعْتُه. وعلى بُعد خطوات من هناك أدخلني من باب ضخم فاجتزتُ دهليزاً مُقَنْطراً أفضى إلى فِناء خان تقوم بئر في وسطه ويغصّ بالبهائم والناس المنهمكينَ في العمل، وحوله على مدى طبقتين غرف للمسافرين قال الرجل:

ـ «بوسعك البقاء هنا قدر ما تشاء، ليلةً أو فصلاً، وسوف تجد الفراش والطعام والعلف لبغلتك.

«وحين سألته عن الأجرة أبدى استياءه قائلاً:

ـ أنت هنا ضيف مولاي.

ـ وأين أجد هذا المضيفَ السخيَّ لأوجّه إليه آيات الشكر؟

ـ مات مولاي منذ سبع سنوات تاركاً لي مبلغاً من المال عليّ إنفاقه بأكمله في تكريم زوّار سمرقند.

ـ وما اسم هذا المولى فأستطيع على الأقلّ أن أُخبِر بأفضاله؟

ـ اللّه تعالى وحده يستحقّ عرفانك فاشكره، وهو يعرف الإنسان الذي كانت أفضاله سبيلاً إلى التسبيح بحمده.

«وهكذا قضيت عند ذلك الرجل عدّة أيام، فكنت أخرج وأعود فأجد على الدوام أطباقاً حافلة بأشهى الوجبات، وكانت العناية بدابّتي خيراً ممّا لو كنت أقوم بها أنا نفسي».

ونظر عمر إلى الحضور باحثاً عن رد فعل. بيد أنّ روايته لم تُثِرْ أيّ وَضَحٍ على الشفاه، ولا أيّ تساؤل في العيون. وإذ أدرك القاضي حَرَجَه فقد أوضح قائلاً:

ـ كثيرة هي المدن التي تزعم أنها أكثر ديار الإسلام قِرى للضيوف، غير أنّ أهل سمرقند وحدهم يستحقّون مثل هذا اللقب. فلم يكن على أيّ مسافر حسبما أعلم أن يدفع ثمن مبيته أو

غذائه، وأعرف أُسَراً برمّتها أَفْلَسَتْ من جرّاء إكرام الزائرين والمُعْوِزين. ومع ذلك فإنّك لن تسمع منهم قطّ ازدهاء ولا مُفاخرة. فسُبل المياه التي أمكنك أن تراها عند جميع نواصي الطرقات مليئة على الدوام بالماء البارد لرِيّ عطش العابرين، منها أكثر من ألفيْن في هذه المدينة مصنوعة من الفخّار أو النحاس أو الخزف ومقدّمة من أهل سمرقند؛ أتظنّ من الممكن أن ينقش أحدٌ اسمه على أحدها طلباً للحمد؟

ـ أقرّ بأنني لم أصادف مثل هذا الكَرَم في أيّ مكان. ومع ذلك فهل تسمح لي بطرح سؤال يشغل بالي؟

وتولّى القاضي عنه الكلام قائلاً:

ـ أعرف ما سوف تسأل: كيف استطاع أناس يضعون فضائل الحفاوة في أعلى المراتب أن يُلحقوا الأذى بزائر مثلك؟

ـ أو بعجوز مسكين مثل جابر الطويل.

ـ الجواب، سأقدّمه لك، ويُختصر بكلمة واحدة: الخوف.

فكلّ عنف يحدث هنا هو وليد الخوف. إنّ عقيدتنا محاصرة من كل صوب، من قرامطة البحرين، ومن إماميّة «قُم» الذين يترقّبون ساعة الثأر، ومن الطوائف الثنتين والسبعين، ومن الروم في القسطنطينية، ومن الكَفَرَة من جميع الأصناف، ولا سيما إسماعيلية مصر الذين يحتشد مريدوهم حتى في قلب بغداد، وهنا في سمرقند. ولا تنسَ أبداً ما هي مدننا الإسلامية، مكّة والمدينة وأصفهان وبغداد ودمشق وبُخارى ومَروْ والقاهرة وسمرقند: إنها ليست سوى واحاتٍ يمكن أن تعيدها لحظة تَخَلٍّ إلى الصحراء، وهي على الدوام تحت رحمة ريح مُرْمِلة!

وقدّر القاضي من نافذة قائمة على يساره مسار الشمس بعين خبيرة فنهض قائلاً:

ـ حان الوقت لملاقاة مليكنا.

وصفّق آمراً:

ـ ليُحْمَلْ إلينا بعض الزاد للطريق!

إذ كان من عادته أن يتزوّد بالزبيب يقضمه في أثناء الطريق، وهي عادة درج المقرّبون إليه وزوّاره على محاكاتها. ومن هنا كانت صينية النحاس الواسعة التي حُملت إليه وعليها جُبَيْلٌ من هذه الحُبيْبات الشقراء الحلوة يغترف منها كل واحد ما يحشو به جيوبه.

وعندما وصل الدور إلى الطالب ذي النَدْبة تناول منها قبضة أعطاها إلى الخيّام مردّداً هذه الكلمات:

ـ كنت تفضّل ولا شك أن أقدّم إليك العنب خمراً.

ولم يكن قد رفع صوته كثيراً، غير أن الحاضرين صمتوا وكأنهم مسحورون حابسين أنفاسهم مصيخين بأسماعهم مترصّدين شفتيْ عمر الذي هتف:

ـ عندما يريد المرء أن يشرب فإنه يختار بعناية ساقِيَه ونديمه.

وارتفع صوت ذي النَدْبة قليلاً:

ـ لن أشرب من جهتي أقلّ قطرة، فأنا متمسّك بالحصول على موضع في الجنّة. ولا تبدو لي راغباً في الانضمام إليّ:

ـ الخلود بأسره بصحبة العلماء الوقورين؟ لا، شكراً، لقد وعدنا اللّه بغير ذلك.

وتوقف تبادُل الكلام عند هذا الحدّ، فقد حثّ عمر الخطى للانضمام إلى القاضي الذي كان يناديه.

ـ ينبغي أن يراك أهل المدينة راكباً إلى جانبي، فمن شأن هذا أن يزيل ما انطبع البارحة في النفوس.

وخُيِّل إلى عمر أنه رأى في الجمهور المحتشد بالقرب من مقرّ القاضي المرأة التي سرقت منه لوزاته، وقد اختبأت خلف شجرة كمثرى. وتمهّل وبحث عنها بعينيه. ولكنّ أبا طاهر استعجله بقوله:

ـ أسرع، فالويل لِعظامك إذا وصل الخان قبلنا.

4

ـ لقد تنبأ بهذا المنجّمون منذ بدء الدهور وما كذبوا: أربع مُدُن وُلدت تحت شعار التمرُّد، سمرقند ومكّة ودمشق وپالرمو! فما حدث قطّ أن خضعت لحكّامها إن لم يكن بالقوّة، ولا هي اتّبعت يوماً الصراط المستقيم إن لم يُرْسَمْ بحدّ السيف. فبالسيف حدَّ النبي من صلف المكّيين، وبالسيف سوف أحِدّ من صلف أهل سمرقند!

إن نصر خان صاحب طبرستان يشوّر وهو واقف أمام عرشه عملاقاً نحاسي البشرة رافلاً بالثياب المطرّزة؛ وإن صوته ليرتجف له خاصته وزوّاده، وإن عينيه لتبحثان في الحضور عن ضحية، عن شفة قد تجرؤ على الاهتزاز، عن نظرة لم تُحسن التعبير بما يكفي عن الندم، عن ذكرى خيانةٍ من الخيانات. بيد أن كل واحد ينزلق بالغريزة خلف جاره ويخفض عنقه وكتفيه، والجميع ينتظرون زوال العاصفة.

وإذ لم يعثر نصر خان لبراثنه على فريسة فقد قبض بكلتا يديه على أثوابه الفخمة وأخذ ينزعها واحداً واحداً ويقذف بها في حنق على الأرض ويدوسها بقدميه زاعقاً بفيض من الشتائم كانت ترنّ رنيناً بلهجته التركية المغولية الخاصة بأهل «كشغر». وقد كان

الملوك يلبسون في العادة واحداً فوق آخر ثلاثة أثواب مطرّزة أو أربعة، وربما سبعة في بعض الأحيان، وينزعونها خلال يومهم ويلقونها بجلال على ظهور من يُسْمِعونهم آيات التبجيل. وإذ فعل نصر خان ما فعل فقد أظهر نيّته في أن يُنْعِمَ ذلك اليوم على أي من زائريه الكُثُر.

ومع ذلك فقد كان ذلك اليوم يوم احتفال كما هي الحال في كل زيارة يقوم بها العاهل إلى سمرقند، ولكنّ الأفراح خمدت فيه منذ الدقائق الأولى. فما إن صعد الخان الدرب المبلّط المصعِّد من نهر «سياب» حتى دخل في مهابة من باب بُخارى القائم شمالي المدينة. وكان يبتسم بكلّ محيّاه، وبدت عيناه أكثر غَوْراً وأشد مَيْلاً منهما في أي وقت، وكانت وجنتاه تشعّان بانعكاسات الشمس العنبرية اللون. ثم تكدّر مزاجه بغتة. واقترب من الوجهاء المُلتقّين حول القاضي أبي طاهر، وقد ناهز عددهم المئتين، وسدّد إلى الجمع، وفيهم عمر الخيّام، نظرة محدّدة قلِقة، بل شبه مُرتابة. وإذ لم يرَ على ما يبدو من كان يبحث عنهم فقد جمّح مطيّته فجأة مُرخِياً عنانها بكل ما فيه من عزم وابتعد وهو يغمغم بكلمات غير مسموعة. ولم يبتسم، وهو متصلّب الجذع فوق فرسه الدهماء، ولا ردَّ أدنى ردٍّ على الهتافات المتكرّرة التي أطلقها آلاف من أهل المدينة تجمّعوا منذ الفجر لتحيّة مَقْدَمه؛ وكان بعضهم يلوّحون في الهواء بنصّ الْتِماسٍ كتبه لهم بعض الكتّاب العموميين. ولكن بلا جدوى. فلم يجرؤ أيّ منهم على تقديمه إلى العاهل، بل توجّهوا إلى حاجبه الذي كان ينحني مرّة بعد مرّة لجمع الأوراق وعلى شفتيه وَعْدٌ مُبْهَمٌ بالاتّصال بأصحابها.

واجتاز الخان يتقدّمه أربعة فرسان رافعين رايات الأسرة المالكة السمراء اللون يتبعهم على قدميه عبد عاري الجذع رافعاً مظلّة عريضة، اجتاز بلا توقّف الشوارع الكبيرة الرئيسية المحفوفة

بأشجار التُّوت المائلة، وتجنّب الأسواق العامّة، وحاذى أقنية الرَّيِّ الأساسية، ويدعونها «الأريك»، حتى وصل إلى حيّ «أسفِزار». وهناك كان قد أقام قصراً مؤقتاً على بُعْد خطوتين من منزل أبي طاهر. وقد كان الملوك يقيمون في الماضي داخل القلعة، غير أن معارك جرت حديثاً جعلتها في حالة من الدمار الشديد استوجبت هجرها. وكانت الحامية التركية هي وحدها التي تنصب فيها أحياناً خيامها المصنوعة من اللبد.

وإذ لاحظ عمر مزاج الملك الذي لا يوحي بالودّ فقد تردّد في زيارة القصر لتقديم آيات الولاء، غير أن القاضي أرغمه على ذلك مقدِّراً ولا ريب أن وجود صديقه الشهير قد يُضفي جوّاً ملائماً من الترويح عن النفس. وحرص أبو طاهر على أن يوضح للخيّام في أثناء الطريق ما كان قد حدث قبل قليل: لقد قرّر فقهاء المدينة وعلماؤها مقاطعة حفل الاستقبال لأنهم أخذوا على الخان إحراقه جامع بُخارى الكبير عن آخره بعد أن اختبأ فيه بعض المعارضين المسلَّحين.

قال القاضي:

ـ الحرب بين العاهل ورجال الدين لا تنقطع؛ وهي أحياناً مفتوحة دامية، وصمّاء غادرة في أكثر الأحيان.

بل يُروى أن العلماء ربما عقدوا صلات مع عدد من الضبّاط الذين أسخطهم سلوك الأمير. ويقال إن أسلافه كانوا يتناولون الطعام مع الجند. ولم يكن يفوتهم قطّ التذكير بأن سلطانهم إنما يقوم على بسالة المحاربين من شعبهم. بيد أن الخانات الأتراك أخذوا يكتسبون جيلاً بعد جيل عادات ملوك الفرس البغيضة، فتوهّموا أنهم أنصاف آلهة، وأحاطوا أنفسهم بأبّهة أخذت تزداد تعقيداً واستغلاقاً، بل ومهانة في عيون ضبّاطهم. وعليه فقد دخل عدد من هؤلاء في محادثات مع الزعماء الدينيين، ولم يكونوا

يُخفون سرورهم لسماعهم إيّاهم يكيلون صنوف التحقير والإهانة لـ «نصر» ويتّهمونه بالانحراف عن سبيل الإسلام. ولكي يلقي الملك الرعب في قلوب العسكر فقد كان يتّخذ أقصى الصرامة مع العلماء. أفلم يدشّن أبوه عهده ـ وقد كان مع ذلك تقيّاً ورعاً ـ بقطع رأس من الرؤوس الكبيرة العمائم؟

وأبو طاهر هو، في عام 1072 هذا، أحد الوجهاء الدينيين النادرين الذين احتفظوا بصلة وثيقة بالأمير، فغالباً ما يزوره في قلعة بُخارى، مقرّه الرئيسي، ويتلقّاه بالترحاب في كل مرّة يتوقّف فيها في سمرقند. وينظر العلماء شزراً إلى تصرّفه الوقائي، ولكنّ معظمهم يقدّرون وجود هذا الوسيط بينهم وبين العاهل.

ولسوف يقوم القاضي مرّة جديدة بدور الموفّق بمهارة، مُتجنِّباً معارضة «نصر»، مُستغِلًا أدنى انفراج في مزاجه لجرّه إلى مشاعر أفضل. وها هوذا ينتظر، ويدع اللحظات العسيرة تمرّ، وما إن يتّخذ المليك مكانه فوق العرش ويراه وقد استندت كُليتاه جيداً إلى طنفسة وثيرة حتى يسارع إلى استعادة زمام مبادرة ذكيّة وخفيّة يراقبها عُمَر وهو يتنفّس الصعداء. واستدعى الحاجب بإشارة من القاضي جارية شابة أخذت تجمع الأثواب المهملة فوق الأرض وكأنها جثث بعد معركة. وما هي إلا لحظات حتى غدا الهواء أقل عسراً على التنفّس، وأخذت أعضاء القوم تسترخي بشكل غير ملحوظ. وشرع بعضهم يهمسون ببضع كلمات في أقرب أُذُن إليهم.

وعندئذ تقدّم القاضي نحو المكان الذي أُخلي وسط القاعة ووقف قُبالة الملك وطأطأ رأسه من غير أن ينبس بكلمة. حتى إذا انقضت دقيقة صمت طويلة، وخلص «نصر» إلى الهتاف بنشاط مشوب بالكلال: «اذهب وقل لجميع علماء هذه المدينة أن يحضروا منذ الفجر للسجود عند قدميّ؛ وسوف يُقطع الرأس الذي

لا ينحني؛ ولا يحاولن أحد الهرب لأنه ما من أرض بمنجاة من غضبي»، فَهِم الجميع أن العاصفة قد مرّت، وأن حلاًّ قد لاح، وأنه يكفي أن يغيّر رجال الدين ما بأنفسهم كي يعدل العاهل عن الاقتصاص.

وهكذا فإنه ما كان عُمَر ليتعرّف على الجوّ عندما رافق القاضي من جديد إلى البلاط في اليوم التالي. كان «نصر» جالساً على العرش، وهو نوع من سريرٍ ـ ديوانٍ مرتفع مفروش بسجّادة داكنة، ويقربه عبد يحمل صحفة فيها وريقات ورد معقودة بالسكّر. وقد اختار الملك منها واحدة وضعها فوق لسانه وتركها تذوب عند أعلى حنكه قبل أن يمدّ يده بفتور إلى عبد آخر رشّ له أصابعه بماء معطّر وجفّفها بعناية فائقة. وتكرّر الاحتفال عشرين مرّة، بل ثلاثين، فيما كانت الوفود تمرّ من أمامه، وكانت تمثّل أحياء المدينة، ولا سيّما أسفزار وپانجخين وزَغْرِيماش، وماتْريد، ونقابات الأسواق ونقابات الحرف، من نحّاسين وورّاقين ومربّي دود الحرير والسقّائين، وتمثّل كذلك أهل الذمّة من يهود وصابئة ونساطرة.

وأخذ الجميع يقبّلون الأرض ثم ينهضون ويُحَيُّون من جديد بانحناءة طويلة إلى أن يشير العاهل عليهم بالاعتدال. وعندها كان الناطق بلسانهم يتلفّظ ببضع عبارات ثم ينسحبون جميعاً راجعين القهقرى؛ فالحقّ أنه محظور إدارة الظهر للملك قبل مغادرة القاعة. وإنها لعادة غريبة. فهل أدخلها عاهل شديد التمسّك بأن يُحترَم؟ أم زائر شديد الحذر؟

وحضر بعد ذلك العلماء الأفاضل الذين انْتُظر مقدمهم بفضول، وبتوجّس أيضاً. وكانوا يزيدون على العشرين. ولم يُكابد أبو طاهر أية مشقّة في إقناعهم بالمجيء. فمنذ أن أبدوا عداوتهم بشكل بالغ غدا الإصرار على البقاء في هذا الاتّجاه بحثاً عن الشهادة، الأمر الذي لا يرغب فيه أيّ منهم.

وها هم أولاء إذن يَمْثُلون أمام العرش وينحنون قدر ما يمكنهم الانحناء، كلّ حسب عمره ومَفاصِله، بانتظار إشارة من الأمير للاعتدال. ولكن الإشارة لا تأتي. وتمرّ عشر دقائق. ثم عشرون. ولا يستطيع حتى أصغرهم سنّاً البقاء إلى ما لا نهاية في وضع غير مريح كهذا الوضع. ومع ذلك فما العمل؟ إن الاعتدال من غير ترخيص معناه التعرّض لانتقام العاهل. وأخذوا يتساقطون على رُكَبِهم واحداً بعد آخر في وضع أكثر إجلالاً وأقلّ إنهاكاً. ولم يُشِر الملك إليهم بالنهوض والانسحاب من غير كلام إلا بعدما لامست الأرضَ آخرُ رُكبة. ولم يُبْدِ أحد استغرابه من سير الأحداث على هذا النحو، فهذا هو الثمن الواجب دفعه، وهو من طبيعة أمور المملكة.

ثم دنا ضباط أتراك، وجماعات من الأعيان، وبعض الدهاقين من نبلاء القرى المجاورة، فقبّلوا قدم العاهل ويده وكتفه بالترتيب الذي يقتضيه مقام كلّ منهم. ثم تقدّم أحد الشعراء وشرع في إنشاد قصيدة مدحية طنّانة ما لبث الملك أن أبدى بجلاء ضيقه بها فقاطعه بإشارة من يده وأومأ إلى حاجبه أن ينحني وأصدر إليه الأمر الذي عليه تبليغه:

ـ إن مولانا يُعْلِم الشعراء الحاضرين بأنه قد ضاق ذرعاً بسماع الموضوعات المكرورة على الدوام، وأنه لا يريد أن يُقارَن بالأسد ولا بالنسر، ولا حتى بالشمس. فمن كان لا يملك غير هذا فَلْيَرْحَلْ.

5

تبع أقوالَ الحاجب همساتٌ وهمهمات، وساد الصخب صفوف الشعراء العشرين الذين كانوا ينتظرون أدوارهم، وخطا بعضهم خطوتين إلى الوراء قبل أن ينسلّوا خفية. امرأة فقط خرجت من الصف وتقدّمت بخطى ثابتة. وإذ قرأ القاضي تساؤل عُمَر المرتسم في عينيه فقد همس قائلاً:

– شاعرة من بُخارى تدعو نفسها «جهان». جهان كالعالم الواسع. إنها أرملة شابّة مشبوبة العواطف والصبابات.

كانت النبرة مقنعة، ولكنّها ما كانت إلا لتزيد فضول عُمَر اتّقاداً فلا تَحُول نظراتُه. وكانت «جهان» قد رفعت أسفل نقابها كاشفة عن شفتين غير مصبوغتين؛ وأخذت تُنْشِد قصيدة طليّة النسج لم يذكر فيها مرة واحدة – ويا للغرابة! – اسم الخان. لا، لقد مُدح فيها تلميحاً نهر الصُغد الذي يُغدق خيراته على سمرقند كما على بُخارى، ثم يتوارى في الصحراء لأنه ما من بحر خليق بتلقّي مياهه.

قال «نصر» مردّداً الصيغة المعتادة:

– لقد أحسنتِ القول، فليمتلىء فمكِ ذهباً.

وأكبّت الشاعرة فوق صينية واسعة مملوءة بالدنانير الذهبية،

وأخذت تُدْخِل القطع في فمها واحدة بعد أخرى، في حين كان الحضور يُحْصُون عددها بصوت مرتفع. وإذ كبتت «جهان» فُواقاً كاد يخنقها فقد انطلق البلاط برمّته، وعلى رأسه الملك، في قهقهة طويلة. وأومأ الحاجب إلى الشاعرة أن تعود إلى مجلسها؛ وأُحصي ستة وأربعون ديناراً.

الخيّام وحده لم يضحك. فقد شرع يبحث وهو يحدّق فيها عن الشعور الذي يعتريه حيالها؛ إن شِعرها رائق وبلاغتها جليلة ومشيتها جريئة، ومع ذلك فها هي مكتظّة بالمعدن المُصفَرّ وقد انصرفت بكلّيتها إلى هذه المكافأة المخزية. وقبل أن تُسدل نقابها زادت من رَفْعِه مطلقة سراح نظرة لم يلبث عُمَر أن جناها وامتصّ رحيقها وودّ لو يكبتها. وإنها للحظةٌ لم يستبنْها الجمهور وكانت دهراً في عين العاشق. وقال الخيّام في سرّه إن للزمن لوجهين، إن له لبُعْدَيْن، فطوله بمعدّل الشمس، وارتفاعه بمعدّل الأهواء والشهوات.

وأما هذه اللحظة المباركة من دون سائر اللحظات فقد قطعها القاضي بتربيتة على ذراع الخيّام الذي التفت. ولكن بعد فوات الأوان... لقد ذهبت المرأة ولم يعُد يبدو منها غير أثواب مُهَفْهَفَة.

إن أبا طاهر يرغب في تقديم صديقه إلى الخان، وها هوذا يُدبّج الكلام لذلك:

إن سقفك الجليل يُظِلُّ اليوم أعظم عالِم في خراسان، عمر الخيّام الذي لا النباتات تحجب عنه مكنوناتها، ولا النجوم تكتم عنه أسرارها.

وليس من باب الصدفة أن يميّز القاضي من بين العلوم الكثيرة التي يُجلّي فيها عُمَر الطبَّ والفَلَكَ، فقد طالما استحوذا على اهتمام الأمراء، الأوّل لكدّهم في الحفاظ على صحتهم وحياتهم، والثاني لرغبتهم في الحفاظ على يُمن طالعهم.

وأبدى الأمير اغتباطه وأعلن عن تشرُّفه. بيد أنه إذ لم يكن راغباً في محادثة علمية، وبدا أنه كان مخطئاً في الحكم على قصد الزائر، فقد رأى من المفيد أن يردّد عبارته الأثيرة:

– ليمتلىء فَمُه ذهباً!

حار عُمَر في أمره وكبت شعوره بالغثيان. ولاحظ أبو طاهر ذلك وقَلِقَ له. وإذ خشي رفضاً يجرح شعور الملك فقد حدج صديقه بنظرة صارمة مِلحاح ودفعه من كتفه. بلا جدوى. فلقد قرّ قرار الخيّام.

– ليتكرّم جلالته ويَعْذُرْني فأنا صائم ولا أستطيع أن أضع شيئاً في فمي.

– مع أن شهر الصوم انتهى منذ ثلاثة أسابيع إن لم أكن مخطئاً!

– كنت في زمن الصوم مسافراً من نيسابور إلى سمرقند، وتوجب عليّ الإفطار ناذراً أن أستدرك فيما بعد ما ضاع من أيام الصوم.

خاف القاضي وهاج الحضور وغام وجه العاهل واختار أن يسائل أبا طاهر:

– هل في استطاعتك، أنت يا من يعرف دقائق الشريعة، أن تقول لي إن كان «الخوجة» عُمَر يُفْسِد صيامه إذا أدخل قطع الذهب في فمه ثم بادر إلى سحبها؟

واتّخذ القاضي أشدّ النبرات تجرُّداً وقال:

– كل ما دخل بطريق الفم يمكن أن يؤلّف بحصر المعنى، إفساداً للصيام. وقد يحدث أن يبتلع خطأً إحدى القطع.

تقبّل «نصر» الحجّة وإن لم يرضَ بها، وسأل عُمَر:

– هل قدّمت لي السبب الحقيقي لرفضك؟

وتردّد الخيّام برهة ثم قال:

– إنه ليس السبب الوحيد.

قال الخان:

– تكلّم، فما عليك أن تخشى مني شيئاً.

عندها أنشد عُمَر هذه الأبيات:

«أيكون الفقر هو الذي قادني إليك؟

«ليس من فقير إذا عرف أن يُبقي رغباته بسيطة،

«أنا لا أنتظر منك إلا إكرامي،

«إذا كنت تُحْسِنُ إكرام إنسانٍ مستقيم وحرّ»

وغمغم أبو طاهر بينه وبين نفسه: «سوّد اللّه أيامك يا خيّام!».

لم يكن يعني كلمة ممّا قال، بيد أن خوفه كان حقيقياً. إنه ما يزال يحتفظ في مسمعيه برجْع غضب لم يطُل به العهد، وليس على ثقة بأن في وسعه، هذه المرّة أيضاً، أن يروِّض الوحش. وظلّ الخان صامتاً، بلا حراك، وكأنّه مشدود إلى قرار لا يُسْبَر غوره؛ وكان خلصاؤه ينتظرون أن تكون كلمته الأولى قراراً فَصْلاً، وآثر بعض رجال الحاشية الخروج قبل هبوب العاصفة.

واستغلّ عُمَر الهَرْج العام ليبحث بعينه عن «جهان»؛ كانت مستندة إلى أحد الأعمدة وقد سترت وجهها بيديها. أيكون ارتجافها هي أيضاً من أجله؟

نهض الخان أخيراً، وسار بخطى ثابتة نحو عُمَر فعانقه بقوّة وأخذ بيده ومضى به. ونقل الإخباريون أنه:

«كان من تقدير صاحب طبرستان لعُمَر الخيّام أن دعاه للجلوس بقربه على العرش».

ما إن غادرا القصر حتى هتف أبو طاهر لعُمَر:

– ها أنت ذا صديق الخان!

كان فرحه يعادل القلق الذي جفَّف حلقه، بيد أن الخيّام أجاب ببرودة:

ـ أتكون قد نسيت القول المأثور:

«ليس للبحر قطّ من جيران، ولا للأمير قطّ من أصدقاء؟».

ـ لا تستهِنْ بالباب الذي انفتح، فإنه يبدو لي أن مجرى حياتك قد رُسم في البلاط!

ـ وما كانت حياة القصور لتكون لي؛ إنّ حلمي الوحيد، طموحي الوحيد، هو أن يكون لي يوماً مرصد وحديقة ورود، وأن أتملّى السماء وفي يدي كأس وإلى جانبي حسناء.

وضحك أبو طاهر:

ـ حسناء كهذه الشاعرة؟

لم يكن في خَلَد عُمَر غيرُها، ولكنه صمت. فلقد خشي أن تفضح سرَّه أقلُّ كلمة. وإذ شعر القاضي بأنه تصرّف بشيء من الخفة فقد بدّل من نبرته وغيّر الموضوع قائلاً:

ـ أسألك إسداء صنيع!

ـ أنت من يُغدق عليّ صنائعه.

وسارع أبو طاهر إلى الموافقة وقال:

ـ لِيَكُنْ! وَلْنَقُلْ إني أرغب بالمقابل في شيء.

ها هما ذانِ أمام بوّابة منزله؛ ودعاه لإكمال حديثهما حول مائدة حافلة.

ـ لقد فكّرت لك بمشروع، مشروع كتاب. لِنَنْسَ لحظةً «رباعيات»ك. ففي نظري أنها ليست سوى نزوات عبقرية لا سبيل إلى دفعها. فالحقول الحقيقية التي تُبدع فيها هي الطبّ والفلك والرياضيات والفيزيقا والميتافيزيقا. أأكون مخطئاً إذا قلت إنه ما من أحد يعرفها منذ وفاة ابن سينا خيراً منك؟

لم ينبس الخيّام بكلمة. وتابع أبو طاهر:

ـ في مجالات المعرفة هذه أتوقّع منك الكتاب الذي ما بعده من كتاب، وهذا الكتاب هو الذي أريد أن تصنّفه هديّة لي.

ـ لا أظن أن هناك كتاباً ما بعده من كتاب في هذه المجالات، وهذا ما حملني على الاكتفاء حتى الآن بالمطالعة، بالتعلّم، من غير أن أكتب شيئاً.

ـ أوْضِحْ!

ـ لننظرْ إلى القدماء، إلى الإغريق والهنود والمسلمين الذين تقدّموني. لقد استفاضوا في جميع هذه العلوم. وإذا أنا كرّرت ما قالوه كان عملي من النوافل؛ وإذا عارضتهم كما تُحَدِّثني نفسي على الدوام أن أفعل جاء بعدي من يعارضني. فما الذي يبقى بعدُ من أعمال العلماء؟ يبقى فقط السوء الذي نالوا به مَنْ تقدّمهم. ويذكر ما هدموه من نظريات الآخرين. بيد أن ما كدّسوه هم سوف يُهْدَم لا محالة، بل سوف يهزأ به من يأتون بعدهم. ذلكم هو قانون العلم؛ وأما الشعر فإنه لا يعرف مثل هذا القانون. إنه لا يُنْكِر قطُّ ما سبقه، ولا أُنْكَر قطُّ ما تبعه، وهو يجتاز العصورَ في دعة تامّة. ولهذا أكتب «رباعيات»ي. أتدري ما يُدهشني في العلوم؟ أنني أجد فيها أسمى الشعر: في الرياضيات نشوة الأعداد؛ وفي الفلك همسة الكون الغامضة. وأما الحقيقةُ فالرحمة الرحمةَ من الحديث عنها!

صمت هنيهة، ولكنه ما لبث أن استأنف:

ـ حدث أن طُفْتُ بضواحي سمرقند وشاهدت أطلالاً بها كتابات لا يعرف أحد حلَّ رموزها، وتساءلت: ماذا بقي من المدينة التي كانت قائمة قديماً هنا؟ لِنَدَعِ الناس فهم أسرع الكائنات زوالاً، ولكنْ ما الذي يبقى من حضارتهم؟ أيّة مملكة دامت، أيّ قانون، أيّة حقيقة؟ لا شيء. لقد جهدتُ في التنقيب في تلك الأطلال فما استطعت أن أكتشف غير وجه محفور فوق كسرة من إناء خزفيّ، وغير جزء من رسم على جدار. تلكم ستكون قصائدي المسكينة بعد ألف عام، كسراتٍ في آنية خزفية،

أشلاء أشلاءً، حُطامَ عالمٍ دُفن إلى الأبد. إن ما يبقى من مدينةٍ هو النظرة المنفصلة التي كان قد ألقاها عليها شاعرٌ نصفُ سكران.

تمتم أبو طاهر شبه فاقد الرشد:

ـ أُدْرِكُ ما تقول، ومع هذا فليس في نيّتك أن تُهْدِيَ إلى قاضٍ شافعيّ قصائد تفوح برائحة الخمر!

والحقّ أن عُمَر سوف يعرف كيف يبدو رَضِيّاً مُفعَماً بالعِرفان، وسوف يمزج خمرته بالماء، إن جاز القول. وها هوذا يشرع في الأشهر التالية في كتابة مصنَّف خاصّ بالمعادلات التكعيبية. ولكي يرمز الخيّام إلى العدد المجهول في كتاب الجبر هذا فقد استخدم الكلمة العربية «شيّ» ـ شيء ـ التي رُسمت في الكتب العلمية الإسبانية «Xay» وما لبثت أن استُبدلت بالتدريج بالحرف الأول منها «x» الذي أصبح رمزاً عالمياً للعدد المجهول.

وإذ أنهى الخيّام الكتاب في سمرقند فقد أهداه إلى راعيه: «إننا ضحية عصر أفل فيه نجم العلماء، وقليل منهم مَنْ استطاعوا الانصراف إلى البحث الحقيقي... والمعرفةُ الضئيلةُ التي يملكها العلماء اليوم يُخَصِّصونها لغايات دنيوية... وعليه فإنني كنت قد يئست من وجود رجل في هذا العالم يجمع بين الاهتمام بالعلم وبأمور الدنيا ويكون صادقاً في الانشغال بمصير البشر، إلى أن مَنَّ اللّه عليّ بلقاء قاضي القضاة الإمام أبي طاهر الذي أتاحت لي أياديه البيضاء الانصراف إلى هذه الأعمال».

عندما رجع الخيّام في تلك الليلة إلى المنظرة التي كانت قد أصبحت منزله مذّاك، كان قد أغفل أن يحمل معه مصباحاً قائلاً لنفسه إن الوقت قد تأخر لكي يقرأ أو يكتب. مع أن طريقه لم يكن يضيئه القمر الذي كان هلالاً هزيلاً في نهاية ذلك الشهر من شوّال. وما إن ابتعد عن دارة القاضي حتى أخذ يتلمّس طريقه

على مهل عاثراً غير مرّة، متشبّثاً بالآجام، متلقياً بوجهه دغدغة خشنة من صفصافة باكية.

وما كاد يبلغ غرفته حتى سمع صوتاً رفيق العتاب:

ـ انتظرتُ أن تأتي قبل الآن.

أيكون قد توهّم سماع صوت هذه المرأة لفرط ما فكّر فيها؟ وأخذ يبحث بعينيه عن طيفٍ، وقد انتصب واقفاً أمام الباب الذي كان قد أغلقه على مهل. بلا جدوى. فالصوت وحده يترامى إليه من جديد مسموعاً ولكنْ مختلِطاً.

ـ تلزم الصمت، وترفض أن تصدّق أن تكون امرأة قد جرؤت على انتهاك غرفتك. لقد تلاقت نظراتنا في القصر وعَبَرَتها ومضة، غير أن الخان كان هناك، والقاضي، وسائر الحاشية، وكان أن تهرَّبتْ نظرتك. واخترت، مثل كثير من الرجال، ألّا تتوقّف. فما الجدوى من تحدّي القدر، ما الجدوى من أن تجرّ على نفسك غضب الأمير لمجرّد امرأة، أرملة لن تحمل إليك من بائنة سوى لسان سليط وسُمعة مُريبة.

وشعر عُمر أنه مقيّد بقوة خفيّة، فلا هو قادر على التحرّك، ولا شفتاه قادرتان على الانفراج.

وعلقت «جهان» ساخرةً وإن كانت قد رقّت:

ـ لا تقولُ شيئاً. ليكنْ، سوف أستمرّ في الحديث وحدي، وعلى أيّ حال فأنا التي بادرت إلى كل شيء حتى الآن. عندما غادرتَ البلاط طرحت بعض الأسئلة عنك وعرفت أين تسكن، وأَشَعْتُ أنني ذاهبة للمبيت عند قريبة متزوجة من تاجر سمرقنديّ ثريّ. فأنا، حين أتنقّل في العادة مع الحاشية، أحصل على مضجع مع نساء الحريم، فلي فيه صديقات يستسغن صحبتي ويتلهّفن لسماع ما أحمل إليهن من حكايات، ولا يَرَيْنَ فيَّ منافسة لهنّ ويعلمْنَ أني لا أطمح إلى أن أصبح امرأة الخان. لقد كان

باستطاعتي إغواؤه، بيد أني كثيراً ما عاشرت زوجات الملوك فيغريني مثل هذا المصير. والحياة في نظري أهمّ بكثير من الرجال! ومن جهة أخرى فإن العاهل يرغب جداً في ظهوري في ديوانه بأشعاري وضحكاتي ما دمتُ امرأةَ رجلٍ آخر أو لستُ امرأة أحد. ولو فكّر لحظة في الزواج بي لبدأ بحبسي.

وإذ خرج عُمر بمشقّة من ذهوله فإنه لم يَفْقَهْ شيئاً من أقوال «جهان». وما إن عزم على التفوّه بكلماته الأولى حتى كان يتوجّه إلى ذاته، أو إلى طيفٍ، أكثر ممّا إليها هي:

ـ ما أكثر ما التقيت، مراهقاً وبعد المراهقة، نظرة أو ابتسامة. وكنت في الليل أحلم أن هذه النظرة كانت تتحوّل إلى حضور، تتحوّل إلى لحم، إلى امرأة، إلى انبهار في الظلام. وفجأة ها أنتِ ذي في ظلمة هذا الليل، في هذا الجناح السكني الوهمي، في هذه المدينة الوهمية، امرأة جميلة، وفوق هذا شاعرة ومبذولة.

ضحكت وقالت:

ـ مبذولة، وما أدراك؟ إنك لم تلامسني، لم ترني، ولن تراني ولا شك لأني سأذهب قبل أن تطردني الشمس.

وساد في الظلمة السادرة في كثافتها حفيف حريريّ غير منتظم، وفاح عطر. وأمسك عُمر أنفاسه وتيقّظت بشرته؛ ولم يستطع كبح نفسه عن السؤال بسذاجة تلميذ:

ـ أما زلت تحتفظين بنقابك؟

ـ لا أملك من نقاب غير الليل.

6

امرأة، رجل، لقد تخيّلهما رسّام غُفْل في وضع جانبي ممدَّديْن متعانقيْن؛ ولقد محا جدران الجناح ليَنْصِبَ لهما سريراً من العشب تحفّ به الورود، وأجرى عند أقدامهما ساقية مُفضَّضة. وأعار «جهان» ثَدْيَيْ إلّهة هندية رشيقين، وها هوذا عُمَر يداعب شعرها وفي يده الأخرى كأس.

إنهما يلتقيان كل يوم في القصر ويتجنّب كل منهما النظر إلى الآخر خشية أن تفضحهما عيونهما. والخيّام يسرع كل يوم إلى جناحه لانتظار محبوبته. فكم ليلةً أتاح لهما القَدَر يا تُرى؟ كل شيء رهن بالمِلك. فعندما ينتقل تتبعه «جهان». وهو لا يُعلن سلفاً عن شيء. فلسوف يقفز ذات صباح إلى صهوة أحد جياد القتال، ويمضي، بدويّاً ابن بدويّ، في طريق بُخارى أو كش أو بنجكنت، وتستميت الحاشية في اللحاق به. وإن عُمَر و«جهان» ليخشيان هذه اللحظة، فكل قُبلة تجرّ طعم الوداع، وكل عناق هروب لاهث.

وفي ليلة من ليالٍ أخرى مماثلة، بيد أنها إحدى أثقل ليالي الصيف، خرج الخيّام يراوغ صبره على سُطيحة المقصورة؛ وسمع قريباً جداً منه على ما خُيِّل إليه ضحكات حرّاس القاضي فقلِق

على غير طائل لأن «جهان» وصلت وطمأنته، فما من أحد لاحظها. وتبادلا قُبلة أولى خاطفة تبعتها أخرى مُلحّة. إنها طريقتهما في إنهاء يوم الآخرين وبدء ليلتهما.

– كم من عاشق وعاشقة تلاقيا في ظنّك مثلنا في هذه المدينة وفي هذه اللحظة؟

إنها «جهان» التي تهمس في خبث. وسوّى عُمَر بوقار وضع القلنسوة التي يعتمرها في المساء ونفخ وجنتيه وصوته وقال:

– لنَرَ الأمر عن كثب: إذا نحن استبعدنا الزوجات المتضجّرات، والإماء اللواتي يخضعن، وبنات الشوارع اللاتي يبعن أنفسهن أو يؤجّرنها، والعذارى المتنهّدات، فكم يبقى من النساء، كم من العاشقات سيلاقين الليلة الرجل الذي اخترنه؟ وبالمقارنة فكم رجلاً سوف ينام بقرب امرأة يحبّها، وعلى الأخص بقربِ امرأة تبذل له نفسها لسبب غير عجزها عن أن تفعل غير ذلك؟ ومن يدري فقد لا يكون هناك الليلة في سمرقند سوى عشيقة واحدة، سوى عشيق واحد. ستقولين، ولماذا أنا، ولماذا أنت؟ لأن اللّه جعلنا عاشقيْن كما جعل بعض الأزهار سامّة.

وضحك، وأرخت العنان لدموعها.

– لندخلْ ونقفلِ الباب، فقد يسمع أحد صوت هنائنا.

بعد عدد من المداعبات اعتدلت «جهان» وسترت نفسها بعض الستر وأزاحت عشيقها برفق.

– يجب أن أطلعك على سرّ باحت لي به كبيرة نساء الخان. أتعرف لماذا هو في سمرقند؟

استوقفها عُمَر وقد ظنّ أنه يسمع هذراً ممّا يدور في أروقة الحريم:

– لا تهمّني أسرار الأمراء، إنها نُحرق الآذان التي تتلقّفها.

– بل أصْغِ إليّ، فهذا السرّ يخصّنا أيضاً لأنه يمكن أن يقلب حياتنا. لقد حضر «نصر خان» للاطمئنان إلى التحصينات. فهو يتوقّع في نهاية الصيف، وما إن ينقضي القيظ، هجوماً من الجيش السلجوقي.

السلجوقيون، إن الخيّام يعرفهم، فهم يعشّشون في ذكريات طفولته الأولى. لقد هاجموا ـ قبل أن يصبحوا أسياد آسيا المُسْلِمَة بزمن طويل ـ المدينة التي وُلد فيها تاركين لعدّة أجيال ذكرى «هَلَع» عارم.

حدث ذلك قبل مولده بعشر سنوات. فقد استيقظ أهل نيسابور ذات صباح فوجدوا مدينتهم يحاصرها بإحكام محاربون أتراك على رأسهم «طغرل بك»، «الصقر»، و«جغري بك»، «البازي»، ابنا ميكائيل بن سلجوق اللذان كانا حينئذٍ زعيمين نكرتين لعشيرة من البدو دخلت حديثاً في الإسلام. ووصلت إلى وجهاء المدينة رسالة تقول: «يُقال إن رجالكم متعجرفون، وأن الماء القراح يجري إلى بيوتكم في أقنية تحت الأرض. فإن حاولتم مقاومتنا لم تلبث أقنيتكم أن تبرز فوق وجه الأرض، ورجالكم أن يصبحوا تحتها».

جعجعات كثيراً ما تدور في أوقات الحصار. ومع ذلك فقد بادر وجهاء نيسابور إلى الاستسلام لقاء وعد بالمحافظة على حياة السكّان والإبقاء على أرزاقهم ومنازلهم وبساتينهم وأقنيتهم. ولكنْ ما قيمة وعود المنتصر؟ فما إن دخل الجند المدينة حتى رغب «جغري» في إطلاق رجاله في الشوارع والأسواق، وعارض «طغرل» ذلك مذكّراً بأن الوقت شهر رمضان، وأنه من غير الممكن نهب مدينة إسلامية في زمن الصوم. ونفعت الحُجّة، بيد أن «جغري» لم يستسلم، بل قبل بالانتظار إلى أن تنقشع الرحمة عن الناس.

وإذ علم سكان المدينة بالصراع القائم بين الأخوين وأدركوا أنهم سيكونون منذ مطلع الشهر القادم عرضة للنهب والهتك والفتك فقد دبَّ في قلوبهم «هلع» عارم. فشرٌّ من الهتك هو الهتك المُعْلَن عنه، الانتظار السلبي، المخزي، انتظار الوحش الذي لا مناص منه. وخلت المتاجر والدكاكين، واختبأ الرجال، وكانت نساؤهم وبناتهم يرينهم وهم يبكون عجزهم. ما العمل، كيف الهرب، ومن أي طريق؟ لقد كان المحتلّ في كل مكان، وكان جنوده ذوو الشعور المضفورة يطوفون بسوق الساحة الكبرى وفي الأحياء والأطراف وبجوار الباب «المحروق»، سكارى على الدوام بانتظار جِزية تُدْفع أو رزق يُنْهَب، وكانت جحافلهم تعيث فساداً في الأرياف المجاورة.

ألا يتمنَّى الناس في العادة انقضاء الصيام وقدوم يوم العيد؟ وأمّا في هذه السنة فقد تمنّوا أن يمتدّ الصوم إلى ما لا نهاية وألا يجيء عيد الفطر أبداً. وعندما لوحظ هلال الشهر الجديد لم يفكّر أحد في الأفراح، ولا فكّر أحد في ذبح حَمَل، وساد المدينة بأسرها شعور بأنها حَمَلٌ ضخم سُمِّن للتضحية.

وأمّا الليلة التي تسبق العيد، ليلة الوقفة التي تُستجاب فيها الأماني والنذور، فقد قضتها عدّة عائلات في المساجد ومزارات الأولياء فكانت ملاذاتٍ هشّة، وكانت ليلة احتضار ودموع وصلوات وأدعية.

وفي تلك الأثناء كانت تدور في القلعة مشادّة بين الأخوين السلجوقيين، وكان «جغري» يصيح قائلاً إن رجاله لم يقبضوا رواتبهم منذ عدة أشهر، وأنهم ما قبلوا القتال إلا لأنهم حصلوا على وعد بإطلاق أيديهم في هذه المدينة الموسرة، وأنهم على شفير الثورة، وأنه ليس في وسعه هو «جغري» لجمهم أطول ممّا فعل.

وكان «طغرل» يقول كلاماً مختلفاً:

ـ لسنا إلا في بداية فتوحنا، وهناك عدد من المدن تنتظر استيلاءنا عليها، أصفهان وشيراز والرَّي وتبريز وكثير غيرها أبعد منها! وإذا نحن نهبنا نيسابور بعد استسلامها، وبعد كل ما بذلناه من وعود لها، فإنه ما من باب سينفتح في وجهنا، ولا من حامية ستضعف أمامنا.

ـ وجميع هذه المدن التي تحلم بها، كيف نستطيع غزوها إذا نحن فقدنا جيشنا، إذا تخلّى عنّا رجالنا؟ ها إنّ أخلصهم بدأوا يتذمّرون ويهدّدون.

كان يحيط بالأخوين معاونوهما وشيوخ العشيرة، وقد أمّنوا جميعاً بصوت واحد على كلام «جغري». فتشجع هذا ونهض مستخلصاً:

ـ لقد طال حديثنا، وسوف أقول لرجالي أن يتصرّفوا بالمدينة. وإذا كنت تريد منع رجالك فافعل، فلكلّ واحد عسكره.

ولم يجب «طغرل» ولا تحرّك، وظل فريسة صراع داخليّ شاقّ. وفجأة قفز بعيداً عن الجمع وانتضى خنجراً.

واستلّ «جغري» بدوره واحداً. ولم يكن أحد يدري ما إذا كان ينبغي التدخّل، أم ترك الأخوين يصفّيان خلافهما كالعادة بالدم، عندما هتف «طغرل» قائلاً:

ـ لا أقدر يا أخي أن أرغمك على طاعتي، ولا في وسعي ردع رجالك. لكنّك إن أطلقتهم في المدينة غرستُ هذا الخنجر في قلبي.

وسدّد وهو يقول ذلك نصل الخنجر الذي كان يمسك به بكلتا يديه نحو صدره. وتردّد الأخ قليلاً ثم تقدّم إليه فاتحاً ذراعيه وعانقه طويلاً واعداً إياه بعدم مخالفة إرادته. ونجت نيسابور، بيد أنها لن تنسى قطّ «هلع» رمضان العارم.

7

علّق الخيّام قائلاً:

ـ أولئك هم السلاجقة، نهّابون أمّيون، وملوك مستنيرون، وهم أهل للدناءات ولأسمى الأعمال. وكانت جبلّة «طغرل» بك على الأخص جبلّة أحد بُناة الإمبراطوريات. لقد كنت في الثالثة من عمري عندما استولى على أصفهان، وفي العاشرة عندما غزا بغداد فارضاً نفسه حامياً للخليفة، حائزاً منه لقب «سلطان المشرق والمغرب»، بل متزوّجاً، وهو في السبعين، بنت أمير المؤمنين بالذات.

وإذ قال عُمَر ذلك فقد بدا معجباً، وربما مُحتفِياً بعض الشيء، غير أن «جهان» أطلقت ضحكة وقحة جداً. ونظر إليها شزراً وقد شعر بالمهانة من غير أن يُدرك سبب ذلك الضحك المفاجىء؛ واعتذرت موضحة:

ـ عندما تحدّثت عن هذا الزواج تذكّرت ما رُوي لي في جناح الحريم.

إن عُمَر يتذكّر بشيء من الغموض الحادثة التي حفظت «جهان» بشراهة كل تفصيلاتها.

فلقد امتقع وجه الخليفة بالفعل عندما تلقى رسالة «طغرل»

التي طلب فيها يد ابنته «سيّدة». ما كاد رسول السلطان ينسحب حتى كان هو قد انفجر قائلاً:

ـ هذا «التركي» الذي لم يمضِ على مغادرته خيمته كبير وقت! هذا «التركي» الذي كان آباؤه ما يزالون حتى أمسِ يسجدون لا أدري لأي صنم ويرسمون على راياتهم خطوم خنازير! كيف يجسر على طلب الزواج من ابنة أمير المؤمنين ذات الحسب والنسب؟

وإذا كان قد انتفض على هذا النحو بكل أطرافه الجليلة فلأنه كان يعلم أنْ ليس في مُكنته التهرّب من الطلب. وخلص بعد شهرين من التردّد، وبعد رسالتيْ تذكير، إلى صوغ جواب. وكُلِّف أحد مستشاريه السابقين بحمله؛ وانطلق إلى مدينة الرَّي التي لا تزال أطلالها ماثلة للعيان بجوار طهران. وكان فيها بلاط «طغرل».

وكان الوزير أول من استقبل مبعوث الخليفة وسأله قائلاً:

ـ لقد نفد صبر السلطان، وهو لا ينفكّ يلاحقني، فأنا سعيد بأن تكون قد وصلت آخر الأمر بالجواب.

ـ سيقلّ سرورك عندما تسمعه: إن أمير المؤمنين يرجوكم أن تعذروه لأنه غير قادر على قبول الطلب المقدَّم إليه.

ولم يبدُ التأثّر على وجه الوزير، واستمرّ في مداعبة حبّات اليُسر التي تؤلف سبحته وقال:

ـ وعليه سوف تَعْبُر هذا الدهليز وتجتاز هذا الباب المرتفع هناك وتعلن لسيّد العراق وفارس وخراسان وأذربيجان، لفاتح آسيا، للسيف الذي يذبّ عن «الدين» الحنيف، لحامي عرش العباسيين: «لا، لن يعطيك الخليفة ابنته!» حسناً، سوف يقودك هذا الحارس.

ومَثَلَ الحارس ونهض ليتبعه عندما تابع الوزير بلا اكتراث:

ـ أعتقد أنك بوصفك رجلاً حكيماً قد سدّدتَ ديونك وقسمتَ ثروتك بينَ أبنائك وزوّجت جميع بناتك!

وانفتل المبعوث جالساً وقد خارت قواه بغتة وقال:

ـ وبِمَ تنصحني؟

ـ ألم يَدَعْ لك الخليفة أي توجيه آخر، أي إمكان للتسوية؟

ـ لقد قال لي إنه إذا لم يكن من مناص من هذا الزواج فإنه يريد تعويضاً قدره ثلاثمئة ألف دينار ذهباً.

ـ ها هي ذي طريقة أفضل للتعامل. ولكني لا أظن أنه من الحكمة، بعد كل ما فعله السلطان من أجل الخليفة، بعد أن أعاده إلى مدينته التي طرده الشيعة منها، بعد أن ردّ إليه ممتلكاته وأراضيه، أن يسمع من يطالبه بتعويض. إنه في وسعنا الوصول إلى النتيجة عينها من غير أن نجرح شعور «طغرل» بك. تقول له إن الخليفة موافق على تزويجه ابنته، وأنتهزُ من جهتي لحظة الرضى العارم تلك فأوحي إليه ببذل هدية من الدنانير تليق بمثل هذا الزواج.

وهذا ما كان. فقد شكّل السلطان الذي غمره الحبور قافلة عظيمة ضمّت الوزير وعدداً كبيراً من الأمراء وعشرات الضباط والأعيان ونساء مسنّاتٍ من أقاربه ومعهم الحرّاس والعبيد، وحمّلها إلى بغداد هدايا ثمينة من الكافور والمُرّ والديباج، وصناديق كاملة من الأحجار الكريمة، وفوق ذلك مئة ألف قطعة ذهبية.

واستقبل الخليفة في مجلسه أهم أعضاء الوفد وتبادل معهم أحاديث لطيفة ولكنها غير محدّدة، ثم اختلى بوزير السلطان وقال له بلا مواربة إن هذا الزواج لا يحظى بموافقته، وأنه لو حاول أحد إرغامه فسيغادر بغداد.

ـ إذا كان هذا هو موقف أمير المؤمنين فلماذا اقترح تسوية بالدنانير؟

ـ ما كان في وسعي أن أقول «لا» دفعة واحدة. وكنت أرجو أن يدرك السلطان من تصرّفي أنه لا يستطيع أن يحصل مني على مثل هذه التضحية. وباستطاعتي أن أقول لك أنت إنه لم يحدث قطّ أن طالب السلاطين الآخرون، أتراكاً كانوا أو فُرساً، خليفة بمثل هذا الأمر. إن عليَّ أن أدافع عن شرفي!

ـ لقد حاولت منذ شهور وقد أحسست أن الجواب قد يكون سلباً أن أهيّىء السلطان لمثل هذا الرفض، وشرحت له أنه لم يتجرأ أحد قبله على مثل هذا الالتماس، وأنه لم يجرِ العرف بذلك، وأن الناس سوف يدهشون. وأمّا ما أجابني به فلن أجسر قطّ على ترديده.

ـ تكلّم، لا تخشَ شيئاً!

ـ فليُعفِني أمير المؤمنين. إن هذه الكلمات لن تقدر أبداً على اجتياز شفتيّ.

كان صبر الخليفة قد فرغ فقال:

ـ تكلّم، آمرك بذلك، ولا تُخْفِ شيئاً!

ـ لقد بدأ السلطان بشتمي متّهماً إياي بالانحياز ضدّه إلى أمير المؤمنين... وهدّد بتقييدي..

وتعمّد الوزير أن يتمتم.

ـ اطْرُقِ الموضوعَ، تكلّم، ماذا قال «طغرل» بك؟

ـ لقد صاح السلطان: «ما أعجبهم من عشيرة، هؤلاء العباسيون! لقد فتح أجدادهم نصف الدنيا الأفضل، وبنوا أزهى المدن، وانظرْ ما هُمُ اليوم! آخذ منهم ممتلكاتهم ويقابلون الأمر بالرضى. أستحوذ على حاضرتهم ويغتبطون ويغدقون عليَّ الهدايا ويقول لي أمير المؤمنين: «أعطيك كلّ ما أعطاني اللّه من بلاد وأضع بين يديك جميع المؤمنين الذين عهد إليّ بمصائرهم». إنه

يتوسّل إليّ أن أضع تحت كنفي قصره وشخصه وحريمه. وإذا طلبت ابنته للزواج ثار ورغب في الذود عن شرفه. أفيكون فَخِذا عذراء هما الحِمى الوحيد الذي لا يزال مستعداً للقتال من أجله.

اختنق الخليفة وتلجلجت كلماته في صدره فاغتنم الوزير الفرصة لإنهاء البلاغ بقوله:

ـ وأضاف السلطان: «اذهب وقل لهم: هذه الفتاة سآخذها كما أخذت هذه المملكة، كما أخذت بغداد!».

8

أخذت «جهان» تروي بالتفصيل وبتلذّذ متجنٍّ المرارات الزوجية التي يقاسيها عظماء هذا العالم؛ وإذ استنكف عُمَر عن لومها فقد أخذ يشاركها عن طيب خاطر جميع حركات المحاكاة التي كانت تقوم بها. وعندما هدّدت متخابثة بأن تصمت توسّل إليها، داعماً توسّله بالمداعبات، أن تكمل، على الرغم من معرفته الأكيدة بنهاية الحكاية.

وهكذا أذعن أمير المؤمنين لقولة «نعم» والغَمُّ يعصر فؤاده. وما إن بلغ الجواب «طغرل بك» حتى سلك طريق بغداد، وأرسل، قبل أن يبلغ المدينة، وزيره لاستطلاع الترتيبات التي اتُّخذت لإقامة حفل الزفاف.

وإذ وصل الموفد إلى قصر الخلافة فقد علم، بعبارات منمّقة جداً، أن بالإمكان عقد القرآن، غير أن اجتماع الزوجين ليس في الحسبان «لأن الأهمية معقودة على شرف المصاهرة لا على الاجتماع».

واشتد سخط الوزير، ولكنه كبح جماح نفسه وقال:

ـ نظراً لمعرفتي الوطيدة بـ «طغرل» بك أستطيع التأكيد لكم من غير أن أعرِّض نفسي لخطر الخطأ أن ما يعلّقه من أهمية على الاجتماع ليس ثانوياً على الإطلاق.

والواقع أن السلطان لم يتردّد، إلحاحاً منه على التعبير عن رغبته العارمة، في استنفاره عساكره وتوزيعهم كراديس في أنحاء بغداد ومحاصرة قصر الخليفة واضطرّ هذا الأخير إلى التسليم، وتمّ «الاجتماع». فقد جلست الأميرة على سرير مُلَبَّس بالذهب ودخل «طغرل» بك وقبّل الأرض بين يديها، ثم ضاجعها ـ كما يؤكّد المؤرخون ـ من غير أن تكشف الخمار عن وجهها أو تقول له شيئاً أو تهتمّ لوجوده». ومذّاك كان يأتيها كل يوم حاملاً لها الهدايا النفيسة فيضاجعها وينصرف، بيد أنها لم تكن تدعه يرى وجهها مرّة واحدة. وكان كثير من الناس ينتظرونه لدى خروجه بعد كل «اجتماع»، إذ كان من طيب النفس بحيث يوافق على جميع الالتماسات ويغدق الهدايا بلا حساب.

ولم يولد أي طفل من زواج الانحطاط والصلف هذا. وما لبث «طغرل» أن مات بعد ستة أشهر. وإذ كان عقيماً بالتأكيد فقد طلّق زوجتيه الأوليين متّهماً إيّاهما بما كان فيه. ومع ذلك فلم يكن بدّ من أن يدرك الواقع لطول ما عاشر من نساء حليلاتٍ أو إماء: إذا كان هناك من ذنب، فهو المذنب. وقد استشار المنجمين والمداوين والسحرة، ووُصِف له أن يبتلع في كل ليلة يكون القمر فيها بدراً قُلفة صبي خُتِن للتوّ. بلا نتيجة. وكان عليه أن يرضخ. ولكي يتجنّب ما يضفيه هذا العجز من شحوب الهالة التي تحيطه بها بطانته فقد شاد لنفسه سُمعة عاشق لا يرتوي، ساحباً خلفه عند أدنى انتقال جناحاً حافلاً حفولاً مبالغاً فيه بـ «الحريم». وكانت انتصاراته موضوعاً مفروضاً على من حوله، ولم يكن من النادر أن يستطلع ضباطه، وحتى زوّاره الغرباء، أنباء مآثره، وأن يمتدحوا طاقته الليلية، وأن يلتمسوا لديه الوصفات والأكاسير.

غدت «سيّدة» أرملة إذن. وأصبح سريرها المذهّب خاوياً،

وما فكّرت في الشكوى من ذلك. فقد بدا فراغ السلطة أشدّ خطراً، إذ كانت ولادة الإمبراطورية حديثة العهد، وهي، وإن كانت تحمل اسم السلف الغامض «سلجوق»، إلا أن مؤسسها الحقيقي كان «طغرل». تُرى ألن يؤدّي فَقْدُه من غير عقب إلى إغراق الشرق الإسلامي في الفوضى؟ الإخوة وأبناء الإخوة والعمومة يتربّصون. ولا يعرف الأتراك حقّ الابن البِكْر، ولا نظام الوراثة.

ومع ذلك فسرعان ما توصّل رجل إلى فرض نفسه: «ألب أرسلان»، ابن «جغري». وما هي إلا شهور حتى كانت له الكلمة العليا على جميع أفراد العشيرة، ذابحاً بعضهم شارياً ولاء الآخرين. وما لبث أن بدا في عيون رعيته ملكاً عظيماً حازماً عادلاً. غير أن همساً أجّجه منافسوه أخذ يلاحقه: ففي حين كان يُنسب إلى العقيم «طغرل» فحولة غامرة صُوِّر «ألب أرسلان»، وهو أب لتسعة أولاد ـ ويا لغرابة العادات والشائعات ـ بصورة الرجل الذي لا يستهويه الجنس الآخر كثيراً. وكان أعداؤه يلقّبونه بـ «المخنّث»، ورجال حاشيته يتحاشون أن تنزلق أحاديثهم إلى موضوع بمثل هذا الإحراج. وهذه السمعة المُسْتَحَقَّة هي التي ستودي به قاطعةً قبل الأوان منصباً كان يُبشّر بالتألُّق.

ما كانت «جهان» ولا عُمَر ليعلما بعدُ ذلك. ففي حين كانا يتحدّثان داخل المقصورة التي في حديقة أبي طاهر كان «ألب أرسلان» وهو لا يزال في الثامنة والثلاثين من العمر، أقوى رجل في العالم. فإمبراطوريته تمتد من كابول إلى البحر المتوسط، ولا منازع له في سلطانه، وجيشه مخلص له، وقد اتّخذ وزيراً هو أمهر رجال الدولة في زمانه، «نظام الملك». وأهمُّ من ذلك أنه كان قد انتصر انتصاراً باهراً على الإمبراطورية البيزنطية في قرية «ملازكرد» الصغيرة بالأناضول، وسحق جيشها وأسر قيصرها.

وأخذ الخطباء ينوّهون بمآثره في جميع المساجد، ويرون كيف ارتدى في ساعة المعركة كفناً أبيض وتضمّخ بطيوب المحنِّطين وعقد بيده ذيل حصانه، وكيف تمكّن من مفاجأة الكشّافين الروس المرسَلين من البيزنطيين عند أطراف معسكره، وكيف جدع أنوفهم، ولكنْ كيف أطلق أيضاً سراح القيصر السجين.

وإنها لَلَحظةٌ مجيدة ولا ريب في تاريخ الإسلام، ولكنّها شغل شاغل لسمرقند. فطالما طمع «ألب أرسلان» فيها، بل لقد سعى في الماضي إلى الاستيلاء عليها. ونزاعه مع البيزنطيين هو وحده الذي أرغمه على عقد هدنة مهرتها مصاهرة بين السلالتين: فقد تزوّج «ملكشاه» بِكرُ السلطان، «تركان خاتون» أخت «نصر»، وتزوج الخان نفسه ابنة «ألب أرسلان».

ولكن هذه الترتيبات ما كانت لتنطلي على أحد. فمُذْ علم صاحب سمرقند بانتصار حميه وهو يخشى أوخم العواقب على مدينته. ولم يكن مخطئاً فالأحداث أخذت تتسارع.

إن مئتي ألف فارس سلجوقي يتأهّبون لاجتياز «النهر»، هذا الذي كان يُدعى يومذاك «جيجون»، وكان القدماء يسمّونه من قبل «أوكسس»، وسوف يُعرف فيما بعد باسم «آمو ـ داريا». وقد لزم عشرون يوماً لكي يجتازه آخر جندي على جسر متأرجح من القوارب المربوط بعضها إلى بعض.

كثيراً ما تكون غرفة العرش في سمرقند غاصّة بالناس. بيد أنها صامتة مثل بيتٍ مات ربّه والخان نفسه يبدو متعقِّلاً من جرّاء المحنة، فلا سوارت غضب ولا صيحات. ورجال البلاط يبدون مغمومين لذلك. فعجرفته كانت تطمئنهم حتى وإن كانوا ضحاياها. وهدوؤه يقلقهم، فهم يشعرون بأنه مستسلم ويحكمون بأنه مغلوب على أمره ويفكّرون في سلامتهم. أيفرّون؟ أيستعجلون الخيانة؟ أيطيلون الانتظار؟ أيصلّون ويَدْعُون؟

كان الخان ينهض مرتين في اليوم يتبعه موكب من خاصّته فيذهب لتفحّص جزء من السور مستثيراً هتاف الجند والرعيّة. وفي إحدى هذه الجولات حاول بعض الشبان من أهل المدينة الاقتراب من الملك. وإذ أبقاهم الحرّاس على بُعْد خطوات فقد أخذوا يصيحون قائلين إنهم مستعدّون للقتال إلى جانب العسكر والموت دفاعاً عن المدينة والخان والأسرة المالكة. وبدلاً من أن يغتبط العاهل لمبادرتهم فقد حنق وقطع زيارته وعاد أدراجه آمراً الجنود بتفريقهم بلا رفق.

وإذ عاد إلى القصر فقد وبّخ ضباطه قائلاً:

ـ عندما أراد جدّي ـ أدام اللّه ذكرى حكمته في نفوسنا ـ أن يستولي على مدينة بلخ امتشق سكانها الأسلحة في غياب ملكهم وقتلوا عدداً كبيراً من جنودنا مُكْرِهين جيشنا على الانسحاب. وقد كتب جَدّي حينذاك إلى «محمود» صاحب بلخ كتاباً حافلاً باللوم والعتاب: «إني لأرغب في مواجهة بين جيشَيْنا، فاللّه يؤتي بصره من يشاء، ولكن ما يكون مآلنا إذا بدأ العامّة يتدخلون في نزاعاتنا؟» ولقد وافقه «محمود» على ذلك وعاقب رعاياه ومنعهم من حمل السلاح وجعلهم يدفعون الذهب لقاء الدمار الذي سبّبته المعارك. وما ينطبق على أهل بلخ ينطبق أكثر فأكثر على أهل سمرقند الذين فُطِروا على عدم الخضوع، وإني لأوثر أن أخرج وحيداً بلا سلاح فأستسلم إلى «ألب أرسلان» على أن أدين بسلامي إلى أهل المدينة.

وشاطره جميع الضباط رأيه ووعدوا بقمع كل حماسة شعبية وجدّدوا يمينهم بالإخلاص وأقسموا على القتال كما تقاتل الضواري الجريحة. ولكنّها ليست سوى كلمات. فعسكر طبرستان ليس أقلّ من عسكر السلاجقة. وما كان «ألب أرسلان» ليمتاز بغير كثرة العدد وحداثة السنّ. لا حداثة سنّه هو، وإنما حداثة

سنّ سُلالته. فهو ينتمي إلى الجيل الثاني الذي لا يزال يحرّكه طموح التأسيس. وأما «نصر» فإنه الخامس في سلالته، وهو أكثر اهتماماً بالتمتّع بالمكتسبات منه بالتوسّع.

لقد أراد الخيّام أن يبقى بعيداً عن المدينة طوال أيام الجَيشان هذه. وهو لا يستطيع بالطبع أن يستنكف عن الظهور من حين إلى آخر ظهوراً مقتضباً في البلاط أو عند القاضي من غير أن يبدو وكأنه يفرّ منهما في وقت من أوقات الشدّة. بيد أنه كان يظلّ في أغلب الأحيان محتبساً في مقصورته مستغرقاً في أعماله أو في كتاب كان يملكه سرّاً ويسوّد صفحاته في عناد وكأنه لا وجود للحرب في نظره إلا بما توحيه له من انقطاع الحكمة.

«جهان» وحدها هي التي تربطه بحقائق المأساة الدائرة، فهي تحمل إليه كل مساء أخبار الجبهة وتوجّهات البلاط فيستمع إلى ذلك كلّه من غير شغف ظاهر.

كان تقدّم «ألب أرسلان» على الأرض بطيئاً. فجيشه عرمرم ثقيل الحركة، وانضباطه تقريبي، وهناك الأمراض والمستنقعات. والمقاومة أيضاً، وهي شرسة في بعض الأحيان. وهناك بصورة خاصّة رجل ينغّص عيش السلطان هو قائد إحدى القلاع غير بعيد من النهر. وفي وسع الجيش الانعطاف عنها ومتابعة طريقه، غير أن أمان ساقتِه سيكون ضعيفاً، وستتضاعف المناوشات، وسيكون الانسحاب خطراً إذا جدّت، المصاعب. وعليه فقد توجّب وضع حدّ للمشكلة؛ ولقد أصدر «ألب أرسلان» الأمر بذلك منذ عشرة أيام فتضاعفت الهجمات.

وفي سمرقند كان يجري تتبّع القتال عن كثب. وكانت تصل كل ثلاثة أيام حمامة زاجلة يطلقها المدافعون. ما كان البلاغ ليكون قطّ دعوة للمساعدة، ولا كان يصف نضوب المؤن وخَوَر الرجال أو يتحدّث عن غير خسائر الخصوم وأنباء الأوبئة المنتشرة

في صفوف المحاصِرين. وبين ليلة وضحاها أصبح قائد الموقع، وهو رجل خوارزميّ اسمه يوسف، بطل طبرستان.

ومع ذلك فقد أزفت الساعة التي تمّ فيها التفوّق على حفنة المدافعين ونُقبت أسس القلعة وتُسُلّقت الأسوار. ولقد قاتل يوسف حتى النَفَس الأخير قبل أن يُجرح ويؤسر. واقتيد إلى السلطان الذي ثار فضوله لأنه يرى عن كثب من كان السبب في متاعبه. ولقد مَثَل أمامه رجل قصير ضامر أشعث أغبر وقف منتصب القامة عالي الرأس بين عملاقين كانا يمسكان بقوة بذراعيه. وأمّا «ألب أرسلان» فكان متربّعاً فوق سُدّة من خشب مفروشة بالطنافس. ونظر كلّ من الرجلين طويلاً إلى الآخر بتحدّ، ثم أمر الغالب:

ـ لتغرس أربعة أوتاد في الأرض ويُربط إليها ويُفسخ!

نظر يوسف إلى الرجل الآخر من أسفل إلى أعلى بازدراء وصاح:

ـ أهذه معاملة يُعامل بها مَنْ قاتل قتال الرجال؟

ولم يُجب «ألب أرسلان» وأدار وجهه. فخاطبه الأسير قائلاً:

ـ أنت، أيها «المخنَّث»، إني أوجّه الكلام إليك.

وأجفل السلطان كأن عقرباً لسعته. وتناول قوسه الموضوعة بالقرب منه ووتّر بها سهماً، وقبل أن يطلقه أمر الحرّاس بترك الأسير. فهو لا يستطيع نَيْلَ رجل مُوثَق من غير أن يتعرّض جنوده هو لخطر الجرح. ومهما يكن فإنه لا يخشى شيئاً، فما أخطأ قطّ غَرَضاً.

أهي سورة الهياج أم العجلة أم التحرّج من الإطلاق من مسافة بهذا القِصَر؟ مهما يكن فإن يوسف لم يُصَب، وما كاد السلطان يمدّ يده لاستلال سهم ثانٍ حتى انقض الأسير عليه. ولما لم يكن في وسع «ألب أرسلان» الدفاع عن نفسه إن بقي

قابعاً فوق سُدته فقد حاول الإفلات وعثرت رجلاه بإحدى الطنافس فانقلب على الأرض. وها هوذا يوسف فوقه وفي يده سكين كان يحتفظ بها مخبّأة في ثيابه. ولقد وجد الوقت الكافي لطعنه في خاصرته قبل أن تصرعه هو ضربة من هراوة. وانقضّ الجنود على جسده الهامد الممزَّق. غير أنه ظل محتفظاً بابتسامة ساخرة ثبّتها الموت على شفتيه. فلقد انتقم لنفسه. ولن يعيش السلطان بعده أبداً.

والحق أن «ألب أرسلان» مات بعد أربع ليالٍ من الاحتضار. احتضار بطيء وتأمّل مرير. وقد نقل مؤرخو ذلك الزمان أقواله، وهي: «كنت أمسِ أستعرض عسكري من فوق تلّ فشعرت بالأرض ترتجف تحت وقع أقدامهم فقلت في نفسي: أنا سيّد الدنيا! فمنذا يستطيع أن يَعْدِلني؟ ولقد بعث اللّه إليَّ على صلفي وغروري بأحقر الناس، بمغلوب أسير في طريقه إلى الموت؛ وتبيّن أنه أقوى مني فضربني وأوقعني عن عرشي وقضى على حياتي»[1].

---

(1) ذكر ابن الأثير أن «ألب أرسلان» قال في أثناء احتضاره:
«ما من وجه قصدته، وعدوّ أردته إلا استعنت باللّه عليه. ولما كان أمسِ صعدت على تلّ فارتجّت الأرض تحتي من عِظم الجيش وكثرة العسكر، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا ولا يقدر أحد عليَّ. فعزّزني اللّه تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر اللّه تعالى وأستقيله من ذلك الخاطر». (الكامل في التاريخ، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، ج 8، ص 113).
وقال محمد بن حامد الأصفهاني:
«وحكي أنه (أي «ألب أرسلان») قال حين حَيْنه وقد عاين الموت بعينه: ما كنت قطّ في وجه قصدته، ولا عدوّ أردته، إلاّ توكّلت على اللّه في أمري، وطلبت منه نصري، وأما في هذه النوبة فإني أشرفت من تلّ عال فرأيت عسكري في أجمل حال. فقلت: أين من له قدر مصارعتي، وقدرة معارضتي، وإني أصل بهذا العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت عليّ منيّتي من الكمين». (تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ص 48) [المترجم].

أفيكون عمر الخيّام قد كتب في كتابه غداة تلك المأساة:
«ينتصب في هذه الدنيا إنسانٌ بين الفينة والفينة
«فيبسط ثروته ويهتف قائلاً: ها أنا ذا!
«ويدوم عزُّه دوامَ حُلم مصدوع،
«فالموتُ يكون قد انتصب وهتف قائلاً: ها أنا ذا!».

9

في سمرقند الغارقة في فرحة العيد جسرت امرأة على البكاء: إنها زوجة الخان المنتصر، ولكنها أيضاً، وأكثر من أي شيء، ابنة السلطان الطعين. وقد ذهب زوجها بالطبع يقدم إليها التعازي، وأمر جميع نساء الحريم بلبس أثواب الحداد، وجَلَد أمام ناظريها خصيّاً كان يُظهِر فرحة عارمة. بيد أنه لم يتردّد وقد عاد إلى «ديوانه» في أن يردّد على مسامع مَنْ حوله «اللهِ استجاب لدعوات أهالي سمرقند».

بالإمكان الظنّ بأنه في تلك الحقبة لم يكن لسكان مدينة من المدن من حقّ في تفضيل هذا الملك التركي على ذلك. ومع ذلك فقد كانوا يبتهلون، لأنّ ما كانوا يحذرونه هو تبدّل السيد وما يواكبه من مجازر وآلام وأعمال نهب وسلب لا سبيل إلى تلافيها. وكان ينبغي أن يجاوز العاهل كلّ حدّ ويُخضِع الرعية لضرائب فوق الطاقة ومهانات لا تنقطع لكي يصل بهم الأمر إلى الرجاء بإن يغزوهم ملك آخر. ولم تكن الحال كذلك مع «نصر». فهو إن لم يكن أفضل الأمراء فإنه لم يكن أردأهم. وقد كان الناس يألفونه ويتوجهون إلى اللّه عزّ وجلّ أن يحدَّ من غلوائه.

لقد كان القوم يحتفلون إذن في سمرقند بأنهم تجنّبوا حرباً.

وكانت ساحة رأس الطاق الشاسعة تطفح بالصيحات وبسحب الدخان، وتقوم عند كل جدار بسطة بائع متجوّل، وتُرْتَجَلُ مغنّيةٌ وضاربٌ بالعود تحت كل مصباح مرتفع. وكانت آلاف حلقات الفضوليين تنعقد وتنفضّ حول رواة الحكايات وكاشفي الطوالع والحواة. وفي وسط الساحة كانت تقوم على منصة شديدة الاهتزاز، وقد صنعت على عجل، المبارزة التقليدية بين الشعراء الشعبيين، فكانوا ينوّهون بسمرقند التي لا شبيه لها، سمرقند المنيعة. وكان حكم الجمهور فورياً فترتفع نجوم وتأفل أخرى. ولقد أوقدت نيران الحطب في كل مكان تقريباً، فالشهر شهر كانون الأول (ديسمبر) وقد أمست الليالي شديدة القسوة. وفي القصر كانت جرار الخمر تُفرغ وتُكسر، فعندما يسكر الخان يعدو مرِحاً وصاخباً وفاتحاً.

ولقد أقام في اليوم التالي صلاة الغائب في المسجد الجامع وتقبّل التعازي بموت حميه. وكان أن عاد الذين هُرعوا بالأمس لتهنئته بفوزه، للتعبير عن تفجُّعهم وقد علا الحداد وجوههم. وها هوذا القاضي الذي رتّل بضع آيات تناسب المقام ودعا عُمَر لأن يحذو حذوه، يهمس في أذنه قائلاً:

ـ لا تعجب لشيء، إن للحقيقة وجهين، وللناس أيضاً.

في ذلك المساء بالذات استدعى «نصر خان» أبا طاهر وطلب منه الانضمام إلى الوفد المكلّف الذهاب لتمثيل سمرقند في تكريم السلطان الراحل. وكان عُمَر بين المسافرين، مع مئة وعشرين شخصاً آخر طبعاً.

كان مجلس التعزية مُعَسْكَراً سابقاً للجيش السلجوقي قائماً شمالي النهر تماماً. وكانت تنتصب حوله آلاف المضارب وخيام اللبد مؤلّفة مدينة حقيقية مُرْتَجَلة حاذى فيها أعيان طبرستان بحذر المحاربين الرُّحَّل ذوي الشعور الطويلة المضفورة وقد حضروا

يجدِّدون ولاء عشائرهم. وقد استوى «ملكشاه» ـ وهو عملاق بوجه طفل في السابعة عشرة ـ متلفّعاً بعباءة فضفاضة ممّا يلبسه رجال المخافر، فوق سُدّةٍ كانت تلك التي شهدت سقوط أبيه «ألب أرسلان»، وعلى بُعْد خطوات منه انتصب الوزير الأكبر، رجل الإمبراطورية القوي ذو الأعوام الخمسة والخمسين الذي يناديه «ملكشاه» بـ «يا أبي» دلالة على إجلاله الشديد له، ويدعوه الآخرون بلقبه «نظام الملك»، لقب لم يسبق أن استحقّه رجل أكثر مما استحقّه هو. وكان السلطان الشابّ يستشير بنظره وزيره في كل مرة يدنو فيها زائر مرموق، وكان الوزير يشير عليه بإيماءة خفيّة ما إذا كان ينبغي الظهور بمظهر المحتفي أو المتحفِّظ، المطمئنّ أو الحذِر، المنتبه أو الغافل.

ولقد سجد وفد سمرقند بأسره عند «ملكشاه» الذي نوّه بالأمر بهزّة متسامحة شامخة من رأسه، ثم انفصل بعض الأعيان عن الوفد للتوجّه إلى «نظام». غير أن الوزير متجهّم، ومعاونوه يتحرّكون من حوله وهو ينظر إليهم ويصغي من غير أن يُبدي أو يعيد. وإذا كان موجوداً في كل مكان فوجوده أكثر ما يكون وجود محرِّك الدمى الذي يحرِّك الآخرين بلمسات خفيَّة وفقاً لرغبته. ولحظات صمته مضرب المثل. فليس نادراً أن يُمضي زائر ساعةً في حضرته فلا يُبادِلُه من الكلام سوى عبارات الترحاب والوداع. ذلك أن الناس لا يزورونه بالضرورة للتحدّث إليه، وإنما لتجديد ولائهم وتبديل الشكوك من حولهم وتجنُّب أن يلحق بهم النسيان.

وعليه فقد حظي اثنا عشر شخصاً من وفد سمرقند بامتياز مصافحة اليد التي تمسك بدقّة الإمبراطورية. ولقد حذا عُمَر حذو القاضي، وكان أبو طاهر قد غمغم بعبارة. وهزّ «نظام» رأسه وأبقى يده في يده بضع لحظات، وكان ذلك شرفاً للقاضي. وعندما جاء عُمَر انحنى الوزير على أذنه وهمس:

ـ العام القادم، في مثل هذا اليوم، كن في «أصفهان» فلنا حديث.

لم يكن الخيّام واثقاً ممّا إذا كان قد أحسن السمع فبلبلت الحيرة خاطره. ولقد أفزعه الرجل وأثّرت الرسميّات في مشاعره ودوَّخه الهرج والمرج وأصمّ أذنيه عويل النوادب؛ وهو غير مطمئن لحوّاسه وراغب في تأكيد، في تحديد، ولكن هيهات فقد بدأ سيل الناس يدفعه، وأخذ الوزير ينظر باتجاه آخر ويكرِّر هزّ رأسه في صمت.

لم ينفكّ الخيّام يجترّ الواقعة في طريق العودة. أيكون الوحيد الذي همس إليه الوزير بتلك الكلمات؟ ألم يخلط بينه وبين آخر؟ ولماذا كان موعد بهذا البُعْد في الزمان والمكان؟

وعزم على مفاتحة القاضي بالأمر. فلمّا كان هذا إلى جانبه تماماً فمن الممكن أن يكون قد سمع أو شعر أو قُلْ خمّن شيئاً. وتركه أبو طاهر يروي له المشهد قبل أن يعترف قائلاً بخبث:

ـ لقد لاحظت أن الوزير همس لك بضع كلمات؛ ولم أسمعها، غير أني أستطيع أن أؤكد لك أنه لم يخلط بينك وبين آخر. أرأيت كلّ أولئك المعاونين الذين يحيطون به؟ إنّ مهمّتهم الاستعلام عن تركيبة كل وفد، والهمس له بأسماء من يتوجّهون إليه وقرابتهم. وقد سألوني عن اسمك وتأكّدوا ممّا إذا كنتَ حقّاً الخيّام من نيسابور، العالِمَ والفلكيّ، وليس هناك من خلط في هويّتك. ومن جهة ثانية فإنه ليس هناك من خلط قطّ مع نظام الملك سوى الخلط الذي يرى من الملائم اختلاقه.

كان الدرب مسطّحاً مُخصِباً. وعلى اليمين بعيداً جداً صفّ من الجبال العالية، خواصر هضاب «پامير». والخيّام وأبو طاهر يُخيِّلان جنباً إلى جنب وتتلامس مطيّتاهما بلا انقطاع.

ـ وما يمكن أن يريد مني؟

ـ لكي تعرف عليك أن تصبر عاماً. وإلى أن يحين الموعد أنصحك بألّا تتمرّغ بالافتراضات، فالانتظار طويل جداً وقد تُنهك قواك. ولا تحدِّث على الأخصّ أحداً بالأمر!

ـ أأنا مهذار في العادة؟

النبرة أقرب ما تكون إلى نبرة العتاب. غير أن القاضي لا يدع مجالاً للتخاذل:

ـ سأكون واضحاً: لا تحدِّث به تلك المرأة!

كان على عُمَر أن يرتاب، فما كان من الممكن أن تتكرّر زيارات «جهان» من غير أن يلحظ ذلك أحد. واستأنف أبو طاهر قائلاً:

ـ منذ أن التقيتما أول مرّة جاء الحرّاس يخطرونني بالأمر. وقد اختلقت حكاية معقّدة لتسويغ زياراتها، وطلبت ألّا ينظر إليها أحد وهي تمرّ، وحظّرت على أي كان أن يذهب لإيقاظك كلّ صباح. لا تَرْتَبْ لحظة في أن ذاك الجناح منزلك، أريد أن تعلم ذلك اليوم وغداً. ولكن عليَّ أن أُحدّثك عن تلك المرأة.

تضايق عُمَر، فهو لا يستمرىء قطّ طريقة صديقه في قول «تلك المرأة»، ولا يرغب قطّ في مناقشة غرامياته. وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئاً للرجل الذي يكبره سنّاً فقد تجهّم وجهه علانية.

ـ أعْلمُ أن ما أقوله يغضبك، بيد أني سأقول لك حتى آخر كلمة ما ينبغي عليّ قوله، وإذا كانت صداقتنا الحديثة العهد جداً لا تخوّلني هذا الحقّ فإنّ سني ومنصبي يُسَوّغانه. إنك عندما رأيت تلك المرأة للمرّة الأولى في القصر نظرت إليها باشتهاء. هي شابة وجميلة، ومن الممكن أن يكون شِعرها قد راقك، وأن تكون جسارتها قد ألهبت دمك. ومع ذلك فقد كانت تصرُّفاتك حِيال الذهب مغايرة. فلقد خَشَتْ فمها بما أصابك بالغثيان.

وتصرّفتْ تصرّفَ شاعرةٍ من شواعر البلاط وتصرّفتَ تصرُّفَ حكيمٍ عاقل. هل فاتحتها بالأمر مذّاك؟

الجواب «لا»، وحتى إن لم يكن عُمَر قد قال شيئاً، فإن أبا طاهر سمعه جيداً. وتابع قائلاً:

ـ غالباً ما يتحاشى الناس في بداية علاقةٍ ما الأسئلة المحرجة لأنهم يخشون أن يحطّموا ذلك البناء الهشَّ الذي أقاموه لتوّهم ملتزمين ألف احتياط، ولكنّ ما يفصلك عن هذه المرأة في نظري خطير وأساسي. فلستما تملكان النظرة نفسها إلى الحياة.

ـ إنها امرأة، وهي فوق ذلك أرملة. إنها تجهد في البقاء على قيد الحياة من غير أن تخضع لسيّد، ولا يسعني إلا أن أعجب بشجاعتها. وكيف تُلام على أخذ ذَهَبٍ استحقَّته بشِعرها؟

قال القاضي مغتبطاً بأن يكون قد انتهى إلى جرّ صديقه إلى ذلك النقاش:

ـ أوافق جدّاً ولكن هل تقبل على الأقلّ أن تكون هذه المرأة عاجزة عن مواجهة حياةٍ غير حياة القصر؟

ـ ربّما.

ـ أتوافق على أن حياة البلاط عندك كريهة لا تُطاق، وأنك لا تقيم فيها لحظة واحدة أكثر مما ينبغي؟

وتبع ذلك صمت ناجم عن انزعاج. وخلص أبو طاهر إلى التصريح بدقّة وجزم:

ـ لقد قلت لك ما يجب أن تسمعه من صديق حقّ. لن أذكر بعد الآن هذا الموضوع ما لم تكن البادىء بالحديث عنه إليّ.

10

عندما بلغا سمرقند كانا مُنهكيْن من البرد وارتجاج مطيّتيهما والانزعاج الذي حلّ بينهما. وما لبث عُمَر أن انسحب إلى جناحه من غير أن يتوقّف للعشاء. فلقد نظم خلال الرحلة ثلاث رباعيات أخذ ينشدها بصوت مرتفع عشر مرّات، عشرين مرة، مُبْدلاً كلمة بأخرى، مغيّراً صياغة جملة، قبل أن يحبس الرباعيات في سرير مخطوطته.

وإذ كانت «جهان» قد وصلت على غير انتظار وأبكر من المعتاد فقد انزلقت من الباب الموارب ونزعت عنها خمارها من غير جلبة. وها هي ذي تتقدّم من الخلف على رؤوس أصابعها. وظلّ عُمَر مستغرقاً فأحاطت عنقه بغتة بذراعيها العاريتين وألصقت وجهها بوجهه وتركت شعرها المعطّر ينسدل على عينيه.

كان ينبغي أن تغمر الفرحة عُمَر ـ هل في وسع عاشق أن يرجو أرقّ من هذا الهجوم؟ أفما كان عليه وقد انقضت لحظة المفاجأة أن يضمّ بدوره يديه حول قوام محبوبته ويصهرها ويضغط على جسدها كلَّ عذاب الفُرقة، وكلّ دفء اللقاء؟ بيد أن عُمَر قد انزعج لهذا التدخّل. فما يزال كتابه مفتوحاً أمامه، وقد ودّ لو يخفيه. وكان أول ما تبادر إلى ذهنه أن يتملّص، ومع أنه ندم لذلك على التوّ، ومع أن تردّده لم يدم إلا برهة فإن «جهان» التي

استشعرت تلك الحَيْرة وذلك الشكل من البرودة لم تلبث أن أدركت السبب. وها هي ذي تُلقي على الكتاب نظراتٍ حذرةً وكأن الأمر يتعلّق بمنافِسة لها.

ـ سامحني! كنت أتحرّق لرؤيتك فما خطر لي أن مجيئي قد يحرجك.

وفصل بينهما صمت ثقيل فأسرع الخيّام إلى تحطيمه بقوله:

ـ هذا الكتاب، أليس كذلك؟ صحيح أنني لم أُعِدَّ العُدَّة لإطلاعك عليه، فلقد كنت أُخفيه في حضرتك على الدوام. ولكنّ الشخص الذي أهدانيه استحلفني أن أُبقيه سرّاً.

ومدّ يده به إليها فقلّبته بضع لحظات متظاهرة بأشدّ اللامبالاة لرؤية هذه الصفحات المسوَّدة النادرة المتناثرة بين عشرات الأوراق الخالية. وأعادته إليه ببرطمة مُعْلَنَة.

ـ لماذا تُرينيه؟ إني لم أطلب منك شيئاً. وعلى كل حال فإنه لم يسبق لي قطّ أن تعلّمت القراءة. وكل ما أعرفه اكتسبته من الإصغاء إلى الآخرين.

ما كان في وسع عُمَر أن يَعْجَب. فلم يكن نادراً أن يكون عدد من الشعراء البارزين في ذلك الزمن أمّيين؛ وكذلك بالطبع جميع النساء على وجه التقريب.

ـ وماذا في هذا الكتاب من أمور بهذا القدر من السرّية، معادلات كيميائية؟

ـ هي قصائد أنظمها أحياناً.

ـ قصائد مُحَرَّمة وهرطوقية؟ مُدمِّرة؟

ونظرت إليه بارتياب، بيد أنه دافع عن نفسه ضاحكاً:

ـ لا، ما الذي تحاولينه؟ هل نفسي نَفْسُ متآمر؟ إن هذه القصائد ليست سوى «رباعيّات» عن الخمر وجمال الحياة وغرورها.

ـ أنت، تكتب «رباعيات»؟

لقد ندّت عنها صيحة إنكار تكاد تكون صيحة احتقار.
فـ «الرباعيات» تنتمي إلى فنّ أدبي ثانوي خفيف، بل سُوقيّ، يليق أكثر ما يليق بشعراء الأحياء الوضيعة. فَلأنْ ينظم عالم كعُمَر الخيّام «رباعية» فذاك قد يُحمل على مَحْمَل تزجية الوقت أو مَحْمَل الهفوات، أو ربما على مَحْمَل الظرف؛ وأما أن يكلّف نفسه عناء تدوين أشعاره بأكثر ما يمكن من جِدّ في كتاب تحيط به الأسرار فذاك ما يُدهِش، بل يُزعج شاعرة متعلّقة بقواعد البلاغة.
وبدا عُمَر خَجِلاً فتحيّرت «جهان» في أمرها.

ـ هل لك أن تقرأ لي بعض الأبيات؟

والخيّام لا يريد الالتزام بأكثر من ذلك.

ـ في وسعي أن أقرأها لك كلّها ذات يوم، عندما أكون قد حكمت بأنها جاهزة لأن تُقرأ.

ولم تُلْحِف وعدلت عن سؤاله أكثر مما سألت، بيد أنها هتفت من غير أن تجهد في التهكُّم:

ـ عندما تملأ هذا الكتاب تحاشَ أن تعطيه لِـ «نصر خان» فهو لا يقدِّر ناظمي «الرباعيات» كثيراً؛ إنه لن يدعوكِ بعدُ قَطُّ للجلوس على سريره.

ـ ليس في نيّتي تقديمُ هذا الكتاب إلى أيّ كان، ولا أرجو أن أجني منه أيّ ربح، ولا أملك شيئاً مما يطمح إليه شاعر من شعراء البلاط.

لقد جرح مشاعرها، لقد جرح مشاعرها. وتساءل كلٌ منهما في الظلام الذي يلفّهما عمّا إذا لم يكن قد اشتطّ، وعمّا إذا لم يكن الوقت ما يزال مساعِفاً للعودة إلى الرشد لإنقاذ ما يمكن أن يكون قد بقي. وما كان وَجْدُ الخيّام في هذه اللحظة على «جهان»، وإنما على القاضي. فهو نادم على أنه تركه يتكلّم ويتساءل عمّا إذا لم تكن كلماته قد عكّرت بشكل لا صلاح معه

النظرةَ التي ينظر بها إلى عشيقته. فقد كانا يعيشان حتى اليوم ببراءة ولا مبالاة وبرغبة مشتركة في ألّا يثيرا قطّ ما قد يفرّق بينهما. وتفكّر الخيام متسائلاً: «أيكون القاضي قد بصّرني بالحقيقة، أم تُراه حجب عني السعادة فقط؟».

ـ لقد تغيّرت يا عُمَر؛ ليس في وسعي أن أقول ما الذي غيّرك، ولكن في الطريقة التي تنظر بها إليّ وتكلّمني بها نبرة لا أدري تحديدها. فكما لو أنك تتّهمني بشيء من سوء، كما لو أنك تجِد عليّ لأمرٍ ما. لست أفهم عليك بيد أني حزينة لذلك بغتةً أعمق الحزن.

وسعى إلى جذبها إليه غير أنها ابتعدت بحدّة.

ـ ما هكذا تستطيع طمأنتي! إن في وسع جسدينا إطالة كلماتنا، غير أنهما لا يقدران على الحلول محلّها ولا على تكذيبها. ماذا هناك، قل لي.

ـ «جهان»! حبّذا لو نقرّر ألّا نقول شيئاً حتى غدا!

ـ غداً لن أكون هنا، فسوف يغادر الخان سمرقند مع الفجر.

ـ وإلى أين يذهب؟

ـ إلى كش وبخارى وترمذ، لست أدري. وستتبعه الحاشية برمّتها، وأنا معها.

ـ أليس في مقدورك البقاء عند قريبتك في سمرقند؟

ـ هذا لو كان الأمرُ أمرَ بحثٍ عن ذرائع! إنّ لي مكانتي في البلاط. ولقد ناضلت نضال عشرة رجال للحصول عليها. ولن أتخلّى اليوم عنها لألهوَ كالأطفال في منظرة أبي طاهر.

عندما قال من غير أن يفكّر:

ـ ليس الأمر لهو أطفال. ألا ترغبين في مشاطرتي عيشي؟

ـ مشاطرتك عيشك؟ ليس هناك ما أشاطرك إياه!

قالت ذلك بلا أدنى فظاظة. فما كان قولها سوى تقرير واقع،

وما كان ليخلوَ من حنان على أيّ حال. ولكنّها إذ رأت الهلع في وجه عُمَر فقد توسّلت إليه أن يسامحها وأخذت تنتحب.

ـ كنتُ أعلم أني سأبكي هذا المساء، ولكنْ بغير هذه الدموع المريرة؛ كنت أعلم أنّا سنفترق مدّة طويلة، بل ربما إلى الأبد، ولكنْ ليس بهذه الكلمات ولا بهذه النظرات. في ودّي أن أحمل من أجمل حبّ عشته ذكرى هاتين العينين اللتين يملكهما مجهول. انظر إليّ يا عُمَر نظرة أخيرة! تذكّر أني خليلتك وأنك أحببتني وأني أحببتك. أما زلت تعرفني؟

وأحاطها الخيّام بذراع خالطها الحنان وتنهّد قائلاً:

ـ حبّذا لو كان الوقت يسمح بالتوضيح، إذن لامّحت هذه المشاجرة السخيفة، غير أن الوقت يُداهمنا ويُرغمنا على المراهنة بمستقبلنا بهذه الدقائق المشوّشة.

وأحسّ بدوره بدمعة تنحدر خُلسة فوق وجهه. ولَوَدَّ لو أخفى هذه الدمعة، غير أن «جهان» عانقته بضراوة مُلصقة وجهها بوجهه.

ـ بوسعكَ أن تُخفي عني كتاباتك، وأما دموعك فلا. أريد أن أراها، أن ألمسها، أن أخلطها بدموعي. أن أحتفظ بآثارها على وجنتيّ، أن أحتفظ بطعمها الملح على لساني.

لكأنّ كلّاً منهما يسعى إلى تمزيق الآخر، إلى خنقه، إلى ملاشاته. وجُنّ جنون أيديهما وتبعثرت ملابسهما. فلا مثيل لليلة غرام ألهبت فيها الجسدين الدموعُ الحرّى. واندلع اللهب فغمرهما ودحرجهما وأسكرهما وأشعلهما وصهرهما جِلداً إلى جِلد حتى نهاية اللذّة. وعلى الطاولة ساعة رمليّة تنساب حبّاتها حبّةً حبّة، وخمد اللهب وترنّح وانطفأ، وتباطأت ابتسامة لاهثة. واستنشق كلّ منهما الآخر طويلاً. وتمتم عُمَر لها أو للقَدَر الذي كانا قد تحدّياه:

ـ ليس نضالنا إلا في بدايته.

وهصرته «جهان» مُغَمْضَة العينين وقالت:

ـ لا تدعني نائمة حتى الفجر!

في اليوم التالي كان في المخطوطة سطران جديدان. وكان الخط الذي كُتبا به هزيلاً متردّداً شائهاً:

«ما أشدّ وحدتك يا خيّام وأنت بقرب محبوبتك!

«والآن وقد رحلت تستطيع أن تلوذ بها».

11

قاشان، واحة من البيوت الواطئة على الطريق الحريري عند طرف صحراء «الملح». تتجمّع فيها القوافل وتَلُمُّ أنفاسها قبل أن تُحاذي «قرغاز قوه»، جبل العقبان، مخبأ قطّاع الطرق الذين يبتزّون نواحي أصفهان.

قاشان، إنها مبنيّة بالطين والوحل. وعبثاً يبحث الزائر فيها عن جدران تُبهج النفس أو أطناف مزخرفة. ومع ذلك فإنه يُصنع هنا أجود الطوب المصقول الذي سيزخرف بالأخضر والذهبي آلاف المساجد والقصور والمدارس من سمرقند إلى بغداد. ففي جميع الشرق الإسلامي يُسمى الخزف ببساطة «القاشي» أو «القاشاني»، مثلما يحمل «البورسلين» بالفارسية كما بالإنكليزية اسم «الصين».

وخارج المدينة خان للقوافل في ظلّ أشجار النخيل، وله سور مستطيل بأبراج صغيرة للمراقبة وفناء خارجيّ للبهائم والبضائع وفناء داخليّ تحيط به غرف صغيرة للنزلاء. وأراد عُمَر استئجار إحداها، غير أن صاحب الخان أبدى أسفه: ليس من غرفة شاغرة لقضاء الليل، فقد وصل للتوّ أثرياء من أصفهان مع أبنائهم وخادماتهم. ولم يكن هناك من حاجة لمراجعة سجلّ

للتأكّد من صحة أقواله، فالمكان يعجّ بالمنادين على البضائع وبالمطايا المطهَّمة. ومن الممكن أن يكون عُمَر قد فكّر في المبيت تحت النجوم على الرغم من الشتاء الذي كان قد أطلّ لولا أن عقارب قاشان لم تكن أقلّ شهرةً بكثير من خزفها.

ـ أليس من زاوية حقاً أفرش فيها حصيري حتى الفجر؟

وحكّ صاحب الخان صدغيه. لقد خيّم الظلام، وليس في وسعه أن يرفض إيواء مُسْلم:

ـ عندي حجرةٌ في أحد الأركان يشغلها طالب. اسْألْه أن يُفرد لك مكاناً فيها.

وتوجّها نحو الحجرة فإذا بابها مُقفل. وقَرَعه صاحب الخان قليلاً من غير أن يقرعه وترنّح لهب شمعة وأُغلق كتاب على عجل.

ـ لقد ترك هذا المسافر سمرقند منذ ثلاثة أشهر طِوال، وظننتُ أن بإمكانه مقاسمتك الغرفة.

وإذا كان الشاب قد شعر بالانزعاج فإنه تجنّب إظهاره وظلّ مهذّباً وإن لم يُبْدِ ترحيباً.

ودخل الخيّام وحيّا وصرّح بهويّة مشوبة بالحذر:

ـ عُمَر من نيسابور.

ولاحت في عين رفيقه ومضة اهتمام مُقْتَضَبة ولكن حادّة، وقدّم نفسه بدوره قائلاً:

ـ حسن بن عليّ الصبّاح من مواليد «قُمْ»، طالب علم في الرَّي، وفي الطريق إلى أصفهان.

لقد أزعج الخيّام هذا التعداد المفصَّل. فهو دعوة إلى أن يقول المزيد عن نفسه ونشاطه والغاية من رحلته. ولم يُدرك الهدف منها وارتاب في الوسيلة. وعليه فقد لزم الصمت وانشغل بالجلوس والاستناد إلى الجدار والتفرُّس في هذا الرجل القصير

الأسمر الهزيل الضامر الناتىء الهِظام. ولقد تنافرت لحيتُه ذاتُ الأيام السبعة وعمامتُه السوداءُ المشدودةُ وعيناه الجاحظتان.

وحاصره الطالب بالابتسام قائلاً:

ـ عندما يُدعى المرء «عُمَر» فمن التهوُّر أن يرتاد ناحية قاشان.

وتظاهر الخيّام بالدهشة التامّة. مع أنّه قد فهم جيّداً معنى التلميح. فاسمه اسم خليفة النبي الثاني، الخليفة عُمَر المكروه من الشيعة لأنه كان منافساً عنيداً لعليّ مؤسّس طائفتهم. وإذا كانت أغلبية أهل فارس في هذا الوقت من السُنَّة فقد بقي المذهب الشيعي متمثّلاً في بعض المدن ـ الواحات، ولا سيّما «قُم» وقاشان حيث ما تزال تقوم بعض التقاليد الغريبة. ففي كل عام يُحتفل بمقتل الخليفة عُمَر في مهرجان هزليّ، وتتبرّج النساء بهذه المناسبة ويحضّرن الحُلْوَيات والفستق المحمَّص، ويجلس الأولاد على الشرفات ويصبّون الماء مِدراراً على المارّة وهم يصيحون بحبور «لعن اللّه عُمَرا!» ويصنعون تمثالاً على هيئة الخليفة وفي يده سبحة من روث مسلوك ويجولون به في الأحياء مُنشدين: «ما دام اسمك عُمَر فمأواك جهنّم يا رأس الفاسقين، يا أيها الغاصِب اللئيم!» وقد درج إسكافيو «قُم» وقاشان على كتابة «عُمَر» على النِّعال التي يصنعونها، ويَنْحَلُ البغّالون اسمه بَهائِمَهُمْ مُتلذّذين بلفظه عند كلّ انهيال بعصيّهم على جسومها، وحين لا يبقى مع الصيّادين سوى سهم واحد فإنهم يستلّونه مُغمغمين: «هذا لقَلْبِ عُمَر!».

لقد ذكر حسنٌ هذه الممارسات بكلمات غامضة متحاشياً الدخول بجلافة في التفاصيل، بيد أن عُمَر كان ينظر إليه من غير لطف ليقول بنبرة متثاقلة وجازمة:

ـ لن أغيِّر طريقي بسبب اسمي، ولا اسمي من أجل طريقي.

وتبع ذلك صمت طويل بارد، وتحاشت العيون النظرات وخلع عُمَر حذاءه وتمدّد بحثاً عن النوم. وكان أنْ لاحقه حسن مُلِحّاً بقوله:

ـ ربما أسأت إليك عندما ذكّرت بهذه التقاليد، ولكني أردت فقط أن تكون حذِراً عند ذكر اسمك في هذا المكان. لا تُخطىء الحكم على مقاصدي. لقد حدث أن شاركتُ بالطبع وأنا صبي في «قُم» بهذه الاحتفالات، ولكن ما إن بلغتُ المراهقة حتى تغيّرت نظرتي إليها، وأدركتُ أن مثل هذا الإفراط لا يليق برجل العلم. ولا هو موافق لتعاليم الرسول. وكذلك هو الأمر عندما تؤخذ في سمرقند أو خارجها برؤية مسجد مكسوّ بشكل رائع بالقاشاني الذي صنعته أيدي حرفيّي قاشان الشيعيين، ثم يكيل خطيبُ هذا المسجِد نفسِه من فوق منبره الشتائم واللعنات على «الزنادقة الملاعين من شيعة علي»، فهذا أيضاً لا يتوافق وتعاليم الرسول.

رفع عُمَر رأسه قليلاً وقال:

ـ هذه أقوال رجل أريب.

ـ أعرف كيف أكون أريبَ كما أعرف كيف أكون مُخَبَّلاً. وفي وسعي أن أكون لطيفاً أو مقيتاً. ولكن كيف السبيل إلى إظهار المودّة لمن جاء يشاطرك حجرتك من غير أن يُكلِّف نفسه حتى عناء التعريف بشخصه؟

حسبي أن أخبرك بأني أُدعى «عُمَر» لكي تغمرني بأقوال فظّة، فإذا كنت لتقول لو انتسبت نسباً كاملاً؟

ـ ربما لم أكن لأقول شيئاً من كل ذلك. فمن الممكن مقتُ عُمَر الخليفة وعدمُ الشعور بغير التقدير والإعجاب بعُمَر المهندس، عُمَر عالم الجبر، عُمَر الفلكي، بل عُمَر الفيلسوف.

واعتدل الخيّام، وانتصر حسن قائلاً:

– أتظنّ أنه ليس في مُكنة المرء معرفة الناس إلا بأسمائهم؟ يمكن معرفتهم من نظرتهم، من مشيتهم، من الهيئة والنبرة اللتين يتّخذونهما. فمُذ دخلت علمت أنك رجل علم ومعرفة متعوّد على التكريم وهو يبدي في الوقت نفسه الاحتقار للتكريم، رجل يصل من غير أن يسأل عن طريقه. وما إن هممتَ بنطق اسمك حتى فهمت، فأذناي لا تعرفان غير عُمَرٍ نيسابوريّ واحد.

– إن كنتَ قد سعيتَ إلى التأثير فيّ فعليّ الاعتراف بأنك نجحت. فمن أنت إذن؟

– لقد قلت لك اسمي، ولكنّه لا يوقظ في نفسك شيئاً. إني حسن الصبّاح من «قُم». ولست أدّعي مجداً غير أنني أتممت في السابعة عشرة قراءة جميع ما يخصّ علوم الدين والفلسفة والتاريخ والنجوم.

– لا يتسنّى قطُّ للمرء أن يقرأ كل شيء، فهناك كثير من المعارف عليه تحصيلها كل يوم!

– اختبِرْني.

وأخذ عُمَر يطرح بدافع اللهو على مُخاطَبه بعض الأسئلة عن أفلاطون وأقليدس وبرفوريوس وبطليموس، عن طبّ دياسقوريدس وجالينوس والرازي وابن سينا، ثم عن التفسير والفقه. وكان جواب رفيقه يأتي على الدوام دقيقاً محدَّداً لا مأخذ عليه. وعندما لاح الفجر لم يكن أيّ منهما قد نام ولا أحسّ بالزمن يمضي. وشعر حسن بغبطة حقيقية. وأما عُمَر فقد سُحر ولم يكن في وسعه إلّا أن يعترف قائلاً:

– لم يسبق لي أن قابلت رجلاً يعرف كلّ هذا القدر من الأمور. ما الذي تنوي أن تصنعه بجميع هذه المعارف المُتَحَصَّلة؟

نظر إليه حسن بارتياب وكأنما انتُهك نصيب حريز من نفسه، ولكنّه لم يلبث أن استعاد هدوءه وخفض بصره وقال:

– أودّ مقابلة نظام الملك، فلعلّ لديه عملاً لي.

لقد استحوذ رفيق الخيّام على مشاعره حتى غدا قاب قوسين أو أدنى من إخباره بأنه هو بالذات في طريقه إلى الوزير العظيم. ومع ذلك فإنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة. فقد ظلّت فيه بقية من حذر ما كان ليختفي وإن جهد في الابتعاد.

وإذا انضمّا بعد يومين إلى إحدى قوافل التجّار فقد سارا جنباً إلى جنب مردّدَيْن بوفرة من الذاكرة، بالفارسية أو بالعربية، أجمل صفحات الكتّاب الذين يكنّان لهم الإعجاب. وكان يحتدم نقاش في بعض الأحيان، بيد أنه لا يلبث أن ينقضي. وعندما كان حسن يتحدّث عن أمور يقينية ويرفع نبرته ويعلن عن «حقائق لا مِراء فيها» ويفرض على رفيقه قبولها، كان عُمَر يظلّ في شكّ من أمره ويمضي في مقايسة آراء شتّى، ونادراً ما كان يختار واحداً منها، بل كان يُبدي جهله طوعاً. وكانت تعاود فمه بلا انقطاع هذه الكلمات: «ماذا تريد أن أقول، هذه الأمور محجوبة، وأنا وأنت واقفان عند ناحية الحجاب نفسها، وحينما يسقط لن نكون في هذه الدنيا».

ومرّ أسبوع بالسفر، وإذا هما في أصفهان.

12

يقول الفرس اليوم: «أصفهان نصفي جهان». «أصفهان نصف الدنيا!» لقد وُلدت العبارة بعد عصر الخيّام بكثير، ولكن كم من كلمة سبقت ذلك ـ عام 1074م ـ للتّغنّي بالمدينة: «حجارتها من غالية (كبريت الرصاص) وذبابها نَحْل وعشبها زعفران»، «هواؤها شديد النقاء مفعم بالعافية، وأهراؤها لا تعرف السّوس، وما من لحم فيها يفسد». والحق أنها قائمة على ارتفاع خمسة آلاف قدم. ولكنّ أصفهان تؤوي كذلك ستين فندقاً ومئتي صيرفي وصرّاف وعدداً لا يُحصى من الأسواق المسقوفة. ومُحتَرَفاتها تغزل الحرير والقطن. وسجّادها وأقمشتها وأقفالها تُصدَّر إلى أبعد المناطق. وورودها تتفتّح ألف نوع ولون. وغِناها مضرب الأمثال. وتجتذب هذه المدينة، أوْفَرُ مدن العالم الفارسي سكّاناً، جميعَ الساعين إلى النفوذ والثروة والمعرفة.

أقول «هذه المدينة»، بيد أن الأمر ليس أمر مدينة بكل ما في الكلمة من معنى. وما زال يُحكى فيها على أي حال قصّة شاب مسافر من الرَّي كان من تعجّله رؤية عجائب أصفهان أن انفصل عن قافلته آخِرَ يوم وعدا وحيداً مُرْخِياً لجواده العِنان. وإذ وجد نفسه بعد بضع ساعات على ضفّة «زَنْدَروذ»، «نهر الحياة»، فقد

حاذاه وبلغ سوراً من التراب. وبدت له الأرباض مترامية، غير أنها كانت أصغر بكثير من أرباض مدينته الرَّي. وإذ بلغ الباب فقد استعلم من الحراس وأجابوه:

ـ هذه مدينة «جَيّ».

ولم يُكلِّف نفسه على ذلك حتى عناء دخولها بل دار حولها وتابع طريقه نحو الغرب. وكان المسير قد أضنى مطيّته بيد أنه ساطها بلا رحمة. وسرعان ما وجد نفسه لاهثاً أمام أبواب مدينة أخرى أكثر مهابة من الأولى غير أنها تكاد تكون أوسع مساحة من الرَّي. وسأل ماراً عجوزاً.

ـ هذه هي «اليهودية»، مدينة اليهود.

ـ هل في هذه البلاد كثير من اليهود؟

ـ هناك بعضهم، غير أن معظم الأهالي مسلمون مثلي ومثلك. ويُقال إنها تُسمّى «اليهودية» لأن الملك نبوخذ نصّر أقام فيها اليهود الذين أبعدهم عن القدس؛ ويزعم بعضهم أن زوجة يهودية لأحد أكاسرة الفرس هي التي جلبت إلى هذا المكان قبل الإسلام أناساً من مِلّتها. واللّه وحده العليم!

واستدار مسافرنا الشاب على هذا وقد عقد العزم على متابعة طريقه حتى ولو نَفَق حصانه تحته، فناداه العجوز قائلاً:

ـ وإلى أين تنوي الذهاب بمثل هذه السرعة يا بني؟

ـ إلى أصفهان.

وقهقه العجوز وقال:

ـ أما سبق أن أخبرك أحد قطّ بأن لا وجود لأصفهان؟

ـ كيف إذن، أليست أكبر مدن فارس وأجملها؟ ألم تكن في غابر الأزمان عاصمة ملك البارتيين «أرطبان» الزاهية؟ ألم تتغنّ الكتب بعجائبها؟

ـ لست أدري ما تقول الكتب، ولكنّي وُلدت هنا منذ سبعين

عاماً، والأغراب وحدهم يحدّثونني عن مدينة أصفهان وأنا لم أرها قطّ.

لقد كاد يكون مبالغاً. فاسم «أصفهان» لم تُعرَف به مدينة وإنما عُرفت به طويلاً واحةٌ كانت تقوم فيها مدينتان متميّزتان تفصل بينهما مسافة ساعة من السير هما «جَيّ» و«اليهودية». وقد وجب الانتظار إلى القرن السادس عشر لتنصهر هاتان المدينتان والقرى المجاورة لهما في حاضرة حقيقية. وأما في زمن الخيّام فلم يكن لها وجود، غير أن سوراً كان قد شُيِّد بطول ثلاثة فراسخ (ما يعادل اثني عشر ميلاً) وقُصد به حماية الواحة جميعاً.

وصل عُمَر وحسن في ساعة متأخرة من المساء. وقد وجدا مأوى في «جَيّ» في فندق قريب من باب «طيره». وهناك تمدّدا، ومن غير أن يتبادلا أدنى كلمة أخذا يغطّان معاً.

وفي اليوم التالي مضى الخيّام إلى الوزير الأعظم. وفي «ميدان الصرّافين» كان المسافرون والتجّار من جميع الأصقاع، من أندلسيين وروم وصينيّين، يصرّفون أمورهم حول النقّاد المزوّدين عن جدارة بموازينهم النظامية، وكانوا يحكّون ديناراً كرمانياً أو نيسابورياً أو إشبيلياً أو يتشمّمون «طنقا» من دلهي، أو يَزِنون دِرهماً من بُخارى، أو يبرطمون أمام «نومسما» من القسطنطينية نقصت قيمته حديثاً.

لم يكن باب «الديوان» مقرِّ الحكومة وإقامة نظام الملك الرسمية، بالبعيد. وقد وقف عنده زامِرون من حرس «النَّوْبة» كُلِّفوا النفخ في أبواقهم ثلاث مرات في اليوم على شرف الوزير الأعظم. وعلى الرغم من أمارات الأبّهة هذه فقد كان بإمكان أيّ إنسان الدخول، حتى أوضع الأرامل كان مسموحاً لهنّ بغَشَيان «الديوان» قاعةِ الاجتماعات الفسيحة، للدنّو من أقوى رجل في الإمبراطورية وعَرْضِ الدموع والمظالم عليه. وهنا فقط يحيط

الحرس والحجّاب بنظام الملك ويستجوبون الزوّار ويُزيحون المزعجين.

توقّف عُمَر في فرجة الباب وأخذ يحدّق في الحجرة وجدرانها العارية وطبقات السجّاد الثلاث التي تغطي أرضها. وحيّا بحركة متردّدةِ الحضورِ، وهم خليط منسجم محيطٌ بالوزير المشغول في تلك الساعة بحديث مع ضابط تركي. ولمح نظام الملك بطرف عينه القادم الجديد فابتسم له بودّ وأشار إليه بالجلوس. وما هي إلا دقائق خمس حتى قدِمَ إليه وقبّله في وجنتيه ثم في جبينه.

ـ كنت في انتظارك، وكنت أعلم علم اليقين أنك ستأتي في موعدك، إن عندي كثيراً من الأمور أحدّثك بها.

وعندها قاده بيده نحو حجرة صغيرة ملاصقة ليخلو به فيها. وجلسا جنباً إلى جنب على وسادة ضخمة من الجلد.

ـ سوف تباغتك بعض أقوالي، ولكنّي آمل في نهاية الأمر ألّا تندم على أنك أجبت دعوتي.

ـ لم يسبق أن ندم أحد قطّ على اجتياز باب نظام الملك!

وتمتم الوزير بابتسامة ضارية:

ـ لقد حدث. فقد رفعت أناساً إلى عنان السماء وخفضت آخرين، وكلّ يوم أوزّع الحياة والموت، وسوف يحاسبني اللّه على مقاصدي فهو مصدر كل سلطان. ولقد عُهد بالسلطة العليا إلى الخليفة العربي فتنازل عنها للسلطان التركي فوضعها هذا بين يَدَي الوزير الفارسي، خادمك. وأنا أطالب غيرك باحترام هذه السلطة. وأما أنت يا «خوجة» عُمَر فأسألك أن تحترم حُلمي. أجل فأنا أحلم بأن أشيد فوق هذه المنطقة الشاسعة الآيلة إليّ أقوى دولة في الدنيا وأكثرها ازدهاراً واستقراراً وانتظاماً. أحلم بإمبراطورية يحكم كلَّ إقليم فيها وكلَّ مدينة رجلٌ عادل يخاف اللّه ويهتمّ

بشكاوى أضعف الرعيّة. أحلم بدولة يشرب فيها الذئب والحمل معاً بكل دعة ماء الساقية عينها. غير أني لا أكتفي بأن أحلم، بل أبني. طُف غداً بأحياء أصفهان تَرَ أفواج العاملين في الحفر والبناء، والحرفيين الغارقين في العمل. ففي كل مكان تنتصب المصحّات والمساجد والفنادق والقِلاع وقصور الحكومة. وما هي إلا أن يكون لكل مدينة مهمّة مدرسة كبيرة تحمل اسمي، «المدرسة النظامية». لقد بدأت مدرسة بغداد بالعمل، وقد رسمتُ بيدي خطّة الأمكنة وحدّدت منهاج الدروس واخترت لها أفضل المعلّمين، وخصصت كل طالب بمنحة. وهذه الإمبراطورية كما ترى ورشة ضخمة، وها هي ذي تقوم وتتفتّح وتزدهر. إنه لَعَصْرٌ مبارك تكرّمت السماء علينا بالعيش فيه.

دخل خادم يميل شعره إلى الشُقرة. وانحنى حاملاً صينية من الفضة المنقوشة عليها قدحان من شراب الورد المثلج. وتناول عُمَر أحدهما وكان ينضح بغبش بارد فغمس فيه شفتيه وقد عزم على احتسائه طويلاً. وجرع نظام الملك قدحه دفعة واحدة قبل أن يتابع قائلاً:

ـ وجودك في هذا المكان يُبهجني ويُشرِّفني.

أراد الخيّام أن يردّ على هذه الهجمة الودّية فمنعه نظام الملك بحركة من يده وقال:

ـ لا تظن أني أحاول تملُّقك. فأنا من نفوذي بغنى عن التسبيح بغير آلاء الخالق عزّ وجل. ولكنْ تأمّل يا «خوجة» عُمَر أنه مهما يكن من سعة إمبراطوريةٍ ما ووفرة أهلها وثرائها فهناك دائماً قحط في الرجال. فكم في الظاهر من مخلوقات ومن أمكنة تعجّ بالناس ومن جموع غفيرة! ومع ذلك يحدث أن أتأمّل في جيشي المبثوث، وفي مسجدٍ وقت الصلاة، وفي سوق من الأسواق، وحتى في ديواني، وأتساءل: لو طالبت هؤلاء الرجال

بعمل حكيم، بمعرفة من المعارف، بولاءٍ ما، بإبداء النزاهة والإخلاص، أفلا أرى الحشد عند كل مزيّة أعدِّدها يرقّ ثم يذوب ويتلاشى؟ أجد نفسي وحيداً يا «خوجة» عُمَر، وحيداً إلى حدّ القنوط. ديواني خاوٍ، وقصري كذلك. هذه المدينة وهذه الإمبراطورية، إنهما خاويتان. أشعر على الدوام بأنّ عليّ أن أصفّق وإحدى يديّ خلف ظهري. ورجال مثلك لن أكتفي باستقدامهم من سمرقند، بل أنا مستعدّ للذهاب بنفسي سيراً على قدميّ إلى سمرقند للإتيان بهم.

وغمغم عُمَر عبارة «لا قدّر اللّه!»، غير أن الوزير لم يتوقّف عندها.

ـ تلك هي أحلامي وهواجسي. بوسعي أن أحدّثك عنها أياماً ولياليَ، غير أني أرغب في سماعك. ما أعجل ما أريد أن أعرف إذا كان هذا الحلم يؤثّر فيك بشكل من الأشكال، إذا كنت مستعدّاً أن تشغل إلى جانبي المنصبَ الذي تستحقّ.

ـ مشاريعك مثيرة للحماسة وثقتك تشرِّفني!

ـ ماذا تطلب للتعاون معي؟ قُلْهُ بلا مواربة، كما حدّثتك أنا نفسي. كل ما ترغب به سوف تناله. لا تُظْهِر الورع، ولا تدع لحظة سخائي المجنون تمرّ!

وضحك. وأفلح الخيّام في تغليف ارتباكه الشديد بابتسامة شاحبة وقال:

ـ لا أريد شيئاً غير متابعة أعمالي المتواضعة في مأمن من الحاجة. ما أسدّ به رمقي وأؤمن مسكني وملبسي، ولست أطمح في أكثر من ذلك.

ـ أما السكن فإني أقدّم إليك أحد أجمل منازل أصفهان. لقد أقمت فيه أنا نفسي في أثناء تشييد هذا القصر. وسيكون لك بحدائقه وبساتينه وسجّاده وخَدَمه وخادماته. وأما نفقتك فأُجري

لك راتباً قدره عشرة آلاف دينار سلطاني. وسوف تُدفع لك ما دمتَ حيّاً في مطلع كل عام. هل يكفيك هذا؟

ـ أكثر مما أحتاج إليه، ولا أدري ما أفعل بمثل هذا القَدْر.

كان الخيّام صادقاً، بيد أن نظام الملك اهتاج للأمر وقال:

ـ إذا اشتريتَ جميع الكتب وملأت خوابيك بالخمر وغمرت خليلاتك بالحلى فسوف توزع الصدقات على المحتاجين وتموّل محمل الحجّ وتبني مسجداً باسمك!

وإذ فهم عُمَر أن زهده وتواضع مطالبه لم يروقا لمضيفه فإنه تشجّع قائلاً:

ـ لقد طالما رغبت في بناء مَرْصَد بقبّة مسدّسة من الحجر، وبالإصطرلاب وآلات شتّى. ففي ودّي أن أقيس طول السنة الشمسية الصحيح.

ـ لبّيك! فابتداء من الأسبوع المقبل يُصرف لك المال اللازم وتختار المكان الملائم ويقوم مَرْصَدك خلال بضعة أشهر. لكن قُلْ لي ألا يرضيك شيء آخر؟

ـ لا أريد واللّه شيئاً، فكَرَمُك غمرني وأغرقني.

ـ أأستطيع يا تُرى أن أسألك بدوري أمراً؟

ـ من دواعي سروري بعد كل ما قدّمته إليّ أن أبدي نصيباً ضئيلاً من عرفاني الكبير بجميلك.

ولم يدعه نظام الملك يُبدي رجاءه، بل قال:

ـ أعلم أنك كتوم قليل الميل إلى الكلام، وأعلم أنك حكيم وعادل ومُنْصِف وأهل لتمييز الصواب من الخطأ في كل شيء، وأعلم أنك جدير بالثقة: أودّ أن أضع بين يديك أصعب المهمّات.

وتوقّع عُمَر أسوأ ما يمكن أن يكون، وفي الحقّ أن أسوأ ما يمكن أن يكون كان في انتظاره.

ـ لقد عيّنتُك «صاحب الخبر».

ـ «صاحب الخبر»، أنا، رئيس الجواسيس؟

ـ رئيس مخابرات الإمبراطورية. لا تتعجّل الجواب، فليس في الأمر تجسّس على الصالحين، ولا دخول لمنازل المؤمنين، وإنما فيه سهر على راحة الجميع. إنّ أقلّ اغتصاب، بل أدنى ظلم، في دولةٍ ما ينبغي أن يعرف به الملك ويقمعه بطريقة تكون عِبرة لمن يعتبر، أياً كان المذنب. وكيف العلم بأن القاضي الفلاني أو الوالي الفلاني لا يستغلّ منصبه للإثراء على حساب الذين لا حول لهم ولا قوة؟ بوساطة عيوننا، لأنّ الضحايا لا يجرؤون دائماً على التظلم!

ـ ينبغي كذلك ألّا ندع لهؤلاء العيون أن يشتريهم القضاة أو الولاة أو الأمراء، ألّا ندعهم يصبحون شركاءهم!

ـ إن عملك، عمل «صاحب الخبر»، هو بالضبط العثور على رجال يستعصون على الفساد وتكليفهم هذه المهمّات.

ـ الأيسر تعيين هؤلاء الرجال أنفسهم ولاة أو قضاة إنْ وُجدوا!

ملاحظة ساذجة، ولكنها بدت ناضحة بالتهكّم في أُذُنَيْ نظام الملك. وعيل صبره فنهض وهو يقول:

ـ لا رغبة لي في الحِجاج. قلت لك ما أعرضه عليك وما أنتظره منك. إذهبْ وفكّرْ في اقتراحي وزُنْ بهدوء خيره وشرّه، وارجع إليّ غداً بجواب.

13

يفكّر، يروز، يقوّم؛ لم يكن الخيّام قادراً على هذا كلّه في ذلك اليوم. وما إن خرج من «الديوان» حتى خاض في أضيق أزقّة السوق ومشى متلوّياً بين الناس والبهائم وتقدّم تحت قِباب الجصّ بين أكوام التوابل. وكان الزقاق يُظلم شيئاً فشيئاً عند كل خطوة، وبدا كأنّ حشد الناس يتحرّك ببطء ويتمتم بالسباب، وكأن التجّار والمنادين ممثّلون مُقنَّعون أو راقصون يسيرون في أثناء النوم. وسار عُمَر على غير هُدى، يَسرةً تارةً ويمنة أخرى، وكان يخشى الوقوع أو الإغماء. وبغتة أفضى به الزقاق إلى ميدان صغير سابح في النور وكأنّه مَضَاءة في دُغل. وساطته الشمس الساطعة فاعتدل وتنفّس. ماذا به؟ لقد عُرضت عليه الجنّة مُوثقةً إلى الجحيم فكيف يقول نعم وكيف يقول لا، وبأيّ وجه يَمْثُل أمام الوزير الأعظم، وبأيّ وجه يغادر المدينة؟

كان على يمينه باب حانة موارب فدفعه وهبط بضع درجات مُتْرِبة فاستقرّ في حجرة واطئة السقف رديئة الإنارة. وكانت أرضيتها الترابية لزجة ومقاعدها مقلقلة وموائدها مبلّلة. وطلب نبيذاً صِرفاً من خمر «قُمْ» فأُتي به في إبريق مُثَلَّم. واجتساه طويلاً مغمضَ العينين.

«انقضى عهد الصبا الميمون،
«ولكي أنسى اسكب الخمر.
«طعمها مرّ؟ هكذا يُعجبني،
«هذه المرارة هي طعم حياتي».

ولكنْ خطرت بغتة فكرة. وما من شكّ في أنه كان عليه الغوص إلى عمق هذه الحانة الكريهة للعثور عليها، هذه الفكرة؛ كانت في انتظاره هنا، على هذه المائدة عند الجرعة الثالثة من الكأس الرابعة. ودفع الحساب وترك حُلواناً سخيّاً وعاد إلى الفضاء. كان الليل قد خيّم، وقد خلا الميدان من الناس، وكل زقاق من أزقّة السوق قد قُطع بباب ثقيل واقٍ. وكان على عُمَر أن يدور دورة طويلة للعودة إلى فندقه.

عندما دخل غرفته على أطراف أصابعه كان حسن قد نام ووجهه متجهّم منغّص. وتأمّله عُمَر مليّاً. وكان يمرّ في خاطره ألف سؤال، ولكنّه أزاحها كلّها من غير أن يحاول الإجابة عنها. لقد قرّ قراره، ولا عودة عنه.

تدور في الكتب أسطورة تتحدّث عن ثلاثة أصدقاء من الفرس طَبَع كلّ منهم بطريقته بدايات أعوامنا الألف: عُمَر الخيّام الذي رَصَد العالم، ونظام الملك الذي حَكَمه، وحسن الصبّاح الذي أرهبه. ويُقال إنهم طلبوا العلم معاً في نيسابور. وهذا ما لا يمكن أن يكون صحيحاً، فنظام الملك أكبر من عُمَر بثلاثين عاماً، وحسن درس في الرّي، وربما طلب بعض العلم أيضاً في مسقط رأسه «قُمْ»، ولم يكن ذلك بالتأكيد في نيسابور.

أتكون الحقيقة قابعة في «مخطوطة سمرقند»؟ إن الأخبار التي تملأ الهوامش تؤكّد أن الرجال الثلاثة التقوا للمرّة الأولى في أصفهان في «ديوان» الوزير الأعظم بمبادرة من الخيّام تلميذ القَدَرِ المستسلم إليه استسلاماً أعمى.

انفرد نظام الملك في الحجرة الصغيرة من القصر وحوله بعض الأوراق. فمُذ رأى وجه عُمَر في فرجة الباب كان قد أدرك أن الجواب سيكون بالنفي.

ـ أنت لا تبالي إذن بمشاريعي.

وأجاب الخيّام كسيرَ الفؤاد، ولكنْ جازماً:

ـ أحلامك جليلة وأرجو أن تتحقّق، ولكنّ إسهامي لا يمكن أن يكون ما اقترحته عليّ. فبين الأسرار ومن يبوحون بها أنا في صفّ الأسرار. فما إن يأتي عامل لينقل إليّ حديثاً حتى أُلزِمه الصمت قائلاً له إن ذلك لا يعنيه ولا يعنيني، ثم أحرِّم عليه منزلي. ففضولي عن الناس والأشياء يختلف التعبير عنه عندي.

ـ أحترم قرارك، ولا أظن من غير المُجْدي للإمبراطورية أن ينصرف الناس بكلّيتهم إلى العلم. وما وعدتُك به، الذهب السنوي والمنزل والمَرْصَد، جميع ذلك منذور لك بالطبع، فأنا لا أسترجع قطّ ما أعْطَيْتُه عن طيب خاطر. لقد كان بودّي أن أشركك في عملي عن كثب، وعزائي أن أقول لنفسي إن المؤرّخين سيكتبون للخَلَف: لقد عاش في زمن نظام الملك عُمَر الخيّام، وقد كُرِّم بمأمن من العوادي وكان في وسعه قول «لا» للوزير الأعظم من غير أن يتعرّض للعقاب.

ـ لست أدري إن كنت سأستطيع يوماً أن أظهر كلّ الامتنان الذي تستحقّه أرْيَحِيَّتُك.

وتوقَّف عُمَر عن الكلام وتردّد قبل أن يتابع قائلاً:

ـ قد أستطيع إنساءك رفضي بأن أقدِّم إليك رجلاً التقيته منذ بعض الوقت. إنه شديد الفطنة وعلمه غزير ومهارته تخلب الألباب. ويُخيّل إليّ أنه منذور لمنصب «صاحب الخبر»، وأنا على ثقة بأنّ اقتراحك سوف يُسعده. وقد اعترف لي بأنه قدِم من الرَّي إلى أصفهان على أمل وطيد في أن يُوَظَّف إلى جانبك.

وتمتم نظام الملك وهو يصرف بأسنانه:

ـ إنه لَطَموح. وهنا بالتأكيد موقع مصيري. فعندما أجد رجلاً جديراً بالثقة يكون فاقد الطموح حذِراً من أمور السلطة؛ وعندما يُخيَّل إليّ أن امرأً مستعدّ للانقضاض على أول منصب أقدِّمه له فإنّ تعجّله يقلقني.

وبدا مُتْعَباً مُسْتَسْلماً وقال:

ـ وكيف يُدعى هذا الرجل؟

ـ حسن بن علي الصبّاح. ومع ذلك فإن عليّ إخبارك بأنه مولود في «قُمْ».

ـ شيعي إمامي؟ إن هذا لا يزعجني. على الرغم من كوني مناهضاً لجميع الهرطقات وجميع الانحرافات. إن بعض خير أعواني هم من شيعة عليّ، وخير جنودي هم من الأرمن، وخَزَنتي هم من اليهود، ومع هذا فإني لا أضنّ عليهم بثقتي وحمايتي. إنّ الوحيدين الذين أحذرهم هم الإسماعيليون. إنّ صاحبك لا ينتمي إلى هذه الفرقة على ما أعتقد؟

ـ لست أدري. ولكنّ حسناً رافقني إلى هنا. وهو ينتظر في الخارج. وإذا أذنتَ ناديتُه، وفي إمكانك أن تسأله.

واختفى عُمَر بضع لحظات. وعاد مصحوباً بصديقه الذي لم يبدُ قط خجِلاً. ومع هذا فإن الخيّام لاحظ تحت لحيته عضلتين كانتا تنبسطان وترتجفان.

ـ أُقدِّم إليك حسن الصبّاح، وما سبق أن جمعت عمامة مشدودة كهذه مثل هذا القدر من العِلْم.

وابتسم نظام الملك وقال:

ـ هاأنذا تحيط بي الحكمة من كل صوب. ألا يقال إن الأمير الذي يعاشر العلماء هو خير الأمراء؟

وكان حسن هو الذي أجاب:

ـ يُقال أيضاً إن العالِم الذي يعاشر الأمراء هو أسوأ العُلماء.

وقرّب بينهم ضحكة مدوِّية وصريحة، بيد أنها مقتضبة. فما لبث نظام الملك أن قطّب ما بين حاجبيه راغباً في الإسراع في مفارقة المماحكة التي لا محيص عنها، والتي تفضي إلى كلّ جدال فارسي لا طائل تحته، لكي يعرض على حسن ما ينتظره منه. ولكنْ وجدا أنفسهما ـ ويا للغرابة ـ متواطئين منذ الكلمات الأولى، وما كان على عُمَر إلا أن يتوارى.

سرعان ما وجد حسن الصبّاح نفسه على هذا معاوناً لا غنى عنه للوزير الأعظم. فقد نجح في إقامة شبكة غنيّة النسج من العُملاء، من التجّار المزيَّفين والدراويش المزيّفين، والحجّاج المزيّفين، يرودون الإمبراطورية السلجوقة غير غافلين عن سماع ما يجري في أيّ قصر أو أيّ بيت أو أيّ ركن من أركان السوق. فجميع المؤامرات والشائعات والنمائم كان يُخْبَرُ بها وتُحْبَطُ بطريقة سرِّية أو بشكل تكون معه عبرة لمن يعتبر.

غمرت السعادة في الأيام الأولى نظام الملك، فالآلة الرهيبة بين يديه، وهو فخور بها عند السلطان ملكشاه الّذي كان حتى ذلك الحين متحفّظاً بشأنها. أفما أوصاه أبو ألب أرسلان بأن يُعارض هذا النمط من السياسة؟ لقد حذّره قائلاً: إذا بثثتَ العيون في كلّ مكان لم يَرْتَبْ أصدقاؤك الخلّص لعلمهم بإخلاصهم، وارتاب في الوقت عينه الخونة. فهم راغبون في رشوة المخبرين. ولسوف تتلقّى شيئاً فشيئاً تقارير ليست في مصلحة أصدقائك الحقيقيين، وهي في مصلحة أعدائك. والأقوال ـ حسنة كانت أو سيئة ـ هي من جهة أخرى كالسهام إذا أُطلق كثير منها أصاب واحد غرضه. وعندها ينغلق قلبك في وجه أصدقائك ويتخذ الخونة أمكنتهم بالقرب منك، فماذا يبقى من سلطانك؟

ولقد انبغى أنه يفتضح أمر مسمِّمة في جناح حريم السلطان

لكي ينقطع عن الارتياب في نفع رئيس الجواسيس؛ وما هي إلا عشية وضحاها حتى جعل منه أحد خاصّته. غير أن نظام الملك هو الذي قَلِق حينئذٍ من الصداقة التي نشأت بين حسن وملكشاه. فالرجلان شابّان، ويحدث أن يتمازحا على حساب الوزير الكهل، ولا سيّما يوم الجمعة، يوم «الشوْلن»، المأدبة التقليدية التي يقيمها السلطان لخاصّته.

والقسم الأول من هذه الاحتفالات رسميّ للغاية ومتحفِّظ جداً. فنظام الملك جالس على يمين ملكشاه يحيط بهما رجال الأدب والعلم، ويحتدم النقاش في أكثر الموضوعات تنوّعاً، من مزايا السيوف الهندية أو اليمنية إلى شتّى القراءات في ما كتب أرسطو. ويتحمّس السلطان برهة لهذا النوع من الأحاديث ثم يتلهّى فلا تُحَدِّق له عَيْن. ويدرك الوزير أن ساعة الرحيل قد أزفّت ويتبعه المدعوون ويستمرّ الشُرب، على مهل أو بشكل جنوني تبعاً لمزاج السلطان، حتى الصباح. وبين فاصلين من ضبط الربابة أو العود أو الطار يرتجل القوّالون الأقوال في موضوعهم الأثير: «نظام الملك». فلما كان السلطان عاجزاً عن الاستغناء عن وزيره القويّ فإنه ينتقم لنفسه بالضحك. ويكفي أن يعاين المرء الاندفاع الصبياني الذي يصفّق فيه بيديه ليدرك أنه سيبلغ به الأمر يوماً أن يضرب «أباه».

ويعرف حسن كيف يتعهّد لدى السلطان كل أمارة من أمارات الوَجْد على وزيره. بمَ يتفوّق نظام الملك، بحكمته، بمعرفته؟ إن حسن ليباهي بهذه وتلك ببراعة. بمقدرته على حماية العرش والإمبراطورية؟ لقد أثبت حسن في مدة وجيزة مثل هذه الأهلية. بإخلاصه؟ ما أسهل التظاهر بالولاء، فليس أصدقَ منه في الأفواه الكاذبة.

ويعرف حسن أكثر من كل ذلك كيف ينمّي في ملكشاه شُحَّه

الذي هو مضرب الأمثال فهو لا ينفكّ يحدّثه عن نفقات الوزير ويلفت نظره إلى أثوابه الجديدة وأثواب مقرَّبيه. نظام الملك يحبّ السلطة والأبّهة، ولا يحبّ حسن سوى السلطة. وهو يعرف كيف يكون في هذا المضمار واحداً من متقشّفي الهيمنة.

وحين يشعر حسن بأن ملكشاه مستعدّ وناضج لتوجيه الضربة القاضية إلى موجّهه الخفيّ فإنه يفتعل الحادثة. وها هوذا المشهد يجري في قاعة العرش في يوم من أيام السبت. فقد استيقظ السلطان ظهراً وهو يشكو من صُداع مؤلم. ومزاجه قتّال، وقد أخرجه عن طوره أن يعلم أن ستين ألف دينار ذهبي قد وزّعت على العسكر من حرّاس الوزير الأرمن. ولا يشكّ أحد في أن النبأ قد وصل عن طريق حسن وشبكته. وشرع نظام الملك يوضح بصبر أنه ينبغي لاتّقاء أيّ شبح للعصيان تغذية العسكر بَلْهَ تسمينهم، وأنه لوضع حدّ لأدنى تمرّد يُضطرّ المرء إلى إنفاق عشرة أضعاف هذا المبلغ. وردّ ملكشاه بأنه لكثرة ما يُرمى بأكوام الذهب ينتهي الأمر إلى العجز عن دفع الرواتب؛ وعندها تبدأ حركات التمرّد الحقيقية. أليس على الحكومة الصالحة أن تعرف كيف تحتفظ بذهبها للأيام الصعبة؟

وظنّ أحد أولاد نظام الملك الإثني عشر ـ وكان حاضراً ـ أن من الفطنة أن يتدخّل فقال:

ـ في أيام الإسلام الأولى أُخذ على الخليفة عُمَر إنفاقه كلّ المال المجموع في أثناء الفتوح فسأل مُقَرِّعيه قائلاً: «هذا المال، أليس اللّه عزّ وجلّ هو الذي أغدقه علينا من فضله؟ وإذا اعتقدتم أن اللّه ليس بقادر على إسباغ المزيد منه علينا فلا تُنفقوا. وأما أنا فإني أؤمن بكرم الخالق الذي لا حدّ له، ولن أكنز قطعة واحدة في وسعي إنفاقها لخير المسلمين».

لكنّه لم يكن في نية ملكشاه احتذاء هذه القدوة، وكان يفكّر في أمر كان حسن قد أقنعه به، فقال:

ـ آمر بتقديم بيان مفصَّل بكل ما يدخل خزينتي من مال وبالكيفية الدقيقة التي يُصرف بها. فمتى أستطيع الحصول عليه؟

بدا نظام الملك ساهماً وقال:

ـ في وسعي تقديم هذا البيان، ولكنّي أحتاج إلى وقت.

ـ كم من الوقت يا «خوجة»؟

لم يقل «أتا» بل «خوجة»، وهو نداء يدلّ على احترام شديد، غير أنه في هذا المجال شديد البُعد بحيث يشبه كبير الشبيه تبرُّؤاً هو مقدّمة لإقالة.

وأوضح نظام الملك وقد سُقط في يده:

ـ ينبغي إرسال موفد إلى كل إقليم، وإجراء حسابات طويلة. بحقّ اللّه، إن الإمبراطورية شاسعة وسوف يكون من العسير إنجاز هذا التقرير في أقلّ من سنتين.

غير أن حسناً دنا بجلال وقال:

ـ أَعِدُ مولانا إذا هو أمّن لي الوسائل وأمر بوضع جميع أوراق «الديوان» بين يديّ بأن أقدّم له تقريراً كاملاً بعد أربعين يوماً.

وأراد الوزير أن يجيب، بيد أن ملكشاه كان قد نهض. وتوجّه بخطى واسعة إلى باب الخروج وهو يقول:

ـ حسناً جداً، يقيم حسن في «الديوان». وسيكون جميع الكتبة بإمرته. ولا يدخل «الديوان» أحد من غير إذنه. وبعد أربعين يوماً أبتُّ في الأمر.

14

سرعان ما عمّ الاضطرابُ الإمبراطورية وشلّت الإدارة ونُقلت أخبار عن تحرّكات للجند وجرى الحديث عن حرب أهلية. وتردّد أن نظام الملك قد وزّع أسلحة في بعض أحياء أصفهان. وفي السوق حُجبت السلع. وكانت أبواب الأسواق الرئيسية، أبواب الصاغة على الأخصّ، تُغلق منذ العصر. وقد بلغ التوتّر أقصاه في الأمكنة المحيطة بـ «الديوان». فلقد توجّب على الوزير الأعظم أن يتخلّى لحسن عن مكاتبه، غير أن مسكنه واقع بجوارها. ولا يفصله سوى حديقة صغيرة عمّا أصبح مَقَرَّ منافسه. ومن ناحية أخرى فقد تحوّلت هذه الحديقة الصغيرة إلى ثكنة حقيقية وأخذ حرس نظام الملك يرودونها في هياج وهم مُدَجَّجون بالسلاح.

لم يكن أحدٌ أشدَّ ضيقاً من عُمَر. وقد وَدَّ التدخُّل لتهدئة الخواطر وإيجاد تسوية بين الخصميْن. غير أنه إذا كان نظام الملك ما يزال مستمرّاً في استقباله فإنه لم يكن يفوّت فرصة يلومه فيها على «الهديّة المسمومة» التي قدّمها إليه. وأما حسن فكان يعيش على الدوام حبيساً مع أوراقه، مُنْهَمِكاً في إعداد التقرير الذي كان عليه أن يقدّمه إلى السلطان. وفي الليل فقط كان يوافق على التمدّد فوق سجّادة «الديوان» الكبيرة تحفّ به حفنة من الخُلَّص.

وأراد الخيّام مع ذلك القيام بوساطة أخيرة قبل ثلاثة أيام من الأجل المسمّى، فذهب إلى حسن وألحّ على مقابلته، غير أنه سُئِل الرجوع بعد ساعة لأن «صاحب الخبر» مجتمع إلى أُمناء الخزينة. وقرّر عُمَر على هذا أن يتمشّى قليلاً في الخارج. وما إن اجتاز الباب حتى خاطبه أحد خِصيان السلطان بثياب حمراء قائلاً:

ـ ليتكرّم «الخوجة» عُمَر بأن يتبعني فهناك من ينتظره!

وبعد أن قاد الرجلُ الخيّام عبر متاهة من الدهاليز والسلالم ألقى نفسه في حديقة لم يكن ليخطر في باله أن لها وجوداً. كان هناك طواويس تختال بحريّة، وأشجار مشمش مزهرة، وبركة يتعالى خريرها. وبلغا باباً واطئاً مُصَدَّفاً قائماً خلف البركة. وفتحه الخصيّ ودعا عُمَر للتقدّم.

إنها قاعة فسيحة يغطّي الديباج جدرانها وفي طرفها كوّة مدبّبة غير نافذة تحجبها ستارة. واهتزت الستارة مشيرة إلى وجود شخص. وما كاد الخيّام يدخل حتى أُقفل الباب مُحْدِثاً صوتاً ناعماً. ومرّت دقيقة انتظار وحَيْرة، ثم سُمع صوت امرأة. ولم يميّزه وظنّ أنه يسمع لهجة من اللهجات التركية. غير أن الصوت كان خافتاً والكلام مُخْتَدِماً، ولم يكن يطفو منه سوى بضع كلمات وكأنها صخور في سيل. وغاب عنه معنى الخطاب ورغب في قطعه والطلب إلى صاحبته أن تتحدث بالفارسية أو بالعربية، وإن لم يكن فلتتمهّل في الحديث، ولكنّه لم يكن من السهل التوجُّه إلى امرأة من وراء حجاب وعزم على الانتظار حتى تنتهي. وبغتة تبع الصوتَ الأوّل صوتٌ آخر يقول:

ـ مولاتي «تركن خاتون» زوجة السلطان تشكرك لتلبيتك هذا الموعد.

كان الكلام هذه المرة بالفارسية، ولسوف يكون في وسع

الخيّام التعرّفُ على هذا الصوت في مُجمَّع للأسواق في يوم الحشر. وكان على وشك الصياح، ولكن صيحته تحوّلت فجأة إلى همسة فرحة وشاكية:

ـ «جهان»!

وأزاحت حاشية الستارة ورفعت نقابها وابتسمت، بيد أنها منعته من الاقتراب بحركة من يدها، وقالت:

ـ السلطانة منشغلة البال بالصراع الدائر في «الديوان». فالانزعاج يستشري والدم سيُسفك. والسلطان نفسه متأثر تأثراً شديداً للأمر، وقد غدا سريع الغضب، وجناح الحريم يضجّ بصيحات غضبه. ولا يمكن أن تستمرّ هذه الحال. والسلطانة تعرف أنك تحاول المستحيل لمصالحة المتصارعيْن الرئيسييْن، وهي ترجو أن تنجح، غير أن ذلك يبدو لها بعيد المنال.

ووافق الخيّام بهزّة مستسلِمة من رأسه. وتابعت «جهان»:

ـ تُقدِّر «تركن خاتون» أنّه من الأفضل في الحالة التي وصلت إليها الأمور إبعاد الخصميْن وإيكال أمر الوزارة إلى رجل صالح قادر على تهيئة الخواطر. وفي رأيها أن زوجها، مولانا، ليس بحاجة إلى حائكي المكائد المحيطين به، وأنّه لا يحتاج إلا إلى رجل حكيم مجرّد من الدناءات والمطامح، رجل يزن الأمور ويمحض النصيحة. وإذ كانت تَقْدُرُك حقّ قَدْرك فهي ترغب في أن تقترح عليه تعيينك وزيراً أعظم لأن البلاط بأسره سيرتاح إلى هذا التعيين. ومع ذلك فإنها تودّ قبل التقدّم بمثل هذا الاقتراح أن تستوثق من موافقتك.

واستغرق إدراك عُمَر ما يُطلب منه وقتاً طويلاً، بيد أنه هتف قائلاً:

ـ بحق اللّه يا «جهان»، هل تَسْعَيْن إلى هلاكي؟ أتتصوّرينني قائداً جيوش الإمبراطورية، قاطعاً رأس أمير، قامعاً ثورة عبيد دعيني لنجومي.

ـ أصغِ إليّ يا عُمَر. أعرف أنك لا ترغب في تدبير الأمور، وسوف يكون دورك ببساطة أن تكون حاضراً. وأما القرارات فيتّخذها وينفّذها أشخاص آخرون.

ـ بعبارة أخرى تكونين أنتِ الوزير الحقيقي ومولاتك السلطان الحقيقي، هذا هو الأمر، أليس هذا ما تَسْعَيْن إليه؟

ـ وما الذي يمكن أن يزعجك في ذلك؟ ستكون لك الأمجاد من غير أن تساورك الهموم، فماذا يمكن أن ترجو خيراً من هذا؟

وتدخلت «تركن خاتون» لتلوين الحديث وتنويع أفكاره، وأخذت «جهان» تترجم:

ـ تقول مولاتي إن سوء حكمنا راجع إلى أن رجالاً مثلك يُشيحون بوجوههم عن السياسة. وهي ترى أن فيك جميع المزايا لتكون وزيراً ممتازاً.

ـ قولي لها إن المزايا المطلوبة لتولّي الأحكام غير المزايا المطلوبة للوصول إلى سدّة الحكم. فلكي يُحْسِن المرء تصريف الشؤون عليه أن يُنْكِر ذاته ولا يهتمّ إلا بسواه، ولا سيّما بأكثر الناس شقاء؛ ولكي يصل إلى سدّة الحكم ينبغي أن يكون أشدّ الناس طمعاً، وألّا يفكّر إلا في ذاته، وأن يكون مستعدّاً لسحق أقرب أصدقائه إلى قلبه. ولن أسحق أنا أحداً.

لسوف تقف مشاريع المرأتين عند هذا الحدّ في الوقت الحاضر. وسوف يرفض عُمَر الخضوع لما تطلبان. وما كان ذلك ليُجديَ شيئاً على كل حال، فقد غدت المواجهة بين نظام الملك وحسن غير قابلة للتبدّل.

كانت قاعة المقابلات في ذلك اليوم حلبة وادعة، فالأشخاص الخمسة عشر الموجودون فيها اكتفوا بمراقبة أحدهم الآخر في صمت. وكان ملكشاه نفسه، وهو في العادة مُفْرِط في حيويته، يتحدث بصوت خافت جداً مع حاجبه وهو يفتل ـ وتلك خصلة

فيه ـ طرف شاربه. وكان يرمي بنظره بين الفينة والفينة إلى المصارعيْن. فحسن واقف بثوبه الأسود المدعوك، وعمامته السوداء ولحيته التي بدت منخفضة أكثر ممّا هي في العادة، ووجهه الغائر، وعينيه المتّقدتين الجاهزتين للالتقاء بعيني نظام الملك، وإن كانتا محمَّرتين من التعب والسهر. وخلفه مساعد يحمل رزمة من الأوراق ملفوفة بقطعة عريضة من الشريط.

كان الوزير الأعظم، بفضل امتياز العمر، جالساً، بل مسترخياً في جلسته. وكان ثوبه رمادياً، ولحيته شيباء، وجبينه شبيهاً بالرَّق، وكانت نظرته وحدها تبدو شابّة يقظة، بل برّاقة. وكان برفقته اثنان من أولاده وكانا يوزّعان حولهما عبارات الحقد والتحدّي.

وقريباً جداً من السلطان وقف عُمَر عبوساً بقدر ما كان مغموماً. وكان يصوغ في ذهنه أقوالاً للمصالحة لم يقدَّر له قطّ ولا ريب التلفّظ بها.

وسأل ملكشاه قائلاً:

ـ وُعِدْنا بتقديم بيان مُفصَّل عن حالة بيت مالنا، فهل هو جاهز؟

فانحنى حسن وقال:

ـ لقد وفيت بوعدي، والبيان موجود هنا.

والتفت إلى مساعده فتقدّم منه مسرعاً وفكّ الشريط الجلدي وناوله الرزمة فبدأ الصبّاح بقراءتها. ولم تكن الصفحات الأولى، كما جرت العادة بذلك، سوى عبارات شكر وتقريظ واستشهادات بارعة ومدبَّجات بليغة، غير أن الحضور كانوا ينتظرون المزيد. وبلغوا مرادهم عندما أعلن:

ـ لقد استطعت أن أحسب بدقة ما غلّه لبيت المال السلطاني كلُّ إقليم وكلّ مدينة مشهورة. وقدّرت كذلك الغنائم التي غنمناها من العدو، وأنا أعرف الآن كيف أُنفق هذا المال...

وتنحنح بشكل احتفالي وناول مساعده الورقة التي كان قد قرأها وقرّب الثانية من عينيه. وانفرجت شفتاه ثم انطبقتا. وساد الصمت من جديد. وأزاح الورقة وألقى بنظرة إلى التي بعدها وأعادها بدورها في حركة نزقة. ما يزال الصمت يرين.

وتململ السلطان ونَفِذَ صبره وقال:

ـ ماذا يجري؟ إننا نصغي إليك.

ـ مولاي، إني لا أجد البقية. لقد كنت رتّبت أوراقي بالتتابع، ولا بد أنّ الورقة التي أبحث عنها قد سقطت، ولسوف أجدها.

وأخذ بالتنقيب بشكل يدعو للرثاء. وانتهز نظام الملك الفرصة للتدخُّل بنبرة أرادها أن تنضح بالشهامة:

ـ يحدث لكلّ إنسان أن يضيع ورقة، ولا ينبغي مؤاخذة صديقنا الشاب. وأقترح بدلاً من الانتظار على هذا النحو الانتقال إلى بقية البيان.

ـ الحق معك يا «أتا»، لِنَنْتَقِلْ إلى البقية.

وقد لاحظ كل أحدٍ أن السلطان عاد فنادى وزيره بـ «أبي». أيكون هذا أمارة على استعادة الحظوة؟ وبينما كان حسن يسبح في أنكد ارتباك أوغل الوزير في دفع امتيازه بقوله:

ـ لِنَنْسَ هذه الصفحة المفقودة. وبدلاً من جعل السلطان ينتظر فإني أقترح على الأخ حسن أن يقدّم لنا الأرقام الخاصة ببعض المدن أو الأقاليم المهمّة.

وأسرع السلطان إلى الموافقة فاستطرد نظام الملك قائلاً:

ـ لنأخذ مثلاً مدينة نيسابور، وطن عُمَر الخيّام، الحاضر هنا: هل في وسعنا أن نعرف غلّة هذه المدينة وأرباضِها لبيت المال؟

وأجاب حسن الذي كان يسعى إلى الوقوف من جديد على قدميه:

ـ على الفور.

وبيد خبيرة شقّ الرزمة وأراد إخراج الصفحة الرابعة والثلاثين التي كان يعلم أنه كتب فيها كل ما يخصّ نيسابور. عبثاً...

وقال:

ـ الصفحة ليست هنا، لقد اختفت... سُرقت منّي... لقد بُعثِرت أوراقي...

ونهض نظام الملك ودنا من ملكشاه وهمس في أذنه:

ـ إذا لم يكن مولانا واثقاً بأكفأ خدّامه، أولئك الذين يعلمون صعوبة الأمور ويميّزون الممكن من المستحيل فلن يلبث أن يُلفي نفسه مشنوءاً مخدوعاً مشدوداً إلى شفتي مجنون أو دجّال أو جاهل.

لم يرْتَبْ ملكشاه بُرهة في أنه وقع ضحية مكيدةٍ بارعة جداً. وكما يروي الرواة فإن نظام الملك قد أفلح في رشوة مساعد حسن وأمره بإخفاء بعض الصفحات وتغيير ترتيب أخرى مُحيلاً إلى العدم العمل المضني الذي قام به منافسه. وقد جهد هذا الأخير في الإبلاغ عن مؤامرة فغمر الصخب صوته، وكان من السلطان الذي هاله أن يُخدع، أكثر من ذلك أن يلاحظ أنّ محاولته لقلقلة وصاية وزيره قد خابت، كان منه أن ألقى الذنب كلَّه على كاهل حسن. وإذ أصدر أمره إلى حرّاسه بالقبض عليه فقد لفظ في الحال حكمه عليه بالموت.

وتكلّم عُمَر للمرة الأولى فقال:

ـ فَلْيَعْفُ مولانا. قد يكون حسن الصبّاح ارتكب أخطاء، وقد يكون أذنب من جرّاء تفانيه أو اندفاعه، وينبغي أن يُطرد من أجل هذه الجُنح، غير أنه لم يرتكب أي ذنب خطير بحقّك.

ـ لتُسْملْ عيناه إذن! هاتوا الغالِينة وحمّوا الحديد.

ولم ينبس حسن ببنت شفة، وكان أن تدخّل عُمَر مرّة ثانية.

فليس في وسعه أن يدع رجلاً هو الذي وظّفه يُقتل أو تُسمل عيناه... وتوسّل قائلاً:

ـ لا تُنْزِل يا مولاي مثل هذا العقاب بشابّ لا يُمكن أن يسلو إقالَتَه إلا بالقراءة والكتابة.

حينئذٍ قال ملكشاه:

ـ من أجلك أنت يا «خوجة» عُمَر، أحكمَ الناسِ وأطْهَرَهم، أقبل بالرجوع مرة أخرى عن قراري. وعليه فقد حُكم على حسن الصبّاح بالطرد، وسوف ينفي نفسه إلى بلاد بعيدة حتى آخر عمره. ولن يكون بمقدوره قطّ أن يطأ من جديد أرض الإمبراطورية.

غير أن رجل «قُم» سيعود لإنجاز انتقامٍ يُضرب به المثل.

الكِتَابُ الثّاني

فردَوسُ الحَشَاشِين

الجنّة والنار هما في ذات نفسك.

عمر الخيّام

15

لقد مرّت سبع سنوات، سبع سنوات سعيدة للخيّام كما للإمبراطورية، وكانت سنوات السلام الأخيرة.

مائدة منصوبة تحت عريشة عنب، وإبريق طويل العنق لأجود نبيذ أبيض في شيراز، نبيذٍ مُمسَّك بِقَدْرٍ، وحوله وليمة من مئة صَحْفَة صغيرة، ذلك هو احتفال أمسية من أمسيات حزيران (يونيو) فوق شرفة عُمَر. وإنه ينبغي البدء ـ حسبما أوصى ـ بالأخفّ. فالنبيذ والفاكهة أولاً، ثم الأطعمة المؤلّفة من الأرزّ بالبرياريس والسفرجل المحشوّ.

وهبّت ريح خفيفة قادمة من الجبال الصفراء عبر البساتين المزهرة. وتناولت «جهان» عوداً ونقرت منه وتراً ثم آخر. ورافقت الريح الموسيقى المعزوفة البطيئة. ورفع عُمَر كأسه وارتشف ما فيها طويلاً. وأخذت «جهان» تراقبه. وتناولت من فوق المائدة أكبر ثمرة من ثمرات «الجنجول» وأشدِّها حمرة وأنعمِها قشرة وقدّمتها إلى رَجُلها، الأمر الذي يعني في لغة الفاكهة «قُبْلَة في الحال». ومال عليها وتلامست شفاههما وتباعدت، ثم تلامست من جديد وتباعدت واجتمعت. وتشابكت أصابعهما، وقَدِمت

خادمةٌ فأسرعا بالافتراق وتناول كلّ منهما كأسه. وابتسمت «جهان» وتمتمت:

– لو كنت أملك سبع حَيَوات لقضيت إحداها في القدوم كل مساء للتمدّد على هذه الشرفة، على هذا «الديوان» الوثير، ولشربت الخمر وغمست أصابعي في هذا الطاس، فالسعادة تكمن في الرتابة.

وردّ عُمَر:

– حياة أو ثلاث أو سبع، فإني سأُمضيها جميعاً كما أمضي هذه، ممدَّداً على هذه الشرفة ويدي في شَعْرِك.

إنهما معاً ومتباينان. ومع أنهما عشيقان منذ تسع سنوات، ومتزوجان منذ أربع، فإن أحلامهما لا تتعايش دائماً تحت السقف نفسه. فـ «جهان» تلتهم الزمن وعُمَر يحسوه. وإنها لتريد أن تهيمن على العالم وتملك مِسمع السلطانة التي تملك مِسمع السلطان. وهي في النهار تدبّر المكائد في جناح الحريم الملكي وتطّلع على الرسائل المتنقّلة جيئة وذهاباً، وعلى الهمسات التي تدور في المخادع، وعلى الوعود بالمجوهرات، وعلى الآثار الناجمة عن السمّ. وإنها لتهيج وتتململ وتَتَّقِد. وفي المساء تستسلم للسعادة بتلقّي آيات الحبّ. وأما عُمَر فالحياة عنده مختلفة. إنها لذّة العِلْم وعِلْم اللذّة. فهو ينهض متأخراً ويشرب «الصَّبوح» التقليدي ثم يجلس إلى منضدة عمله فيكتب ويحسب ويرسم الخطوط والصور، ثم يعود إلى الكتابة فيكتب في كتابه السرّي قصيدة أو بعض قصيدة.

وفي الليل يذهب إلى المَرْصَد القائم فوق تلّة قريبة من منزله. وما عليه إلا أن يجتاز حديقة ليُلقي نفسه وسط الأدوات التي يُحبّها ويُزيّتها ويُلمّعها بيده. وكثيراً ما يصحبه بعض الفلكيين

العابرين. ولقد انقضت السنوات الثلاث الأولى من إقامته في الاهتمام بمَرْصَد أصفهان فأشرف على تشييده وصَنَعَ آلته ووضع على الأخص التقويم الجديد الذي استُهلّ باحتفالٍ في اليوم الأول من شهر «فاوردان» الموافق للحادي والعشرين من آذار (مارس) عام 1079م وأي فارسي يستطيع أن ينسى أنه بفضل حسابات الخيّام في ذلك العام تغيّر موعد الاحتفال الكبير بيوم «النوروز»، وأن أول العام الذي كان يقع في وسط برج الحوت قد أُخّر إلى أول شمس في برج الحَمَل، وأن الشهور الفارسية تتطابق منذ عملية الإصلاح تلك وأبراج النجوم، إذ أصبح شهر (فاوردان) شهر الحَمَل وشهر (إصفند) شهر الحوت؟ وكان سكان أصفهان وسائر الإمبراطورية يَحْيَوْن، في حزيران (يونيو) 1081م، العام الثالث من التقويم الجديد وكان هذا يحمل رسمياً اسم السلطان. غير أنه في الشارع، وحتى بعض الوثائق، كان يُكتفى بالقول «السنة الفلانية من تقويم عُمَر الخيّام». أيُّ إنسان عرف في حياته مثل هذا الشرف؟ وما أروع أن يكون الخيّام شخصية شهيرة ومحترمة، وهو لا يزال في الثالثة والثلاثين من العمر. وأن يخافه كذلك مَنْ يجهلون نفوره الشديد من العنف والهيمنة.

ما الذي يُدنيه من «جهان» على الرغم من كل شيء؟ أحد التفاصيل، بيد أنه تفصيل ضخم: لا هو ولا هي يريدان إنجاب الأولاد. فقد عزمت «جهان» عزماً قاطعاً على ألّا تثقل نفسها بذُرّية. وتبنّى الخيّام شعار أبي العلاء:

«هذا جناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحَدْ»

ولا نستخِفَّنَّ بهذا السلوك، فليس في الخيّام شيء من صفات المُبْغِض للبشر. أفليس هو القائل: «إذا حَزَبَكَ الألم، إذا بلغ بك أن تمنّيت أن يخيّم على الدنيا ليل أبديّ، ففكّر في الخضرة

المتلألئة بعد المطر، فكّر في انبعاث طفل». وإذا كان قد أبى أن ينجب فلأن الوجود بدا له ثقيل الوطء. فهو لا يفتأ يهتف: «السعيدُ مَنْ لم يظهر قطُّ إلى الدنيا»[1].

ونلاحظ أن الأسباب التي يملكها كلّ منهما لرفض الإنجاب ليست متماثلة. فهي تتصرَّف بوحي فرط الطموح، وهو بوحي فرط الزهد. ولكنْ أن يجتمع رجل وامرأة مرتبطيْن ارتباطاً وثيقاً بسلوك يدينه جميع الرجال والنساء في فارس، وأن يَدَعا الهمس يدور بأنه عقيم وأنها عاقر من غير أن يتنازلا حتى إلى الردّ، فذاك ما يؤلّف، في ذلك الزمان، ديباجة تواطؤ قهريّ.

غير أنه تواطؤ له حدوده. وكان يحدث أن تحصد «جهان» بقرب عُمَر الرأي النفيس الصادر عن رجل خالٍ من المطامع، ولكنّها نادراً ما كانت تهتمّ بإخباره بنشاطاتها. فقد كانت تعلم أنه سوف يخالفها الرأي. فما الجدوى إذن من إثارة المناكفات؟ ولم يكن الخيّام بالطبع أبداً بعيداً جدّاً عن البلاط. وإذا كان يتحاشى الاندماج فيه ويفرّ من جميع المكائد ويحتقرها، ولا سيّما التي يلجأ إليها أطباء القصر في مواجهة مُنجّميه، فإنه كان من المستحيل عليه التملّص من بعض الموجبات: حضور مأدبة يوم الجمعة أحياناً وفحص أميرٍ مريض، وعلى الأخص تقديم «التقويم» الشهري الخاص بالأبراج إلى ملكشاه، إذ المفترض أن يستطلع السلطان، شأنه شأن كل إنسان، ما عليه أن يفعل أو يَدَع في كل يوم. «اليوم الخامس، هناك نجم يترصّدك، لن تغادر القصر. اليوم السابع، لا فَصْد ولا عُقار من أي نوع. اليوم العاشر،

(1) جاء في إحدى الرباعيات:

إنْ لم يَكُنْ حظُّ الفتى في دَهْرِهِ ... إلا الرَّدى ومرارةَ العيشِ الرَّدي

سَعِدَ الذي لم يَحْيَ فيه لحظةً ... حقّاً وأسعدُ مِنْهُ مَنْ لم يُولَد

(المترجم)

تلُوثُ عمامتك بالمقلوب. اليوم الثالث عشر، لا تقرب أياً من نسائك...» وما كان السلطان ليفكّر قطّ في مخالفة هذه التوجيهات. ولا نظام الملك الذي يتلقّى «تقويمه» من يد عُمَر قبل نهاية الشهر ويقرأه بِنَهَم ويطبّقه بحذافيره. وما هي حتى نالت بعض الشخصيات هذا الامتياز، من الحاجب إلى قاضي قضاة أصفهان إلى أمناء بيت المال إلى بعض أمراء الجيش وبعض التجّار الأثرياء، الأمر الذي شكّل لعُمَر عملاً مهمّاً يستغرق منه الليالي العشر الأخيرة من كل شهر. فالناس شرِهون جداً للتنبُّؤات! وأغناهم يستشيرون عُمَر، ويجد الآخرون مُنجّماً أقلّ شهرة، إلا إذا توجّهوا بصدد كل قرار عليهم اتّخاذه إلى أحد المشتغلين بأمور الدين فيغمض عينيه ويفتح أمامهم المصحف كيفما اتفق ويضع إصبعه على آية فيقرأها لهم لكي يكتشفوا فيها الجواب عمّا يشغلهم. وتذهب بعض النساء الفقيرات المتلهّفات على اتّخاذ قرار إلى الساحة العامة ليلتقطن على عجل أوّل عبارة يسمعنها فيُفسّرنها على أنها توجيه من العناية الإلَهية.

قالت «جهان» في ذلك المساء:

ـ سَألتني «تركن خاتون» عمّا إذا كان «تقويمها» عن شهر «طِير» جاهزاً.

وسرَّح عُمَر نظره إلى البعيد البعيد وقال:

ـ سأجهِّزه لها في أثناء الليل. السماء صافية وما من نجم محتجب، وقد حان وقت الذهاب إلى المَرْصَد.

وهمَّ بالنهوض من غير تعجّل، وإذا بخادمة تحضُر مُعْلِنة:

ـ بالباب درويش يطلب الضيافة لقضاء الليل.

قال عُمَر:

ـ أدخليه وقدّمي له الغرفة الصغيرة القائمة تحت السُلَّم وقولي له أن ينضمّ إلينا لتناول الطعام.

وغطّت «جهان» وجهها استعداداً لمواجهة الغريب، غير أن الخادمة عادت وحدها وقالت:

ـ يفضّل البقاء وحيداً للصلاة في الغرفة. وقد أعطاني هذه الرسالة.

قرأ عُمَر. وامتقع وجهه ونهض كمن يتحرّك بإرادة خفيّة. وقالت «جهان» بادية القلق:

ـ مَنْ هو هذا الرجل؟

ـ سأعود.

وإذ مزّق الرسالة إلى ألف نتفة فقد سار بخطى واسعة إلى الغرفة الصغيرة وأغلق وراءه الباب. ومرّت لحظة انتظار، لحظة عدم تصديق. ثم كان عناق تبعه لوم:

ـ ماذا جئت تفعل في أصفهان، جميع رجال نظام الملك يبحثون عنك.

ـ جئت أدعوك إلى اعتناق عقيدتي.

وتفرّس فيه عُمَر. إنه يريد التأكّد ممّا إذا كان مالكاً عقله، غير أن حسناً ضحك الضحكة الناعمة التي عرفها الخيّام له في فندق قاشان.

ـ اطمئن، فأنت آخر شخص أفكر في دعوته إلى اعتناق عقيدتي، غير أني بحاجة إلى حِمىً وأي حامٍ خير من عُمَر الخيّام نديم السلطان وصديق الوزير الأعظم؟

ـ إنهم يضمرون لك من الحقد أكثر ممّا يكنّون لي من الصداقة. أهلاً وسهلاً بك في بيتي، ولكنْ لا تظنّ أن علاقاتي ستُنْقِذُك لو ارتاب أحد في وجودك.

ـ غداً أكون قد ابتعدت.

بدا عُمَر حذِراً وقال:

ـ هل عُدْتَ لتنتقم؟

بيد أن الآخر انتفض وكأنَّ كرامته أُهينت وقال:

ـ لست أسعى للانتقام لشخصي الحقير، بل أرجو تدمير الجبروت التركي.

تفحّص عُمَر صديقه: لقد بادل عمامته السوداء بأخرى بيضاء إلا أنها معفّرة بالتراب، وثيابه من صوف خشن رثّ.

ـ تبدو لي شديد الاعتداد بنفسك! فلست أرى أمامي غير رجل مُبْعَد طريد يختبىء من منزل إلى منزل، وكل متاعه هذه الصُرّة وتلك العمامة، وتدّعي مطاولة إمبراطورية منبسطة فوق الشرق برمّته من دمشق إلى هَراة!

ـ تتحدّث عمّا هو قائم، وأتحدّث عمّا سيكون. فلن تلبث أن تنتصب في وجه الإمبراطورية السلجوقية «الدعوة الجديدة» المنظَّمة بعناية والقويّة المرهوبة الجانب. ولسوف تجعل السلطان والوزراء يرتعدون. فمنذ زمن غير بعيد، حينما وُلدنا أنا وأنت، كانت أصفهان تابعة لسلالة فارسية شيعية كانت تفرض شريعتها على خليفة بغداد. واليوم لم يَعُدِ الفرس سوى خدم للأتراك، وصديقك نظام الملك أخبث خادم لهؤلاء الدخلاء. فكيف تستطيع التأكيد بأنّ ما كان صحيحاً أمسِ لا يمكن أن يخطر على البال في غدٍ؟

ـ لقد تغيّرت الأيام يا حسن، فالأتراك يملكون القوّة والفرس مغلوبون على أمرهم. وبعض الناس، مثل نظام الملك، يَسْعوْن إلى تسويةٍ مع الغالبين، وآخرون، مثلي أنا، يبحثون عن ملاذٍ في الكتب.

ـ وآخرون أيضاً يقاتلون. وليسوا اليوم سوى حفنة، وغداً يكونون آلافاً، جيشاً كثير العديد شديدَ العزم لا يُقهر. إني المبشّر بـ «الدعوة الجديدة»، وسأطوف في البلاد بلا كلَل وألجأ إلى الإقناع كما إلى القوّة، وسأقضي بعون اللهِ تعالى على سلطان الفساد. أقول ذلك لك أنت يا عُمَر، يا مَنْ أنقذ حياتي ذات

يوم: لن يلبث العالم أن يشهد أحداثاً قَلَّ الذين سيدركون مغزاها، وأنت ستُدرك وتعرف ما يدور، وتعرف من الذي يزلزل الأرض وكيف سينتهي الصخب.

ـ لا أريد أن أشكِّك في قناعاتك ولا في اندفاعك، غير أني أذْكُر رؤيتك في بلاط ملكشاه تنازع نظام الملك حظوة السلطان التركي.

ـ لا تنخدع، فلستُ الشخصَ الخسيس الذي تُلَمِّح إليه.

ـ لستُ أُلمِّح بشيء، إني أقَوِّم فقط بعض مظاهر التفاوت.

ـ ليس مردُّها إلّا إلى جَهْلِكَ ماضيَّ. ولا أستطيع أن ألومك على حكمك على ظاهر الأمور، غير أنك سوف تغير نظرتك إليّ عندما أقصّ عليك حكايتي الحقيقية. فأنا سليل أسرة شيعية مُتَّبِعة. وقد طالما لُقِّنْتُ أن الإسماعيلية ليسوا إلا هراطقة. حتى كان أن التقيتُ داعيةً زعزع إيماني لكثرة ما ناقشني. وعندما عزمت على الانقطاع عن مخاطبته خوفاً من التسليم له مرِضْتُ مرضاً شديداً خِلْتُ معه أن ساعتي قد دنت. ورأيت في ذلك نذيراً، نذيراً من اللّه عزّ وجلّ، وآليت إذا بقيت على قيد الحياة أن أعتنق المذهب الإسماعيلي. وما هي إلّا ليلة وضحاها حتى برئت. وما كان في وسع أحد من أفراد أسرتي أن يُصدِّق حصول مثل هذا الشفاء المباغت.

«وحفظت بالطبع العهد وأقسمت يمين الولاء، وبعد مرور سنتين عُهِدَ إليَّ بمهمّة: المجيء إلى نظام الملك والاندساس في «ديوان» ـه لحماية إخوتنا الإسماعيليين الواقعين في ضيق. وعليه فقد غادرت الرَّي إلى أصفهان وتوقّفت في أثناء الطريق في فندق بقاشان. وألفيتُني وحيداً في غرفتي الصغيرة أسأل نفسي عن الوسيلة التي بها أتمكّن من مقابلة الوزير الأعظم عندما انفتح الباب. ومَنْ كان الداخل؟ الخيّام، الخيّام العظيم الذي أوفدته السماء إليّ في هذا المكان لتسهيل مهمّتي».

شُدِهَ عمر وقال:

ـ لقد سألني نظام الملك ويا للعجب عمّا إذا كنتَ إسماعيلياً وأجبت بأنني لا أظنّ ذلك!

ـ لم تكذب، فما كنت تدري. والآن أنت تدري.

وتوقف عن الكلام ثم قال:

ـ ألا تعرِض أن تُطعمني؟

فتح عُمَر الباب ونادى الخادمة وسألها أن تجلب بعض الأطعمة ثم استأنف استجوابه:

ـ وتهيم منذ سبع سنوات هكذا بثياب صوفيّ؟

ـ لقد هِمت طويلاً. فعندما غادرت أصفهان لحق بي بعض رجال نظام الملك طالبين قتلي. وتمكّنت من تضليلهم في «قُمْ» حيث خبّأني بعض الأصدقاء، ثم استأنفت طريقي حتى الرَّي حيث التقيت إسماعيلياً أوصاني بالذهاب إلى مصر والالتحاق بمدرسة الدُّعاة التي كان هو نفسه قد التحق بها. واستدرت بطريق أذربيجان قبل أن أنزل في دمشق. وكنت أعوِّل على سلوك الطريق الداخلي إلى القاهرة، لكنّ قتالاً كان دائراً حول القدس بين الأتراك والمغاربة فكان عليّ أن أعود أدراجي وأسلك الطريق الساحلي مارّاً ببيروت فصيدا فصور فعكّا حيث وجدت مكاناً على ظهر سفينة. ولدى وصولي إلى الإسكندرية استُقبلتُ استقبال أمير رفيع المقام، وكانت في انتظاري لجنة ترحيب برئاسة أبي داود زعيم الدُّعاة.

دخلت الخادمة ووضعت بعض الصحاف فوق السجّادة. وباشر حسن صلاة قطعها ما إن خرجت.

ـ قضيت في القاهرة سنتين، وكنّا عدّة عشرات في مدرسة الدُّعاة، بيد أن حفنة منّا فقط كانت منذورة للعمل خارج بلاد الفاطميين.

وتحاشى أن يقدّم كثيراً من التفاصيل. ومعلوم مع ذلك من مصادر شتى أن الدروس كانت تُلقى في مكانين مختلفين: فأمّا مبادىء المذهب فكان يعرضها علماء مدرسة الأزهر، وأما طرق بثّها فكانت تُلقَّن داخل سور قصر الخليفة وكان زعيمُ الدُّعاة نفسُه - وهو من أعيان البلاط الفاطمي - هو الذي يعلّم التلاميذ مناهج الإقناع وفنّ الحِجاج ومخاطبة العقل والقلب سواء بسواء. وكان هو أيضاً مَنْ يحفّظهم الرموز السرّية التي عليهم استخدامها في اتصالاتهم بعضهم ببعض. وكان التلاميذ يجيئون واحداً بعد آخر أمام زعيم الدُّعاة فيُمِرُّ فوق رأس كلّ منهم وثيقة ممهورة بتوقيع الإمام. وبعدها تُعقد جلسة أقصر من الأولى، وهي مخصّصة للنساء.

- تلقيت في مصر كل ما كنت بحاجة إليه من تعليم.

فهتف الخيّام:

- ألم تقل لي يوماً إنك كنت تعرف كل شيء وأنت في السابعة عشرة؟

- جمعت المعارف حتى السابعة عشرة، ثم تعلّمت الاعتقاد. وفي القاهرة تعلّمت الدعوة إلى اعتناق المذهب.

- وماذا تقول للذين تسعى إلى إدخالهم في المذهب؟

- أقول لهم إن الإيمان لا قيمة له من غير مُعَلِّم يُعلِّمه. إننا حين نعلن أن «لا إله إلّا اللّه» نضيف على الفور «محمد رسول اللّه». لماذا؟ لأنه ما كان ليكون لما نؤكّده من وجود إله واحد معنىً إن لم نذكر مصدر هذا التأكيد، أي اسم الذي علّمنا مِثْل هذه الحقيقة. غير أن هذا الرجل، هذا الرسول، هذا النبي، قد مات من زمن بعيد، فكيف نعلم أنه وُجِد وأنه تكلّم على النحو الذي نُقل إلينا؟ إني، أنا الذي قرأ كما قرأتَ أفلاطون وأرسطو، بحاجة إلى براهين.

- أية براهين؟ أيوجد حقّاً براهين في هذه الأمور؟

- ليس من براهين بالفعل عندكم أنتم أهل السُّنّة. تعتقدون أن محمداً مات من غير أن يوصي بخَلَف، وأنه ترك المسلمين لشأنهم وعندها تركوا أمر حكمهم لأقواهم أو لأذهاهم. إن هذا لا يُعْقَل. نحن نعتقد أن رسول اللّه سمّى خَلَفاً، أميناً على أسراره: الإمام عليّ، ختنه وابن عمّه، ويكاد يكون أخاه. وعليّ بدوره سمّى خَلَفاً. وهكذا تواصلت سلسلة الأئمة الشرعيين وانتقل من خلالهم البرهان على رسالة محمد وعلى وجود اللّه الفرد الصمد.

- لا أرى في كل ما تقول ما يميّزك عن سائر الشيعة.

- الفرق شاسع بين عقيدتي وعقيدة أبويَّ. لقد طالما علّماني أن علينا أن نتحمّل بصبر سلطان أعدائنا بانتظار عودة الإمام المحجوب المنتظَر الذي يملأ الأرض عدلاً ويجزي المؤمنين الصادقين. وقناعتي الخاصّة أنه ينبغي العمل منذ الآن والتحضير بكل الوسائل لعودة إمامنا إلى هذه البقعة. وأنا الرائد الذي يمهد الأرض لتكون على أهبة استقبال إمام الزمان. أتجهل أن النبي قد تحدّث عني؟

- عنك أنت، حسن بن علي الصبّاح المولود في «قُمْ»؟

- ألم يقل: «سوف يقوم رجل من «قُمْ» فيدعو الناس إلى الصراط المستقيم فيجتمع حوله رجال كأنهم أسنّة الرماح، لا تشتّتهم ريح العواصف ولا يصيبهم الكلال من الحرب ولا يفشلون، وعلى اللّه يتوكلون»؟.

- لا أعرف هذا الحديث. مع أني قرأت كتب الأحاديث المسندة.

- قرأت الكتب التي تريدها، وللشيعة كتب أخرى.

- وأنت المقصود بالأمر؟

- لن ترتاب قطُّ في ذلك عمّا قريب.

16

استأنف الرجل الجاحظ العينين حياة الترحال. وإذ كان داعية لا يكلّ فقد طاف الشرق الإسلامي، بلخ ومرو وقشغر وسمرقند. وها هوذا يدعو في كل مكان ويحاجّ ويقنع بالانخراط وينظّم. ولا يغادر مدينة ولا قرية من غير أن يسمّي فيها ممثّلاً وقد أحاطت به حلقة من المريدين، من شيعيين أتعبهم الانتظار والمعاناة، وسنّيين، فُرساً أو عرباً، أرهقتهم هيمنة الأتراك، وشبابٍ لوّعهم الهيجان والغليان، ومؤمنين ينشدون التمسّك بأهداب الدين. ويكبر جيش حسن كل يوم. ويطلقون عليهم اسم «الباطنيين» ويعاملونهم على أنهم هراطقة وملحدون. ويصبّ العلماء عليهم اللعنة تلو اللعنة: «الويل لمن ينضمّ إليهم، الويل لمن يأكل زادهم، الويل لمن يناسبهم، وسفك دمهم حلال كما هو حلال أن يروي المرء بستانه».

وتحتدّ النبرة ولا يطول الزمن بالعنف حبيسَ الكلام. وفي مدينة «ساوه» يشي خطيب أحد المساجد ببضعة أشخاص يجتمعون في أوقات الصلاة بعيداً عن سائر المسلمين، ويدعو الشرطة للظهور. ويُلقى القبض على ثمانية عشر هرطوقياً. وما هي إلا أيام حتى وُجد الواشي مطعوناً. ويأمر نظام الملك بعقاب يكون

عبرة لمن اعتبر: لقد أُسندت جريمة القتل إلى نجّار إسماعيلي فعُذِّب وصُلب وطيف بجثمانه في أزقّة السوق.

ويرى أحد المؤرخين أنه «كان ذلك الخطيب أول ضحايا الإسماعيليين، وكان ذلك النجّار أول شهدائهم، ويضيف أنهم حققوا أول انتصار كبير بالقرب من مدينة «قاين» جنوبي نيسابور. فقد كانت إحدى القوافل قادمة من «كرمان» وفيها أكثر من ستمئة تاجر وحاجّ وحمولة ثمينة من الكُحْل. وعلى مسيرة نصف يوم من «قاين» قطع عليها الطريق رجال مسلّحون ملثّمون. وظنّ كبير القافلة أنه بصدد بعض قطّاع الطريق وأراد المفاوضة على فِدية، فقد كان متعوّداً ذلك. غير أن الأمر لم يكن كما ظنّ. فقد اقتيد المسافرون إلى قرية حصينة حيث احتجزوا عدة أيام وأُلقيت فيهم الخُطَب الداعية إلى الانخراط، فقبل بعضهم وأُخلي سبيل بعض، وذبح معظمهم في نهاية الأمر.

ومع هذا فإن عملية اختطاف القافلة تلك لن تلبث أن تبدو فصلاً صغير الشأن في صراع القوى الضخم الذي كان يتنامى، وإنْ بتكتُّم. وتوالت عمليات القتل، والقتل بالمقابل، ولم تنجُ منه مدينة ولا قرية ولا طريق، وبدأ «الأمن السلجوقي» يتفتّت.

وعندئذٍ ذرّت أزمة سمرقند الشهيرة بقرنها. ويؤكد أحد المؤرخين جازماً أن «القاضي أبا طاهر هو مصدر الأحداث». لا، فليست الأمور بمثل هذه البساطة.

الحقّ أنه وصل في عصر أحد الأيام من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) إلى أصفهان على غير انتظار حامي الخيّام القديم ومعه النساء والمتاع وهو يوالي بين الإيمان واللعنات. وما أن اجتاز باب «طِيره» حتى طلب أن يُقاد إلى صديقه الذي أقامه في منزله سعيداً بأن تسنح له بعد طول انتظار فرصة التعبير عن عرفانه بجميله. وسرعان ما انقضت المجاملات وطلب أبو طاهر مُجْهِشاً:

ـ ينبغي أن أكلّم نظام الملك في أقرب وقت.

لم يسبق أن رأى الخيّام القاضي على هذا النحو. وسعى إلى طمأنته:

ـ سنمضي لمقابلة الوزير منذ الليلة. هل الأمر بهذه الخطورة؟

كان عليّ أن أفرّ من سمرقند.

ولم يستطع أن يكمل، واختنق صوته، وسالت مدامعه. لقد شاخ منذ آخر مرة التقيا فيها، وجفّ جلده، وابيضّت لحيته، وظل حاجباه وحدهما منتصبيْن في تشعيثة مرتجفة سوداء. وفاه عُمَر ببعض عبارات العزاء. وتمالك القاضي نفسه وسوّى عمامته ثم صرّح قائلاً:

ـ أتذكر ذلك الرجل الذي كنا نلقّبه بالطالب ذي الندبة؟

ـ وكيف أنسى من حرّك موتي بالذات أمام عينيّ؟

ـ أتذكر أنه كان يثور لأدنى ارتياب في عَبَق الهرطقة؟ هيه، إنه مُذ انضمّ إلى الإسماعيليين قبل ثلاث سنوات وهو يجاهر بأخطائهم بالاندفاع الذي كان يبديه للدفاع عن الدين الحنيف. وهناك مئات، بل ألوف، من أهل البلاد يتبعونه. إنه سيّد الشارع. وهو يفرض قانونه على تجّار السوق. ولقد ذهبت لمقابلة الخان عدّة مرات. لقد عرفتَ نصر خان وغضباته المفاجئة التي كانت تتلاشى كذلك فجأة، وثورات سخطه أو إسرافه في الإنعام، ليرحمه اللّه، فأنا أذكره في كل صلاة من صلواتي. والسلطة اليوم في يد ابن أخيه أحمد، وهو فتى أمرد متردّد لا يُعرف له قرار ولا أعرف أبداً من أي كتفيه أمسك به. ولقد شكوت إليه عدة مرات من دسائس الهراطقة واستعرضت أمامه مخاطر الوضع فما كان يسمعني إلا بأُذُنٍ لاهية متضجّرة. وإذ لمست أنه غير عازم على التصرّف قد جمعت قوّاد الحرس وبعض العاملين الذين يدينون لي

بالولاء وطلبت منهم مراقبة اجتماعات الإسماعيليين، وكان ثلاثة رجال موثوقين يتناوبون على ملاحقة الطالب ذي الندبة، وهدفي أن أقدم للخان تقريراً مفصّلاً عن نشاطاتهم لعلّي أفتح بذلك عينيه. إلى أن كان يومٌ أنبأني فيه رجالي عن وصول زعيم الهراطقة إلى سمرقند.

ـ حسن الصبّاح؟

ـ بلحمه وشحمه. وتمركز رجالي في طرفيّ شارع «عبدك» في حيّ «غطفار» الذي كان يعقد فيه الإسماعيليون اجتماعهم. وعندما خرج منه الصبّاح متنكّراً في زيّ متصوّف انقضّوا عليه وغلّفوا رأسه بكيس من القماش وأتوني به. وقدته على الفور إلى القصر فخوراً بإعلان القبض عليه للسلطان. والحقّ أنه بدا للمرة الأولى مهتماً للأمر وطلب مني أن أُريَه الشخص. غير أنه ما أن مثل الصبّاح بين يديه حتى أمر بحلّ وثاقه وتركه وحيداً في حضرته. وجهدت في تحذيره من هذا الهرطوقي الخطير وتذكيره بما جنت يداه من سيّئات، ولكن عبثاً. فلقد كان يريد ـ على حدّ قوله ـ إقناع الرجل بالعودة إلى الصراط المستقيم. وطال أمد المقابلة. وبين الفينة والفينة كان أحد خاصّته يوارب الباب، فنرى أنّ الرجلين ما يزالان آخذين في الحديث. وفي الفجر رُؤيا بغتة ساجدين يصلّيان جنباً إلى جنب ويتمتمان بالكلمات نفسها. وأخذ المستشارون يتدافعون لمراقبتهما.

وإذ جرع أبو طاهر جرعة من عصير اللوز فقد تَلَفَّظ ببعض آيات الشكر قبل أن يتابع قائلاً:

ـ كان علينا أن ندرك حقيقة الأمر. إن سيّد سمرقند، عاهل طبرستان ووريث سلالة الخانات السود، قد اعتنق عقيدة الهراطقة. ولقد تحاشى بالطبع المجاهرة بالأمر وظلّ يتظاهر بالتعلّق بأهداب الدين الحنيف، غير أن شيئاً لم يَعُدْ كما كان من

قبل. فقد استُبْدِل مستشارو الأمير بجماعة من الإسماعيليين. ومات رؤساء الحرس الذين دبّروا القبض على الصبّاح واحداً بعد آخر أبشع الميتات. وحلّ محل حرسي الخاص رجال الطالب ذي الندبة. فأيّ خيار بقي لي؟ أن أرحل مع أول قافلة من قوافل الحجّاج وآتي لشرح الحال لمن يحملان سيف الإسلام، نظام الملك وملكشاه.

وفي مساء اليوم نفسه قاد الخيّام أبا طاهر إلى بيت الوزير وأدخله وتركهما وجهاً لوجه. وأصغى نظام الملك إلى ضيفه متأمّلاً وقد علا وجهه القلقُ. وإذ صمت القاضي فقد بادره قائلاً:

ـ أتعرف من المسؤول الحقيقي عن مصائب سمرقند ومصائبنا جميعاً؟ إنه هذا الرجل الذي رافقك إلى هنا!

ـ عُمَر الخيّام؟

ـ ومَنْ غيره؟ إن الخوجة عُمَر هو الذي شفع لحسن الصبّاح في اليوم الذي كان في مقدوري أن أحصل فيه على موته. لقد منعنا من قتله، فهل في وسعه الآن منعه من قتلنا؟

لم يدرِ القاضي ما يقول. وتنهّد نظام المُلك. وتبع ذلك صمتٌ كَدِر.

ـ ماذا تقترح أن تفعل؟

نظام الملك هو السائل. وأبو طاهر يملك فكرة جاهزة، وها هوذا يعبّر عنها بتمهّل البلاغات الرسمية:

ـ لقد آن الأوان لأن ترفرف راية السلاجقة على سمرقند.

وأشرق وجه الوزير ثم اربدّ.

ـ إن أقوالك تساوي وزنها ذهباً. فمنذ أعوام وأنا لا أفتأ أردّد على مسامع السلطان أن الإمبراطورية يجب أن تمتدّ إلى طبرستان، وأنه لا يمكن أن تبقى مدنٌ بمثل فخامة سمرقند وبخارى وازدهارهما خارج نطاق نفوذنا. جهد ضائع، فملكشاه لا يريد سماع شيء من هذا.

ـ مع أن جيش الخان قد ضعف كثيراً، ولا يُدفع المال لأمرائه، وحصونه غدت أطلالاً.

ـ نعرف ذلك.

ـ أيخشى ملكشاه أن يلقى مصير أبيه ألب أرسلان إذا هو اجتاز النهر مثله؟

ـ أبداً.

وتوقّف القاضي عن السؤال، وأخذ ينتظر التفسير.

وقال نظام الملك:

ـ السلطان لا يخاف النهر ولا جيش العدو. إنه يخاف من امرأة!

ـ تركين خاتون؟

ـ لقد أقسمت أن تحرّم على ملكشاه فراشها إلى الأبد إذا هو اجتاز النهر، وأن تحوّل جناح حريمه إلى جحيم. لا تَنْسَيْنَ أن سمرقند مدينتها. وأن نصر خان كان أخاها. وأن أحمد خان ابن أخيها. وطبرستان ملك لأسرتها. وإذ انهارت المملكة التي شادها أجدادها فقدت هي مكانتها بين نساء القصر وضيّعت على ابنها الفرص في خلافة ملكشاه ذات يوم.

ـ لكن عمر ابنها لا يزيد على سنتين!

ـ بالضبط، وبقدر ما هو صغير فإن على أمه أن تناضل لتحتفظ له بامتيازاته.

وخلص القاضي إلى القول:

ـ إذا كنت قد أدركت جيداً ما قلتُ فإن السلطان لن يرضى أبداً أن يستولي على سمرقند.

ـ لم أقل ذلك، بيد أنه ينبغي تحويله عن رأيه، ولن يكون من السهل إيجاد أسلحة أشدّ إقناعاً من أسلحة الخاتون.

واحمرّ وجه القاضي. وها هوذا يبتسم من غير أن يتيح مع ذلك فرصة لإلهائه عن موضوعه.

ـ ألا يكفي أن أردّد أمام السلطان ما قلته لك، ألا يكفي أن أخبره بالمؤامرة التي دبّرها حسن الصبّاح؟

وأجاب نظام الملك بخشونة:

ـ كلا.

إنه مشغول جداً في هذه اللحظة بحيث يقدر على الحجاج. فهناك خطّة تتشكّل في خاطره. وزائره ينتظر منه أن يحزم أمره. وقال الوزير بتعالٍ:

ـ هاك... تَمْثُل غداً صباحاً عند باب جناح الحريم السلطاني وتطلب مقابلة كبير الطواشية فتقول له إنك قادم من سمرقند وتودّ أن تنقل إلى تركين خاتون أخباراً عن أسرتها. ولمّا كان الأمر خاصّاً بقاضي مدينتها، بخادم أسبق من خدّام سلالتها، فلن يكون في وسعها إلا أن تستقبلك.

وما أن هزّ القاضي رأسه بالموافقة حتى تابع نظام الملك قائلاً:

ـ عندما تصبح في قاعة الستائر تقصّ ما تكابده سمرقند من شقاء على يد الهراطقة، لكنك تُغْفِل ذكر اعتناق أحمد عقيدتهم. بل تومىء على العكس من ذلك إلى أن حسن الصبّاح طامع في عرشه، وأن حياته في خطر، وأن القدرة الإلّهية وحدها القادرة على إنقاذه. وتضيف أنك حضرت لمقابلتي بيد أني لم أعِرْك أُذُناً واعية، بل حاولتُ ثَنْيَك عن نقل الخبر إلى السلطان.

ونجحت الحيلة في اليوم التالي من غير أن تواجه أدنى عقبة. وفيما كانت تركين خاتون تتولى إقناع السلطان بضرورة إنقاذ خان سمرقند كان نظام الملك ـ وقد تظاهر بمعارضة الأمد ـ يُعِدُّ العدة للحملة بكلّ ما أوتي من بسالة وعناد. ولم يكن نظام الملك يسعى من وراء حرب المغفّلين هذه إلى إخضاع طبرستان، ولا حتى إلى إنقاذ سمرقند، وإنما كان يريد استعادة هالته التي

زعزعتها الفتنة الإسماعيلية. وهو بحاجة في هذا إلى نصر صريح مُجَلْجِل. فمنذ سنين وعيونه يقسمون له أن مكان حسن قد اكتُشف، وأن القبض عليه بات وشيكاً، بيد أن الثائر ظلّ صعب المنال وعسكره يتبخّرون عند أول تماسّ. وعليه فإن نظام الملك يبحث عن فرصة لمواجهته رجلاً لرجل وجيشاً لجيش. وسمرقند ساحة قتال ما كان لِيَرْجُوَها.

في ربيع عام 1089م كان جيش من مئتي ألف رجل يزحف مزوّداً بأفيال وآلات للحصار. ولا يهمّ كثيراً ما رافق حشده من مكايد وأكاذيب، فلسوف يقوم بما يجب على كل جيش أن يقوم به. وبدأ بالاستيلاء على بخارى من غير أدنى مقاومة، ثم توجّه إلى سمرقند. وما إن وصل ملكشاه إلى أبواب المدينة حتى أبلغ أحمد خان في رسالة مؤثّرة أنه جاء في نهاية الأمر لتخليصه من نير الهراطقة. وأجاب الخان ببرودة: «لم أطلب من جلالة أخي أي شيء». وأبدى ملكشاه دهشته لنظام الملك الذي لم يتأثّر بها قطّ وقال: «ليس الخان حرّاً بتصرفاته، وينبغي العمل وكأنه غير موجود». ومهما يكن من أمر فإن الجيش ما كان يستطيع العودة أدراجه، فالأمراء يريدون نصيبهم من الغنيمة، وما كانوا ليعودوا خالي الوِفاض.

وأتاحت خيانة أحد حراس البرج منذ الأيام الأولى توغّل المحاصرين في المدينة فتمركزوا في غربها بالقرب من باب «الديْر». وأما المدافعون فانسحبوا نحو الأسواق حول باب «كِشّ». وقرّر قسم من الأهالي مساندة عساكر السلطان فقدّموا لهم الطعام وشجّعوهم، وانحاز قسم آخر إلى أحمد خان، كلّ تبعاً لمعتقده. واستمرت المعارك طوال أسبوعين، غير أن نتائجها لم تكن موضع شك في أية لحظة. فقد أُسر الخان الذي كان قد لاذ بأحد أصدقائه في حي «القِباب»، كما أسر جميع الزعماء

الإسماعيليين، وكان أن تمكّن حسن وحده من الفرار مجتازاً ليلاً قناة تحت الأرض.

لقد انتصر نظام الملك ولا ريب، غير أنه لشدة خداعه السلطان والسلطانة كان قد أفسد علاقاته بالبلاط بشكل لم ينجع فيه دواء. وإذا لم يكن ملكشاه نادماً على استيلائه بثمن بخس على أشهر مدن طبرستان فإنه متألّم في دخيلة نفسه من أن يكون قد سمح بأن يُهزأ منه. ولقد ذهب إلى حد الاستنكاف عن إقامة مأدبة الانتصار المعتادة للعسكر. ومع ذلك فإن نظام الملك كان يهمس لمن يريد أن يصغي إليه: «قاتل اللّه البخل!».

وأما حسن الصبّاح فقد استخلص من هزيمته درساً بالغ القيمة. فبدل السعي إلى تغيير عقائد الأمراء فإنه سوف يصطنع آلة حربية يُحسب حسابُها، آلة لا يشبهها في شيء كلُّ ما عرفته البشرية حتى ذلك اليوم من آلات: نظام الحشّاشين.

17

أَلَمُوت. إنه حصن فوق صخرة على ارتفاع ستة آلاف قدم، تحيط به جبال جرداء وبحيرات مَنْسِيَّة ولهوب وممرّات جبلية غير مُفْضِية. وليس في مقدور أكثر الجيوش عديداً الوصول إليه إلا رجلاً إثر آخر، ولا أقوى المجانيق ملامسة أسواره.

ويسود بين الجبال «الشاه رود» الملقب بـ «النهر المجنون» الذي ما إن يحلّ الربيع وتذوب ثلوج جبال «البُرز» حتى يضخم ويتسارع جارفاً في سيره الأشجار والحجارة. فويلٌ لمن يجرؤ على الاقتراب منه، وويل للجيش الذي يجرؤ على إقامة معسكره عند ضفافه!

ويتصاعد من النهر والبحيرات كل مساء ضباب كثيف ملبّد ويتسلّق اللّهب ثم يتوقّف في منتصف الطريق. وعندها يبدو حصن أَلَمُوت للقاطنين فيه وكأنه جزيرة وسط محيط من الغيوم، وإذا نُظر إليه من تحت فإنه مأوى الجنّ.

وتعني كلمة «أَلَمُوت» في اللهجة المحليّة «أمثولة النَسْر». ويُحكى أن أميراً أراد بناء قلعة للتحكّم بهذه الجبال فأطلق طائراً كاسراً مُدَجَّناً لهذا الغرض. وبعد أن حلّق الطائر في السماء حطّ فوق تلك الصخرة. وفهم الأمير أنه ما من مكان يمكن أن يكون أفضل من ذلك المكان.

ولقد حاكى حسن الصبّاح النسر. فقد طوّف في فارس بحثاً عن مكان يستطيع جمع مريديه فيه وتعليمهم وتنظيمهم. وكان قد تعلّم من محنته في سمرقند أنه من الوهم إرادة الاستيلاء على مدينة كبرى، وأن المواجهة مع السلاجقة ستكون للحال وتنتهي لمصلحة الإمبراطورية. وعليه فإنه محتاج إلى شيء آخر، إلى معتقل جبلي لا يُوصَل إليه ولا يُستولى عليه، إلى محراب يُوسّع نشاطه في كل اتجاه.

وفي حين كانت الرايات التي أُسرت في طبرستان تُنشر في شوارع أصفهان كان حسن بجوار ألَمُوت. فلقد كان ذلك المشهد بالنسبة إليه كشفاً وإلهاماً. فما إن لمحه من بعيد حتى أدرك أن تيهه سوف ينتهي وأن مملكته ستقوم، هنا، لا في أي مكان آخر. وكانت ألَمُوت يومذاك قرية محصّنة، قرية بين عدّة قرى، يعيش فيها عدد من الجنود وعائلاتهم، وبعض الحرفيين، وبعض المزارعين، وحاكم عيَّنه نظام الملك، وهو واحد من سادة القصور اسمه مهدي العلوي لا همّ له غير تدبير الماء لِريّ زرعه، وغلّته من الجوز والعنب والرمّان. وأما جَلَبة الإمبراطورية وصخبها فما كانا ليقضّا مضجعه.

وبدأ حسن بإرسال بعض الرفاق من أبناء المنطقة فأخذوا يخالطون الحامية ويدعون إلى اعتناق العقيدة. وما هي إلا أشهر حتى كان في وسعهم أن يعلنوا لسيّدهم أن الأرض قد مُهدت وأن في مقدوره أن يأتي. وقدم حسن متنكّراً كعادته في ثياب درويش متصوّف. وأخذ يتسكع ويلاحظ ويتأكّد. وتلقّى الحاكمُ الرجلَ الورع بالترحاب، وسأله عمّا يدخل البهجة على نفسه. وقال حسن:

ـ أريد هذه القلعة.

وابتسم الحاكم قائلاً لنفسه إن هذا المتصوّف لا تنقصه روح الدعابة. بيد أن ضيفه لم يبتسم.

ـ جئت لحيازة المكان، وجميع رجال الحامية من أتباعي؟

وينبغي الاعتراف بأن خاتمة ذلك الحديث كانت غير معقولة بقدر ما كانت مُباينة للواقع. وكان على المستشرقين الذين عادوا إلى أخبار تلك الحقبة، ولا سيّما التي سجّلها الإسماعيليون، أن يقرأوها ويعيدوا قراءتها للتأكّد من أنهم ليسوا ضحيّة عملية خداع. فلْنَعُدْ بالفعل النظر في المشهد.

إننا في نهاية القرن الحادي عشر، وبالتحديد في السادس من أيلول (سبتمبر) 1090م. إن حسن الصبّاح، مؤسس فرقة الحشّاشين العبقري، على أهبة الاستيلاء على القلعة التي سوف تكون خلال مئة وستة وستين عاماً مقراً لأخطر طائفة عرفها التاريخ. والحقّ أنه أمامنا متربّعاً قُبالة الحاكم وهو يردّد على مِسْمَعَيْهِ من غير أن يرفع صوته:

ـ جئت أستولي على ألَمُوت.

وأجاب ذاك:

ـ لقد حصلتُ على هذه القلعة باسم السلطان. وقد دفعت المال للحصول عليها!

ـ كم؟

ـ ثلاثة آلاف دينار ذهباً!

وتناول حسن ورقة وكتب: «تفضلوا بدفع ثلاثة آلاف دينار ذهباً لمهدي العلوي ثمناً لقلعة ألَمُوت. كفانا المولى وهو خير الحافظين». وساور الحاكم القلق، فما كان ليخطر في باله أن توقيع رجل يلبس الأسمال كفيل بمثل هذا المبلغ من المال. غير أنه ما إن وصل إلى مدينة «دَمْغان» حتى قبض ذهبه من دون أي تأجيل.

18

أثار نبأ الاستيلاء على أَلَمُوت قليلاً من الاضطراب في أصفهان. فالمدينة أكثر انشغالاً بالصراع الذي كان قد اشتد أواره بين نظام الملك والقصر. فلم تكن «تركين خاتون» قد غفرت للوزير العملية التي دبّرها لإقطاعة أسرتها. وها هي ذي تُلحّ على ملكشاه بالتخلّص دونما إبطاء من وزيره الشديد القوى. ولقد قالت بأنه كان طبيعياً أن يكون على السلطان وصيّ عند موت والده، فلم يكن عمره يومذاك سوى سبعة عشر عاماً؛ وأما اليوم فهو في الخامسة والثلاثين، أي أنه بكامل رجولته ولا يمكن أن يترك إدارة الشؤون إلى الأبد في يد «أبيه»؛ لقد آن الأوان ليعرف الناس من هو سيّد الإمبراطورية الحقيقيّ! أَلَمْ تُثبت قضية سمرقند أن نظام الملك كان يسعى لفرض إرادته، وأنه كان يخدع سيّده ويعامله معاملة القاصر أمام الناس أجمع؟

وإذا كان ملكشاه لا يزال متردّداً في اقتحام العقبة فإن حادثاً سوف يدفعه إلى ذلك. فلقد عيّن نظام الملك حفيده والياً على «مَرْو». وإذ كان مراهقاً مغروراً شديد الثقة بقدرة جدّه فقد أتاح لنفسه أن يشتم أمام الملأ أميراً تركياً عجوزاً. وقد حضر هذا دامع العين يشكو إلى ملكشاه الذي أمر، وقد خرج عن طوره،

بكتابة رسالة على الفور إلى نظام الملك هذا نصها: «إذا كنت وكيلي فعليك طاعتي ومنع بطانتك من التعرّض لرجالي؛ وإذا كنت تُقدِّر أنَّك نِدّي، وأنك شريكي في الحكم، فسوف اتّخذ القرارات اللازمة».

وردّ نظام الملك على الرسالة التي حملها إليه وفد من أعيان الإمبراطورية بالقول: «قولوا للسلطان، إذا كان لا يزال جاهلاً الأمر، بأنني شريكه بالتأكيد، وأنه ما كانت لتقوم له قائمة من غيري! أيكون قد نسي أنني من قام بشؤونه عند موت والده، وأني من أزاح الطامعين الآخرين من دربه وأعاد جميع المتمرّدين إلى رشدهم؟ وأنه مُطاع بفضلي ومُحْتَرم حتى أقاصي الأرض؟ أجل اذهبوا وقولوا له إنّ مآل عِمامته رَهْنٌ بِدَواتي!».

ذُهل الرُسل. فكيف أمكن أن يوجّه رجل بمثل حكمة نظام الملك إلى السلطان كلاماً كفيلاً بأن يجرّ عليه الويلات، بل قد يكون فيه موته ولا ريب؟

رجل واحد كان يعرف بالضبط في ذلك اليوم مغزى مثل ذلك القرار. إنّه الخيّام. فمنذ أسابيع ونظام الملك يشكو إليه آلاماً مبرّحة تبقيه ساهراً في الليل وتمنعه في النهار من الانكباب على عمله. وإذ عاينه عُمَر طويلاً وجسّه وساءَلَهُ فقد شخّص ورماً خبيثاً منتشراً لن يدعه يعيش طويلاً.

وكانت ليلةً شاقّة تلك التي كان على الخيّام أن يخبر فيها صديقه بحقيقة حاله.

- كم من الوقت بقي لي؟
- بضعة أشهر.
- سأستمر في العذاب؟
- بوسعي أن أصف لك أفيوناً يحدّ من ألَمِك، غير أنك ستكون في حال ذهول دائم، ولن يكون في مقدورك أن تعمل.

ـ ألا يسعني الكتابة؟

ـ ولا أن تحتمل حديثاً طويلاً.

ـ أُوثِر على هذا أن أتألّم.

وكانت تمرّ بين الردّ والردّ لحظات صمت طويلة. وألمّ مُسْتَوْعَب بما يليق.

ـ هل تخاف اليوم الآخِر يا خيّام؟

ـ ولِمَ أخاف؟ فبعد الموت إما العدم وإما الرحمة.

ـ وما ارتكبتُ من سوء؟

ـ مهما تكن ذنوبك عظيمة فعفو اللّه أعظم.

وبدا نظام الملك مطمئناً بعض الشيء.

ـ لقد فعلتُ الخير أيضاً، بنيتُ مساجد ومدارس، وكافحتُ الهراطقة.

وإذ لم يعترض عليه الخيّام فقد أضاف:

ـ هل يذكرني الناس بعد مئة عام، بعد ألف عام؟

ـ أنّى لنا أن نعلم؟

وبعد أن تفرّس فيه نظام الملك متحدّياً استأنف قائلاً:

ـ ألستَ القائل ذات يوم: «الحياة أشبه بالحريق. لَهَبٌ ينساه العابر، ورمادٌ تذروه الريح، وإنسانٌ كان قد عاش». أتعتقد أن هذا مآل نظام الملك؟

كان يلهث. ولم يكن عُمَر قد قال شيئاً بَعْدُ.

ـ إن صديقك حسن الصبّاح يطوف البلاد منادياً بأني لست سوى خادم حقير للأتراك. أتظنّ أنّ هذا هو ما سيُقال عنّي غداً؟ وأنّ الناس ستجعل مني عاراً يلحق بأبناء حام؟ هل سيُنسى أنني كنت الوحيد الذي وقف في وجه السلاطين طوال ثلاثين عاماً وفرض عليهم إرادته؟ ماذا كنت أقدر أن أفعل غير ذلك بعد فوز جيوشهم؟ لكنّك لا تقول شيئاً.

وبدا غائم الوجه.

ـ إنها أربعة وسبعون عاماً، أربعة وسبعون تكرّ أمام ناظري. خيباتُ أملٍ كثيرة، ومواقفُ ندم عدّة، وأشياءُ لا تُحصى وَدِدْتُ لو عشتها بغير ما فعلت!

وغمضت عيناه نصف إغماضة وتقلّصت شفتاه:

ـ الويل لك يا خيّام! إنه إذا كان بمقدور الصبّاح اليوم أن يقترف كلّ مُوبقاته فالذنب ذنبُك!

وساورت عُمَر رغبةٌ في أن يجيب: «ما أكثر ما بينك وبين حسن من الأشياء المشتركة! فلو خلبتكَ قضيةٌ مثلُ إقامة إمبراطورية أو التحضير لحكم الإمام لما تردّدت في القتل لتكتب لها الغَلَبة. وأمّا أنا فكلّ قضية يكون فيها قتل لا تلبث أن تتوقّف عن إغرائي. فهي تقبُحُ في عيني وتنحطّ وتَمَسّخ مهما يكن مقدار حُسنها قبلاً. فما من قضية تكون عادلة عندما تتحالف مع الموت». ولقد شعر برغبة في رفع عقيرته بهذا، غير أنّه تمالك نفسه وصمت، فلقد كان عزم على ترك صديقه ينزلق إلى مصيره بسلام.

وعلى الرغم من هذه الليلة الليلاء فقد انتهى الأمر بنظام الملك إلى الاستسلام لَقَدره. فلقد أَلِف فكرة مفارقة هذه الدنيا. غير أنه كان بين عشية وضحاها قد انصرف عن شؤون الدولة عاقداً العزم على تخصيص ما بقي له من أيام لإنهاء قراءة كتاب «سياست نامه» (كتاب الحُكم)، وهو كتاب خطير الشأن يعادل في الشرق الإسلامي ما سوف يكونه في الغرب بعد أربعة قرون كتاب (الأمير) لمكيافيلّي ـ بفارق هائل: إن كتاب (الأمير) نتاج رجل فجعته السياسة وحُرِم كل سلطان، في حين أن «سياست نامه» ثمرة تجربة لا بديل عنها قام بها مُشَيِّد إمبراطورية.

وهكذا فإنه في الوقت الذي كان فيه حسن الصبّاح قد استولى

على هذا المحراب الحصين الذي طالما حلم به، لم يكن رجل الإمبراطورية القويّ يفكّر في شيء غير مكانته في التاريخ. إنه ليُؤثر الكلمات الصحيحة على الكلمات السارّة، وهو على استعداد لتحدّي السلطان إلى آخر الشوط. حتى ليمكنُ القول إنه راغب في ميتة مشهودة، ميتة على قَدِّه.

ولسوف ينالها.

فعندما استقبل ملكشاه الوفد الذي التقى نظام المُلك لم يسعه تصديق ما نقلوه إليه.

ـ أقال حقّاً إنه شريكي ونِدّي؟

وإذ أكّد المبعوثون ذلك مغمومين فقد انفجر السلطان غاضباً. وأخذ يتحدث عن خوزقته وتمزيقه إرباً وهو حيّ وصلبه فوق متاريس القلعة. ثم هرع يعلن «تركين خاتون» أنه قرّر في النهاية عزل نظام الملك من جميع مناصبه، وأنه يتمنّى موته. ويبقى معرفة الكيفية التي سيتمّ بها الإعدام من دون أن يثير ردَّ فعلٍ في صفوف كتائب الجند الكثيرة التي ما تزال على ولائها له. غير أنّ لدى «تركين خاتون» و«جهان» أفكارهما: ما دام حسن يرجو أيضاً موت نظام الملك فلماذا لا يُسهَّل له الأمر ويبقى ملكشاه بمعزل عن كل ريبة؟

وعليه فقد أُرسلت كوكبة من المعسكر إلى ألَمُوت بقيادة أحد المخلصين للسلطان. وكان غرضُها في الظاهر حصارَ قلعة الإسماعيليينَ؛ وفي الواقع أنْ تكون غطاءً للتفاوض من غير إثارة للشُبُهات. وأُحكمت سيرورة الأحداث حتى في تفاصيلها: يستدرج السلطانُ نظامَ الملك إلى نهاوند، وهي مدينة تقع على مسافة متساوية من أصفهان وألَمُوت. وهناك يتولّى أمره الحشّاشون.

وتنقل النصوص العائدة إلى تلك الحِقبة أن حسن الصبّاح

جمع رجاله وخطب فيهم قائلاً: «من منكم يخلّص البلاد من الشرّير نظام الملك؟» وأنّ رجلاً يُلقَّب بالعرّاني وضع يده على صدره علامة على القبول، وأنّ صاحب ألَمُوت كلَّفه هذه المهمّة وأضاف: «إن موت هذا الشيطان هو مبدأ السعادة».

كان نظام الملك في ذلك الوقت حبيسَ منزله. فالذين كانوا يَغْشَوْن ديوانه تولّوا عنه حين علموا بذهاب حظوته، ولم يَعُد يتردّد على مسكنه غير الخيّام وضباط الشرطة النظامية. وكان يقضي جلّ أوقاته في الكتابة وكان يكتب بجنون ويطلب من عُمَر أحياناً أن يُراجع ما كتب.

وكانت تصدر عن هذا ابتسامة مَرِحة هنا وتكشيرة هناك. فلم يستطع نظام الملك، شأنه في ذلك شأن كثير غيره من الرجال العظام، أن يمنع نفسه، في مساء حياته، من توجيه السهام وتصفية الحسابات. مع «تركين خاتون» مثلاً. فالفصل الثالث والأربعون عنوانه «في النساء العائشات خلف السُتُر». فقد كتب نظام الملك يقول: «في غابر الأزمان هيمنت زوجة أحد الملوك كثيراً عليه فلم يكن من جراء ذلك سوى الشِقاق والاضطراب. ولا أزيد لأن في وسع كل أحدٍ أن يلحظ في أزمنة أخرى حوادث مشابهة». وأضاف: «ولكي يُكتب النجاح لأمر ينبغي فعلُ عكسِ ما تقوله النساء».

وقد خصّصت الفصول الستة التالية للإسماعيليين؛ وهي تنتهي على هذا النحو: «تكلّمتُ على هذه الفرقة لِيَحْذَرَها الناس... ولسوف يذكرون أقوالي عندما يُسْلِم هؤلاء الكفرة إلى العدم الناسَ الذين يخصهم السلطان بعطفه، ومعهم كبار رجال الدولة، وعندما يُسْمَع قرعُ طبولهم في كل مكان ويُماط اللثامُ عن أهدافهم وخططهم. ولْيَعْلَم الأميرُ وسط الهرج الذي سيكون أن كلّ ما قلت كان حقّاً. ليَحفظ اللّه تعالى مولانا والإمبراطورية من بِئْس المصير!».

وفي اليوم الذي حضر فيه رسول لمقابلة الوزير ودعوته للانضمام إلى السلطان للسفر إلى بغداد، لم يشكّ لحظة في ما كان ينتظره. واستدعى الخيّام لوداعه. وقال له هذا:

– لا ينبغي في مثل حالك أن تقطع مثل هذه المسافات.

– لا يهمّ شيء في مثل حالي، وليست الطريق هي التي ستقتلني.

ولم يدرِ عُمَر ما يقول، فعانقه نظام الملك وقبّله وصرفه بشكل ودّي قبل أن يذهب للانحناء أمام الذي حكم عليه بالموت. وبلياقة مُثلى، وبانعدام ضمير أمثل، وبانحراف أمثل، كان كل من السلطان والوزير يلعب مع الموت.

وبينما هما في الطريق إلى مكان العِقاب سأل ملكشاه «أباه»:

– كم تعتقد أنك ستعيش بعدُ؟

وأجاب نظام الملك بلا ذَرّةٍ من تردّد:

– طويلاً، طويلاً جدّاً.

وطار صواب السلطان وقال:

– ما أشدَّ ما تبدو وقحاً معي، وليس لهذا حساب، ولكنّ مع اللّه! فكيف تستطيع الجزم بأمر كهذا، قل بالحري لتكن مشيئته، والأعمار بيد اللّه!

– إذا كنت قد أجبت على هذا النحو فلأني حلمت حلماً البارحة. رأيت نبيّنا عليه الصلاة والسلام وسألته متى سأموت ونلت جواباً شافياً.

وأخذ صبر ملكشاه ينْفَد:

– أيّ جواب؟

– قال لي النبي: «إنك أحد حُماة الإسلام تنشر الخير حولك، وحياتك غالية على قلوب المؤمنين، ولهذا أمنحك حق اختيار لحظة موتك». وأجبت: «ليحفظْني اللّه من هذا، فأيّ

إنسان يستطيع اختيار مثل هذا اليوم! فالمرء يريد على الدوام المزيد، وحتى لو حدّدت أقصى ما يمكن من مواعيد فإني سأحيا هاجساً بدُنُوِّه، وسوف أرتعد فَرَقاً عشية ذلك اليوم سواء كان بعد شهر أو بعد مئة عام. لستُ أرغب في اختيار الموعد. والحظوة الوحيدة التي أطلبها أيها النبي الحبيب هي ألّا أعيش بعد مولاي السلطان ملكشاه. فقد رأيته يكبر، وسمعته يناديني «يا أبي»، ولا أريد أن تلحق بي المهانة والألم لرؤيته ميتاً». وقال لي النبي «لك ما أردت، ستموت قبل السلطان بأربعين يوماً».

وامتُقع وجه ملكشاه، وارتعدت فرائصه، وكاد يفتضح أمره.

وابتسم نظام الملك:

– أرأيت، إني لا أظهر أية وقاحة، وأنا اليوم واثق من أني سأعيش طويلاً.

تُرى هل حدّثت السلطانَ نفسُه في تلك اللحظة بأن يَعْدِل عن قتل وزيره؟ لو فعل لكان في ذلك خيره. لأنه إن لم يكن الحلم سوى أمثولة فإن نظام الملك كان قد اتّخذ في الواقع تدابير قاسية. فقد اجتمع حواليه ضباط حرسه عشية رحيله وأقسموا واحداً تلو آخر، وأيديهم على المصحف، ألّا يعيش بعده إذا قُتِل أيٌّ من أعدائه!

19

تجرّأت امرأة في الإمبراطورية السلجوقية في الوقت الذي كانت فيه أقوى إمبراطورية في الدنيا على الإمساك بزمام السلطة بيديها. فكانت وهي جالسة خلف حجابها تنقّل جيوشاً من أحد أطراف آسيا إلى طرف آخر، وتسمّي الملوك والوزراء والولاة والقضاة، وتُملي الرسائل إلى الخليفة وترسل المبعوثين إلى صاحب أَلَمُوت. وكانت تُجيب الأمراء المتذمّرين من سماعها تُصدر الأوامر: «الرجال عندنا هم الذين يقودون الحروب، ولكنّ النساء هن اللائي يَقُلْنَ لهم مَنْ يقاتلون».

كانت تُلقّب في حريم السلطان بـ «الصينيّة». فلقد وُلدت في سمرقند لأسرة أصلها من «قشغر»، وعلى شاكلة أخيها الأكبر نصر خان، لم يكن وجهها يكشف عن دم خليط، فليس فيه قسمات أبناء سام من العرب، ولا ملامح حام من الفُرس.

إنها أقدم نساء ملكشاه طُرّاً. ولم يكن عمره عندما عقد عليها سوى تسعة أعوام، وكان عمرها هي أحد عشر. لقد انتظرت بصبر أن يكبر، ولامست أول ما طرّ من زغب في لحيته، وفاجأت أوّل ارتعاشات الرغبة في جسده، ورأت أطرافه تنبسط وعضلاته تنتفخ. وبكّرت في ترويض ذلك الملك العديم الشخصية. ولم يحدث أن

انقطعت عن أن تكون الأثيرة المدلّلة المخطوب ودُّها المشرَّفةَ المسموعة الكلمة بخاصّة. والمُطاعة. ففي نهاية النهار، لدى الرجوع من صيد السباع، أو من سباق، أو من نزاع دام، أو من اجتماع صاخب مع الأمراء، أو أسوأ من كل هذا من جلسة عمل مع نظام الملك، كان ملكشاه ينعم بالدعة والسلام في أحضان «تركين». فهو يُزيح الحرير الشفّاف الذي يغطّيها ويلتصق بجلدها ويلهو ويزمجر ويروي مآثره وتضجّراته. وتغمر الصينية الوحش المُهَيّج وتحضنه وتستقبله استقبال الأبطال في ثنايا جسدها وتحتجزه طويلاً وتُحكم عليه الطوق فلا تُفلته إلا لتجتذبه من جديد؛ ويتمدّد بكل ثقله غازياً مبهور الأنفاس لاهثاً مستكيناً مسحوراً، فهي تعرف كيف تقوده إلى أعماق اللذّة.

ثم تبدأ أصابعها الدقيقة برسم حاجبيه وجفونه وشفتيه وشحمتيْ أُذُنيه وخطوط عنقه الدَّبِق؛ وها هوذا الوحش وقد تهالك يهرهر ويسري فيه الخَدَر سِنَّوْراً أصاب شِبَعاً فهو يبتسم. وحينئذٍ تنساب كلمات «تركين» في جوف روحه، فهي تتحدّث عنه وعنها وعن أولادهما وتروي له الطرائف وتُنْشِده القصائد وتهمس له بالحِكَم والأمثال الغنية بالمغازي؛ وما من لحظة يتضجّر فيها بين ذراعيها، وإنه لَيَعِدُ نفسه بالبقاء معها كلّ عشيّة. وهو يحبّها بطريقته الفظّة الخشنة الصبيانية الحيوانية، وسيحبّها حتى آخر نَفَس فيه. وهي تعلم أنه لا يستطيع أن يرفض لها أمراً، وهي التي تُملي عليه غزواته الآنية وسراريه وإيالاته. وليس لها في الإمبراطورية كلها من منافس غير نظام الملك، وها هي ذي في طريقها هذا العام 1092م إلى إخماده.

أتكون الصينية قد نالت مناها؟ وأنى لها أن تكون؟ فما إن تكونُ وحدها، أو مع «جهان» مستودعِ أسرارها، حتى تبكي بدموع الأم ودموع السلطان، وتجأر بالشكوى من القدر الغاشم، وما من

أحد يفكّر في لومها على ذلك. فلقد اختار ملكشاه ابنها البكر وريثاً، وكان يصحبه في جميع الرحلات وكل الاحتفالات. وكان والده فخوراً به إلى حدّ عرضه على الناس في كل مكان، وإطْلاعه على إيالاته الواحدة بعد الأخرى، وتحديثه عن اليوم الذي سيخلفه فيه. وكان يقول له: «ما من سلطان سيكون في وسعه توريث ابنه إمبراطورية أكبر من هذه الإمبراطورية!» أجل، في تلك اللحظة كانت «تركين» تشعر بالرضى، ولم يكن أيّ ألم يُشَوِّه ابتسامتها.

ثم مات الوريث. من حمى مباغتة صاعقة لا ترحم. وجهد الأطباء في وصف الفصْد والكمادات، فما مضت ليلتان حتى خمد. وقيل إنها ضربة عين شريرة، وقيل ربما هو سمّ لا يترك أثراً. وعلى الرغم من حزن «تركين» الشديد فإنها تمالكت نفسها. فما إن انقضت أيام الحِداد حتى سمّت ثاني أبنائها وريثاً للعرش. وسرعان ما تدلّه به ملكشاه وأغدق عليه ألقاباً مدهشة قياساً إلى أعوامه التسعة، غير أن العهد كان عهد أُبّهة وبذخ: «ملك الملوك، عماد الدولة، حامي أمير المؤمنين»...

لعنةٌ وعينٌ شريرة، فالوريث الجديد لم يلبث هو الآخر أن مات. ميتة مباغتة شبيهة بميتة أخيه. من حمّى مريبة كحمّى أخيه.

وكان للصينية ابن أخير فسألت السلطان تعيينه وريثاً. وكان الأمر أقلّ يُسراً هذه المرّة، فعمر الصبيّ عام ونصف عام وملكشاه أب لثلاثة صبيان غيره جميعهم أكبر منه سناً. وكان اثنان منهم قد وُلِدا له من إحدى جواريه، إلّا أن أكبرهم، واسمه بركيارُق، كان ابن ابنة عمّ السلطان لَحّاً. فكيف السبيل إلى تنحيته، وبأية ذريعة؟ فَمَنْ خيرٌ من هذا الأمير المنتسب أباً وأماً إلى آل سلجوق لشرفِ وراثة العرش؟ كان ذلك هو رأي نظام الملك. ولقد ألحّ، هو الذي كان يريد أن يضع بعض الحدود للمنازعات التركية، هو

الذي طالما كان هاجسه إقامة نوع من نظام للخلافة، ألحّ بخير ما في الدنيا من حُجج على أن يُسمّى أكبر الأبناء. بلا نتيجة. فملكشاه ما كان ليجسر على مخالفة «تركين»، ولمّا كان لا يستطيع تسمية ابنها هي فإنه لن يُسمّي أحداً. وفضّل المجازفة بالموت بلا وريث، شأنه شأن أبيه، بل شأن كلِّ ذويه.

وليست «تركين» راضية، وهي لن ترضى إلّا إذا تأمّن مصير أولادها بما يليق. واللّه يعلم ما إذا كانت تمنّت أكثر من أي شيء في الدنيا إزاحة نظام الملك، حجر العثرة في طريق أطماعها. وكانت مستعدّة في سبيل الحصول على قرار موته لعمل أيّ شيء، المكائد والتهديدات، وقد تابعت يوماً بيوم المفاوضات مع الحشّاشين. وصَحِبَت السلطان ووزيره على الطريق إلى بغداد. وإنها لَتُصِرُّ على أن تكون حاضرة يومَ تنفيذِ الحكم بالموت.

إنها آخر وجبة يتناولها نظام الملك، والعشاء الأخير عبارة عن إفطار في اليوم العاشر من شهر رمضان. والوجهاء ورجال الحاشية وأمراء الجيش زاهدون بشكل غير مألوف احتراماً للشهر الفضيل. وقد نصبت المائدة تحت خيمة كبيرة. وحمل بعض الخدمُ المشاعل ليتسنى للآدبين أن يختاروا. وامتدت إلى القِصاع الفضيّة الواسعة، وإلى أفضل قطعة من لحم الجَمَل أو الضأن، وإلى ألحم أفخاذ فراخ الحَجَل، ستون يداً جائعة تنقّب في اللحم والمرق. والناس يتقاسمون ويَهْبُرون ويلتهمون. وإذا عثر امرؤ على قطعة شهيّة قدّمها إلى جار يرغب في إكرامه.

وطَعِم نظامُ الملك قليلاً. فهو يتألّم في هذا المساء أكثر مما يتألّم في المألوف، وصدره ملتهب وأحشاؤه كأنما تُمسك بها يدُ عملاقة غير منظورة. إنه يجهد في أن يبقى مستقيماً في جلسته. وملكشاه إلى جواره يقضم كلّ ما يبعث به إليه جيرانه. ولقد رؤي يحاول أحياناً اختلاس نظرة مواربة إلى وزيره، ولا بدّ أنه يفكّر

في أن هذا خائف. مدّ يده فجأة إلى طبق من التين الأسود فاختار منه أكبر تينة وقدّمها إلى نظام الملك الذي تناولها بأدب وخَضَمَها بأطراف أسنانه. تُرى أي مذاقَ للتّين عندما يكون المرء عارفاً أنه محكوم عليه بالموت ثلاثاً، من اللّه ومن السلطان ومن الحشاشين؟

انتهى الإفطار بعد لأي، وكان الليل قد أظلم. ونهض ملكشاه دفعة واحدة فهو مستعجل لقاء «صينيّته» ليقصّ عليها تكشيرات الوزير. وأما نظام الملك فارتفق المائدة ونهض واقفاً بمشقّة. ولم تكن خِيام نسائه بعيدة، ولا بدّ أن تكون ابنة عمه العجوز قد هيّأت له مَغليَّ الإهليلج لتخفيف أوجاعه. ولم يكن عليه أن يقطع غير مئة خطوة. وحواليه هَرْجُ المعسكرات الملكية الذي لا يمكن تحاشيه. وهناك جنود وخدم وباعة متجوّلون. وأحياناً ضحكة مكتومة لامرأة من نساء الحاشية. ما أطول ما تبدو الطريق، وهو يسير وحده. وكان يحفّ به في العادة إكليل من رجال البلاط، ولكن مَن ذا الذي يرغب في أن يُرى مع منبوذ؟ حتى المتسوّلون فرّوا، فماذا يمكن أن ينالوا من عجوز مغضوب عليه؟

ومع ذلك اقترب منه شخص، رجل طيّب يرتدي مُرَقَّعة ويُغَمْغِم بكلمات ورعة. وتحسّس نظام الملك كيس نقوده وأخرج منه ثلاث قطع ذهبية. فلا بدّ من مكافأة سخيّة للمجهول الذي جرؤ على الاقتراب منه.

وأومض بريق، بريقُ نَصْلٍ، وتمّ كل شيء بسرعة. فما كاد نظام الملك يرى اليد وهي تتحرك حتى كان الخنجر قد خرق ثوبه وجلده واندسّت ظُبَتُه بين ضلوعه. حتى إنه لم يصرخ. ولم يصدر عنه سوى حركة ذهول واستنشاقة أخيرة. وربما استعرض، وهو ينهار، بالحركة البطيئة ذلك البريق، وتلك الذراع التي امتدّت ثم

انثنت، وذلك الفم المتشنّج الذي لفظ: «خذ هذه الهديّة، إنها آتية من أَلَمُوت!».

عند ذاك تعالت بعض الصرخات، وجرى القاتل فلوحق من خيمة إلى خيمة وعُثر عليه. وحُزَّ عنقه على عجل وسُحب من قدميه العاريتين وأُلقي به في إبّالة.

ولسوف يلقى في الأعوام والعقود القادمة عدد لا يُحظى من مبعوثي أَلَمُوت الحتف نفسه، بفارق وحيد هو أنهم لن يركنوا أبداً إلى الفرار. فَحَسَنٌ يعلّمهم قائلاً: «لا يكفي أن نقتل أعداءنا، فلسنا قَتَلَةً بل مدبِّرو موت، وعلينا أن نعمل ما نعمل في العَلَن بقصد الاعتبار. فإذا قتلنا رجلاً أرهبنا مئة ألف. ومع ذلك فإنه لا يكفي أن نقتل ونُرهِب، بل ينبغي أن نعرف كيف نموت، لأننا إذا كنا نُثْني أعداءنا، ونحن نقتل، عن اتّخاذ أيّ تدبير بحقّنا فإننا نغتصب، ونحن نموت كأشجع ما يكون الموت، إعجاب عامة الناس. وسوف يخرج منهم أناس للانضمام إلينا. والموت أهمّ من القتل، ونحن إنما نَقْتُل دفاعاً عن أنفسنا ونموت من أجل الدعوة إلى معتقدنا، وطلباً للفَتْح. والفَتْح غاية، وليس الدفاع عن النفس غيرَ وسيلة».

ولسوف يُفَضَّل بعد اليوم أن يتمّ القتلُ أيام الجُمَع في المساجد عند اجتماع الناس لأداة صلاة الظهر. فسيُقْبِل الضحية، وزيراً أو أميراً أو وجيهاً، يحفّ به عدد من الحراس، ويكون الناس مبهورين طيّعين مُعْجَبين. وسيكون مبعوث أَلَمُوت هناك، في مكانٍ ما، في أقلّ أزياء التنكّر توقُّعاً. أحد أفراد الحرسّ مثلاً. وسيضرب في اللحظة التي تكون فيها الأبصار شاخصة. ويسقط الضحية ولا يَريم الجلّاد بل يزعق بعبارة حَفِظَهَا ويتّخذ ابتسامة تحدٍّ بانتظار أن ينقضّ عليه الحرّاس الهائجون ثم أن يمزّقه الناس المُفزَّعون. لقد وصلت الرسالة؛ وسوف يُبدي خَلَفُ القتيل

مزيداً من التوافق حيال أَلَمُوت؛ وسيكون بين الحضور عشرة أو عشرون أو أربعون من المنخرطين.

وكثيراً ما قيل، لدى رؤية هذه المشاهد التي لا تصدّق، إن رجال حسن كانوا يُخَدَّرون. وإلا فكيف تُفسَّر مقابلتهم الموت بالابتسام؟ ولقد صدّق الناس الرأي القائل بأنهم إنما كانوا يفعلون ما يفعلون بسلطانٍ من الحشيش. ولقد أشاع ماركو بولو هذه الفكرة لدى عامة الناس في الغرب؛ فلقد أطلق عليهم أعداؤهم في ديار الإسلام أحياناً اسم «الحشيشيين» (مدخّني الحشيش) للتقليل من اعتبارهم؛ وتوهّم بعض المستشرقين في هذا التعبير أصل كلمة «assassin»، التي أصبحت في عدّة لغات أوروبية مرادفة لكلمة قاتِل. وما كانت أسطورة «الحشّاشين» على هذا إلا لتقذف الرعب في القلوب. وأما الحقيقة فكانت غير ذلك. فتبعاً للنصوص التي وردت إلينا من أَلَمُوت فإن حسناً كان يحلو له أن يدعو مريديه «الأساسيين»، أي المتمسّكين بـ «الأساس»، أساس العقيدة، وقد خيّل للرحّالين الذين لم يفهموا معنى هذه الكلمة أن لها صلة بـ «الحشيش».

والحقّ أن الصبّاح كان مولعاً بالنباتات، وأنه كان يعرف كل المعرفة خصائصها الشفائية أو المهدِّئة أو المنشّطة. وكان يزرع بنفسه أنواعاً من الأعشاب ويعالج أتباعه عندما يمرضون واصفاً لهم ما ينعش أمزجتهم من الأشربة. وتُعرف على هذا إحدى وصفاته المنذورة لتنشيط عقول مريديه وجعلها أقدر على الدرس. وهي خليط من عسل وجوز مَطحون وكزبرة. وإنه لطِبّ خفيف يسير جدّاً كما يُلاحظ. وعلى الرغم من تقليد عنيد ومُغْرٍ فإنه ينبغي العودة إلى الحقيقة. لم يكن للحشّاشين من مخدِّر سوى إيمان لا يَتَلَوَّن. إيمان يعزّزه على الدوام أحكم التعاليم وأنجع التنظيمات وأدقّ توزيع للمهمّات.

ويقيم في ذروة السُلَّم التراتبي حسنٌ، الإمام الأعظم، مالك كل الأسرار. تحفّ به حفنة من المبشِّرين الدعاة بينهم ثلاثة معاونين، أحدهم لفارس الشرقية، خراسان وقوهستان وطبرستان؛ والثاني لفارس الغربية والعراق؛ والثالث لبلاد الشام. ويأتي بعدهم مباشرة الرِفاق، وهم كوادر الحركة. وإذ تلقّوا التعليم الملائم فإنهم مؤهَّلون لقيادة قلعة أو إدارة التنظيم على مستوى مدينة أو قرية. ولسوف يصبح أكثرهم كفاية دُعاةً ذات يوم.

ويأتي في أسفل السلم «اللُّصَقَاء»، أي المضمومين إلى التنظيم، وهم المؤمنون الذين يشكّلون القاعدة ولا يتمتّعون باستعداد خاص للدراسة ولا لأعمال العنف، وبينهم كثير من الرعاة من جوار أَلَمُوت، وعدد من النساء والعجائز.

ثم يأتي «المُجيبون»، أي المريدين. ويَتَلَقَّون تعليماً أوّلياً، ثم يُدفع بهم بحسب قدراتهم إما لدراسات عليا فيصبحون رِفاقاً، وإما إلى جماعة المؤمنين، وإما إلى الفئة التالية التي تمثّل في نظر مُسلمي ذلك العهد قوّة حسن الصبّاح الحقيقية: فئة «الفدائيين». وكان الإمام الأعظم يختارهم من المريدين المتمتعين برصيد عريض من الإيمان والحِذق والطاقة على احتمال المشاقّ، ولكنْ بقليل من الكفاية للتعلُّم. ما كان قطّ ليرسل للفداء رجلاً مؤهّلاً لأن يصبح داعية.

وتدريب «الفدائي» مهمّة دقيقة ينصرف إليها حسن بشغف ورهافة. فهناك تعليمه كيف يُخفي خنجره، وكيف يستلّه بحركة خاطفة، وكيف يغرسه في قلب ضحيّته أو في عنقه إذا كانت تحمي صدره درع من الزرد؛ وكيف يتآلف مع الحَمام الزاجل، ويستظهر حروف الهجاء المرمّزة، وسيلة الاتصال السريعة السرّية بأَلَمُوت؛ وكيف يتعلّم أحياناً لغة محكيّة أو لهجة محلّية إقليمية، وكيف يُتقن الاندساس في وسط غريب عليه ومُعادٍ له، ويذوب فيه

طَوال أسابيع وأشهر، وكيف يُنيم جميع الشكوك بانتظار اللحظة المؤاتية للتنفيذ؛ وكيف يطارد الفريسة مطاردةَ الصيّاد، ويدرس بدقة مشيتها وملابسها وعاداتها والساعات التي تخرج فيها؛ وأنّ عليه أحياناً، عندما يكون الأمر أمر شخصية مَحْمِيَّة بشكل استثنائي، أن يجد وسيلة تُمكِّنه من أن يكون بجانبه، وأن يقترب منه، وأن يرتبط ببعض خاصّته. ويُحكى أنّ فدائيين اضطرّا من أجل القضاء على أحد الضحايا إلى قضاء شهرين في دير للنصارى متظاهريْن بأنهما راهبان. وإنها لمقدرة عظيمة على التلُّون كالحرباء، مقدرةٌ لا يمكن تصوُّر ترافقها مع أيّ طريقة لتعاطي الحشيش! وأهمّ من كل ذلك أنّ على المريد أن يكتسب الإيمان اللازم لمواجهة الموت، الإيمان بجنّة تكون من نصيب الشهيد في اللحظة التي تُزهق فيها الجموع الهائجة روحه.

ليس في وسع أحد أن يناقض القول بأن حسن الصبّاح قد نجح في بناء أشدّ آلات القتل هولاً في التاريخ. ومع ذلك فقد انتصبت في وجهها في نهاية ذلك القرن الدامي آلة أخرى هي «النظاميّة» التي ستَنْذُر الموت، إخلاصاً منها للوزير القتيل، بطرق شتى قد تكون أشد من طرق تلك مكراً ومخاتلة، بيد أنها بالتأكيد أقلّ منها خَلْباً للألباب، وإن لم تكن نتائجها أقلَّ تخريباً وتدميراً.

20

فيما كانت الجموع تصبّ جام غضبها على رفات «الحشّاش» كان خمسة ضباط مجتمعين حول جثمان نظام الملك الذي لم يبرد بعدُ وهم يبكون. ولقد بسطوا أيديهم الخمس اليمنى وردّدت أفواههم الخمسة معاً: «ارْقُد بسلام يا مولاي فلن يعيش بعدك أحد من أعدائك!».

بمن يبدأون؟ إن قائمة المغضوب عليهم طويلة، إلّا أنّ تعليمات نظام الملك واضحة. وليس الرجال الخمسة بحاجة إلى التشاور. ولقد همسوا بأحد الأسماء وانبسطت أيديهم من جديد، ثم جَثَوْا بإحدى ركبتيهم ورفعوا معاً الجثمان الذي أهزله المرض وإن أثقله الموت، وحملوه في موكب إلى مَضارِبه. وكانت النسوة قد اجتمعن للندب، وأذكى مرأى الجثمان عويلهن فسخط أحد الضباط وصاح: «لا تَبْكِينَ ما دام لم يُثْأَرْ له!». وانقطعت النوادب عن البكاء خائفاتٍ ونظرن جميعاً إلى الرجل الذي كان قد ابتعد فاستعدن ندبهنَّ الصاخب.

والآن إلى السلطان. لقد كان بقرب «تركين» عندما ترامت إليه الصرخات الأولى. ومضى طواشي لاستطلاع الأمر وعاد وهو يرتجف: «إنه نظام الملك يا مولاي! لقد انقضّ عليه أحد القَتَلَة!

لقد أعطاك ما بقي من عمره!». وتبادل السلطان والسلطانة نظرة، ثم نهض ملكشاه فاشتمل قباءه الطويل وربّت على وجهه أمام مرآة زوجه، وهرع إلى الفقيد مُتظاهراً بالذهول وأَفْدَحِ التفجُّع.

وابتعدت النسوة تاركات إيّاه يقترب من جثمان «أبيه». وانحنى وقرأ دعاء وقال بعض العبارات التي تُقال في مثل هذه المناسبة قبل أن يعود أدراجه إلى «تركين» بحثاً عن مُتَعٍ تَتِمُّ بعيداً عن العيون.

عجيب تصرُّف ملكشاه. لقد كان بالإمكان أن يمرّ في الخواطر أنه سينتهي زوال الوصيّ عليه ليقبض بعد لأي بيديه على زمام الأمور في إمبراطوريته. ولم يحدث شيء من هذا. فإذا غمر السلطان الفرح بأن يكون قد تخلّص في النهاية ممّن كان يكبح جماح احتدامه فقد أخذ يلهو كالأطفال، وليس هناك من تعبير آخر. فلقد أُلغي على الفور كل اجتماع للعمل، وكل استقبال للسفراء، وخُصِّصت سحابات النهار لِلَّعب بالصولجان وللصَّيْد، والعشيّاتُ للَّهْو والشراب.

وأخطر من هذا أيضاً أنّه ما إنْ وصل إلى بغداد حتى أرسل إلى الخليفة يقول: «أنوي أن أجعل من هذه المدينة عاصمتي الشتوية، وعلى أمير المؤمنين أن ينتقل بأسرع وقت، وأن يبحث له عن مقرّ آخر». وطلب الخليفة الذي عاش أجداده في بغداد منذ ثلاثة قرون ونصف القرن مهلة شهر لتنظيم أموره.

وأبدت «تركين» قلقها لهذا الطيش الذي لا يليق كثيراً بملك في السابعة والثلاثين ويملك نصف العالم، غير أن ملكشاه هو ما هو، وعليه فقد تركته سادراً في طيشه وانتهزت الفرصة لإرساء قواعد سلطتها هي. فبها أخذ يلوذ الأمراء والكبراء، وحلّ رجالها المأمونون محل المخلصين لنظام الملك. وكان السلطان يُبدي موافقته بين نزهتين أو بين مجلسيْ شراب.

كان ملكشاه في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1092م شمالي بغداد، وكان يصطاد حمار الوحش في منطقة كثيرة الغابات والمستنقعات. وقد أخطأ سهم واحد من سهامه الاثني عشر غرضه فأخذ رفاقه يُسبّحون بحمده، وما كان ليخطر في بال أحدهم أن يضاهيه في انتصاراته. ولقد أجاعه المسير فأخذ يعبّر عن جوعه ببعض السباب. وانهمك العبيد، وكانوا اثني عشر عبداً يقطّعون أوصال حُمُر الوحش ويفرغون أحشاءها ويشكّونها بالسفافيد فما تلبث أن تُشوى في مضاءة. وقُدِّم أكثر الأفخاذ امتلاء بالشحم إلى الملك فتناوله وأخذ يَهْبُر منه بكل ما في نفسه من شهيّة ويَطْعَم ويشرب شراباً مخمَّراً. وكان يقضم بين الفينة والفينة ثمرة معقودة بالخلّ، أكلته المفضّلة التي ينقل منها طباخُه إلى كلّ مكان خَوابيَ ضخمة ليضمن ألّا يفتقدها سيِّدُهُ أبداً.

وفجأة حدثت آلام مغص تُمزِّق الأحشاء. وها هوذا ملكشاه يزعق من الألم، ومرافقوه ترتجف أوصالهم. وبحركة عصبية قذف بكأسه وبصق ما في فمه. إنه مطويّ على نفسه وجسده يُفرغ ما في داخله. وهو يهذي ويُغشى عليه. وحوله يرتعد عشرات من أفراد الحاشية والجنود والخدم، ويرقب بعضهم بعضاً بارتياب. ولن يُعْلَم أبداً أمرُ اليد التي دسَّت السمّ في الشراب. هذا إن لم يكن في الخلّ. أم داخل لحم الطريدة؟ غير أن كل واحد حسب حسابه: لقد مضى على موت نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً. وكان هذا قد قال «أقل من أربعين». ولا يزال الثائرون له في حدود الميعاد المضروب.

«تركين خاتون» في المعسكر الملكي على مسيرة ساعة من مكان وقوع المأساة. ولقد نُقل إليها السلطان فاقد الحِراك وإن كان لا يزال حيّاً. وبادرت إلى إبعاد جميع الفضوليين، ولم تستبقِ بقربها غير «جهان» واثنين أو ثلاثة آخرين من المخلصين وطبيباً من أطباء القصر مُمْسِكاً بيد ملكشاه.

وسألت الصينية:

ـ هل سيكون في مقدور مولانا أن يقف على قدميه؟

ـ النبض يضعف، لقد نفخ اللّه على الذُّبالة فهي تترنّح قبل الانطفاء، وليس أمامنا من وسيلة غير الدعاء.

ـ إذا كانت تلك مشيئته تعالى فاسمع جيداً ما سأقوله.

ليست النبرة نبرة امرأة توشك أن تصبح أرملة، وإنما نبرة صاحبة إمبراطورية.

ـ لا ينبغي أن يعرف أحد خارج هذه الخيمة أن السلطان فارقنا. حسبُكم القولُ إنه يتماثل ببطء إلى الشفاء، وهو بحاجة إلى الراحة، وليس في مقدور أحد أن يعوده.

يا لها ملحمةً عابرة دامية، ملحمةُ «تركين خاتون». فقبل أن يتوقّف قلب ملكشاه عن الخفقان كانت قد ألزمت الحفنة من المخلصين لها بأن يُقسموا على الولاء للسلطان محمود البالغ من العمر أربع سنوات وبضعة أشهر. ثم أرسلت إلى الخليفة كتاباً تخبره فيه بموت زوجها وتسأله الموافقة على أن يخلفه ابنه منها؛ وفي مقابل ذلك تسقط مسألة إزعاج أمير المؤمنين في عاصمته ويُدعى له في جميع مساجد الإمبراطورية.

وفيما كان موكب البلاط السلطاني يسلك الطريق إلى أصفهان كان قد مضى على موت ملكشاه بضعة أيام. غير أن الصينية استمرّت في إخفاء النبأ عن العسكر. وكانت جثته ممدّدة على عربة كبيرة يجرّها ستة جياد وقد ضربت فوقها خيمة. غير أن الخدعة ما كانت لتنطلي إلى الأبد، فليس في الإمكان أن يظل جثمان لم يعالج بالحَنُوط بين الأحياء من دون أن يفضح التحلُّل أمْرَه. وآثرت «تركين» أن تتخلّص منه. وهكذا دُفن ملكشاه السلطان الأعظم، شاهنشاه الأكبر، ملك المشرق والمغرب، عماد الإسلام والمسلمين، جلال الدنيا والدين، أبو الفتح، سند خليفة

اللّه المتين ليلاً على عجل في جانب من طريق، في مكان لم يُقدَّر لأحد فيما بعد العثور عليه. ويقول المؤرخون «لم يُسمع قطُّ عن ملك بمثل هذه القوة مات ولم يصلِّ أحد على جثمانه ولا بكى عليه».

وانتهى الأمر بأن شاع خبر الموت، ولكن ما أيسر ما كان تسويغها فِعْلَتها: كان أول ما ساورها إخفاء النبأ عن العدوِّ، والجيشُ والحاشيةُ بعيدان عن العاصمة. والحقيقة أن الصينية كانت قد اغتنمت الوقت اللازم لإجلاس ابنها على العرش والقبض بنفسها على زمام السلطة.

ما كانت الأخبار الخاصّة بذلك العهد لتخطىء في تقدير الأمر، فقد غدت تقول عند الكلام على الجيوش الإمبراطورية «عساكر تركين خاتون». وعند الكلام على أصفهان تؤكّد أنها عاصمة «الخاتون». وأما بالنسبة إلى اسم السلطان ـ الطفل فسوف يُنسى البتّة ولا يُذكر غير «ابن الصينية».

بيد أن ضباط «النظامية» سوف ينتصبون في وجه السلطانة. فترتيب «تركين خاتون» هو الثاني في القائمة التي نظّموها بالمغضوب عليهم، مباشرة بعد ملكشاه. وقد أعلنوا مساندتهم لأكبر أبناء هذا الأخير، بركيارق البالغ من العمر أحد عشر عاماً. فهم يحيطون به ويُشيرون عليه ويقودونه للقتال. وكانت المواجهات الأولى في مصلحتهم، وكان على السلطانة أن تعود أدراجها إلى أصفهان التي لن تلبث أن تُحاصر. غير أن «تركين» ليست بالمرأة التي تعترف بالهزيمة، وهي مستعدّة من أجل الدفاع عن نفسها للّجوء إلى خُدَع سوف تبقى مشهورة ذائعة.

فقد كتبت مثلاً إلى عدد من ولاة الإيالات رسائل تقول: «إني أرملة، وعليَّ حماية طفل قاصر بحاجة إلى والد يسدّد خطاه ويحكم المملكة باسمه. فمن خيرٌ منك للقيام بهذا الأمر؟ تعالَ

بأسرع ما يمكن على رأس عسكرك فتخلّص أصفهان وتدخلها فاتحاً منتصراً وأتزوّجك فتقبض على زمام الأمور جميعاً». وتؤتي الحجة ثمارها، ويهرع الأمراء من أذربيجان كما من بلاد الشام، وإن لم يكونوا لِيُوَفَّقوا إلى فكّ الحصار عن العاصمة، فإنهم كانوا يؤمِّنون للسلطانة شهوراً طويلة من الدعة.

وأعادت «تركين» كذلك علاقاتها بحسن الصبّاح. «ألم أعِدْك برأس نظام الملك؟ لقد منحتُك إياه. واليوم أمنحك أصفهان عاصمة المملكة. وإني لأعرف أن رجالك كُثُر في هذه المدينة، فلماذا يأتون في الخفاء؟ قل لهم أن يظهروا فينالوا الذهب والسلاح ويتمكّنوا من نشر الدعوة جِهاراً». والواقع أنه بعد أعوام كثيرة من الاضطهاد كشف مئات الإسماعيليين عن وجوههم، وتضاعفت عمليات اعتناق المذهب. وأقاموا في بعض الأحيان حرساً مسلّحاً لحساب السلطانة.

ومع هذا فإنه ربما كانت آخرُ حِيَلِ «تركين» أذكاها وأرداها: مَثَلَ ذات يوم بعض الأمراء من خاصّتها في المعسكر المعادي يُعلنون لبركيارق أنهم عزموا على التخلّي عن السلطانة، وأن عساكرهم مستعدّون للعصيان، وأنه إذا قبل باصطحابهم ودخول المدينة على حين غرّة معهم كان في مقدورهم الإشارة بانقلاب: تُذبح «تركين» ويُذبح ابنها ويصبح في مقدوره التربّع بإحكام على العرش. إننا في عام 1094م والمُطالِب بالعرش لم يتجاوز الثالثة عشرة والعَرْض يُغويه. فما أروع أن يستولي بنفسه على المدينة في حين أن أمراءه يحاصرونها منذ أكثر من عام ولا يحقّقون أي انتصار! إنه لا يتردّد البتّة. وها هوذا ينسلّ في الليلة التالية خارج معسكره من غير أن يعلم بأمره أحد من خاصّته، ويقف مع مبعوثي «تركين» أمام باب «كهاب» فينفتح له وكأنما بضرب من السحر. وإنه ليسير بخطى ثابتة تحفّ به حاشية يروقه مَرَحُها

المُفْرِط الذي يظنّ أنه ناجم عن نجاح العملية من غير مُعكِّر. وإذا اتفق أن رفع الرجال أصواتهم بالضحك أمرهم بالتزام الهدوء فاستجابوا باحترام شديد قبل أن يُطلقوا العِنان لقهقهاتهم من جديد.

وعندما أدرك ـ ويا للأسى ـ أن جذلهم مشبوه كان الأوان قد فات. فلقد شلّوا حركته وأوثقوا يديه ورجليه وكمّوا فمه وعصبوا عينيه وقادوه في موكب من الهزء والسخرية إلى باب الحريم. واستيقظ كبير الطواشية وجرى يُعْلِم «تركين» بوصولهم. ففي يدها تقرير مصير خصم ابنها، وما إذا كان يجب خنقه أو الاكتفاء بِسَمْل عينيه. وكان الطواشي قد أوغل في الدهليز الطويل الخفيف الإضاءة عندما تعالى بغتة عويل ونداءات وأصوات انتحاب من الداخل. وأصابت الدهشة والقلق الضباط فما تمالكوا من اختراق المنطقة واصطدموا بخادم عجوز ثرثارة فأخبرتهم بالخبر: لقد عُثر على «تركين خاتون» ميتة في سريرها وإلى جانبها سلاح الجريمة: الوسادة العريضة الوثيرة التي أخمدت أنفاسها. ولقد اختفى طواشي عَبِل؛ والخادم تذكر أنه كان قد أُدخل الحريم منذ بضع سنوات بتوصية من نظام المُلك.

21

إنه لَصِراعٌ غريب يعتمل في نفوس أنصار «تركين»: لقد ماتت سلطانتهم، إلا أن خصمهم الرئيسي تحت رحمتهم؛ وعاصمتهم محاصرة، إلا أن الذي يحاصرهم هو بالذات أسيرهم. فماذا يفعلون به؟ لقد حلّت «جهان» محل «تركين» في حضانة الطفل ـ السلطان، وإليها رُفع الجدال لتحمسه. وكانت طالما بدت حتى اليوم واسعة الحياة إلا أن موت مولاتها قد زلزل الأرض تحت قدميها. فإلى من تتوجّه، ومن تستشير، إن لم تتوجّه إلى عُمَر وتَسْتَشِرْه؟

عندما حضر عُمر وجدها جالسة على ديوان «تركين» عند أسفل الستار المفتوح قليلاً مطأطأة الرأس وشعرها منسدل بإهمال على كتفيها. وكان السلطان بجانبها رافلاً بالحرير، وعلى رأسه الصغير عمامة، وهو ساكن الأوصال فوق طنفسته؛ أحمر الوجه مليئة بالبثور، وعيناه نصف مغمضتين، وقد ارتسم الضجر على سحنته.

واقترب عُمَر من «جهان» وتناول يدها بحنان ومرَّ براحته على وجهها وهمس:

ـ علمت قبل قليل بأمر «تركين خاتون». ولقد أحسنتِ صُنعاً بدعوتي إليك.

وبينما هو يمسّد على شعرها دفعته عنها قائلة:

ـ إذا كنتُ قد استدعيتك فليس لكي تواسيني، وإنما لاستشارتك في أمر خطير.

تراجع عُمَر خطوة إلى الوراء وشبك ذراعيه وأصغى.

ـ لقد استُدرج بركيارق إلى شَرَك، وهو أسير داخل هذا القصر، والرجال مختلفون في المصير الذي ينبغي أن يلقاه. فبعضهم يطالب بقتله، ولا سيما الذين نصبوا له هذا الفخّ، راغبين في الإفلات إلى الأبد من شر الردّ على أسئلته عن تصرّفهم. وآخرون يُؤثرون التفاهم معه وإجلاسه على العرش والفوز بالحظوة عنده راجين أن ينسى يوماً ما كابد من هَوْل. وفريق ثالث يقترحون الاحتفاظ به رهينة للتفاوض مع المحاصرين. فأيّ السبل تنصحنا بأن نتّبع؟

ـ ولأجل هذا انتزعتِني من بين كتبي؟

وقفت «جهان» وقد أُرهقت، وقالت:

ـ ألا يبدو لك أنّ في الأمر ما يكفي لإثارة الاهتمام؟ إن حياتي رَهْنٌ به. ومصير آلاف الناس، وهذه المدينة، ومصير الإمبراطورية قد يكون رهناً بهذا القرار. وأنت، يا عُمَر الخيّام، لا تريد أن يزعجك أحد من أجل أمر لا يستحقّ كل هذا العناء!

ـ نعم، لا أريد أن يزعجني أحد من أجل أمر لا يستحقّ كل هذا العناء!

وانفتل نحو الباب؛ وفي اللحظة التي همّ فيها بفتحه عاد إلى «جهان».

ـ لا أُستشار إلا بعد أن يكون الجُرْم قد اقتُرف. ماذا تريدين أن أقول الآن لأصدقائك؟ فلو نصحتهم بإطلاق سراح الفتى فكيف لي بأن أضمن لهم ألّا يسعى غداً لحزّ رقابهم؟ ولو نصحتهم بإبقائه رهينة، أو بقتله، لأصبحت شريكهم في الجُرْم.

دعيني بعيداً عن هذه المهاترات يا «جهان»، وابتعدي أنتِ أيضاً عنها.

إنه يحدّق إليها بتعاطُف.

ـ يحلّ ابن سلطان تركي محلّ ابن آخر، ويزيح وزير وزيراً، يا للّه يا «جهان» كيف يمكنك قضاء أجمل سنوات عمرك في قفص الوحوش هذا؟ دعيهم يتذابحون ويقتلون ويموتون. أتغدو الشمس لهذا أقلَّ سطوعاً، والخمرُ أقلَّ عذوبة؟

ـ اخفضْ صوتك يا عُمَر، إنك تُخيف الطفل. وفي الغرف المجاورة آذان تُصغي.

ومضى عُمَر في عناده.

ـ ألم تستدعيني لتسأليني رأيي؟ حسناً، سأقدّمه لك بلا مواربة. غادري هذه القاعة، اتركي هذا القصر، لا تلتفتي وراءك، لا تقولي وداعاً، لا تجمعي حتى متاعك، هاتي يدك، ولنعُدْ إلى بيتنا فتنظمي قصائدك وأرقب نجومي. وتأتين كل مساء فتلتصقين عاريةً بي وتحدونا الخمر المُمَسَّكة للغناء، ويتوقّف العالم في نظرنا عن الوجود ونقطعه من غير أن نراه أو نسمعه، ولا يعلق بنعالنا وَحْلُه ولا دَمُه.

واغرورقت عينا «جهان».

ـ لو كان في وسعي الرجوع إلى عهد البراءة هذا فهل تظنّ أني كنت أتردَّد؟ لكن فات الأوان، وقد أوغلت جدّاً في المسير. وإذا استولى أتباع نظام الملك غداً على أصفهان لم يعفوا عني، فأنا مذكورة في قائمة منبوذيهم.

ـ لقد كنتُ أعزَّ أصدقاء نظام الملك، وسوف أحميك، ولن يحضروا إلى منزلي لانتزاع امرأتي مني.

ـ افتح عينيك يا عُمَر، فأنت لا تعرف هؤلاء الناس، إنهم لا يفكّرون في غير الانتقام. لقد أخذوا عليك بالأمس أن أنقذت

رأس حسن الصبّاح، وسيأخذون عليك غداً أن خبّأت «جهان»، وسوف يقتلونك في الوقت الذي يقتلونني أنا فيه.

ـ حسناً، ليكنْ، نظل معاً في بيتنا، وإذا كان مكتوباً لي أن أموت معك فإني أُذْعِن.

وانتصبت واقفة من جديد.

ـ أما أنا فلا أُذعِن! إني في هذا القصر محاطة بعسكر مخلصين لي، في مدينة هي منذ الآن لي، وسوف أُقاتل إلى النهاية، وإذا مُتُّ متُّ ميتةَ سلطانة.

ـ وكيف تموت السلطانات؟ مسموماتٍ، مُخَمَّداتٍ، مخنوقاتٍ! أو في أثناء الوضع! ولا يُنجي الجاهُ من البؤس اللاحق بالبشر.

وقفا لحظة يراقب أحدهما الآخر في صمت. ثم دنت «جهان» من عُمَر وطبعت على شفتيه قبلة أرادتها لاهبة، وتهالكت برهة بين ذراعيه. ولكنه تنحّى لأنه لا يُطيق مثل هذا الوداع. وتوسّل إليها مرة أخيرة قائلاً:

ـ إذا كنت لا تزالين تقيمين أدنى اعتبار لحبّنا فتعالَيْ معي يا «جهان»، فالمائدة منصوبة على الشرفة، ورياح خفيفة تهبّ علينا من الجبال الصفراء، وسوف نسكر بعد ساعتين ونقوم للنوم. وسأقول للخادمات ألّا يوقظْنَنا عندما تغيّر أصفهان صاحبها.

22

كانت أصفهان في ذلك المساء تحمل عَبَق مشمسٍ أخضر. ولكن ما أشد إقفار الشوارع! ولاذ الخيّام بمرصده. وكان حَسْبُه في العادة أن يدخله ويرنو ببصره إلى السماء ويشعر بين أصابعه بأسطوانات إصطرلابه المدرّجة لكي تتلاشى جميع هموم الدنيا. وأما في هذه المرّة فلا. كانت النجوم صامتة فلا نغمة ولا همسة ولا بوح. وعُمَر لا يُلِحّ عليها فلا بد أنها تملك أسباباً وجيهة تحملها على الصمت. وأذعن للعودة إلى بيته، وها هوذا يسير على مهل وفي يده قصبة تصطدم أحياناً بباقة عشب وأخرى بغصن متمرِّد.

إنه مُستلق الآن في حجرته والأنوار مُطفأة؛ وذراعاه تهصران بشدّة جهاناً وهميّة، وعيناه محمرّتان من الدموع والخمر. وعلى يساره فوق أرض الغرفة إبريق وكأس فضيّة يتناولها بين الفينة والفينة بيد كليلة ليعبّ منها جرعات طويلة ساهمة متقزِّزة. وشفتاه في حوار مع نفسه، ومع «جهان»، ومع نظام الملك. ومع اللّه على الأخص. فمَنْ غيرُه لا يزال يستطيع الإمساك بهذا الكون المتحلِّل؟

ولم يستسلم إلى النوم بعد لأي إلا في الفجر منهوك القوى

مضبَّب الرأس. تُرى كم ساعة نام؟ وَقْعُ أقدام أيقظه والشمس قد ارتفعت وتغلغلت من شقّ في الستارة مُكْرِهةً إيّاه على حماية عينيه منها. وعندها لمح في خصاص الباب الرجل الذي أزعجه حضوره الصاخب. كان طويلاً ذا شاربين، وكانت يده تربّت في حركة أموميّة مقبض سيفه. ورأسه معصوب بعمامة بلون أخضر فاقع. وعلى كتفيه الطيلسان المخمليّ القصير الذي يرتديه ضبّاط «النظامية».

وسأل الخيّام بفم متثائب:

ـ مَنْ أنت؟ ومَنِ الذي منحك الحقّ في إقلاق منامي؟

ـ ألم يسبق لمولاي أن رآني مع نظام الملك؟ لقد كنت حارسَه وظِلَّه. يدعونني ورطان الأرمني.

ها قد تذكر عُمَر، ولكنّ ذلك لم يكن لِيُطَمئِنه، وشعر كأنّ حبلاً ينعقد من عنقه حتى أحشائه. غير أنه، وإن كان قد خاف، لم يكن يريد أن يبدي خوفه.

ـ قلتَ حارسه وظلّه؟ وكان عليك أنت أن تحميه من القاتل؟

ـ لقد أمرني بالبقاء بعيداً: ما كان أحد ليجهل أنه كان يريد مثل تلك الميتة. وكان من الممكن أن أقتل شارِعاً في القَتْل، غير أنّ آخر كان سيظهر. ومن أكون لكي أَحُولَ بين مولاي وقَدَره؟

ـ وماذا تريد مني؟

ـ الليلة الماضية نفذتْ عساكرنا إلى أصفهان، وانضمّت الحامية إلينا، وأطلق سراح السلطان بركيارق. والمدينة منذ اليوم مدينتُه.

ألفى الخيّام نفسه واقفاً.

ـ جهان!

وإنها لَصَيْحَةٌ، وإنه لسؤال ينمّ عن حَصَر. وورطان لا يقول شيئاً. وهيئته القلِقَة تتنافر ومظهرَه الحربي. وخُيِّل لعُمَر أنه يقرأ في عينيه اعترافاً مروِّعاً. وهمس الضابط:

ـ ما أشدّ ما رغبت في إنقاذها، وما كان أشدّ زهوي بأن أَمْثُل أمام الخيّام العظيم وأنا أُعيد إليه زوجه سليمة معافاة! غير أني وصلت متأخراً جداً. فلقد ذبح الجند جميع أهل القصر.

تقدّم عُمَر من الضابط وأخذ بتلابيبه بكلّ ما أوتي من قوة من غير أن يُفلح في زحزحته.

ـ ولأجل أن تخبرني بهذا أتيت!

كانت يد الرجل ما تزال على مقبض سيفه. ولكنّه لم يكن قد استلّه. وها هوذا يتكلّم بصوت خافت.

ـ جئت من أجل شيء آخر تماماً. لقد قرّر ضباط «النظامية» أنه ينبغي أن تموت. وهم يقولون إنه عندما يُجرح الأسد فمن الحكمة الإجهاز عليه. وقد عُهد إليّ بأمر قتلك.

وهدأ روع الخيّام فجأة. فعلى المرء أن يحتفظ بكرامته في اللحظة الأخيرة. وكم من حكيم قضى حياته برمّتها لبلوغ هذه الذروة من مصير البشر! إنه لا يدافع عن حياته، بل يحسّ في كل لحظة، على العكس من ذلك، بتراجع خوفه ويفكّر على الأخص في «جهان»، ولا يشكّ أبداً في أنها عرفت هي الأخرى كيف تحتفظ بكرامتها.

ـ لن أغفر أبداً لمن قتلوا زوجتي، وسأناصبهم العداء ما دمت حيّاً، وسأحلم طوال حياتي برؤيتهم يوماً مُخَوْزَقين! وإنك لتملك كل الحقّ في أن تتخلّص مني!

ـ ليس هذا رأيي يا مولاي. لقد كنّا خمسة ضباط لاتّخاذ القرار، وقد رغب رفاقي في موتك، وكنت الوحيد الذي عارض.

ـ أخطأتَ. ويبدو لي رفاقك أحْزَمَ منك.

ـ لقد طالما رأيتك مع نظام الملك جالسيْن تتحدّثان وكأنّكما أب وابن، ولم ينقطع قطّ عن محبّتك على الرغم من تصرُّفات امرأتك. ولو كان بيننا ما حكم عليك. ولكان سامحها هي أيضاً كَرمى لك.

وحملق الخيّام في زائره وكأنه اكتشف وجوده للتوّ.

ـ ما دمتَ عارضت في موتي فلماذا اختاروك للقضاء علي؟

ـ أنا الذي اقترح ذلك. فالآخرون كانوا سيقتلونك. وأما أنا ففي نيّتي الإبقاء على حياتك. وإلّا فهل كنت تظنّ أن أبقى محاوِراً إياك على هذا النحو؟

ـ وكيف ستشرح الأمر لرفاقك؟

ـ لن أشرح لهم شيئاً. سأرحل. وستقتفي خُطايَ خُطاك.

ـ تقول هذا بكثير من الهدوء وكأنه قرار أُنْضِج طويلاً.

ـ إنها عين الحقيقة. فأنا لا أفعل بوحي من اللحظة. لقد كنت أخْلَصَ خُدّام نظام الملك، وكنت مؤمناً به. ولو شاء اللّه لمتُّ دفاعاً عنه. بيد أني كنت قد آليت منذ أمد طويل ألّا أخدم ـ إذا مات مولاي ـ أبناءه ولا خَلَفه، وأن أتخلّى إلى الأبد عن امتشاق السيوف. ولقد أرغمتني ظروف موته على مساندته للمرّة الأخيرة، فاشتركت في قتل ملكشاه، ولست نادماً على ذلك: لقد خان مربّيه، والده، الرجل الذي رفعه إلى القمّة؛ وعليه فقد استحقّ الموت. وكان عليّ أن أقْتُل، غير أني لم أصبح مع ذلك قاتلاً. وما كنت قطّ لأسفك دم امرأة. وعندما حكم رفاقي على الخيّام أدركت أنه حان لي أن أرحل، أن أغيّر مجرى حياتي، أن أتحوّل إلى ناسك أو شاعر أو هائم. وإذا شئت يا مولاي فاحزم بعض الأمتعة ولنغادر هذه المدينة بأقصى سرعة.

ـ وإلى أين نذهب؟

ـ نسلك الطريق التي تريد، وسوف أتبعك إلى كل مكان بوصفي من تلاميذك وسوف يحميك سيفي. ونعود عندما يزول الهَرْج.

بينما كان الضابط يجهّز المطايا كان عُمَر يجمع على عجل مخطوطه ودَواته ومَطَرته وبِدرةً مليئة بالذهب. واجتازا من طرف

إلى طرف واحة أصفهان إلى ضاحية «مَرْبين» باتجاه الغرب من غير أن يخطر للعسكر ـ على وفرة عددهم ـ أن يزعجوهما. وكَفَتْ كلمة من ورطان لفتح الأبواب وابتعاد الديادبة باحترام لإفساح الطريق. ولم يكن من أمر هذا التعاطُف إلا أن أثار حيرة عُمَر، إلا أنه تحاشى مع ذلك أن يسأل رفيقه عنه. فليس أمامه في الوقت الحاضر من خِيار غير الوثوق به.

وكان قد مضى على رحيلهما أقلُّ من ساعة حين حضر جمع هائج من الناس فنهبوا منزل الخيّام وأضرموا فيه النار. وفي العصر كان المرصد قد خَرِب. وفي الوقت نفسه وُسِّد جثمان «جهان» الهامد عند أسفل السياج الذي يحفّ بحديقة القصر.

وليس من شاهد يُعيِّن للخَلَف مكان الضريح.

أمثولة مستخرجة من «مخطوط سمرقند».

«كان ثلاثة أصدقاء يتنزّهون فوق هضاب فارس المرتفعة. وبرز نَمِرٌ فيه كلّ قوة الدنيا.

«وتأمّل النَمِر الرجالَ الثلاثة طويلاً ثم جرى نحوهم.

«كان الأول أكبرهم سناً وأكثرهم غنىً وأشدّهم بأساً. وصاح: «أنا سيِّد هذه الأمكنة ولا أسمح أبداً لحيوان أن يعيث فساداً في الأراضي التي أملكها». وكان بصحبته كَلْبا صيدٍ فأطلقهما على النَمِر وتمكّنا من عضّه، غير أن ذلك لم يزِدْه إلا نشاطاً فصرعهما ووثب على سيِّدهما فمزّق أحشاءه.

«وذاك كان نصيب نظام الملك.

«وقال الثاني لنفسه: «أنا عالِم والجميع يُكرمونني ويُبجِّلونني، فلماذا أدع مصيري يتقرّر بين الكلاب والنَمِر؟» واستدار وولّى هارباً من غير أن ينتظر نهاية المعركة. وهام مذّاك من مغارة إلى مغارة، ومن كوخ إلى كوخ، وهو مقتنع بأن الوحش كان يجِدُّ في أثره على الدوام.

«وذاك كان نصيب عُمَر الخيّام.

«وأما الثالث فكان رجلاً مؤمناً. وتقدم من النَمِر فاتحاً راحتيه ثاقب النظرة بليغ اللسان وقال له: «أهلاً بك في هذه الأراضي. لقد كان رفيقاي أغنى مني فسلبتهما، وكانا أشدَّ زهواً فحططتَ من قدرهما». وأصغت البهيمة مخلوبة اللبّ مروَّضة. فقد تغلّب عليها وأفلح في تدجينها. ومذّاك لم يعُد نَمِرٌ يجرؤ على الدنوّ منه، وحرص الناس على البقاء بعيدين عنه».

ويستخلص «المخطوط»: «حينما يحصل زمن الانقلابات لا يستطيع أحد وقف مجراه، ولا يقدر أحد على الفرار منه، ويُفلح بعضهم في تسخيره. ولقد عرف حسن الصبّاح كما لم يعرف أحد سواه كيف يروِّض ضراوة الدنيا. فقد زرع حواليه الخوف، ليوفِّر لنفسه في ملاذه بألَمُوت فضاء صغيراً من الدعة».

ما كاد حسن الصبّاح يستحوذ على القلعة حتى قام بأشغال تؤمن لها انغلاقاً مُحكَماً على العالم الخارجي. وكان عليه قبل كل شيء أن يجعل كل نَفاذٍ مُعادٍ إليها مستحيلاً. وعليه فقد حسّن، بفضل ما بذله من ذكاء في أعمال البناء، ومن خصائص الموقع الفريدة، سادّاً بقطع من الجدران أضيق الممرّات بين تلّتين.

غير أن هذه التحصينات لا تكفي حسناً. فحتى لو كان الهجوم مستحيلاً فإنه في وسع المحاصرين الحصول على ملجأه إذا توصّلوا إلى تجويعه وتعطيشه. وعلى هذه الشاكلة تنتهي معظم الحصارات. وألَمُوت في هذه النقطة سريعة العطب بشكل استثنائي، إذ لا تملك غير موارد ضئيلة من الماء العَذْب. وعرف السيد الأعظم كيف يتجنّب الضربة. فبدلاً من أن ينتشل ما يلزمه من ماء من الأنهار المجاورة حفر في الجبل شبكة هائلة من المناقع والأقنية لتجميع مياه المطر وذوبان الثلوج. وفي مقدور

المرء عندما يزور اليوم أطلال القلعة أن يقف في القاعة الكبيرة التي كان يُقيم فيها حسن، وأن يبدي إعجابه بـ «البركة الهائلة» التي تمتلىء بقدر ما يُنْزَح من مائها، ولا تفيض ـ ويا للمعجزة العبقرية! ـ قطّ.

وأقام السيد الأعظم آباراً للتموين يُحفظ فيها الزيت والخلّ والعسل؛ وجمع كذلك الشعير وسمن الغنم والثمار المجفَّفة بكميات كبيرة كافية للصمود زهاء عام من الحصار الكامل. وقد كان هذا يفوق كثيراً في ذلك العهد قُدُرات المحاصِرين على احتمال المشاقّ. وعلى الأخص في منطقة شتاؤها في غاية القسوة.

وهكذا فإن لدى حسن درعاً خالية من كل عيب، وفي حوزته، إن جاز القول، سلاح الدفاع الخالص. وهو يملك كذلك، بما لديه من مقاتلين متفانين، سلاح الهجوم الخالص. وأنّى لأحد أن يتّقي في الواقع إنساناً عازماً على الموت؟ وتقوم أية وقاية على الردع، ويحيط أكابر الناس أنفسهم كما هو معلوم بحرس ذوي هيئات مُرعبة تجعل كل مهاجم مُحْتَمَل يخشى ميتة لا محيد عنها. ولكنّ ماذا لو كان المهاجم لا يخاف الموت؟ لو كان مقتنعاً بأنّ الشهادة أقصر الطرق إلى الجنّة؟ لو كانت ترنّ في مسامعه على الدوام كلمات «الداعي»: «لم تُخْلَق لهذه الدنيا وإنما خُلقت للآخرة. أتخاف السمكة أن تُهدَّد بإلقائها في البحر»؟ لو نجح القاتل، فوق هذا، في الاندساس في حاشية ضحيّته؟ عندها لا يُجدي شيء في وقفه. ولقد كتب حسن ذات يوم إلى عامل على إحدى الإيالات يقول: «إنني أضعف من السلطان، بيد أن في وسعي أن أضرّ بك أكثر مما يستطيع هو أن يفعل».

وإذ أمّن حسن الصبّاح لنفسه على هذا النحو أكمل أسلحة الحرب الممكن تصوّرُها فقد أقام في قلعته ولم يغادرها بعد ذلك

أبداً؛ حتى إنّ من ترجموا له يقولون إنه لم يخرج من بيته خلال السنوات الثلاثين الأخيرة غير مرّتين، وكانت كلتاهما لركوب السطح! وكان يجلس صباح مساءَ متربّعاً على حصير كان جسمه قد أبلاه، إلا أنّه لم يرغب قطّ في تغييره أو في إصلاحه. وكان يُدَرِّس ويكتب ويبعث قَتَلَتَهُ لتعقُّب أعدائه. وكان يقيم الصلاة خمس مرات في اليوم على الحصير نفسه مع من يكون حاضراً من زوّاره في تلك الأثناء.

لا يخلو من فائدة لمن لم تسنح لهم الفرصة قطّ لزيارة أطلال أَلَمُوت التأكيدُ بأنّ ذلك الموقع ما كان ليكتسب الأهمية التي اكتسبها في التاريخ لو أن ميزته الوحيدة كانت وعورة الوصول إليه، ولو لم تكن في شُعفة الجبل الصخرية هضبة تتّسع لاحتواء مدينة، أو على الأقل لاحتواء قرية كبيرة. ففي زمن «الحشاشين» كان يُبْلَغُ إليه عبر نَفَق ضيِّق في جهة الشرق يُفضي إلى القلعة الواطئة والأزقّة المتداخلة وبيوت اللِّبْن الصغيرة في حِمى الأسوار؛ وبعد اجتياز الميدان، وهو الفسحة الوحيدة لاجتماع الجماعة كلّها، يُبْلَغُ إلى القلعة العالية. وكان شكل هذه شكل قنّينة نائمة عريضة في الشرق وعنقها ممدود نحو الغرب. وكانت فتحتها دهليز محروس حراسة مشدّدة. وكان بيت حسن في نهايته. وكانت نافذته الوحيدة تُطلّ على هاوية. وإنّه لَقَلْعَةٌ داخل القلعة.

لقد روّع القيِّم بأمر «الحشاشين» الشرق والغرب بعمليات القتل المشهودة التي أمر بها، وبالأساطير التي حيكت حوله وحول فرقته وحول قلعته. فقد سقط أعيان من الناس في كل مدينة من مدن المسلمين، وبكى الصليبيون ضحيّتين أو ثلاثاً من عظمائهم. إلا أن ما يُنسى غالباً هو أن الإرهاب كان سائداً أول الأمر في أَلَمُوت.

فأيّ حكم أسوأ من الحكم الذي يُسيِّره النضال؟ فالداعي

الأعظم كان يريد أن يضبط لمريده كل لحظة من لحظات حياتهم. وقد استبعد كل الآلات الموسيقية؛ وكان إذا عثر على أصغر مزمار كسره على مرأى من الجماعة. وكان العقاب على المُسْكرات أدهى وأمرّ. ولقد ضُبط ابن حسن نفسُه ذات مساء في حالة سُكر فحُكم عليه بالموت بلا إبطاء، وعلى الرغم من توسُّلات أمه فقد ضُرب رأسه في الغداة ليكون عبرة للآخرين. ومذّاك لم يجسر أحد على شرب جرعة من الخمر.

وكانت عدالة أَلَمُوت تنشط لأقلّ سبب. فإنه يُحكى أن جريمة ارتُكبت يوماً في حرم القلعة. واتّهم أحد الشهود ابن حسن الثاني. ومن غير أن يسعى هذا إلى التحقّق من الأمور حزّ رأس آخر أولاده الذكور. وما هي إلا أيام حتى اعترف المذنب الحقيقي فقُطع عنقه هو الآخر.

ويذكر المترجمون للقيِّم الأعظم ذبحه أبناءه لتصوير صرامته وعدم تحيُّزه؛ ويؤكّدون أن جماعة أَلَمُوت أصبحوا بفضل هذه العقوبات الملأى بالعِبَر معقلاً للفضيلة وحُسْنِ الخُلُق، الأمر الذي يَسْهل تصديقه؛ وقد عُلم مع ذلك من مصادر شتّى أن زوجة حسن الوحيدة وبناته ثُرْن على تسلّطه غداة أحكام الإعدام تلك، وأنه أمر بطردهنّ من أَلَمُوت وأوصى خلفه أن يفعلوا فعله في المستقبل ليتحاشوا أن تُفسد تأثيرات النساء حُكمهم السَّوِيّ.

إن اعتزال الناس، وإحداث الفراغ حول الذات، وإحاطة النفس بالأسوار والحجارة والخوف، ذلكم هو ما يبدو أنه كان حلم حسن الصبّاح غير المعقول.

بيد أن ذلك الفراغ بدأ يُطبق على أنفاسه. فأقوى الملوك يملكون مُهَرِّجين ورفاقاً يخفّفون عنهم ما يغمرهم من صرامة خانقة. والرجل الجاحظ العينين وحيدٌ بشكل لا شِفاء منه، رهينُ قلعته وحبيسُ منزله ومنغلقٌ على نفسه. فلا وجود لشخص يتحدّث

إليه ويفضفض، وليس سوى رعايا وديعين وخَدَمٍ بُكْمٍ ومريدين تحت سلطان المغنطيس.

ليس هناك من كل الناس الذين عرفهم غير واحد لا يزال في وسعه أن يحدّثه، إن لم يكن حديثَ الصديق إلى الصديق فعلى الأقل حديث الرجل إلى الرجل. وذاك هو الخيّام. وعليه فقد كتب إليه رسالة يتوارى فيها القنوط خلف واجهة صفيقة من الكبرياء.

«لماذا لا تأتي إلى أَلَمُوت بدل العيش عيش الهاربين؟ لقد كنتُ مثلك مضطَّهداً؛ وأنا الآن الذي يضطهِد. ستكون هنا في مأمن محوطاً بالرعاية والاحترام، ولن يكون في مقدور جميع أمراء الدنيا مسُّ شعرة في مَفْرِقك. ولقد أنشأت مكتبة ضخمة ستعثر فيها على أندرِ الكتب، وفي مقدورك أن تقرأ فيها وتكتب ما حلا لك. وستنعم بالسلام في هذا المكان».

23

الحقّ أن الخيّام يحيا منذ غادر أصفهان حياة الهاربين والمنبوذين. فإذا زار بغداد حظّر عليه الخليفة الكلام أمام الملأ أو استقبال المعجبين الكثيرين المزدحمين على بابه. وإذا زار مكّة أجمع ثالبوه على السخرية قائلين: «إنها حِجّة مجاملة!» وإذا مرّ في طريق العودة بالبصرة جاءه ابن قاضي المدينة يسأله بأكثر الطرق تأدّباً أن يقصّر أمد إقامته.

وكان طالعه في ذلك الحين من أكثر الطوالع بلبلة. فما من أحد ينكر عبقريته أو علمه الغزير؛ وأينما ذهب احتشدت حوله جماهير من المستنيرين الحقيقيين، وسأله الناس في النِجامة والجبر والطبّ، وحتى في المسائل الدينية، وأصغوا إليه بخشوع. ولكنه ما إن تنقضي بضعة أيام أو أسابيع على قدومه حتى يتحتّم أن يحتشد المتآمرون لترويج كل أنواع المثالب بحقّه. ويوصم بالملحد أو الزنديق، ويُذكّر بصداقته لحسن الصبّاح، وتُستعاد أحياناً اتهاماته بالكيميائي، وكانت قد ذاعت قبلاً في سمرقند، ويُبعث إليه بمعارضين متحمّسين يشوّشون عليه محاضراته، ويُهَدَّد بالانتقام من يجرؤون على إيوائه. وهو في العادة لا يلحّ. فما إن يحسّ بتلبُّد الجوّ حتى يتظاهر بانحراف الصحة كيلا يظهر أمام الملأ. ثم

لا يلبث أن يمضي إلى مرحلة جديدة، مرحلة بِقصَر سابقتها وحفولها بالمخاطر.

ولما كان مُبجّلاً وملعوناً ولم يكن له من رفيق سوى ورطان فإنه يبحث باستمرار عن سقف، عن مُجير، وكذلك عن نصير. وإذ كان الراتب السخي الذي رتّبه له نظام الملك قد انقطع بموته فإنه مضطر إلى مقابلة الأمراء والولاة وتحضير كشوف الطالع الشهرية لهم. بيد أنه على الرغم من كونه في أمسّ الحاجة غالباً إلى المال، إلا أنه كان يعرف كيف يحصل عليه من غير أن يطأطىء رأسه.

ويُحكى أن وزيراً قال لعُمَر وقد دهش لسماعه يطلب مبلغ خمسة آلاف دينار:

ـ هل تعلم أنني لا أتقاضى أنا نفسي هذا المقدار؟

فأجابه الخيّام:

ـ هذا طبيعي جداً.

ـ ولِمَ يا تُرى؟

ـ لأن العلماء أمثالي لا يجود الزمان إلا بحفنة منهم في العصر الواحد. في حين أنه بالإمكان تعيين خمسمئة من الوزراء أمثالك في السنة الواحدة.

ويؤكد المؤرخون أن الرجل ضحك كثيراً ولبّى جميع مطالب الخيّام معترفاً بكياسةٍ بعدالةِ مثل هذه المعادلة الحافلة بالكبرياء.

ولقد كتب عُمَر في تلك الحقبة يقول: «ما من سلطانٍ أسعد حالاً مني، ولا من سائلٍ أشدّ بؤساً».

وتمرّ الأعوام فنلتقيه عام 1114م في مدينة «مَرْو»، عاصمة خراسان في تلك الأزمان، وكانت ما تزال شهيرة بديباجها ومكتباتها العشر وإن حرمت منذ مدّة من كل دور سياسي. ولقد سعى صاحبُها إلى اجتذاب مشاهير ذلك الزمان إليها ليعيد بعض

الإشراق إلى بلاطه الذي كان قد خبا. وقد عرف كيف يُغري الخيّام العظيم: بأن عرض عليه أن يبني مرصداً شبيهاً من كل النواحي بمرصد أصفهان. ولم يكن عُمَر يحلُم، وهو في السادسة والستين، بغير ذلك، فقبِل العرض بحماسة الشباب وانصرف إلى العمل في المشروع. وما أسرع ما ارتفع البناء فوق تلّة في حيّ «باب سنجان» وسط بستان من القصب والتوت الأبيض.

أمضى عُمَر سنتين في سعادة غامرة يعمل بدأب، ويُجري - كما قيل - تجارب عجيبة عن توقُّع الأحوال الجويّة تسعفه معرفته بقبّة السماء في أن يصف بدقّة تغيّر المناخ مدّة خمسة أيام متوالية. ويوسّع كذلك نظرياته الرائدة في الرياضيات؛ ولقد توجّب انتظار القرن التاسع عشر (الميلادي) لكي يعترف الباحثون الأوروبيون بأنه الرائد العبقري لعلوم الهندسة غير الإقليدية. ويَنْظِم أيضاً «رباعيات» مدفوعاً، كما يُظنّ، بخصائص الكرمة الخارقة في «مَرْو».

هناك بالطبع في مقابل هذا كله جانب آخر معاكس. فلقد كان عمر مضطراً لأن يحضر حفلات القصر التي لا تنتهي ويقدّم رسمياً التهاني للعاهل في كل عيد، وفي ختان كل أمير، ولدى كل رجوع من صيد أو حملة، وأن يكون أكثر الأحيان في «الديوان» مستعداً لإلقاء نكتة أو استشهاد أو بيت من أشعار المناسبات. وإن هذه المناسبات لتُنْهكه. فعلاوة على شعوره بأنه يلبس جلد دبّ متعلِّم فقد كان يحسّ باستمرار بأنه يضيع في القصر وقتاً ثميناً كان من الممكن أن ينفقه بشكل أفضل إلى منضدة عمله. ناهيك بما فيه من المجازفة بلقاءات كريهة.

كما في تلك الصبيحة الباردة من شهر شباط (فبراير) عندما اختلقوا له مهاترة بشأن رباعية من أيام الصبا تلقّفتها أُذُنا أحد الحسّاد. وكان «الديوان» يعجّ في ذلك اليوم بذوي العمائم من

العلماء، والملك منشرح الصدر ينظر بغبطة إلى حاشية القصر.

وعندما وصل عُمَر كان الجدال قد احتدم في مسألة شغفت قلوب رجال الدين يومذاك: «هل كان بالإمكان أن يُخلق الكون أفضل مما هو مخلوق؟» ولسوف يُتَّهم المجيبون بـ «نعم» بالكفر لأنهم يُلْمحون إلى أن اللّه لم يعتنِ عناية كافية بخلقه. ويُتَّهم المجيبون بـ «لا» بالكفر أيضاً لأنهم يَعْنُون أن اللّه تعالى عجز عن فعل أفضل مما فعل.

كان الناس يناقشون بحدّة ويشوّرون، فاكتفى الخيّام بأن يراقب بشرود حركات كلٍ منهم. غير أن أحد الخطباء نوّه باسمه ممتدحاً علمه وسأله رأيه. وتنحنح عُمَر، ولكنه لم يكن قد نطق بعد بأقلّ مقطع صوتي عندما وقف قاضي «مَرْو» الأكبر الذي لم يكن قط يطيق وجود الخيّام في مدينته، ولا على الأخص ما كان مشمولاً به على الدوام من رعاية واحترام، وقفز من مكانه ووجّه إليه إصبع الاتهام قائلاً:

- ما كنت أعرف أن في وسع ملحد أن يقدِّم رأياً في مسائل ديننا!

وارتسمت على وجه عُمَر ابتسامة متمهِّلة وإن قلِقة:

- من الذي سمح لك بنعتي بالملحد؟ انتظر على الأقل حتى تسمع كلامي؟

- لست في حاجة إلى السماع. ألست مَنْ يُنسب إليه هذا البيت:

«إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله

فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي»؟

أفليس من يقول هذا رجلاً ملحداً؟

وهزّ عُمر كتفيه وقال:

- لو كنت أعتقد أن اللّه غير موجود ما توجّهت بكلامي إليه!

قال القاضي ساخراً:

ـ بهذه النبرة؟

ـ ينبغي أن يوارب المرء في حديثه مع القضاة والسلاطين، لا مع الخالق. اللّه أكبر، وليس له في مجاملاتنا وانحناءاتنا. لقد خلقني متفكّراً، وعليه فإنني أتفكّر وأقدّم بين يديه ثمرة فكري جِهاراً.

ما إن سمع القاضي همسات الموافقة الصادرة عن الحضور حتى تراجع وهو يغمغم بالوعيد. وساور العاهلَ القلقُ بعدما ضحك، فهو يخشى ذيولاً للحادث في بعض أحياء المدينة. وإذ تجهّم فقد أسرع زوّاره بالانصراف.

أخذ عُمَر وهو في طريق العودة إلى منزله برفقة ورطان يلعن حياة القصور وأشراكها وتوافِهها، وآلى أن يغادر «مَرْو» بأسرع ما يمكن؛ ولم يتأثّر تلميذه كثيراً للأمر، فهي المرة السابعة التي يهدّد فيها أستاذه بالرحيل؛ وفي اليوم التالي ـ ويكون عادة أسْلسَ قِياداً ـ يستأنف أبحاثه بانتظار من يواسيه.

وإذ دخل عُمَر غرفته في ذلك المساء فقد كتب في دفتره رباعية مُحنَقَة هذه نهايتها:

قايض عمامتك بالخمر واعتمر بلا ندم طاقية من صوف.

ثم دسَّ المخطوط في مخبأه المألوف بين السرير والجدار.

وإذ استيقظ فقد أراد أن يعيد قراءة رباعيته لأن أيّاً من كلماتها لم تبدُ له في محلّها. وتلمّست يده الدفتر حتى وقعت عليه. وفيما هو يفتحه اكتشف رسالة حسن الصبّاح التي دُسَّت بين صفحتين في أثناء نومه.

عرف عُمَر للتوّ الخطّ وذلك التوقيع المتوافَق عليه بينهما منذ أربعين عاماً مضت: «الصديق الذي التقيته في خان قاشان». ولم يُفلح، وهو يقرأ، في كبت قهقهة. وأقبل ورطان، ولم يكد

يستيقظ، من الغرفة المجاورة لمعرفة ما يُضحِك مولاه بعد سُخط البارحة.

ـ ها قد تلقينا دعوة سخيّة: مأوى ونَفَقة وأمان حتى آخر العمر.

ـ من أي أمير عظيم؟

ـ أمير ألَمُوت.

وأجفل ورطان. فلقد شعر بأنه مذنب.

ـ كيف وصلت هذه الرسالة إلى هنا؟ لقد تحقّقت من جميع المخارج قبل أن أنام!

ـ لا تبحث عن السبب. لقد عدل السلاطين والخلفاء أنفسهم عن حماية أنفسهم. فعندما ينوي حسن توجيه رسالة أو نصل خنجر إليك فأنت واثق من تلقّيهما سواء أكانت أبوابك مشرعة أم مُزْلَجة.

وقرّب التلميذ الرسالة من شاربيه وتشمّمها بجَلَبة ثم قرأها وأعاد قراءتها وخلص إلى القول:

ـ قد لا يكون هذا الشيطان مخطئاً. ففي ألَمُوت يتوفّر لك ولا شكّ أعظم الأمان. وبعدُ فإن حسناً أقْدَمُ أصدقائك.

ـ أقْدَم أصدقائي في هذه الساعة خمرة «مَرْو» الجديدة!

وشرع عمر يمزّق الورقة بلذّة صبيانية إلى ما لا يُحصى عدده من مِزق رماها في الهواء؛ وعاد إلى الكلام وهو يرقبها تسبح وتهوِّم في سقوطها، فقال:

ـ ما الذي بيني وبين هذا الرجل من أمور مشتركة؟ أنا متعبِّد للحياة وهو عابد للموت. أنا أهتف: «إن كنت لا تعرف الحب فما يجديك شروق الشمس أو غروبها؟» وحسن يطالب الناس بتجاهل الحبّ والموسيقى والشعر والخمر والشمس. إنه يحتقر أجمل ما في «الخليقة» ويجرؤ على التلفّظ باسم «الخالق». يجرؤ

على الوعد بالجنّة! صدّقني إذا كانت قلعته باب الجنّة فإني أستنكف عن الجنّة! ولست لأطأ أبداً غارَ النسّاك الزائفين ذاك!

وجلس ورطان وحكّ عنقه حكّاً شديداً قبل أن يقول بأشدّ النبرات أسىً:

ـ ما دام هذا جوابك فقد آن الأوان لكي أكشف لك سرّاً قديماً جدّاً. ألم تتساءل قط لماذا تركنا الجنود نهرب بكل تلك السذاجة عندما فررنا من أصبهان؟

ـ لقد طالما حيّرني الأمر. ولكنني إذ لم آنس منك منذ سنين غير الإخلاص والتفاني والحبّ البنويّ، فإنني لم أشأ قطّ إثارة الماضي.

ـ كان جنود «النظامية» يعلمون يومذاك أني سأنقذك وأذهب معك. وكان ذلك جزءاً من حيلة كنت قد دبّرتها.

وقبل أن يكمل صبّ لمولاه ولنفسه جُرعة كافية من خمرة بلون الرمّان.

ـ لست تجهل أن لائحة المطلوبين التي كتبها نظام الملك بيده كان فيها رجل لم ننجح قط في الوصول إليه، حسن الصبّاح. ألم يكن المسؤول الرئيسي عن عملية القتل؟ وكانت خطّتي بسيطة: الذهاب معك عسى أن تبحث عن ملاذ لك في أَلَمُوت. وكنت سأرافقك إليها طالباً إليك عدم كشف هُويّتي، وكنت سأجد فرصة لتخليص المسلمين والدنيا كلّها من هذا الشيطان الرجيم. بيد أنك أبيت أن تطأ قدماك القلعة الكئيبة.

ـ ومع ذلك بقيت معي كل هذا الوقت.

ـ كنت أظنّ في البدء أن عليّ أن أصبر، وأنك عندما تُبْعد من خمس عشرة مدينة على التوالي سوف تُذعن وتقصد طريق القلعة. ومضت الأعوام فتعلّقت بك وتشتّت رفاقي في أقطار الإمبراطورية وضعف عزمي. وهكذا ترى كيف أنقذ عُمَر الخيّام للمرّة الثانية حياة حسن الصبّاح.

ـ كفاك نوحاً، فقد أكون أنقذتُ حياتك أنت.

ـ الحقّ أنه لا بدّ أن يكون محميّاً تماماً في وكره.

لم يُفلح ورطان في إخفاء بقية من حسرة أخذ الخيّام يتسلّى بها.

ـ لو أنك كشفت لي، مع هذا، عن خطّتك لكنت قُدْتُك إلى أَلَمُوت.

وهبّ المريد واقفاً وقال:

ـ أتقول الحق؟

ـ لا. عد إلى الجلوس. قلتُ هذا فقط لجعلك تتحسّر. فعلى الرغم من كل ما أمكن أن يقترفه حسن فإنني لو رأيته في هذه اللحظة يغرق في نهر «المرغاب» لمددت له يدي وأنقذته.

ـ وأما أنا فكنت أغمس رأسه بقوة في الماء! ومع هذا فإن موقفك يعزّيني. ولأنك أهل لمثل هذه الأقوال والأفعال اخترت البقاء بصحبتك. وهذا لست لأندم عليه.

وضمّ الخيّام مريده طويلاً إلى صدره.

ـ إني لسعيد بأن تكون شكوكي تجاهك قد تبدّدت. لقد شِخْتُ الآن، وأنا بحاجة إلى العلم بأنّ بجانبي رجلاً ثقة. بسبب هذا المخطوط. إنه أَنْفَسُ ما أملك. لقد أقام حسن الصبّاح أَلَمُوت لمواجهة العالم؛ وأما أنا فلم أُقِم غير هذا القصر الصغير من الورق، غير أني أستطيع الزعم بأنه سيبقى بعد فناء أَلَمُوت. ذلكم هو رهاني، وذلكم هو موضع فخري. وما من شيء يخيفني أكثر من التفكير في إمكان وقوع مخطوطي بعد موتي بين يدين رعناوين أو مؤذيتين.

وبحركة شبه احتفالية ناول ورطان الدفتر السرّي.

ـ تستطيع فتحه لأنك سوف تكون حارسه.

وتأثر المريد.

ـ أيكون أحد قد حظي بهذا الامتياز قبلي؟

ـ شخصان. «جهان» بعد خصام قام في سمرقند. وحسن، عندما كنا نقيم في الغرفة نفسها يوم وصلت إلى أصفهان.

ـ كنتَ واثقاً به إلى هذا الحدّ؟

ـ إنْ أردت الحقّ فلا. بيد أن غالباً ما ساورتني الرغبة في الكتابة، وقد انتهى به الأمر إلى ملاحظة المخطوط. وعليه فقد آثرت أن أطلعه عليه بنفسي إذ كان في وسعه قراءته من غير أن أعرف. ثم إني كنت أعتقد أنه جدير بأن يحفظ سرّاً من الأسرار.

ـ إنه ماهر بالاحتفاظ بسرّ، ولكن من أجل أن يُحسن استخدامه ضدّك.

سوف يبيت المخطوط منذ ذلك اليوم في غرفة ورطان. فالضابط السابق يهبّ واقفاً عند سماع أدنى صوت وسيفه مسلول في يده وأذناه منتصبتان؛ ويفتّش في كل غرفة من غرف البيت ثم يخرج لجولة في الحديقة. وكان النوم يجافيه على الدوام لدى رجوعه فيضيء مصباحاً فوق المنضدة ويقرأ رباعية يستظهرها ثم يراجعها بلا كلل في ذاكرته لإدراك أعمق ما ترمي إليه من معانٍ، والسعي للحدس بالظروف التي تمكّن فيها سيّده من كتابتها.

وما إن مرّت بضع ليالٍ مكدَّرة حتى لاحت فكرة في ذهنه ما لبث عُمَر أن تقبّلها بقبول حسن: أن يكتب في هامش الرباعيات قصة المخطوط، ومن خلالها قصة الخيّام نفسه، طفولته في نيسابور، وشبابه في سمرقند، وذيوع صيته في أصفهان، ولقاءاته مع أبي طاهر و«جهان» وحسن ونظام الملك وغيرهم وغيرهم. وعليه فقد كُتب بإشراف الخيّام، وحتى بإملائه في بعض الأحيان، الصفحاتُ الأولى من سجل الأحداث. وها هوذا ورطان ينصاع ويعيد عشر مرات، أو خمس عشرة مرة، كتابة كل جملة في ورقة طيّارة، قبل نقلها بخط كوفي دقيق مدروس. ورطان الذي ما لبث أن انقطع بغتة ذات يوم عن الكتابة في وسط إحدى الجمل.

فقد استيقظ عُمَر باكراً جداً في ذلك الصباح ونادى ورطان فلم يردّ. وقال الخيّام في نفسه مدفوعاً بشعور أبوي إنها ليلة أخرى قضاها في الكتابة. وتركه يستريح وصبّ لنفسه الصَبوح، ثُمالةً في البدء جرعها جرعة واحدة، ثم كأساً مُترعةً حملها معه في نزهة في الحديقة. وقام بجولة يتسلّى بنفخ الندى الذي احتفظت به الأزهار، ثم ذهب يجني توتاً أبيض أخذ يستودعه لسانه ناضحاً بالعصير ويطرقع به سقف حلقه مع كل جرعة من الخمر.

وظل على هذه الحال حتى انقضت ساعة كاملة قبل أن يُقرر العودة إلى المنزل. وكان قد حان موعد استيقاظ ورطان. فلم يناده ودخل على التوّ إلى غرفته. فوجده ممدّداً على الأرض وعنقه مسوّد بالدم وفمه وعيناه مفتوحة ومثبّتة وكأنها في نداء مختنق أخير.

وعلى المنضدة بين المصباح ودرج الكتابة خنجر الجريمة مزروعاً في ورقة مدعوكة أزاح عُمَر أطرافها ليقرأ فيها:

«لقد سبقك مخطوطك إلى ألَمْوت».

24

بكى عُمَر الخيّام مريده كما بكى أصدقاء آخرين، بالكبرياء نفسها والإذعان عينه والتفجّع الحيّي ذاته. «لقد شربنا المدامة نفسها، غير أنهم سكروا قبلي بدورة أو دورتين». ومع ذلك، ولماذا الإنكار؟ فقد كان فقدُ المخطوط هو الذي أحزنه أشدّ الحزن. ولقد كان في وسعه بالتأكيد إعادة تأليفه؛ ولكان تذكّر أقلّ نأمة من نأماته. وما كان راغباً، في ظاهر الأمر، في هذا؛ وعلى كل حال فإنه لم يبق من ذلك النقل أدنى أثر. ويبدو أن الخيّام استفاد من سرقة مخطوطه درساً حكيماً: لن يسعى أبداً للاحتفاظ بأثر عن المستقبل، لا مستقبله هو، ولا مستقبل قصائده.

وما لبث أن غادر «مَرْو». لا إلى أَلَمُوت ـ ما خطر في باله قط الذهاب إليها ـ وإنما إلى مسقط رأسه. وقد قال في نفسه: «لقد آن الأوان لأن أضع حدّاً لتيهي. وقد كانت نيسابور المحطّة الأولى في حياتي، أفلا يكون من طبيعة الأمور أن تكون كذلك آخر محطة؟» ولسوف يعيش بعد ذلك هناك يحيط به بعض الأقرباء، أختٍ صغرى وصهرٍ حسن الرعاية وأبناء أخت، ولا سيّما بنت أخت سوف تستحوذ على غير ما يكنّه من حنان في خريف العمر. وتحيط به كذلك كتبه. فلقد توقّف عن الكتابة، بيد أنه يراجع بلا كلل قراءة آثار أساتذته.

وكان عُمَر جالساً ذات يوم كعادته في غرفته وعلى ركبتيه «كتاب الشفاء» لابن سينا مفتوحاً على الفصل المعنون «الواحد والمتعدّد» فشعر باشتداد ألم فظيع. ووضع سواكه المصنوع من الذهب الذي كان يمسكه بيده بين ورقتين لتعيين الصفحة، وأغلق الكتاب ونادى أهله ليملي عليهم وصيّته. ثم تلفّظ بدعاء ينتهي بهذه الكلمات: «أنت تعلم يا رب أني سعيتُ لإدراكك جهد استطاعتي. فسامحني على أن كانت معرفتي بك طريقي الوحيد إليك!».

ثم إنه لم يفتح بعد ذلك عينيه. وكان ذلك في الرابع من كانون الأول (ديسمبر) عام 1131م. وكان عُمَر الخيّام في السنة الرابعة والثمانين من عمره، فقد ولد في صباح الثامن عشر من حزيران (يونيه) عام 1048م. ولأن يعرف المرء بهذه الدقّة تاريخ ميلاد شخص في ذلك العصر البعيد فذاك أمر استثنائي للغاية. إلا أن الخيّام كان يشغل في هذا الأمر منصب فلكيّ. ويبدو أنه سأل أمه ليعرف طالعه، برج الجوزاء، وليحدّد موضع الشمس وزُحل والمشتري ساعة قدومه إلى الدنيا. وهكذا أرّخ طالعه الذي حرص على نقله إلى البيهقيّ المؤرّخ.

ويحكي آخر من معاصريه، هو الكاتب نظامي أروزي، قائلاً: «التقيت عُمَر الخيّام قبل موته بعشرين عاماً في مدينة بَلْخ. وكان قد نزل في بيت أحد الأعيان بشارع النخّاسين، ونظراً لشهرته فقد كنت ألازمه كظلّه لالتقاط كل كلمة من كلماته. وهكذا سمعته يقول: «سيكون قبري في مكان تنثر فيه ريح الصَّبا الأزهار في كلّ ربيع». وبدت لي هذه الكلمات على الفور غير معقولة؛ ومع ذلك فقد كنت أعلم أن رجلاً مثله لا يمكن أن ينطق عن هوى».

ويضيف الشاهد قائلاً: «ومررت بنيسابور بعد موت الخيّام بأربعة أعوام. وإذ كنت أشعر حياله بالاحترام الواجب لأحد

العلماء فقد حججتُ إلى مثواه الأخير. وقادني دليل إلى المقبرة. وإذ استدرت إلى اليسار بعد دخول المقبرة فقد رأيت القبر مستنداً إلى جدار حديقة. وكانت شجرات كمثرى ودرّاق تمدّ أغصانها وقد نثرت أزهارها على القبر حتى إنه كان مختفياً تحت بساط من البَتّلات».

كقطرةٍ عادتْ إلى الخضمِّ أو
كذَرَّةٍ قد رجعتْ إلى الثرى
أتيْتَ للدُّنيا وغدْتَ حاكياً
ذُبابةً بَدَتْ وغابتْ إثرا.

لقد أخطأ عُمَر الخيّام، لأن وجوده البعيد عن أن يكون بمثل العَرَض الذي تحدّث عنه، كان قد بدأ لتوّه. وجود رباعياته على الأقل. ولكنْ، ألم يكن الشاعر قد تمنّى لها هي الخلودَ الذي لم يكن يجرؤ على تمنّيه لنفسه؟

ما كان ليفوت الذين كان يحظون من أهل أَلَموت بالامتياز الرهيب في زيارة حسن الصبّاح أن يلاحظوا طيف دفتر داخل مشكاةٍ محفورة في الجدار ومحروسة بشبكة ثخينة من المعدن. ولا كان أحد ليعلم ما ذاك أو ليجرؤ على سؤال الداعية الأعظم عنه، وكان يفترض أنه يملك من الأسباب ما يجعله لا يستودعه المكتبة الكبرى مع أن فيها مصنّفات تضمّ حقائق تجلّ عن الوصف.

وعندما مات حسن وهو يناهز التسعين من العمر لم يجسر معاونه الذي عيّنه لخلافته على الإقامة في عرين مولاه، كما أنه لم يجسر على فتح الشبكة العجيبة. ولقد ظلّ سكان أَلَموت طويلاً بعد رحيل المؤسّس يرهبون مجرّد النظر إلى الجدران التي آوته، وكانوا يتجنّبون الذهاب إلى ذلك الحيّ الذي أصبح مهجوراً، من خوفهم أن يلتقوا بشبحه. وكانت حياة الجماعة لا تزال خاضعة

للقواعد التي سنّها حسن؛ وكان نصيب أفراد الجماعة الدائمَ أصرمُ أنواع التقشّف. فما من حَيْد ولا من لذاذة؛ ومزيد من العنف في مواجهة العالم الخارجي، ومزيد من القتل لم يسبق له مثيل، لا لشيء سوى البرهنة على أن موت الزعيم لم يوهن قطّ من عزيمة المريدين.

فهل كان هؤلاء يرتضون عن طيب خاطر تلك الصرامة؟ لقد أخذ رضاهم يتضاءل. وأخذت تُسمع بعض الهمسات. لا منِ القُدامى الذين انضمّوا إلى أَلَموت في حياة حسن؛ فلقد كان هؤلاء ما يزالون يَحْيون ذكرى الاضطهادات التي قاسَوْها في أقطارهم الأولى، وكانوا يَخْشون أن يجعلهم أدنى تراخٍ أَسْرَعَ عطباً. ومع ذلك فقد أخذ هؤلاء الناس يتناقصون يوماً عن يوم، وأصبح أبناؤهم وأحفادهم بعدُ هم سكّان القلعة. ولقد أُغدق عليهم بالتأكيد منذ المهد أشدُّ أنواع الإرشاد إكراهاً لهم على تعلُّم أفدح توجيهات حسن واحترامها كما لو كانت كلاماً مُنْزَلاً. غير أن معظمهم كانوا يزدادون تمرّداً، وكانت الحياة تستعيد فيهم حقوقها.

ولقد تجرّأ بعضهم ذات يوم على السؤال عن سبب إرغامهم على قضاء شبابهم بأسره في هذا المكان الشبيه بديْر ـ ثُكْنَة، المُسْتَبْعَدِ منه كلُّ فرح. وانهال عليهم القمع انهيالاً جعلهم يتحفّظون بعد ذلك من إطلاق أدنى رأي مخالف. على رؤوس الأشهاد بالطبع، لأنه أخذت تعقد في السرّ اجتماعاتٌ داخل البيوت. ولقد كانت تشجّع هؤلاء المتآمرين الشبابَ جميعُ أولئك النسوة اللائي شهدن رحيل ابنٍ أو أخٍ أو زوج في مهمّة سرّية لم يرجعوا منها قطّ.

وآلى رجل على نفسه أن يكون الناطق بلسان ذلك الطموح الخفيّ المختنق المقموع. ولم يكن غيره ليسمح لنفسه بالأمر:

كان حفيد الرجل الذي عيّنه حسن لخلافته؛ وكان مدعوّاً لأن يصبح، بعد موت أبيه، القيِّم الرابع بأمر الجماعة.

وكان له على سابقيه امتياز ذو شأن. لقد وُلد بعد قليل من موت المؤسِّس فما كان له أن يحيا عهد إرهابه. وكان يلاحظ مقرَّه بفضول، وبشيء من الخشية بالتأكيد، ولكنْ من غير ذلك الانبهار المَرَضيّ الذي كان يشلّ الآخرين.

بل لقد دخل ذات مرة، وكان في السابعة عشرة، الغرفة المحظورة وجال في أركانها ودنا من البركة السحرية وغمس يده في مائها المثلّج ثم توقّف أمام المشكاة حيث كان المخطوط حبيساً. ولقد همّ بفتحها، بيد أنه ثاب إليه رشده، وتراجع خطوة وغادر الغرفة القهقرى. فلم يشأ في زيارته الأولى أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه.

عندما كان الوريث يذرع ساهماً أزقّة أَلَمُوت كان الناس يتجمّعون في طريقه من غير أن يقتربوا منه كثيراً مع ذلك، وكانوا يتلفّظون بعبارات تبريك غريبة. فقد كان يُسمّى حسناً، مثل حسن الصبّاح، إلّا أن الناس كانوا يهمسون حوله باسم آخر: «المخلِّص! ذلك الذي طالما انتظروه!» ولم يكن يُخشى سوى أمر واحد: ألا يبذل حرس الحشّاشين القديم ـ وكان يعرف مشاعره، وكان قد سبق له أن سمعه يحتجّ بشدّة وبلا حذر على القسوة القائمة ـ قصاراه لمنعه من تولّي السلطة. والواقع أن أباه كان يحاول إسكاته، بل يتّهمه بالزندقة وخيانة تعاليم المؤسِّس. ويقال إنه ذهب إلى قتل مئتين وخمسين من أنصاره وطرد مئتين وخمسين آخرين مُرغِماً إيّاهم على أن يحملوا فوق ظهورهم إلى سفح الجبل جثث أصدقائهم الذين أُعدموا. غير أن الداعية الأكبر لم يجسر، بفضل بقيّة من شعور أبويّ، على احتذاء سنّة حسن الصبّاح في قتل أبنائه.

وعندما مات الأب في عام 1162م خلفه الابن المتمرِّد من غير أدنى عقبة. ولأوّل مرّة من زمن طويل عمّت فرحة حقيقية أزقّة أَلَمُوت المكفهرّة.

لكن أيكون الأمر حقّاً أمر «المخلّص» المنتظَر؟ هذا ما كان التابعون يتساءلون عنه. أيكون حقّاً مَنْ لا بدّ أن يضع حدّاً لآلامنا؟ وأما هو فلم يكن يقول شيئاً. فقد ظلّ يجول ساهماً في شوارع أَلَمُوت أو يقيم ساعات طوالاً في المكتبة تحت بصر الناسخ الثاقب المُدافِع الذي كان مسؤولاً عنها، وهو رجل أصله من «كرمان».

وشوهد ذات يوم يتقدّم بخطىً واثقةٍ من مقرّ حسن الصبّاح القديم ويدفع الباب بخشونة ويذهب إلى المشكاة فينتزع بكلتا يديه الشبكة بقوّة جعلتها تنفصل عن الجدار تاركة خيوطاً طويلة من الرمل والحصى تتهيّل على أرض الغرفة. وسحب مخطوط الخيّام فنفض عنه الغبار ببضع ضربات متوالية قبل أن يتأبّطه.

وقيل إنه احتبس يومذاك في بيته يقرأ ويُعيد القراءة ويتفكّر. حتى حلّ اليوم السابع فأصدر أمره باستدعاء جميع سكان أَلَمُوت رجالاً ونساء وأولاداً لاجتماع يُعقد في «الميدان»، وهو المكان الوحيد القادر على استيعابهم.

كان ذلك في الثامن من آب (أغسطس) عام 1164، وكانت شمس أَلَمُوت تسطع فوق الرؤوس والوجوه، إلا أن أحداً لم يفكّر في الاستظلال. وكانت تنتصب إلى الغرب منصّة يزيّن أركانها الأربعة أربع رايات: حمراء وخضراء وصفراء وبيضاء. وإليها كانت الأبصار شاخصة.

وما هي إلا أن أقبل في ثياب ناصعة البياض وخلفه امرأته شابةً نحيلةً سافرةَ الوجه عيناها إلى الأرض ووجنتاها حمراوان من الارتباك. وبدا من خلال الحشد أن هذا الظهور قد بدّد آخر ما

تبقّى من شكوك؛ فقد همس الناس بحرارة: «إنه هو، إنه المخلِّص!».

وصعد بخطىً وقورةٍ درجات المنصّة القليلة ووجّه إلى أنصاره إشارة تحيّة ضافية منذورة لإسكات الهمهمات. وذلك قبل أن يُلقي أعجب الخُطب التي لم يسبق أن ردّدتها جنبات كوكبنا. فقد قال:

– يا أمّة الثَّقَلَيْن! إن إمام الزمان يباركّكم ويغفر ما تقدم من ذنوبكم وما تأخّر.

«ويبلّغكم أن الشريعة قد بطلت لأن ساعة الحشر قد حانت. فلقد فرض اللّه عليكم الشريعة لكي تستحقّوا الجنّة. ولقد استحققتموها، وهي من اليوم لكم. وعليه فقد تحرّرتم من نير الشريعة.

«وكلّ ما كان محرّماً أصبح محلّلاً، وكل ما كان فرضاً أصبح محرّماً!».

وتابع «المخلّص»:

«حُرِّمت الصلوات الخمس لأننا الآن في الجنّة متّصلين بالخالق على الدوام، ولا حاجة بنا إلى التوجّه إليه في ساعات محدّدة؛ ومَنْ يعاندْ في إقامة الأوقات الخمسة يكشفْ بذلك عن قلّة إيمانه بيوم الحساب. فلقد غدت الصلاة عملاً من أعمال الكفر والجحود».

وفي مقابل ذلك فقد غدت الخمرة – وهي شراب أهل الجنّة كما في القرآن – من المحلّلات، وعدم شربها آية على ضعف الإيمان.

وينقل مؤرخ فارسي من مؤرخي ذلك العهد أنه «ما إن أعلن هذا حتى شرع المحتشدون يعزفون بالمزاهر والنايات ويشربون الخمر جهاراً حتى فوق درجات المنصّة».

وإنه لردّ فعل مفرط على التدابير الصارمة التي مارسها حسن

الصبّاح باسم الشريعة القرآنية. ولن يلبث خلفاء «المخلّص» أن ينصرفوا إلى التلطيف من حماسته التخليصية، غير أن أَلَمُوت لن تكون بعدُ مستودَع الشهداء الذي أمّله «الداعية الأكبر»، وسيكون العيش فيها بعد اليوم ناعماً رغيداً، وستقطع سلسلة الاغتيالات الطويلة التي كانت تُرْهِبُ المدن الإسلامية. وسوف يتحوّل الإسماعيليون، أشدُّ الفِرَقِ رسوخَ مُعْتَقَدٍ، إلى طائفة يُضرب المثل بتسامحها.

والواقع أن «المخلّص» ما إن أعلن النبأ السعيد لأهالي أَلَمُوت وجوارها حتى أرسل الرُسُل إلى الجماعات الإسماعيلية في آسيا ومصر يحملون وثائق موقعة بتوقيعه. وقد طلب من الجميع أن يحتفلوا بعد اليوم بذكرى «يوم الخلاص» الذي كانوا يؤرّخون له تبعاً لثلاثة تقاويم مختلفة: التقويم الهجري وتقويم الإسكندر اليوناني وتقويم «أعظم رجل في الخافقيْن، عُمَر الخيّام النيسابوري».

وفي أَلَمُوت أمر «المخلّص» بإجلال «مخطوط سمرقند» بوصفه كتاباً عظيماً من كتب الحكمة. وعُهد إلى بعض الفنّانين بزخرفته: رسوم بالزيت وزخارف وصندوقة من الذهب المنقوش المرصّع بالحجارة الكريمة. ولم يكن من حقّ أحد أن ينسخه، غير أنه كان موضوعاً على الدوام فوق منضدة واطئة من خشب الأرز في الغرفة الداخلية الصغيرة التي يعمل فيها قيّم المكتب. وهناك، تحت مراقبة هذا القيّم المتعالية، كان بعض المحظوظين يأتون للاطّلاع عليه.

وحتى ذلك الحين لم يكن الناس يعرفون سوى بضع رباعيّات نظمها الخيّام في شبابه النزِق؛ ومنذ ذلك اليوم استُظْهِرت عدّة رباعيّات أخرى وأُنْشِدت ورُدِّدت ولحق بعضَها التحريفُ والتغيير. بل لقد شُهدت في تلك الحِقبة ظاهرة من أغرب الظواهر: كان

الشاعر إذا نظم رباعيّة قد تجرّ عليه المتاعب نسبها إلى عُمَر؛ وهكذا اختلطت مئات الرباعيّات المنحولة بـ «رباعيّات الخيّام» حتى غدا مستحيلاً، في غياب المخطوط، تبيُّنُ الحقّ من الباطل.

أفيكون القيّمون على المكتبة في أَلَمُوت قد تناقلوا أباً عن جدّ ـ بناء على طلب من «المخلّص» ـ تاريخ المخطوط من النقطة التي تركه ورطان فيها؟ إنه، بفضل هذا المصدر الوحيد، تسنّى لنا معرفة أثر الخيّام بعد موته في ما نال «الحشّاشين» من تحوُّل.

فلقد تتابع على هذا النحو تسلسل الأحداث المقتضب، وإن لم يكن له من بديل، قرابة قرن من الزمن قبل أن يعرف انقطاعاً مفاجئاً جديداً خلال عمليات الغزو المغولي.

كانت الموجة الأولى بقيادة جنكيز خان أشدَّ كارثة تخريبية حلّت بالشرق ولا ريب. فقد هُدمت مدن رائعة برمّتها وأُبيدَ سكّانها، من مثل بكين وبخارى وسمرقند، أو سيموا كالبهائم، فوزِّعت الشَّوَابُّ من النساء على ضباط الجحفل المنتصر واستُرِقَّ الحِرَفِيُّون، وذُبح الباقون باستثناء أقليّة التفّت حول قاضي القضاة في ذلك الزمان وأعلنت ولاءها لجنكيز خان.

وعلى الرغم من تلك الجحيم تبدو سمرقند شبه محظوظة لأنها سوف تُبْعَث من بين الأنقاض لتغدوَ حاضرة إمبراطورية عالمية، إمبراطورية تيمورلنك. على عكس كثير من المدن التي لن تقوم لها قائمة؛ ولا سيّما حواضر خراسان الثلاث التي طالما تركّز فيها النشاط الثقافي الخاصّ بهذا القسم من العالم: مَرْو وبَلْخ ونيسابور. يضاف إليها الرَّيُّ ـ مهد الطبّ الشرقي ـ التي سوف يُنسى حتى اسمها؛ ولسوف يقتضي الأمر انتظار عدّة قرون لرؤية انبعاث مشهدٍ مجاور لها، مدينة طهران.

والموجة الثانية هي التي ستقضي على أَلَمُوت. وستكون أقلّ سفكاً للدماء، ولكنْ أوسع مدى. فكيف السبيل إلى عدم التعاطف

مع هلع المعاصرين لها إذا علمنا أن عساكر المغول استطاعوا يومها، كلَّ بضعة أشهر، تدمير بغداد ودمشق وكراكوفيا في بولونيا وإقليم زتشوان الصينيّ.

وهكذا آثرت قلعة «الحشاشين» الاستسلام، هي التي استعصت على عدّة مجتاحين خلال مئة وستة وسبعين عاماً! ولقد حضر الأمير هولاكو، حفيد جنكيزخان، ليُبدي بنفسه إعجابه بمعجزة البناء العسكري هذه؛ وتقول الأسطورة إنه وجد فيها مُؤَناً لم تمتدّ إليها يدٌ منذ عهد حسن الصبّاح.

وبعد أن تفحّص ومساعديه المكان أمر جنوده بهدمها وعدم ترك حجر على حجر فيها. ولم تُسْتَثْنَ المكتبة. ومع ذلك فإنه سمح، قبل إضرام النار فيها، لمؤرخ في الثلاثين من عمره يُعرف بالجُويني بدخولها. وكان هذا يُعِدّ بناء لطلب من هولاكو لكتابة «تاريخ فاتح الدنيا» الذي لا يزال حتى اليوم مصدرنا النفس للوقوف على عمليات الغزو المغولي. وعليه فقد تمكّن من دخول هذا المكان العجيب الذي كانت عشرات آلاف المخطوطات مرتّبة فيه على رفوف أو مكدّسة أو ملفوفة؛ وكان ينتظره في الخارج ضابط مغولي وجندي مزوّد بعربة تُدفع باليد. فما كان بالإمكان أن تحتويه هذه العربة أُنقِذ وظل الباقي طعمة للنيران. وما كان بالمقدور قراءة النصوص، ولا حتى استعراض العناوين.

وإذ كان الجويني شافعياً مخلصاً فقد قال في نفسه إن أوّل واجباته هو إنقاذ كلام اللّه. فأخذ يجمع على عجل نُسَخَ القرآن المعروفة بجلدتها السميكة والمجموعة في مكان واحد. وكان منها عشرون نسخة فنقلها في ثلاث روحات وجيئات إلى العربة التي كانت قد امتلأت تقريباً بها. والآن، ماذا يختار؟ وإذ اتّجه إلى جدار بدا أن الأجزاء صُفَّت إليه صفّاً أفضل ممّا عليه الحال في الأمكنة الأخرى فقد اكتشف المصنّفات الكثيرة التي كتبها حسن

الصبّاح خلال ثلاثين عاماً من العزلة الطوعية. واختار أن ينقذ من بينها واحداً هو سيرة ذاتية كان عليه الاستشهاد بمقاطع منها في مؤلّفه هو. وعثر كذلك على تاريخ لأَلَمُوت حديث الكتابة حسن التوثيق على ما يبدو، وفيه نُقولٌ مفصّلة لقصّة «المخلّص». ولقد بادر إلى حمله لأن هذه المرحلة كانت مجهولة كل الجهل خارج نطاق الطوائف الإسماعيلية.

أكان المؤرّخ يعرف وجود «مخطوط سمرقند»؟ لا يبدو أنه كان يعرف. أكان يبحث عنه لو سمع به، أوَكان ينقذه لو تصفّحه؟ اللّه أعلم. والذي يُحكى أنه توقّف أمام مجموعة من التصانيف في علوم السحر والتنجيم وغرق فيها ناسياً الوقت. وكان الضابط المغولي الذي جاء يذكّره به في بضع كلمات متسربلاً بدرع سميكة حمراء الحوافّ ومعتمراً خوذَة مُنْسَدِلة على نحره وكأنها لمّة من الشَّعر المسرَّح. وكان في يده مشعل. ولكي يُبدي أنه كان على عجلة من أمره فقد دنا من كومة لفائف يعلوها الغبار. ولم يلحّ المؤرّخ وحمل في يديه وتحت إبطيه كل ما استطاع حمله من غير أن يسعى إلى القيام بأدنى عملية غربلة. وعندما سقط منه المخطوط الموسوم «أسرار الكواكب والأعداد الأزلية» لم يَنْحَنِ لالتقاطه.

وهكذا ظلت مكتبة «الحشّاشين» تحترق سبعة أيام بلياليها، وضاعت تصانيف لا يُحصى عددها فلم يَبقَ نسخة واحدة عنها. ويُزعم أنها تحتوي على أفضل ما حُفِظ من أسرار الكون. ولقد ذهب الظنّ بالناس طويلاً إلى أن «مخطوط سمرقند» قد هلك هو الآخر في محرقة أَلَمُوت.

الكِتَاب الثّالِث

نِهَاية الأعوَام الألفْ

وقُم فلسوفَ تُطيلُ المنام[1]

عُمَر الخيّام

(1) هذا هو الشطر الأخير من رباعيّة هذا نصّها:

طوى الصبحُ رايةَ جيشِ الظلام فَقُمْ يا نديمي وهاتِ المُدام
وفُكَّ لنا نرجسَ المقلتين وقُمْ فلسَوْفَ تُطيلُ المنامْ

(المترجم)

25

إنني قليلاً ما تحدّثت حتى هذه الصفحة عن نفسي، فقد صمّمت على أن أعرض بأكثر ما يكون من الأمانة ما يكشفه «مخطوط سمرقند» من عُمَر الخيّام ومن الذين عرفهم ومن بعض الأحداث التي رافقها. ويبقى أن أقول شيئاً عن الطريقة التي عاد بها هذا العمل الضائع في زمن المغول إلى الظهور من جديد في صميم عصرنا، ومن خلال أية مغامرات تمكّنتُ من حيازته، ثمّ ـ ولنبدأ من هنا ـ بأي صدفة ظريفة علمتُ بوجوده.

لقد سبق أن ذكرت اسمي، بنيامين عُ. لوساج. وعلى الرغم من الجَرْس الفرنسي، وهو إرث من جدّ بروتستانتي هاجر في عصر لويس السابع عشر، فإني مواطن أميركي وُلد في أنّاپولس في الميريلند على خليج تشيزاپيك، وهو شُعبة متواضعة من المحيط الأطلسي. ولا تقتصر علاقتي بفرنسا مع ذلك على تلك القرابة البعيدة، إذ جهد أبي في تجديدها. فطالما أبدى هاجساً لطيفاً في ما يتعلّق بأصوله. فقد سجّل في دفتره المدرسي: «أتكون شجرة عائلتي قد قُطعت لبناء طوف للهاربين» وانصرف إلى دراسة اللغة الفرنسية. ثم عبر، بانفعال واحتفال، المحيط الأطلسي في الاتجاه المعاكس لعقارب الزمن.

ولقد كان اختيارُه سنة حَجِّه إما سيّئاً جدّاً وإما حسناً جداً. فقد غادر نيويورك على ظهر الباخرة «سكوتيا» في التاسع من تمّوز (يوليه) عام 1870 م؛ ووصل إلى «شربور» في الثامن عشر منه، وكان في باريس في التاسع عشر مساء ـ وكانت الحرب قد أُعلنت في الظهر. وكان انسحابٌ، وكانت هزيمةٌ، وكان اجتياحٌ، وكانت مجاعةٌ، وكانت «الكومونةُ»، وكانت المذابح. ولماذا الإنكار؟ فإنها لفرحة شاذّة بأن يجد المرء نفسه في مدينة محاصرَة تسقط فيها الحواجز حين ترتفع المتاريس، ويجد الرجال والنساء فرحة العيش في العشيرة البدائية. فكم من مرة استحضر الأب والأم بانفعال ومرح في أنّاپولس، حول «الحبشة» المطبوخة في الأعياد، ذكرى قطعة خرطوم الفيل التي تقاسماها عشية رأس السنة، وكانا قد اشترياها بأربعين فرنكاً الليبرة من عند «روس» الجزّار الإنكليزي في «بولڤار هوسمان»!

وكانا قد ارتبطا لتوّهما خطيبين، وكان المفروض أن يتزوّجا بعد عام، فكانت الحرب إشبينة زواجهما. ويتذكّر أبي قائلاً: «ما إن وصلت إلى باريس حتى تعوّدت الذهاب كل صباح إلى مقهى«ريش» في «بولڤار الإيطاليين». وأنا أتأبّط كدسة صحف «لو طان»، «لو غُولْوَا»، «لو فيغارو»، «لا پرس»، فأجلس إلى إحدى الموائد قارئاً كل سطر، مسجّلاً سرّاً في دفتر صغير الكلمات التي لم أكن أفهمها «غيترْ» (لفافة يلفها الجندي على ساقه) أو «موبلو» (جندي من الحرس الوطني المتحرّك»، كي أستطيع أن أسأل لدى عودتي إلى الفندق بوّابه المتبحِّر في العلم.

«في اليوم الثالث أقبل رجل أشيب الشاربين فجلس إلى المائدة المجاورة. وكان معه كدسته من الصحف، غير أنه ما لبث أن تخلّى عنها ليراقبني؛ فقد كان طَيْف سؤال يرتسم على شفتيه. وإذا لم يتمالك نفسه فقد ناداني بصوت أبحّ وإحدى يديه مطبقة

على مقبض عصاه والأخرى تنقر بعصبيّة على الرخام المبلّل. وكان يريد التأكّد من أن هذا الرجل الشاب الذي يبدو بكامل صحّته يملك من الأسباب ما يجعله غير موجود في الجبهة للدفاع عن الوطن. وكانت النبرة مهذّبة للغاية وإن بدت مُرتابة ومصحوبة بنظرات شزرة باتجاه الدفتر الذي رآني أخربش فيه خِفْية. ولم تكن بي حاجة إلى التدليل، فقد كانت لهجتي في النطق أبلغ دفاع، واعتذر الرجل بشجاعة ودعاني إلى مائدته واستحضر أرواح لافاييت وبنجامين فرانكلين وتوكڤيل وپيير لانفان قبل أن يشرح لي طويلاً ما كنت قد قرأته، أي أن هذه الحرب «لن تكون بالنسبة إلينا سوى نزهة إلى برلين».

لقد ساورتْ أبي رغبةٌ في معارضته. فإذا لم يكن يعرف شيئاً عن قوة الفرنسيين مقارنةً بقوة الپروسيين فإنه كان قد شارك في «حرب الانفصال» وجُرح في حصار أطلنطا. وكان يقول: «أستطيع أن أشهد بأنه ما من حرب هي نزهة. غير أن الأمم نسّاءة والبارود مُسْكِر، وقد آثرت جيداً ألا أناظر. فلم يكن الحينُ حينَ نقاش، وما كان الرجل قد طلب رأيي. وكان يُطلق بين الفينة والفينة عبارة «أليس كذلك» التي لم يكن يقصد بها كثيراً أن يستفهم، وكنت أردّ بهزّة تعني الموافقة.

«كان ظريفاً، ثم إننا كنا نلتقي بعدها كل صباح. وكنت قليلاً ما أتكلم، وكان يقول في نفسه إنه سعيد بأن يتمكّن أميركي من مشاطرته آراءه بمثل هذه الدقة. وبعد المناجاة الرابعة بمثل تلك الحماسة دعاني ذلك السيد الوقور إلى منزله للغداء؛ وإذ كان واثقاً جداً من الحصول على موافقتي مرة جديدة فما كان منه إلا أن أشار إلى حوذيّ قبل أن أتمكن حتى من صياغة جواب. وعليّ أن أعترف بأني لم أندم قطّ على ذلك. كان اسمه شارل أوبير دو لوساي، وكان يسكن منزلاً خاصاً في بولڤار پواسونيير. وكان أرملاً، وكان أبناؤه في الجيش، وسوف تصبح ابنته أمّك.

كانت في الثامنة عشرة، وكان أبي يكبرها بعشر سنوات. وأخذا يتراقبان طويلاً في صمتٍ مرتكز إلى خلفيّة من التغنّي بالوطنية. ثم غدا جدّي أكثر إيجازاً ابتداء من السابع من آب (أغسطس) عندما أصبح واضحاً، بعد ثلاث هزائم متلاحقة، أن الحرب خاسرة وأن أرض الوطن باتت مهدَّدة. وإذ عملت ابنته ومن سيصبح ختنه على تهدئة غمّه فقد نشأ تواطؤ بينهما. ومذّاك أصبحت نظرة واحدة كافية لتقرير من الذي يجب أن يتدخّل، وبعلاجٍ من أيّ حُجّة.

«عندما التقينا وحدنا، أنا وهي، للمرة الأولى في الصالون الفسيح، ران بيننا صمت القبور. وتبعته قهقهة. فلقد اكتشفنا فجأة أننا بعد عدد من الوجبات المشتركة لم نكن قد تبادلنا قطّ كلمة واحدة مباشرة. وكانت ضحكة منعشة متواطئة أُطلق لها العنان، غير أنه لم يكن لائقاً أن نمدّ في شأوها. وكان مُفْتَرَضاً أن أقول أنا الكلمة الأولى. وكانت أمّك تضمّ كتاباً إلى ثوبها فسألتها ماذا كانت تقرأ».

في هذه اللحظة بالضبط دخل الخيّام حياتي. بل ينبغي أن أقول إنه أنجبني. فلقد كانت أمّي قد حصلت على «رباعيّات الخيّام وقد ترجمها عن الفارسية ج، ب نيقولا الترجمان الأول السابق في السفارة الفرنسية بفارس» وطبعت عام 1867 م في المطبعة الإمبراطورية. وكان في متاع أبي «رباعيات الخيّام» بالإنكليزية لأدوارد فيتزجرالد، طبعة عام 1868 م.

«لم يكن إخفاء أمّك ابتهاجها خيراً من إخفائي ابتهاجي، فقد كنا واثقين، كلانا، من أن خطوط حياتنا قد تلاقت، ولم يخطر لنا لحظة أن الأمر مجرّد تطابق مبتذل بين موضوعيْ قراءتنا. ولقد بدا لنا عُمَر في تلك اللحظة وكأنه كلمة السرّ من القَدَر وأن تجاهل ذلك الأمر يكاد يكون كُفراً وتجديفاً. ولم نَقُلْ بالطبع شيئاً

عمّا كان يعتلج فينا، ودار الحديث عن القصائد. وأعلمتني أن نابليون الثالث قد أمر بنفسه بطبع الكتاب».

في ذلك الوقت كانت أوروبا قد اكتشفت للتوّ عُمَر. والحقّ أن بعض المتخصّصين كانوا قد تحدّثوا عنه في أوائل القرن، وطُبع كتابه في الجبْر عام 1851 م في باريس، ونُشرت عنه مقالات في مجلّات متخصِّصة. غير أن الجمهور الغربي كان لا يزال يجهله، وحتى في الشرق، ما الذي بقي من الخيّام؟ اسم، وخرافتان أو ثلاث، ورباعيات تدعو إلى الارتياب، وشهرة فلكيّ مُلَبَّدَة.

وعندما عزم شاعر بريطاني مغمور، فيتزجرالد، على نشر ترجمة لخمس وسبعين رباعيّة في عام 1859 م لم يبالِ أحد بها. فقد طُبع من الكتاب مئتان وخمسون نسخة وزّع المؤلّف بعضها على أصدقائه وتَأَبَّد الباقي لدى الكُتُبيّ برنارد كواريتش. وكتب فيتزجرالد إلى معلّمه اللغة الفارسية يقول إن عُمَر الطيّب المسكين هذا لا يهمّ أحداً. وبعد عامين قرّر الناشر تصفية مخزونه: تحوّل سعر النسخة من خمسة شلنات إلى بنس واحد، أي إلى أقلّ ممّا كان في الأصل بستين مرّة. وحتى بهذا السعر كان بيع الكتاب قليلاً. إلى أن اكتشفه ناقدان أدبيّان وقرآه فخلب لبّهما. وعادا في اليوم التالي فاشتريا ست نسخ لإهدائها إلى مَنْ حولهم. وإذ شعر الناشر بأن اهتماماً بالكتاب أخذ يشقّ طريقه فقد زاد سعر النسخة فأصبح بنسيْن.

فواعجبي أن أُضطر في آخر مرةٍ لي بإنكلترا إلى دفع أربعمئة ليرة استرلينية، لـ «كواريتش» هذا الذي بات محلّه يقبع سعيداً في بيكاديلّي، لقاء نسخة كان يحتفظ بها من الطبعة الأولى!

غير أن النجاح لم يُكتب لساعته في لندن. وانبغى المرور بباريس وأن ينشر السيد نيقولا ترجمته، وأن يدفع تيوفيل غوتييه

على صفحات جريدة الـ «مونيتور أونيفرسيل» بصيحة مدوّية «هل قرأتَ رباعيات الخيّام؟» محيّياً «حريّة الفكر المطلقة التي لا تكاد تعدِلها حريّة أجرأ المفكّرين المُحْدَثين»، وأن يضيف أرنست رينان «لعلّ الخيّام أن يكون أعجب من يُدْرَسُ لإدراك ما يمكن أن تكون قد آلت إليه عبقرية فارس الحرّة بفعل ضغط الدوغماتية الإسلامية»، انبغى كلّ هذا لكي يَخْرُج فيتزجرالد وعُمرُهُ المسكين من الخَفاء في العالم الأنغلوسكسوني. وكان الصحو حينئذٍ صاعقاً. فبين ليلة وضحاها تلاقت جميع صور الشرق متضامّة حول اسم الخيّام وحده، وتتابعت الترجمات وتضاعفت الطَبَعات في إنكلترا ثم في كثير من المدن الأميركية؛ وتكوّنت جمعيات «عُمَريّة».

ولْنكرِّر أن شهرة الخيّام كانت عام 1870 م في بداياتها، ثم أخذت حلقة المعجبين تتّسع كل يوم، ولكنْ من غير أن تتجاوز بَعْدُ حدود الطبقة المثقّفة. وإذ كانت تلك القراءة المشتركة قد قرّبت بين أبي وأمي فقد شرعا يُنشدان رباعيات عُمَر ويناقشان في معناها: هل كانت الخمر والحانة بريشة الخيّام رمزين صوفيين خالصين كما يؤكد نيقولا؟ أم كانا على العكس تعبيراً عن حياة الملذّات، بَلْهَ المجون، كما يذهب إلى القول فيتزجرالد ورينان؟ وكانت تلك المناقشات تتّخذ على شفاههما طعماً جديداً. وعندما كان أبي يذكر عُمَر وهو يداعب شعر حسنائه المعطّر، كان وجه أمّي يتضرّج. ولقد تبادلا أوّل قبلة من قبلاتهما بين رباعيّتين غِزلتين. وفي اليوم الذي تحدّثا فيه عن الزواج تعاهدا على تسمية ابنهما الأول عُمَر.

ولقد دُعي بهذا الاسم مئات الأميركيين الصغار خلال عَشْر التسعين؛ وعندما وُلِدْتُ في الأول من آذار (مارس) عام 1873 م لم يعُد ذلكَ شائعاً. وإذ لم يكن والداي يريدان إرباكي بهذا

الاسم الآتي من بعيد فقد أخّراه إلى المرتبة الثانية لأتمكّن إذا رغبت من استبداله بِـ (عُ) [O بالحرف اللاتيني]؛ وكان رفاقي في المدرسة يفترضون أنه اختصار لـ «أوليڤييه» أو «أوسولد» أو «أوسبُرن» أو «أورڤيل»، ولم أكن أكذِّب أحداً.

لم تكن الوراثة التي آلت إليّ على هذا النحو إلا لتوقظ فضولي عن ذلك الإشبين المُغْرِق في القِدم. وفي الخامسة عشرة شرعت أقرأ كلّ ما يتعلّق به. وكوّنت مشروعاً لدراسة الفارسية وآدابها، ولزيارة ذلك البلد طويلاً. غير أن حماستي ما لبثت أن فترت. فإذا كانت أشعار فيتزجرالد تشكّل في رأي جميع النقّاد رائعة من روائع الشعر الإنكليزي فإن علاقتها بعيدة جدّاً بما يمكن أن يكون الخيّام قد نظمه. وأما فيما يخصّ الرباعيات نفسها فإن بعض الكتّاب يذكرون زهاء ألفٍ منها، وقد ترجم نيقولا ما يزيد على أربعمئة، ولا يعترف بعض المتخصِّصين المتشدِّدين بغير مئة منها بوصفها «قد تكون أصليّة». بل ذهب بعض المستشرقين إلى إنكار إمكان نسبة رباعيّة واحدة إلى عُمَر عن يقين. ولقد افترُض في النهاية عن الشخص وآثاره، وتعلّمت ألا أرى في حرف (عُ) المتوسط بين اسمي وشهرتي سوى راسب لا يمّحي لطيش أَبَوَيّ صبياني. إلى أن أعادني لقاءٌ إلى شغفي ووجّه حياتي بإصرار على خطى الخيّام.

26

كان إبحاري إلى القارّة القديمة في نهاية الصيف من عام 1895 م. وكان جدّي قد احتفل لتوّه ببلوغه السادسة والسبعين من العمر، وكان قد كتب إليّ وإلى أمّي رسالتين دامعتين. فلقد أصرّ على رؤيتي، ولو لمرة واحدة، قبل أن يموت. وإذ انتهت دروسي فقد هرعت إليه وأخذت أهيّيء نفسي وأنا على متن الباخرة للدَّوْرِ الذي عليّ القيام به، وهو الجثوّ عند سرير مرضه والإمساك بيده التي فقدت حرارتها وأنا أسمعه يغمغم بوصاياه الأخيرة.

وكان ذلك كلّه عبثاً. فقد كان جدّي ينتظرني في «شربور». وأظنّ أني ما زلت أراه على رصيف «كاليني» أشدّ استقامة من عصاه، معطَّر الشاربيْن، مَرِح المشية، وقبعته العالية ترتفع من نفسها لدى مرور السيدات. وعندما جلسنا إلى مائدة في مطعم «الأميرالية» جذبني بقوة من ذراعي وقال بلهجة مسرحية طوعية: «لقد انبعث فيّ شابٌ يا صديقي، وهو بحاجة إلى رفيق».

ولقد أخطأت في عدم حمل كلماته على محمل الجدّ، وكانت نزهتنا إعصاراً. فما كنّا نكاد ننتهي من العشاء عند «بريبان» أو عند «فويو» أو عند «الأب لاتويل» حتى يكون علينا أن نجري إلى الـ «سيغال» حيث كان يمثّل «أوجيني بوفّيه»، أو إلى «ميرليتون»

حيث كان يتربّع «أريستيد برويان»، أو إلى الـ«سكالا» حيث كانت «إيڤيت غيلبير» تغنّي «العذارى والجنين والعربة». وكنا أخَوَيْن. واحد أبيض الشاربين والثاني أسمرهما، نمشي المشية عينها، ونعتمر القبعة ذاتها، وكان هو الذي تنظر إليه النساء أوّل ما ينظرْن. وكنت عند كل سدادة شمبانيا تَثِب أراقب حركاته ومشيته، فلم أسجّل له خطأً واحداً في أيّة مرّة. فقد كان يهبّ واقفاً ويمشي أسرع ممّا أمشي، ولم تكن عصاه إلّا للزّينة. ولقد كان يريد قطف كل وردة من ورود ذلك الربيع المتأخّر. وإنّي ليسعدني القول بأنه سوف يعيش إلى الثالثة والتسعين. وإنها لسبعة عشر عاماً كانت ما تزال له، وإنها لشبيبة وأيّ شبيبة.

وصحبني للعشاء ذات مساء عند «دوران» في ساحة الـ «مادلين». وكان في أحد أجنحة المطعم زمرة منضمّ بعضها إلى بعض إلى عدة موائد، وكانت تتألف من ممثّلين وممثّلات، ومن صحافيين ورجال سياسة، فسمّاهم لي جدي واحداً واحداً بصوت مسموع. وكان في وسط هؤلاء المشاهير كرسي شاغر، غير أن رجلاً ما لبث أن قَدِم وفهمت أن المكان كان محجوزاً له. وأحاطت به الزمرة على الأثر وأخذت تتملّقه وكانت كل كلمة من كلماته تثير التعجّب أو الضحك. ونهض جدّي وأشار إليّ أن أتبعه.

ــ تعالَ، لا بدّ من تقديمك إلى ابن عمي هنري

وإذ كان يقول ذلك فقد جرّني إليه.

وتصافح الرجلان قبل أن يستديرا إليّ.

ــ حفيدي الأميركي. إنه ليسعده جدّاً أن يلقاك؟

لم أفلِح جيداً في إخفاء دهشتي. وتفحّصني الرجل بنظرة ارتياب قبل أن يُطلق:

ــ ليأتِ للقائي صباح الأحد، عقب نزهتي على الدرّاجة ذات العجلات الثلاث.

ولم أدرك إلى مَنْ قُدِّمت إلا حين رجعت إلى مجلسي. فقد كان جدّي يريد بأي ثمن أن أتعرّف إليه، إذ سبق أن تحدّث عنه باعتزاز عشائري مثير.

والحقّ أن المدعوّ ابن العمّ الذي لم يكن معروفاً كثيراً من ناحيتي في الأطلنطي كان في فرنسا أشهر من «سارة برنار»، إذ هو «ڤكتور ـ هنري دو روشفور ـ لوساي»، و«هنري روشفور» إذا عاملناه كعامّة الناس، مركيز من مراكيز «الكمُّونة»، ونائب سابق، ووزير سابق، وسجين سابق. فإذ نفاه الفرساويون إلى كاليدونيا الجديدة فقد نجح عام 1874 م في أن يفرّ بطريقة روكامبولية ألهبت خيال الناس في ذلك العهد؛ حتى إن الرسام أدوار مانيه رسم لوحة بعنوان «فرار روشفور». ومع ذلك فإنه جدّد منفاه عام 1889 م لتآمره على الجمهورية مع الجنرال «بولانجيه» [المُتَصَلِّب]. وإذ عاد على أثر عفو في شباط (فبراير) 1895 م إلى باريس فقد استقبله بهياج محموم مئتا ألف باريسي. ولمّا كان من أنصار «بلنكي» و«بولانجيه»، وكان ثائراً يسارياً وثائراً يمينياً، ومثالياً وغوغائياً، فقد نطق باسم مئة قضيّة متناقضة. وكنت أعرف هذا كلّه، بيد أني كنت لا أزال أجهل ما هو أساسي.

ذهبت في اليوم المضروب إذن إلى مسكنه الخاص في شارع «برغوليز» عاجزاً يومذاك عن تصوُّر أن هذه الزيارة إلى ابن عمّ جدّي الأثير سوف تكون الخطوة الأولى في رحلتي التي لا تنتهي في العالم الشرقي. وابتدرني قائلاً:

ـ وعليه فأنت ابن «جنڤييف»، ولا بدّ أنك مَنْ سمَّته «عُمَر»؟

ـ أجل. بنجامين عُمَر.

ـ أتعلم أني سبق أن حملتك بين ذراعيّ؟

وفرض رفعُ الكلفةِ نَفْسَه بهذه المناسبة. غير أنه ظلّ من جهة واحدة.

ـ الحقّ أن أمّي حكت لي أنك أبحرت بعد فرارك إلى سان فرانسيسكو وركبت القطار إلى الساحل الشرقي. وكنّا في نيويورك لاستقبالك في المحطة. وكان عمري سنتين.

ـ أذكر جيداً. ولقد تحدّثنا عنك وعن الخيّام وعن فارس، حتى إني تنبّأت لك بمستقبلِ مُسْتَشْرِقٍ عظيم.

واتّخذت سحنة منزعجة لأبوح له بأني كنت قد انحرفت عن تنبّؤاته، وأن اهتماماتي قد أصبحت منذ الآن خارج ذلك، وأني توجّهت بالحري وجهة الدراسات المالية متطلّعاً إلى استئناف العمل ذات يوم في مؤسسة بناء السفن التي أنشأها أبي. وإذ بدا «روشفور» خائباً حقّاً من اختياري فقد اندفع في مرافعة مبهمة اختلطت فيها «الرسائل الفارسية» لمونتسكيو بكتابه الشهير «كيف يمكن أن يغدو المرء فارسياً»، أي مغامرة المقامِرة «ماري پوتي» التي استقبلها الشاه لانتحالها شخصية سفيرة لويس الرابع عشر، وهي قصّة كتبها هذا الرجل الذي يُعتبر ابن عم لجان جاك روسو، والذي أنهى حياته ساعاتياً في أصفهان. وما كنت أنا لأصغي إليه سوى نصف إصغاء. فقد كنت أتفحّصه على الأخصّ، برأسه الكبير غير المتناسب، وجبهته البارزة التي تعلوها طرّة من الشعر الكثّ المتموّج. وكان يتكلّم بحميّة ولكنْ من غير تقعّر، ومن غير ما كان يتوقَّع المرء من شخصه، وهو يعرف كتاباته الملتهبة، من حركات. وأكّد «روشفور» قائلاً:

ـ إنّي شغوف بفارس على الرغم من أني لم أطأها قطّ. فلست لأملك روح رحّالة. ولو أني لم أطرد أحياناً أو أُنفَ لما غادرت فرنسا أبداً. غير أن الأزمنة في تبدّل، والأحداث التي تهزّ الشطر الآخر من الدنيا غدت تؤثّر بعد اليوم في حياتنا. ولو كنت اليوم في العشرين بدلاً من الستين لكانت أغرتني كثيراً مغامرة إلى الشرق. ولا سيما لو كان اسمي «عُمَر»!

وشعرت أن عليَّ بيان السبب الذي صرف اهتمامي بالخيّام. ولأجل ذلك ذكرت الشكوك التي كانت تحوم حول «الرباعيات» وغياب المصنّف الذي يمكن أن يؤكد بما لا يقبل الشكّ صحتها. وبقدر ما كنت أتكلّم كان يبدو في عينيه مع ذلك وميض حادّ فيّاض، ولكن غير مفهوم منّي. فما كان في أقوالي ما يُفترض أن يُحدِث مثل ذلك الهياج. وإذ غدوت حائراً ومنزعجاً فقد خلصت إلى الاختصار ثم إلى الصمت بطريقة حاسمة بعض الشيء.

وسألني «روشفور» بحماسة:

ـ وإذا وثقت من وجود هذا «المخطوط» فهل يتجدّد اهتمامك بعُمَر الخيّام؟

واعترفت:

ـ بكل تأكيد.

ـ وإذا قلت لك إني رأيت هذا «المخطوط» بأمّ عيني، في باريس بالذات، وأني تصفّحته؟

27

لو أني قلت إن هذا الكشف ما لبث أن قلب حياتي لكان قولي غير صحيح. فلست أعتقد أني أبديت ردّ الفعل الذي كان «روشفور» يؤمّله. ولقد فوجئت وسُقِط في يدي جداً، غير أني ظللت بقَدْر ذلك مرتاباً. فلم يكن الرجل يوحي إليّ بثقة غير محدودة. فمن أين له أن يعرف أن المخطوط الذي قلّب صفحاته كان مصنَّف الخيّام الحقيقي؟ إنه لم يكن يعرف الفارسية، وكان من الممكن أن يُضْحَك منه. ولأيّ سبب غير لائق كان من الممكن أن يكون هذا الكتاب في باريس من غير أن يفكّر أيّ مستشرق في الإشارة إليه؟ واكتفيت على هذا بإرسال عبارة «لا يُصدَّق» مهذّبة ولكنها صادقة لأنها كانت توفّر في آنٍ حماسة مخاطبي وشكوكي الخاصّة. وانتظرت لكي أتيقّن.

وأضاف «روشفور»:

ـ لقد أسعدني الحظ بمقابلة شخصيّة فذّة. واحد من أولئك الأشخاص الذين يجتازون التاريخ مصمّمين على أن يتركوا طابعهم في الأجيال الطالعة. وإن السلطان التركي ليخشاه ويجامله، وإن شاه فارس ليرتعد لمجرّد ذكر اسمه. ومع أنه من نسل محمّد فقد طُرد من القسطنطينية لأنه قال في خطاب عام، وبحضور أعظم

الشخصيات الدينية، إن رسالة الفيلسوف توازي في حاجة البشرية إليها رسالة النبيّ. إنه يُدعى جمال الدين. هل تعرفه؟

ولم أستطع إلا الاعتراف بجهلي المُطْبِق. وتابع «روشفور»:

ـ عندما ثارت مصر على الإنكليز فإنما كانت ثورتها بدعوة من هذا الرجل. وجميع المستنيرين في وادي النيل يدّعون الانتساب إليه ويسمونه «المُعَلِّم» ويُجلّون اسمه. وهو ليس مع ذلك مصرياً، ولا أقام في ذلك البلد سوى إقامة قصيرة. وإذ نُفي إلى الهند فقد نجح في أن يثير هناك أيضاً حركة عقائدية رائعة. فلقد نشأت بتأثيره صُحُفٌ وتألّفت جمعيات. وذُعر نائب الملك فطرد جمال الدين الذي اختار الإقامة في أوروبا وواصل نشاطه المدهش من لندن ثم من باريس.

«واشترك بانتظام في تحرير «النترانزيجان» فكنّا كثيراً ما نلتقي. ولقد قدّم لي تلاميذه، وهم مسلمون من الهند ويهود من مصر وموارنة من سوريا. وأظن أني كنت أقرب أصدقائه الفرنسيين إليه، بيد أني لم أكن الوحيد. فلقد عرفه حقّ المعرفة أرنست رينان وجورج كليمنصو، وفي إنكلترا أشخاص مثل اللورد ساليزبوري وراندولف تشرشل أو ويلفرد بلونت. وقبل أن يموت ڤيكتور هوغو بقليل التقى به هو الآخر.

«وفي هذا الصباح بالذات كنت أراجع بعض الملاحظات عنه، ملاحظات أعوّل على دسّها في مذكّرتي».

وتناول «روشفور» من درجٍ بعض الأوراق المكتوبة بخط دقيق وقرأ: «قُدِّم إليّ منفيّ مشهور في جميع بلاد الإسلام بأنه مصلح وثائر، إنه الشيخ جمال الدين، وهو رجل يملك رأس حَوَارِيّ. وإن عينيه الجميلتين السوداوين المفعمتين بالعذوبة واللهب. ولحيته الصهباء الداكنة التي تصل إلى صدره لتُضفي عليه جلالاً فريداً. وإنه ليمثّل نموذجاً لآسري الجماهير. وكان يكاد يفهم الفرنسية

التي كان يتكلّمها بصعوبة، غير أن ذكاءه الدائم التوقّد كان يعوّض بسهولة عن جهله لغتنا. وتحت مظهره الوادع المطمئنّ، كان نشاطه في غاية النهم. وما لبثنا أن ارتبطنا وثيق الارتباط إذ إنّ روحي ثورية بالغريزة وكل محرِّر يجتذبني...

وما لبث أن رتّب أوراقه قبل أن يتابع قائلاً:

ـ كان جمال الدين قد استأجر غرفة صغيرة في الطبقة الأخيرة من فندق في شارع «سيز» بالقرب من «المادلين». وكان ذلك المكان المتواضع يكفيه لإصدار صحيفة كانت تنطلق في رزم كاملة إلى الهند وبلاد العرب. ولم يحدث أن دخلتُ عرينه غير مرة واحدة، فقد كنت توّاقاً لمعرفة ما يمكن أن يُشبه. وكنت قد دعوت جمال الدين للعشاء عند «دوران» ووعدت بأن أمرّ لاصطحابه. وصعدت توّاً إلى غرفته. لقد كان من العسير الإيغال فيها لكثرة ما امتلأت به من صحف وكتب كانت فوق السرير أحياناً، وحتى إلى السقف. وكانت تخيّم عليها رائحة سيكار خانقة.

وعلى الرغم من إعجابه بتلك الشخصية فلقد نطق بهذه العبارة الأخيرة في تكشيرة تنمّ عن الاشمئزاز خاصّاً إياي على إطفاء سيكاري على الفور، وكان سيجاراً أنيقاً من صنع هاڤانا كنت قد أشعلته للتوّ. وشكرني «روشفور» بابتسامة وتابع قائلاً:

ـ إن جمال الدين، وقد اعتذر عن الفوضى التي استقبلني بها، والتي لم تكن تليق، على ما قال، بالطبقة التي أنتمي إليها، أطلعني في ذلك اليوم على بعض الكتب التي كان مشغوفاً بها. ولا سيما كتاب الخيّام المزيّن بصور منمنمة رائعة. وشرح لي أن هذا المصنّف يُدعى «مخطوط سمرقند»، وأنه يحتوي على الرباعيات التي نظمها الشاعر نفسه، وقد أضيف في هامشها سجلٌ بالأحداث. ولقد أخبرني بشكل خاص بالطريقة الملتوية التي وصل إليه بها «المخطوط».

- يا لطيف!

لقد انتزع تعجّبي على الطريقة الإنكليزية ضحكةٌ مظفَّرة، من ابن العم هنري، وكان آية على أن شكّي البارد قد زال، وأنْ سأكون بعد اليوم مشدوداً إلى شفتيه بشكل لا سبيل إلى علاجه. وبادر إلى استغلال ذلك. وأضاف بجفوة:

- لست أذكر بالطبع كثيراً ممّا أمكن أن يقوله لي جمال الدين. فلقد تحدّثنا في ذلك المساء كثيراً عن السودان. ولم أرَ بعدها قطّ ذلك «المخطوط». وعليه فإن في وسعي الشهادة بأنه وُجد، غير أني أخشى أن يكون قد فُقِد اليوم. فكل ما كان يملكه صديقي قد أُحرق أو دُمِّر أو نُهب.

- حتى «مخطوط» الخيّام؟

وكافأني «روشفور» جواباً وحيداً على سؤالي بتكشيرة لا تبعث كثيراً على التشجيع. وذلك قبل أن يندفع في شرح متحمّس مستعيناً بملاحظاته عن كثب:

- عندما قدم الشاه إلى أوروبا لحضور المعرض العالمي لعام 1889م، عرض على جمال الدين أن يعود إلى فارس «بدلاً من قضاء ما بقي له من عمر بين الكفّار». ملمّحاً بتعيينه في منصب رفيع. ولقد أملى المنفيُّ شروطه: «دستور»، وتنظيم انتخابات، والاعتراف بالمساواة بين كل الناس أمام القانون «كما في البلاد المتمدِّنة»، وإلغاء كلّ الامتيازات المفرطة الممنوحة للقوى الأجنبية، في نهاية الأمر. ولا بدّ من القول بأن أوضاع بلاد فارس قد كانت في هذا المجال مثاراً لغبطة كاريكاتوريّينا منذ عدّة أعوام: فلقد عُهد منذ زمن قريب إلى الروس الذين كانوا قد مُنحوا احتكار بناء الطُرق بأن يتولّوا الإصلاح العسكري. وكانوا قد أوجدوا لواءً من القوزاقيين - وهو خير ألوية الجيش الفارسي تجهيزاً - بقيادة مباشرة من ضبّاط القيصر؛ وحصل الإنكليز

تعويضاً عن ذلك على حقّ استغلال جميع الموارد المنجميّة والغابيّة في البلاد وإدارة نظامها المصرفيّ لقاء لقمة من الخبز؛ وأما النمساويون فقد أُطلقت أيديهم في مصالح البريد. وإذ طالب جمال الدين العاهل بوضع حدّ للاستبداد الملكي والامتيازات الأجنبية فقد كان مقتنعاً بأنه يطلب أمراً مرفوضاً. غير أن الملك قبِل، وسط دهشته العظمى، بجميع شروطه ووعد بالعمل على تحديث البلاد.

«وعليه فقد ذهب جمال الدين للإقامة في فارس وسط بطانة الملك الذي أبدى له في البداية كل رعاية، حتى إنه قدّمه باحتفال كبير إلى نسائه. غير أن الإصلاحات ظلّت معطّلة. دستور؟ لقد أقنع زعماءُ دينيّون الشاهَ بأنه سيكون مخالفاً لشريعة الله. انتخابات؟ لقد حذّره بعض أفراد الحاشية من أنه إذا وافق على البحث في سلطانه المطلق فسوف تكون نهايته نهاية لويس السادس عشر. .الامتيازات الأجنبية؟ لقد كان على العاهل المُفلس باستمرار أن يعقد امتيازات جديدة بدلاً من إلغاء القديمة، فعهد إلى شركة إنكليزية بحصر التبغ الفارسي لقاء مبلغ زهيد قدره خمسة عشر ألف ليرة إسترلينية. ولم يكتفِ بحقّ التصدير بل أضاف إليه حقّ الاستهلاك الداخلي. ولقد كانت هذه التجارة، في بلد يمارس فيه كل رجل وكل امرأة وعدد لا بأس به من الأولاد متعة تدخين السيكارة أو النارجيلة، من أكثر التجارات درّاً للأرباح.

«وقبل أن يُعْلَنَ عن هذا التراخي الأخير في طهران كانت مناشير قد وزّعت سرّاً ناصحة الشاه بالعودة عن قراره. حتى إن نسخة منها وُضعت في غرفة نوم العاهل مُشَكِّكة بأن جمال الدين كان مؤلِّفها. وقرّر المُصلح وقد أقلقه الأمر أن يقف موقف التمرُّد السلبيّ. وإنها لعادة دُرج عليها في بلاد فارس، فعندما يخاف شخص على حريّته أو على حياته فإنه يذهب إلى محراب قديم في

ضواحي طهران فيحتبس فيه مستقبلاً زوّاراً يشرح لهم شكاواه. ولا يُفْتَرَض أن يجتاز أحد السياج للقبض عليه. وهذا ما فعله جمال الدين مثيراً حركة جماهيرية عارمة. فلقد وفد آلاف الناس من جميع أرجاء فارس للاستماع إليه.

وثارت ثائرة الشاه وأمر بإخراجه من مكمنه. ويقال إنه تردّد كثيراً قبل ارتكاب ذلك الغدر، غير أن وزيره أقنعه، على الرغم من تثقّفه في أوروبا، بأنه لم يكن لجمال الدين الحقّ في التحصّن بالمحراب لأنه لم يكن سوى فيلسوف، أي أنه كافر بالتأكيد. وهكذا دخل بعض الجنود المسلّحين تلك البِيْعة وشقّوا طريقاً وسط الزوّار الكُثُر وألْقَوا القبض على جمال الدين ونهبوا جميع ممتلكاته قبل أن يقتادوه نصف عارٍ إلى الحدود.

«ولقد ضاع «المخطوط» في ذلك اليوم تحت نِعال جنود الشاه».

ومن غير أن يتوقّف «روشفور» عن الكلام نهض واستند إلى الجدار وشبّك ذراعيه، وهو وضع كان يؤثره ويميل إليه.

ـ وكان جمال الدين حيّاً، بيد أنه كان مريضاً، وكان غاضباً على الأخص من أن يكون ذلك العدد من الزائرين الذين كانوا يصغون إليه في حماسة قد شاهدوا مهانته على رؤوس الأشهاد من غير أن يرفّ لهم جفن. واستنتج من ذلك استنتاجات غريبة: لقد قرّر، هو الذي أمضى حياته في مقارعة جهل بعض رجال الدين وغَشِيَ محافل الماسونيين في مصر وفرنسا وتركيا، أن يستخدم آخر ما بقي له من سلاح لإخضاع الشاه مهما تكن العواقب.

وعليه فقد كتب رسالة مطوّلة إلى زعيم رجال الدين الفرس يسأله فيها أن يستخدم سلطانه لمنع العاهل من إرخاص أرزاق المسلمين للكفّار. وأما البقية فلا بدّ أنك قرأتها في الصحف.

وإني لأذكر أن الصحافة الأميركية كانت قد نقلت بالفعل أن

إمام الشيعة الأكبر قد وزّع نداء عجيباً: «كل من دخّن تبغاً كان متمرِّداً على إمام الزمان عجّل الله في مقدمه». وما هي إلا عشية وضحاها حتى استنكف كل فارسي عن إشعال أدنى سيكارة. ورُصَّت الغلايين المائية (القليان) على الرفوف أو هُشّمت، وأغلق بائعو التبغ دكاكينهم. وجرى التقيّد بالحظر تقيّداً دقيقاً حتى بين زوجات الشاه بالذات. وجَنّ جنون العاهل واتّهم الزعيم الديني في رسالة كتبها إليه بعدم الشعور بالمسؤولية «لأنه لم يهتمّ بالنتائج الخطيرة التي قد يُحدثها حظر التبغ في صحّة المسلمين». غير أن الحظر اشتدّ مترافقاً مع مظاهرات صاخبة في طهران وتبريز وأصفهان. ولم يكن بدّ من إلغاء التنازل.

وتابع «روشفور»:

ـ كان جمال الدين قد أبحر في تلك الأثناء إلى إنكلترا. وقد قابلته فيها وناقشته طويلاً؛ ولقد بدا لي مضطرباً، ولم يكن يفتأ يردّد: «ينبغي قتل الشاه». وكان رجلاً مجروحاً مُهاناً، ولم يكن يفكّر في غير الانتقام. وذهب الأمر بالعاهل، وكان يلاحقه بحقده، إلى كتابة رسالة هائجة إلى اللورد سالزبوري: «لقد طردنا هذا الرجل لأنه كان يعمل ضدّ مصالح إنكلترا، فإلى أين التجأ؟ إلى «لندن»». وأجيب الشاه رسمياً أن بريطانيا العظمى بلد حرّ ولا يمكن التذرّع بأي قانون لمنع إنسان من التعبير عن رأيه. وأما في المجالس الخاصّة فقد وُعد بالبحث عن الوسائل المشروعة الكفيلة بالحدّ من نشاط جمال الدين الذي رُجي أن يقصّر أجل إقامته. وذاك ما حمله على الذهاب إلى القسطنطينية مُفعماً بالغمّ.

ـ أهو هناك الآن؟

ـ أجل. وقد قيل لي إنه مصاب بالسويداء. فلقد وهبه السلطان مسكناً جميلاً يستطيع أن يستقبل فيه الأصدقاء والتلاميذ، غير أنه محظور عليه مغادرة البلاد، وهو يعيش على الدوام في ظلّ مراقبة دقيقة.

28

إنه لسجن فخم مشرع الأبواب: قصر من الخشب والمرمر فوق تلّة يَلْدِزْ بالقرب من مقرّ الصدر الأعظم؛ وكانت وجبات الطعام ترِد ساخنة من المطابخ السلطانية؛ وكان الزوّار يتقاطرون فيجتازون السياج ثم يعبرون الممشى قبل أن يخلعوا أخفافهم عند العتبة. وكان صوت السيد يهدر في الطبقة العليا من القصر أجشّ المقاطع مهموس الصوائب؛ وكان يُسمع وهو يعنّف فارس والشاه ويتنبّأ بالمصائب القادمة.

وأحسست بالتضاؤل، أنا الغريب الآتي من أميركا بقبّعتي الصغيرة، قبّعة الغريب، وخطواتي الوئيدة، خطوات الغريب؛ ومشاغلي، مشاغل الغريب الذي قطع المسافة من باريس والقسطنطينية في سبع عشرة ساعة بالقطار عبر ثلاث إمبراطوريات للحصول على مخطوط، على كتاب شِعر قديم، على تُرّهة من الورق لا تساوي شروى نقير في الشرق المائر بالاضطرابات.

وأقبل عليّ خادم فانحنى انحناءة عثمانية ورحب بي بكلمتين فرنسيتين، غير أنه لم يطرح أدنى سؤال. فهنا يأتي جميع الناس للسبب عينه، لزيارة السيد وسماع السيد والتجسّس على السيد. ودُعيتُ للانتظار في صالون فسيح.

وما إن دخلت حتى لاحظت طيفاً نسوياً. وأجبرني هذا على الغضّ من بصري؛ فلقد حدّثوني كثيراً عن عادات البلد وما كنت لأتقدّم مبسوط الراحة طَلْق المحيّا ضاحك النظرة. فما هي إلا تمتمة واختلاجة من قبعتي. وكنت قد لمحت في الاتجاه المقابل للمكان الذي كانت تجلس فيه أريكة على الطراز الإنكليزي تتيح لي أن أغرق فيها. ولكنْ ها هوذا ناظري يمسح السجّادة ويصطدم بحذاء الزائرة ويرتفع إلى ثوبها الأزرق والذهبيّ فيصل إلى ركبتها فجذعها فعنقها فنِقابها. ومع ذلك فلم يكن ما اصطدمت به ويا للعجب حِجاباً، بل كان وجهاً سافراً وعينين التقتا عينيّ. ثم كانت ابتسامة. وفرّ ناظري إلى الأرض وسبح من جديد فوق السجّادة ومسح طرفاً من بلاط الغرفة ثم عاد يرتفع إليها بقضاء محتوم وكأنه سِدادة من فلّين تعوم على صفحة الماء. وكانت تلفّ شعرها بمنديل من الحرير الرقيق الناعم القابل للانسدال على وجهها عند ظهور الغريب. غير أن الغريب كان في الحقيقة هنا، وظلّ المنديل مرفوعاً.

كان نظرها إلى بعيد في هذه المرة وكانت تمنحني جانب وجهها كي أتأمّله، وجلدها الملوّح الصافي الأديم. ولو كان للعذوبة لون لكان لونها؛ ولو كان للسرّ وميض لكان وميضها. وشعرت بخدّيّ لزجين وبيديّ باردتين. وكانت السعادة تنقر على صدغيّ. يا لله، ما كان أجملها أول صورة لي عن الشرق! امرأة من أولئك النساء اللاتي يعرف شعراء الصحراء وحدهم التشبيب بهنّ، ولكانوا قالوا: وجهها الشمس وشعرها ظلّ وارف وعيناها عينا ماء عذب وقامتها نخلة ممشوقة وابتسامتها خُلَّب.

أأكلّمها؟ هكذا؟ من طرف الغرفة إلى طرفها ويداي كالبوق في فمي؟ أأنهض؟ أمشي إليها؟ أجلس على أريكة أقرب وأجازف برؤية ابتسامتها تَغيض ونقابها ينسدل كشفرة المِقصلة؟ والتق

عيوننا من جديد وكأن الأمر كان صدفة، ثم افترقت وكأنها تلعب لعبة. لعبة حضر الخادم يقطع مجراها. مرّة أولى ليقدّم لي الشاي والسكائر. وبعد لحظة ليخاطبها بالتركية وقد انحنى حتى كاد يلامس الأرض. ورأيتها عندئذٍ تنهض وتغطّي وجهها وتعطيه حقيبة من الجلد ليحملها لها. وأسرع الخطى باتجاه المخرج. وتبعَتْه.

وإذ وصلت إلى باب الصالون فقد تباطأت تاركة الرجل يبتعد والتفتت إليّ ونطقت بصوت مرتفع وبفرنسية أصفى من فرنسيتي:

ـ من يدري، قد يتقاطع طريقانا!

وسواء كان الأمر مجاملة أو وعداً فقد رافقت كلامها ابتسامةٌ خبيثة رأيت فيها تحدّياً وعتاباً لطيفاً في آن. ثم إنها، بينما كنت أنتزع نفسي من مقعدي بخَرَق تامّ، وفيما كنت أنشدّ وأتخلّص ساعياً إلى استعادة توازني وبعضٍ من رباطة جأشي، ظلّت جامدة في مكانها ونظراتها تغلّفني بالتفاتة لاهية. ولم تُفلح أية كلمة في وُجدان طريقها إلى شفتيّ. واختفت.

كنت لا أزال واقفاً عند النافذة مشغولاً بتمييز العربة التي أوصلتها، وكانت متوقّفة بين الأشجار، عندما انتزعني صوت من أحلامي.

ـ اغفرْ لي أن جعلتك تنتظر.

كان ذلكم جمال الدين. وكانت يده اليسرى قابضة على سيكار مُطفأ؛ ومدّ إليّ اليمنى ليصافحني مصافحة خالصة ناعمة وإن قويّة.

ـ اسمي بنجامين لوساج، وقد أتيت من قِبل هنري روشفور.

وقدّمت إليه الرسالة التي تُعرِّف بي، غير أنّه دسّها في جيبه من غير أن ينظر فيها وفتح ذراعيه وعانقني وقبّل جبيني.

ـ أصدقاء روشفور أصدقائي، وأنا أتحدث إليهم بقلب منفتح.

وأمسك بكتفي وقادني إلى سلّم خشبي يفضي إلى الطبقة العليا.

ـ آمل أن يكون صديقي هنري في صحة جيدة، وقد علمت أن عودته من المنفى كانت نصراً مُبيناً. فأي سعادة لا بدّ أن تكون قد غمرته وهو يرى جميع أولئك الباريسيين سائرين في الشوارع هاتفين باسمه! ولقد قرأت خلاصة عن ذلك في «لنترانزيجان». فهو يرسلها إليّ بانتظام غير أني أتسلّمها متأخرة عن وقت صدورها. وإن قراءتها لتعيد إلى مسمعي صخب باريس.

كان جمال الدين يتكلّم في جهد فرنسية سليمة، وكنت أهمس إليه أحياناً بالكلمة التي كان يبدو أنه يفتّش عنها. وعندما كنت أصيب الهدف كان يشكرني وإلّا استمرّ في تقليب ذاكرته لاوياً قليلاً شفتيه وذقنه. وتابع:

ـ لقد عشت في باريس في غرفة مُعْتِمة، بيد أنها كانت تطلّ على العالم الأوسع. كانت أصغر من هذا البيت بمئة مرّة، غير أني كنت أقلّ شعوراً بالضيق. وكنت بعيداً آلاف الكيلومترات عن شعبي، ولكنّي كنت أعمل على تقدّم أهلي بأنجع مما في وسعي أن أفعله هنا أو في فارس. وكان صوتي يُسمع من الجزائر إلى كابول؛ واليوم لا يستطيع سماعه غير الذين يشرفونني بالزيارة. وهم بالطبع على الرحب والسعة دائماً، ولا سيّما إذا قدموا من باريس.

ـ لست أقيم شخصياً في باريس. إن أمّي فرنسية، وجرس اسمي فرنسي، إلّا أني أميركي. وأقطن في الميريلند.

وبدا أن ذلك قد سلّاه.

ـ عندما طُردت من الهند عام 1882 م مررت بالولايات المتحدة. تصوّر إنّي كنت على وشك أن أطلب الجنسية الأميركية. إنك تبتسم! لو فعلت لاستنكر كثير من إخوتي في الدين. السيد

جمال الدين المبشِّر بالنهضة الإسلامية وسليل النبي يحصل على جنسية بلد مسيحي؟ غير أني لا أستحي قطّ بذلك، ولقد قصصت الأمر من ناحية ثانية على صديقي ويلفرد بلونت مرخِّصاً له ذكره في «مذكّراته». ومُسوِّغي بسيط: ليس من ركن واحد في ديار الإسلام أستطيع أن أعيش فيه بمنجاة من الاستبداد. فلقد أردت أن ألوذ في فارس بحرم يتمتّع تقليدياً بحصانة مطلقة، ودخله جنود الملك وانتزعوني من بين مئات الزوّار الذين كانوا يستمعون إليّ، ولم يتحرّك أحد، باستثناءِ هزيلٍ واحدٍ، ولا تجرّأ على الاحتجاج. فما من مكان للعبادة، ولا من جامعة، ولا من كوخ يستطيع فيه المرء حماية نفسه من العَسْف!

وبيدٍ مضطربة داعب كرة أرضية من الخشب المطليّ كانت موضوعة على منضدة واطئة، قبل أن يضيف:

ـ والحالة في تركيا أسوأ. ألستُ ضيفاً رسمياً لعبد الحميد السلطان والخليفة؟ أوَلَمْ يرسل إليّ الرسالة تلو الرسالة آخذاً عليّ، كما فعل الشاه قبلاً، قضاء عمري وسط الكفّار؟ لقد كان عليّ الاكتفاء بالردّ: لو لم تكونوا قد حوّلتم بلادنا الجميلة إلى سجون لما احتجنا إلى اللجوء للأوروبيين! غير أني ضعفت وتركت نفسي أُخدع. وأتيت إلى القسطنطينية، وها أنت ذا ترى النتيجة. إنّ نِصْفَ المجنونِ هذا يحتجزني أسيراً، ضارباً عُرض الحائط بأصول الضيافة. ولقد أبلغته مؤخَّراً رسالة أقول فيها: «هل أنا ضيفك؟ ائذن لي بالرحيل! هل أنا سجينك؟ غَلِّلْ قدميّ وأرمِني في زنزانة!» غير أنه لم يتنازل إلى الردّ عليّ. ولو كنت أحمل جنسية الولايات المتحدة أو فرنسا أو النمسا ـ هنغاريا، ناهيك بروسيّا أو إنكلترا، لدخل قنصل بلادي مكتب الصدر الأعظم من غير أن يقرع الباب وحصل على إطلاق سراحي في نصف ساعة. أقول لك إننا ـ مُسلمي هذا العصر ـ أيتام.

كان مبهور الأنفاس، وبذل جهداً لكي يضيف:

ـ في وسعك أن تكتب كلّ ما قلتُ باستثناء نعتي السلطان عبد الحميد بنصف مجنون. فلست أريد إضاعة كلّ أمل في الفرار ذات يوم من هذا القفص. ومن جهة ثانية فإن ذلك سوف يكون كذبة لأن هذا الشخص مجنون كامل الجنون، ومجرم خَطِر، ومصاب بداء الارتياب، ومُسلِم نفسه بالكليّة إلى قبضة منجِّمه الحلبيّ.

ـ لا تخشَ شيئاً فلن أكتب كلمة من كلّ هذا.

وانتهزت فرصة التماسه لتبديد سوء تفاهم.

ـ عليّ إخبارك بأني لستُ صحفياً. لقد أوصاني السيد روشفور، وهو ابن عمّ جدّي، بالحضور لزيارتك، غير أن هدف زيارتي ليس كتابة مقال عن فارس ولا عنك.

وكشفتُ له عن اهتمامي بمخطوط الخيّام، وعن رغبتي العارمة في تقليب صفحاته في يوم من الأيام، وفي دراسة مضمونة عن كثب. وأصغى إليّ بانتباه شديد وفرحة بادية.

ـ أشكرُ فضلك في انتزاعي لحظات من مشاغلي المرهِقة. فلقد طالما شغفني الموضوع الذي تثيره. هل قرأت في مقدمة السيد نيقولا لـ «الرباعيات» قصّة الأصدقاء الثلاثة نظام المُلك وحسن الصبّاح وعُمَر الخيّام؟ إنهم أشخاص متباينون تمام التبايُن، بَيْد أن كلّاً منهم يمثّل مظهراً خالداً من مظاهر النفس الفارسية. وينتابني أحياناً شعور بأني الثلاثةُ في آن. فأنا أطمح، شأنَ نظام المُلك، إلى إقامة دولة إسلامية كبرى وإنْ حكمها سلطان تركيّ لا يُطاق. وأزرع، شأنَ حسن الصبّاح، الاضطراب في كل ديار الإسلام، ولي تلاميذ سوف يتابعونني حتى الموت...

وقطع كلامه مرتبكاً، ثم استدرك وابتسم مستطرداً:

ـ وشأنَ الخيّام أترصّد ما في اللحظة الحاضرة من مَسَرّات نادرة وأنظم أبياتاً في الخمر والنديم والحانة والمحبوبة؛ وأحاذر

مثلَه من الأتقياء المزيّفين. وعندما يتحدّث عُمَر عن نفسه في بعض الرباعيات ينتابني وَهْمٌ بأنّه إنما يصِفني أنا: «في الدنيا المبرقشة يسير رجل لا هو بالغنيّ ولا بالفقير، لا بالمؤمن ولا بالكافر، لا يمالق أية حقيقة ولا يوقّر أية شريعة... فأي رجل شجاع وحزين هو هذا الرجل في الدنيا المبرقشة؟».

وإذ قال ذلك فقد أشعل سيكاره من جديد ساهماً. وحطّت جمرة ضئيلة على لحيته فأبعدها بحركة تشي بالتعوّد. واستأنف:

ـ منذ صباي وأنا معجَب بالخيّام، الخيّام الشاعر، ولكنْ على الأخص بالخيّام الفيلسوف، الخيّام المفكّر الحرّ. وإني لمغتبط بغزوته المتأخّرة لأوروبا وأميركا. وعليه فإنك تتصوّر مبلغ سعادتي عندما حصلتُ على كتاب «الرباعيات» الأصلي مكتوباً بيد الخيّام نفسه.

ـ في أي زمن حصلت عليه؟

ـ لقد أهداه إليّ منذ أربع عشرة سنة في الهند شاب فارس قام بالرحلة وغايته الوحيدة لقائي. وقد قدّم نفسه بهذه الكلمات: «ميرزا رضا من مواليد كرمان تاجر سابق من تجار السوق الكبرى في طهران وخادمك المطيع». وابتسمت وسألته ما الذي يعينه بـ «تاجر سابق»، وما الذي دعاه إلى إخباري بقصّته. كان قد افتتح متجراً للألبسة المستعملة عندما حضر إليه أحد أبناء الشاه فأخذ منه بضاعة من الخُمُر والفِراء بمبلغ ألف ومئة تومان، أي حوالي ألف دولار. غير أنه عندما حضر ميرزا رضا في اليوم التالي لقبض المال من الأمير أُهين وضُرب، بل هُدِّد بالموت إذا حدّثته نفسه بالمطالبة بحقّه. وعندها عزم على المجيء لمقابلتي. وكنت أدرّس في كلكوتا. وقال لي: «لقد أدركت أنه ما من سبيل إلى أن يكسب المرء رزقه بشرف في بلد يتحكّم به الاستبداد. ألستَ مَنْ كتب بأنْ فارس تحتاج إلى دستور وبرلمان؟ اعتبرني منذ اليوم

أحد أخلص تلاميذك. لقد أغلقت متجري وهجرت امرأتي للحاق بك. مُرْني أُطعْ!»

وبدا جمال الدين متألماً وهو يتذكّر ذلك الرجل.

ـ لقد تأثّرت، غير أني أُحرجت. فأنا فيلسوف متشرّد لا أملك بيتاً ولا وطناً، وقد تحاشيت الزواج كيلا أتكفّل بإعالة أحد، وما كنت أريد أن يتبعني هذا الرجل وكأنني المسيح أو المخلّص إمام الزمان. وقلت له كي أثنيه عن عزمه: «أكان عليك حقّاً أن تترك كل شيء، تجارتك وأسرتك، من أجل أمر حقير كالمال؟» وعندها تجهّم وجهه ولم يجبني وخرج.

«ولم يَعُدْ إلا بعد ستة أشهر. وأخرج من جيب داخلي صندوقة صغيرة من ذهب مرصّع بالحجارة الكريمة وقدّمها مفتوحة إلي:

ـ «انظر هذا المخطوط، كم تظنّ أنه يساوي؟

«وقلّبت صفحاته ثم اكتشفت محتواه وأنا أرتعش انفعالاً.

ـ «إنه نصّ الخيّام الأصلي؛ هذه الرسوم، وهذه الزخرفة، إنها لا تقدّر بثمن!

ـ «أكثر من ألف ومئة تومان؟

ـ «أكثر بما لا يُقاس!

ـ «أمنحك إياه، فاحتفظ به. لسوف يذكّرك بأن ميرزا رضا لم يأتِ إليك لاستعادة ماله، وإنما لاستعادة كرامته.

وتابع جمال الدين:

«على هذا النحو وقع «المخطوط» في حوزتي ولم يفارقني قطّ. لقد رافقني إلى الولايات المتحدة وإنكلترا وألمانيا وروسيا ثم إلى فارس. وكان معي يوم لُذْتُ بمزار شاه عبد العظيم. وهناك أضعته.

ـ لا تعلم أين يمكن أن يكون في الوقت الحاضر؟

– لقد قلت لك إنه عندما اعتُقلتُ كان هناك رجل واحد تجرّأ على معارضة جنود الشاه، وكان هذا الرجل ميرزا رضا. فقد نهض وصرخ وبكى ونعت الجنود والحاضرين بالجبناء. وقد اعتُقل وعُذّب وأمضى أكثر من أربعة أعوام في غياهب السجون. وعندما أُطلق سراحه حضر إلى القسطنطينية لزيارتي. وكان عليلاً إلى حدّ حملني على إدخاله مستشفى المدينة الفرنسي فبقي فيه إلى تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي. وحاولت استبقاءه مدّة أطول خوفاً من اعتقاله لدى عودته. غير أنه أبى. ولقد قال لي إنه يريد استعادة «مخطوط» الخيّام، فما كان يهتمّ بشيء آخر غيره على الإطلاق. وهكذا فإن هناك أناساً يندفعون من هاجس إلى آخر.

– ما هو إحساسك؟ ألا يزال «المخطوط» موجوداً؟

– ميرزا رضا وحده قادر على إفادتك. فقد ادّعى أن في مقدوره العثور على الجندي الذي سرقه لدى اعتقالي، وكان يأمل في استعادته منه. وعلى كل حال فقد كان عازماً على الذهاب لرؤيته، وكان يتحدّث عن شرائه منه. والله يعلم بأي مال.

– إذا كان الأمر يتعلّق باستعادة «المخطوط» فإن المال لن يشكّل أية عقبة!.

لقد تكلّمتُ بحميّة. وتفرّس جمال الدين فيّ وقطّب حاجبيه ومال إليّ كما لو كان يريد أن يتفحّصني.

– يراودني شعور بأنك لا تقلّ وسواساً بهذا «المخطوط» عن ميرزا المسكين ذاك. وفي هذا الحال فإنه ليس أمامك سوى سبيل واحدة تسلكها، اذهب إلى طهران! ولست أضمن لك أن تعثر فيها على ذلك الكتاب، ولكنّك إن كنت تحسن النظر فقد تعثر على آثار أخرى للخيّام.

وبدا أن جوابي العفوي جاء مِصداقاً لتشخيصه.

– إن حصلتُ على سمة للدخول فأنا مستعدّ للذهاب من غدي.

– ليست هذه عقبة. سأعطيك كلمة إلى قنصل فارس في باكو، وسوف يتكفّل بالشكليات اللازمة، بل يؤمّن نقلك إلى «أنزلي».

لا بدّ أن تكون سحنتي قد وشت بقلق. ولقد تسلّى جمال الدين بها.

– لا ريب في أنك تقول لنفسك: كيف يمكن أن يوصي بي عند ممثّل للحكومة الفارسية شخص مغضوب عليه؟ ألا فاعلم أن لي تلاميذ في كل مكان، في جميع المدن، وفي جميع الأوساط، وحتى في بطانة الملك بالذات. ولقد كنت وأنا في لندن منذ أربع سنوات أصدر مع صديق أرمني صحيفة كانت تذهب في طرود سريّة صغيرة إلى فارس. ولقد ذُعر الشاه واستدعى وزير البريد وأمره بوضع حدّ لتوزيع هذه الصحيفة مهما يكن الثمن. وطلب الوزير من رجال الجمارك مصادرة جميع الطرود المشبوهة عند الحدود وإرسالها إلى منزله.

وسحب جمال الدين من سيكاره نَفَساً لم تلبث قهقهة أن بدّدته وتابع قائلاً:

– إنّ ما كان الشاه يجهله هو أن وزير بريده كان واحداً من أخلص تلاميذي وأني كنت قد كلّفته بالتحديد قضية نشر الصحيفة بين الناس!

كانت ضحكة جمال الدين لا تزال تلعلع عندما وصل ثلاثة زوّار يعتمرون طرابيش من اللبد الأحمر القاني. ونهض فحيّاهم وقبّلهم ودعاهم إلى الجلوس مبادلاً إياهم بضع كلمات بالعربية. وخمّنت أنه كان يشرح لهم من أنا ويطلب إليهم إمهاله بضع لحظات أخرى، وعاد يتوجّه إليّ.

– إذا كنت عازماً على الذهاب إلى طهران فسأعطيك بعض رسائل التعريف بك. تعالَ غداً فتكون جاهزة. ولا تخشَ شيئاً على أيّ حال، فلن يخطر في بال أحد أن يفتّش أميركياً.

كانت ثلاثة مغلّفات سمراء بانتظاري في اليوم التالي. وأعطاني إيّها بيده مفتوحةً، وكان الأول إلى قنصل باكو والثاني إلى ميرزا رضا. وفيما هو يناولني الثالث قال معلّقاً:

ـ عليّ أن أخبرك بأن هذا الرجل مختلّ موسوس، وأن عليك أن لا تخالطه أكثر مما ينبغي. وأنّي أكنّ له كثيراً من العطف، فهو أصدق تلامذتي وأخلصهم، وأنقاهم أيضاً ولا ريب، غير أنه حقيق بارتكاب أسوأ الحماقات.

وتنهّد ودسّ بيده في جيب البنطلون الرمادي الواسع الذي كان يلبسه تحت جبّته البيضاء:

ـ هذه عشر ليرات ذهبية، أعطه إيّاها عنّي؛ إنه لا يملك شيئاً، وقد يكون جائعاً، غير أنه من العزّة والإباء بحيث لا يتسوّل.

ـ أين يمكنني العثور عليه؟

ـ لا أملك عن ذلك أدنى فكرة. فليس له بيت ولا عائلة، وهو تائه من مكان إلى مكان. ولهذا أحمّلك هذه الرسالة الثالثة إلى شاب آخر، وهذا مختلف عنه تماماً. إنه ابن أغنى تاجر في طهران، ومع أن عمره لا يزيد عن عشرين سنة فإنه متّقد مثلنا جميعاً وسويّ المزاج على الدوام وحاضر للحديث عن أكثر الأفكار ثورية بابتسامة طفل شبعان. وآخذ عليه أحياناً أنه لا يملك كثيراً من مزايا الشرقي. وسوف تلمس أنه يجسّد تحت الثوب الفارسي البرودة الإنكليزية والآراء الفرنسية والفكر المناهض لرجال الدين مناهضة أشدّ من مناهضة السيد كليمنصو. واسمه فاضل. وهو الذي سيقودك إلى ميرزا رضا. فقد كلّفته أن يظلّ ساهراً عليه ما أمكن. ولا أظنه قادراً على منعه من ارتكاب حماقاته، غير أنه قادر على العثور عليه.

ونهضت للذهاب فحيّاني بحرارة وأبقى يده في يدي وهو يقول:

ـ يقول لي روشفور في رسالته إنك تُدعى بنجامين عُمَر. لا تستخدم في فارس إلا بنجامين، ولا تلفظ أبداً كلمة عُمَر.

ـ لكنه مع ذلك اسم الخيّام!

ـ منذ القرن السادس عشر، منذ أن اعتنقتْ فارس المذهب الشيعي أُلغي هذا الاسم من التداول، وقد يجرّ عليك أوخم المضايقات. فالمرء يحسب أنه منتسب إلى الشرق ثم يُلفي نفسه وقد انزجّ في خصوماته.

إنها لتكشيرة أسف وعزاء، وإنها لحركة تنمّ عن العجز. وشكرته على نصيحته واستدرت للخروج، غير أنه استوقفني.

ـ شيء أخير. لقد التقيتَ أمسِ شابة في الوقت الذي كانت تستعدّ فيه للرحيل، فهل كلّمتها؟

ـ لا، لم تُتَحْ لي الفرصة لذلك.

ـ إنها حفيدة الشاه، الأميرة شيرين. فإذا انغلقت في وجهك، لسبب من الأسباب، جميعُ الأبواب فأرسلْ لها رسالة تذكّرها فيها بأنك شاهدتها عندي. وإن كلمة منها لكفيلة بتذليل كثير من العقبات.

29

أنا على متن سفينة شراعية إلى ميناء «طرابزون»، والبحر الأسود هادىء، بل هادىء جداً، والريح قليلة الهبوب، وتُشاهد خلال ساعاتٍ نقطةٌ بعينها من الساحل، والصخرةُ نفسها والأجمةُ الأناضولية ذاتها. ولو شكوت لكنتُ أُجانب الصواب، فقد كنت بحاجة إلى وقت لا ينقضي نظراً للمهمّة العسيرة التي كان عليّ إنجازها: استظهار كتاب مطوّل من محاورات بالفارسية والفرنسية كتبه السيد نيقولا مترجم الخيّام. فقد عاهدت نفسي على مخاطبة مضيفيَّ بلغتهم. وكنت أجهل أن كثيراً من المتعلّمين والتجّار وكبار المسؤولين يتكلّمون في فارس، كما في تركيا، اللغة الفرنسية. وبعضهم يعرف كذلك الإنكليزية، غير أن المرء لو أراد اجتياز دائرة السرايات والمفوّضيّات المحدودة، أو أراد الارتحال خارج كبريات المدن، أو في أحيائها المتواضعة، لكان عليه أن يستعمل اللغة الفارسية.

ونشّطني التحدّي وسلّاني، واغتبطّت لاكتشافي ما بين لغتي والفارسية من تجاذب وتشابه، كما بينها وبين عدد من اللغات اللاتينية. فـ «أب» و«أمّ» و«أخ» و«بنت» بالإنكليزية («Father», «mother», «brother», «daughter») تقال بالفارسية («Pedar», «madar», «bradar», «dokhtar»)، ويصعب تصوير القرابة الهندية الأوروبية خيراً ممّا هي مصوَّرة وحتى لتسمية الله يقول مسلمو فارس «خودا» (Khoda)، وهي لفظة أقرب إلى الإنكليزية (God). والألمانية (Gott) منها إلى لفظة (الله). وعلى الرغم من هذا المثال فإن التأثير السائد يظل تأثير العربية الجاري بطريقة عجيبة: يمكن استبدال كثير من الكلمات الفارسية بطريقة كيفية بمقابلاتها العربية، حتى إن من مظاهر التَنَفُّج الثقافي الأثير جداً لدى المتعلّمين أن يطعّموا أحاديثهم بألفاظ، أو بعبارات كاملة، عربية. وكانت هذه الطريقة حبيبة إلى قلب جمال الدين بخاصّة.

وعاهدت نفسي على تعلّم العربية فيما بعد. وأما في هذا الوقت فكان عليّ أن أبذل قُصارى جهدي لحفظ نصوص السيد نيقولا التي زوّدتني، علاوة على معرفة اللغة الفارسية، بكثير من المعلومات المفيدة عن البلاد. فقد كان المرء يعثر فيها على مثل هذه المحاورة:

ـ «ما المُنتجات الممكن تصديرها من فارس؟

ـ «إنها خُمُر كرمان والجُمان والفيروز والسجّاد وتبغ شيراز، وحرير مزندران، والحرير ومباسم الغلايين المصنوعة من خشب الكرز.

ـ «هل يحتاج المرء إذا كان مسافراً إلى اصطحاب طبّاخ؟

ـ «أجل. فليس في مكنة الإنسان أن يخطو خطوة من غير طبّاخه وسريره وسجّاده وخدمه

ـ «ما هي النقود الأجنبية الرائجة في فارس؟

ـ «الذهبيّات الإمبراطورية الروسية والدوكات الهولندية. وأما النقود الفرنسية والإنكليزية فنادرة جدّاً.

ـ «ماذا يُدعى الملك الحالي؟

ـ «ناصر الدين شاه.

ـ «يقال إنه ملك ممتاز».

ـ «أجل إنه مفرط الرعاية والسخاء للأجانب. وهو غزير العلم يعرف التاريخ والجغرافيا والرسم؛ يتكلّم الفرنسية ويتقن جيّداً اللغات الشرقية: العربية والتركية والفارسية».

عندما وصلت إلى «طرابزون» نزلت في فندق إيطاليا، الفندق الوحيد بالمدينة، وهو مريح إذا وافقنا على نسيان سُحُب الذباب التي كانت تحوّل كل وجبة إلى حركات متواصلة مُخْنِقة. وعليه فقد عزمت على محاكاة سائر النزلاء باستئجار فتى يقوم لقاء دريهمات بالترويح وإزاحة الحشرات. وكان أصعب ما في الأمر إقناعه بإبعادها عن مائدتي من غير أن يسعى إلى سحقها على مرأى مني بين صحون المحشي والكباب. وكان يطيعني إلى حين، غير أنه ما كان يرى ذبابة في متناول آلته الرهيبة حتى يشتدّ الإغراء فيهوي بالضرب.

وفي اليوم الرابع وجدت لي مقعداً على متن باخرة تابعة لشركة «ميسّاجري ماريتيم» كانت تنقل الركّاب على خط مارسيليا ـ القسطنطينيّة ـ طرابزون حتى «باطوم» المرفأ الروسي على شرقي البحر الأسود، ومنه استقللت قطار السكة الحديدية عبر القفقاس. إلى باكو على البحر الكسپي. وكان ترحاب قنصل فارس من اللطف بحيث تردّدت في إطلاعه على رسالة جمال الدين. أوَلَمْ يكن من الأفضل أن أبقى مسافراً نَكِرَو كيلا أوقظ الشكوك؟ غير أني ساورتني بعض الوساوس. فربما كان في الرسالة شيء غير ما يتعلّق به، وما كان من حقي الاحتفاظ بها لنفسي. وبغتة صمّمتُ على القول بنبرة غامضة:

ـ قد يكون لنا صديق مشترك.

وأخرجت المغلّف. وما لبث القنصل أن فضّه بعناية؛ وتناول من فوق مكتبه نظارتين بإطار فضّي وأخذ يقرأ فرأيت أصابعه

ترتجف. ونهض وتوجّه إلى باب الحجرة فأقفله بالمفتاح ووضع شفتيه على الرسالة وبقي لحظات على هذا النحو وكأنه في حالة خشوع. ثم أقبل يحتضنني وكأني أخ أُنقذ من الغرق.

وإذ استعاد تقريباً سحنته فقد استدعى خدمه وأمرهم بحمل حقيبة متاعي إلى بيته وإنزالي في أجمل غرفة وتحضير مأدبة للمساء. واستبقاني عنده على هذه الحال يومين مهملاً كل عمل للبقاء معي وسؤالي بلا انقطاع عن السيد وصحّته ومزاجه وعمّا يقوله على الأخصّ عن الوضع في فارس. وعندما حان موعد رحيلي استأجر لي قمرة في باخرة ركّاب روسية تابعة لشركة خطوط «القفقاس وعُطارد» ثم عهد بي إلى حوذيّه وأمر باصطحابي حتى قزوين والبقاء إلى جانبي ما دمت بحاجة إلى خدماته.

وتبيّن على الفور حذق الحوذي في تدبّر الأمور، بل بدا في أغلب الأحيان أنه لا بديل عنه. فلم أكن لأُحسن دسّ بعض النقود في يد ذلك الجمركي المزهوّ بشاربيه كي يتنازل إلى التخلّي عن مبسم «قليانه» ويُقبل لمعاينة حقيبتي الضخمة من صُنع «ولزلي». وكان هو أيضاً الذي فاوض إدارة المواصلات للحصول فوراً على عربة بأربعة خيول في حين كان الموظّف يدعونا بإلحاح إلى العودة في اليوم التالي، وكان صاحب حانة كريه ـ وهو شريكه ما في ذلك من ريب ـ قد بدأ يعرِض علينا خدماته.

وتعزّيت عن جميع مشقّات الطريق هذه بالتفكير في رتل الرحّالين الذين سبقوني. فقبل ثلاثة عشر عاماً لم يكن من الممكن بلوغ فارس إلا بطريق القوافل القديمة المفضية ابتداء من «طرابزون» إلى «تبريز» عبر «أرض روم»، وهي أربعون مرحلة في ستة أسابيع مُنْهِكة التكاليف، بل خطرة جداً أحياناً بسبب الحروب القبلية التي لا تتوقّف. ولقد قلب القطار عابر القفقاس نظام الأشياء هذا وفتح فارس على العالم، وبات بالإمكان بعد ذلك

الوصول إلى هذه الإمبراطورية بلا خطر ولا انزعاج يُذكر، بالباخرة من «باكو» إلى ميناء «أنزلي»، ثم في أسبوع على الطريق الصالح لسير العربات حتى طهران.

المدفع في الغرب آلة حرب أو آلة استعراض؛ وهو فوق هذا وذاك آلة للتعذيب في فارس. وإذا تحدثت عن هذا فلأني عندما بلغت سور طهران الدائري واجهني منظر مدفع يُستخدم أفظع استخدام: لقد وضع في فوهته العريضة رجل موثَق لم يكن يبدو منه غير رأسه الحليق. وكان عليه أن يظل هنا في الشمس بلا غذاء ولا ماء إلى أن يدركه الموت؛ وحتى بعد ذلك كانت العادة، على ما روي لي، أن يُترك الجثمان طويلاً معروضاً على الملأ ليكون عِبرة، وليوحي بالصمت والهلع إلى جميع الذين يجتازون أبواب المدينة.

أتكون هذه الصورة الأولى هي التي قلّلت من سحر حاضرة فارس في نفسي؟ فالمرء يبحث في مدن الشرق عن ألوان الحاضر وظلال الماضي. ولم أقارب شيئاً من هذا في طهران. فما الذي رأيته فيها؟ طرقاً واسعة لربط موسري أحياء الشمال بفقراء أحياء الجنوب؛ وسوقاً كبرى عاجّة ولا شكّ بالجِمال والبغال والأقمشة المرقّشة، ولكنها لا تحتمل أبداً المقارنة بأسواق القاهرة والقسطنطينية وأصفهان وتبريز. وحيثما حطّ النظر فهناك عدد لا يُحصى من الأبنية الكالحة.

إن طهران جديدة جدّاً، ولا تملك إلّا قليلاً جدّاً من التاريخ فطالما كانت ربضاً مغموراً من أرباض الرَّيّ حاضرة العلماء الشهيرة التي دمّرها المغول. وما كانت إلا نهاية القرن الثامن عشر حين استولت قبيلة تركمانية، قبيلة الكداريين، على ذلك المكان. وإذ نجحت السُلالة في إخضاع فارس برمّتها لحكم سيفها فقد رفعت ملاذها المتواضع إلى درجة الحاضرة. وكان مركز البلاد

السياسي حتى ذلك الحين أبعد إلى الجنوب، في أصفهان أو كرمان أو شيراز. ولعلّ أقلّ ما يُقال إن سكان تلك المدن كانوا يفكّرون في ما هو أسوأ من شنق أولئك «الشماليين الجُفاة» الذين يحكمونهم ويجهلون حتى لغتهم. ولقد احتاج الشاه الحاكم لدى تسلّمه زمام السلطة إلى ترجمانٍ ليتمكّن من مخاطبة رعاياه. ويبدو مع ذلك أنه قد اكتسب مذّاك معرفة جيدة بالفارسية.

وينبغي القول إن الزمان لم يَخُنْه. فلدى وصولي إلى طهران في نيسان (ابريل) 1896 م كان ذلك العاهل يتهيّأ للاحتفال بيوبيله، بعامه الخمسين في الحكم. وكانت المدينة مزيّنة لهذه المناسبة بالأعلام الوطنية الحاملة علامة الأسد والشمس، وقد حضر الأعيان من جميع الأقاليم، وتحرّكت بعثات أجنبية كثيرة، وعلى الرغم من إيواء معظم المدعوين الرسميين في داراتٍ فقد كان الفندقان الأوروبيان، فندق «ألبير» وفندق «پريڤو»، غاصّين على غير عادتهما بالنزلاء. ولقد وجدت بعد لأيٍ غرفة في الأخير منهما.

وخطر في بالي أن أذهب على الفور إلى فاضل وأسلّمه الرسالة وأسأله عن كيفية الاتّصال بميرزا رضا، غير أني قمعت نفاد صبري. فإذا لم أكن أجهل عادات الشرقيين فقد كنت أعلم أن تلميذ جمال الدين سيدعوني للنزول في بينه؛ وما كنت لأرغب في أهانته برفضي ولا في المجازفة بحشر نفسي في نشاطه السياسي، أو قل أكثر من ذلك، في نشاط سيّده.

وعليه فقد أقمت في فندق «پريڤو» الذي يديره شخص من جنيف. وفي الصباح استأجرت فرساً عجوزاً للذهاب، يا للمجاملة المفيدة، إلى المفوضية الأميركية في بولڤار السفراء، ثم إلى تلميذ جمال الدين الأثير. ولقد طابق فاضل بشاربيه الدقيقين وجبّتة الطويلة البيضاء وطريقته المهيبة في رفع رأسه، طابق بوجه الإجمال الصورة التي صوّرها لي منفيُّ القسطنطينية.

ولسوف نغدو أفضل صديقين في العالم. غير أن اللقاء الأول كان فيه بعض الكلفة، إذ أزعجني كلامه الصريح المباشر وأقلقني. كما عندما تحدّثنا عن ميرزا رضا.

– سأبذل ما في وسعي لمساعدتك، غير أني لا أريد التعاطي مع هذا المجنون. لقد قال لي السيّد إنه شهيد حيّ. وأجبت: كان من الخير لو أنه مات! لا تنظر إليّ هكذا فلست وحشاً، إلا أن هذا الرجل قاسى من العذاب ما شوّه عقله؛ ففي كل مرّة يفتح فيها فمه يضرّ بقضيّتنا.

– وأين هو اليوم؟

– يعيش منذ أسابيع في مزار شاه عبد العظيم طائفاً بالحدائق أو جائلاً في الممرّات بين الأبنية متحدّثاً إلى الناس عن اعتقال جمال الدين، حاضّاً إيّاهم على قَلْب المِلك، مخبراً عن آلامه هو، صارخاً مشوّراً. ولا ينفكّ يُردّد أن السيد جمال الدين هو إمام الزمان على الرغم من أن المعنيَّ كان قد منعه من التلفّظ بأقوال في مثل هذا الهراء. ولست راغباً حقّاً في أن يراني الناس بصحبته.

– إنه الشخص الوحيد القادر على إخباري أخبار «المخطوط».

– أعلم، وسوف أقودك إليه، إلا أني لن أبقى معك دقيقة واحدة.

في ذلك المساء أقام والد فاضل، وهو من أغنى أغنياء طهران، مأدبة عشاء على شرفي. وإذ كان صديقاً قريباً لجمال الدين، على الرغم من بُعده عن كل نشاط سياسي، فقد أصرّ على تكريم السيّد بشخصي؛ ولقد دعا زهاء مئة شخص. ودار الحديث عن الخيّام فكانت الرباعيات والنوادر تنطلق من جميع الأفواه، وتحتدم المناقشات مُفضية في أغلب الأحيان إلى السياسة؛ وبدا

أن الجميع يتعاطَوْن بمهارة الفارسية والعربية والفرنسية، وكان معظمهم يملكون بعضاً من مبادىء التركية والروسية والإنكليزية. وكان شعوري بجهلي يزداد كلما أجمعوا على اعتباري مستشرقاً كبيراً ومتخصِّصاً بـ «الرباعيات»، وهو تقدير مفرط في الغلوّ، بل يتجاوز كل حدّ، غير أنه كان عليَّ أن أبادر إلى عدم تكذيبه مُذْ بدت احتجاجاتي وكأنها علامة على التواضع الذي هو، كما يعلم الجميع، آية من آيات العلماء الحقيقيين.

ولقد بدأت الأمسية مع مغيب الشمس، بيد أن مضيفي كان قد أصرّ على حضوري قبل ذلك؛ وكان يرجو أن يُريني ألوان بستانه. فحتى لو كان الفارسي يملك قصراً كالذي يملكه أبو فاضل، فإنه قلّما يُطلِع عليه الزوّار ويهمله على حساب البستان موضع فخره الأوحد.

وما إن كان الزوّار يحضرون حتى يتناولوا أقداحهم ويجلسوا بالقرب من مجاري المياه الطبيعية أو الاصطناعية المتلوّية بين أشجار الحَوْر. وكان الخدم يسارعون إلى فرش البُسُط أو إلقاء الطنافس في المكان المختار وفقاً لإيثار الزوّار طريقة الجلوس، إلا أن بعضهم كانوا يفضّلون صخرة أو الأرض الجرداء؛ ولا تعرف بساتين فارس النجيل، الأمر الذي يجعلها تبدو لعيْنَيِ الأميركي جرداء.

لقد شرب الناس في ذلك المساء باعتدال. واكتفى أكثرهم ورعاً بالشاي. وكان سماور ضخم يتجوّل بينهم يواكبه ثلاثة من الخدم، اثنان لحمله والثالث للتقديم. وفضّل كثيرون العرق أو الفودكا أو النبيذ، بيد أني لم ألحظ أيّ تصرّف منافٍ للياقة، فكان أشدّ الشاربين ثملاً يكتفون بمصاحبة الموسيقيين الذين استأجرهم ربّ البيت بصوت خافت، وكانوا عازفاً على «الطار»

وناقراً ماهراً على «الضرب» وزامراً بالناي. وحضر فيما بعد الراقصون، ومعظمهم من الفتيان. فما ظهرت أي امرأة طوال الحفل.

لم يقدّم العشاء إلا قرب منتصف الليل. ولقد اكتفى الحاضرون طوال السهرة بالفستق واللوز والبزر المملّح وأنواع الحلوى، ولم يكن العشاء إلا إيذاناً بانتهاء الاحتفال. وكان على المضيف تأخيره ما أمكن، إذ ما إن يُقدَّم الطبق الأساسي، وكان ذلك المساء «جواهر پولو» (أرزّ بالجواهر)، حتى يلتهمه كل مدعوّ في عشر دقائق ويغسل يديه ويذهب. وكان الحوذيون وحَمَلة الفوانيس متجمّعين عند الباب لدى خروجنا لكي يتلقّى كل واحد سيّده.

في فجر اليوم التالي صحبني فاضل في عربة إلى باب مزار شاه عبد العظيم. ودخله عائداً ومعه رجل رثّ الهيئة: طويل شديد الهزال كثّ اللحية مرتعش اليدين بلا انقطاع. وكان يلبس ثوباً طويلاً أبيض ضيّقاً مرقّعاً ويحمل كيساً حائل اللون والشكل يحتوي على كل ما يملكه بعدُ في هذه الدنيا. وكان من الممكن أن يقرأ المرء في عينيه كل ما يعاني الشرق من ضيق.

وعندما علم أني قادم من عند جمال الدين جثا على ركبتيه وتشبّث بيديَّ يمطرهما بالقُبَل. وإذ ضاق فاضل ذرعاً بالأمر فقد غمغم باعتذار وابتعد.

ناولت ميرزا رضا رسالة السيّد. وانتزعها على وجه التقريب من يدي، ومع أنها كانت تحتوي على عدّة صفحات فقد قرأها بأسرها من غير عجل ناسياً تماماً وجودي.

وانتظرت أن يفرغ منها لأحدّثه عمّا يشغل اهتمامي. ولكنه قال لي عندها بمزيج من الفارسية والفرنسية صَعُبَ عليّ فهمه.

ـ الكتاب مع جندي من مواليد كرمان، وهي أيضاً مدينتي. وقد وعد بالمجيء لرؤيتي هنا بالذات بعد غدٍ الجمعة. وينبغي إعطاؤه قليلاً من المال. لا لشراء الكتاب منه، وإنما لشكره على أنه استعاده. ولست أملك ويا للأسف قطعة نَقْد واحدة.

ومن غير أن أتردّد أخرجت له من جيبي الذهب الذي أرسله إليه جمال الدين؛ وأضفت إليه مبلغاً مماثلاً؛ وبدا راضياً.

ـ ارجع يوم السبت. وإذا شاء الله سيكون «المخطوط» معي فأعهد به إليك وتسلّمه إلى السيّد في القسطنطينية.

30

كانت تتعالى من المدينة النعسانة أصوات تكاسل، وكان الغبار ساخناً متلألئاً في ضوء الشمس، وكان يوماً فارسياً متبلّداً، وكنت قد تناولت وجبة مؤلّفة من فراريج بالمشمش ونبيذاً طازجاً من شيزار وقِلت قيلولة كاذبة على شرفة غرفتي بالفندق تحت مظلّة حالت ألوانها وفوق وجهي فوطة مبلّلة.

غير أن حياة كانت ستنتهي مع غسق ذلك اليوم الأول من أيار (مايو) 1896 م، وأخرى كانت ستبدأ بعده.

إنه قرع متكرّر وحانق على بابي. وخلصت إلى سماعه فتمطّيت وأجفلت وهرعت حافي القدمين ملبّد الشعر مرتخي الشارب مرتدياً جلباباً فضفاضاً كنت قد اشتريته أمس. ووجدت أصابعي الرخوة صعوبة في فتح المزلاج. ودفع فاضل الباب وأزاحني لإعادة إغلاقه وهزّني من كتفيّ.

– استيقظ، ستكون بعد ربع ساعة في عداد الأموات!

ولسوف يعرف العالم أجمع مُذْ غدٍ بفضل سحر التلغراف ما أخبرني به فاضل في بضع عبارات معلوكة.

كان الملك قد ذهب ظهراً إلى مزار شاه عبد العظيم لصلاة الجمعة. وكان يرتدي الثوب الذي خيط بمناسبة يوبيله موشىً

بخيوط الذهب ومزيّن الحواشي بالفيروز والزمرّد، ويعتمر قلنسوة من الريش. واختار فضاء لصلاته في قاعة المزار الكبرى ففُرشت سجّادة تحت قدميه. وقبل أن يجثو بحث بعينيه عن نسائه وأشار إليهن بأن يصطففن خلفه، ومسّد شاربه الطويل الدقيق الأبيض الشعر تخالطه انعكاسات زرقاء، في حين تهالك حشد من المؤمنين والمشايخ بذل الحرس ما وَسِعَهم للسيطرة عليهم. وكانت لا تزال تترامى من الصحن الخارجي بعض الهتافات. وتقدّمت نساء الملك. وانسلّ من بينهنّ رجل يلبس مدرّعة من الصوف على طريقة الدراويش ويمسك بورقة مدّ بها يده.. ووضع الشاه نظارتيه لقراءتها. وفجأة دوّى صوت طلق ناري. وكان المسدس مخبوءاً تحت الورقة. وأُصيب العاهل في صميم قلبه. غير أنه استطاع أن يهمس: «أعينوني»، قبل أن يَهوي إلى الأرض.

وكان رئيس الوزراء أول من تمالك نفسه من بين الجموع فصرخ: «لا بأس، إنه جرح طفيف!» وأمر بإخلاء القاعة ونقل الشاه إلى العربة الملكية. وأخذ يروّح طَوال الطريق إلى طهران على الجثّة الجالسة على المقعد الخلفي وكأنها ما زالت تتنفّس. وبانتظار ما سيكون استدعى وريث العهد من تبريز التي كان عاملاً عليها.

وفي المزار كانت أزواج الشاه يُحاصِرْن القاتل ويَكِلْنَ له الشتائم ويَنْهَلْنَ عليه ضرباً، ونزعت عنه الحشود ثيابه وأوشك أن يُقطّع إرباً لو لم يتدخّل الكولونيل كاساكوفسكي قائد الكتيبة القوزاقية لإنقاذه. أو بالحري لإخضاعه لاستجواب أوّليّ. والعجيب أن سلاح الجريمة كان قد اختفى. ويقال إن امرأة قد التقطته وأخفته تحت نقابها، وأنه لم يُعثر لها على أثر بعد ذلك. وفي مقابل هذا صودرت الورقة التي استُخدمت لإخفاء المسدس.

ولقد جنّبني فاضل بالطبع جميع هذه التفاصيل وكان قوله مقتضباً:

ـ لقد قتل ذلك المجنون ميرزا رضا الشاه. وقد عُثر معه على رسالة جمال الدين. واسمك مذكور فيها. احتفظ بثوبك الفارسي وخذ مالك وجواز سفرك. لا شيء غير ذلك. واجْرِ إلى المفوضية الأميركية ولُذْ بها.

كان أول ما خطر ببالي هو «المخطوط». أيكون ميرزا رضا قد استعاده في ذلك الصباح؟ والحقّ أنني لم أكن قد قِسْتُ بعدُ مدى خطورة موقفي: التواطؤ لقتل رئيس دولة، أنا الذي جاء إلى الشرق الخاصّ بالشعراء! ومع ذلك فقد كانت المظاهر في غير مصلحتي، مضلِّلة كاذبة غير معقولة، إلا أنها مُضْنِية. فأي قاضٍ، بل أي مفوَّض شرطة لا يرتاب بي؟

كان فاضل يترصّد من الشرفة؛ وانخفض فجأة ليصيح بصوت أبحّ:

ـ لقد وصل القوزاقيون، وهم يقيمون الحواجز حوالي الفندق!

وهبطنا السلّم ركضاً، وما إن بلغنا الردهة حتى استعدنا مشية أكثر حشمة وأقلّ إثارة للريبة. وكان قد دخل للتوّ ضابط أشقر اللحية غائص القلنسوة وعيناه تمسحان خبايا المكان. وبشقّ النفس وجد فاضل ما يكفي من الوقت ليهمس لي: «إلى المفوضية!» ثم انفصل عني واتّجه صوب الضابط، وسمعته يلفظ «پالكوفنيك» ـ كولونيل! ـ ورأيتهما يتصافحان بشكل رسمي ويتبادلان بعض عبارات التعزية. فكثيراً ما تعشى كاساكوفسكي عند والد صديقي، الأمر الذي وفّر لي مهلةَ بضعِ ثوانٍ. وانتهزتها لحثّ الخطى صوب المخرج متلفّعاً بعباءتي والانسلال إلى الحديقة التي كان القوزاقيون منهمكين في تحويلها إلى موقع محصّن. ولم

يزعجوني. فإذا كنت قد أقبلت من الداخل فقد افترضوا أن قائدهم تركني أَمُرّ. وعليه فقد اجتزت السياج متّجهاً إلى الزقاق المُفضي على يميني إلى بولڤار السفراء، وما هي إلا عشر دقائق حتى كنت في مفوّضيتي.

كان ثلاثة جنود متمركزين عند مدخلَ زقاقي. فهل كنت سأمرّ من أمامهم؟ ولمحت على اليسار زقاقاً آخر. وقلت لنفسي إنه من الخير عبوره حتى وإن اقتضى الأمر الرجوع إلى الجهة اليمنى. وتقدّمت على هذا متحاشياً النظر باتّجاه الجنود. وما هي إلا بضع خطوات فلا أراهم ولا يرونني.

قِفْ!

ما العمل؟ أأتوقّف؟ لسوف يكتشفون من أول سؤال يطرحونه أني أكاد أتكلم الفارسية ويطلبون مني إبراز أوراقي ويعتقلونني. أأهرب؟ إنهم لن يعجزوا عن إدراكي فأكون قد تصرّفت تصرفَ مُذنبٍ ولا أستطيع حتى الدفاع عن نفسي بإثبات حسن نيّتي. ولم يكن أمامي سوى جزء من الثانية للتفكير.

وقرّرت متابعة طريقي من غير استعجال وكأنني لم أسمع. ولكنْ ها هي ذي زعقة جديدة، وبنادق تُعَدُّ للإطلاق، وخطوات. ولم أعد أفكّر، وركضت خلال الأزقة من غير أن ألتفت ورائي، وألقيت بنفسي في أضيق المعابر وأشدّها ظلمة، وكانت الشمس قد غابت ولن يلبث أن يعمّ الظلام بعد نصف ساعة.

وكنت أبحث في ذهني عن دعاء أتلوه؛ ولم أتمكّن أن أردّد سوى: «الله، الله، الله» في شكوى ملحّة وكأنني كنت قد متّ وأخذت أقرب على باب الجنّة.

وانفتح الباب. باب الجنّة. باب صغير مَخفيّ في جدار ملطّخ بالوحل. انفتح عند زاوية أحد الشوارع ولامست يدٌ يدي فتشبّثت بها وسحبتني إليها وأغلقت الباب خلفي. واحتفظت بعينيّ

مُغْمَضَتَيْن خوفاً وانبهارَ أنفاسٍ وعدمَ تصديقٍ وسعادةً. وطالت في الخارج عملية التخييل ذهاباً وإياباً.

كانت ثلاثة أزواج من العيون الضاحكة تتأملني، ثلاث نساء ملفوفات الشعور سافرات الوجوه كنّ يحتضنّني بنظراتهنّ وكأنني وليد. وأشارت إليّ أكبرهنّ، في حدود الأربعين، أن أتبعها. وكان في آخر البستان الذي حططت فيه رحالي كوخ صغير أجلستني داخله على كرسي من الخيزران واعدة إيّاي بحركة من يدها بأنها ستعود لتخليصي. وطمأنتني ببرطمة وبكلمة سحرية: «أندرون» (بيت داخلي). ولن يأتي الجنود للتفتيش حيث تقيم النساء!

والحقّ أن جلبة الجنود ما كانت تقترب إلا لتبتعد من جديد قبل أن تتلاشى. ومن أين لهم أن يعلموا في أيّ زقاق من الأزقّة استطعت أن أتبخّر؟ لقد كان الحيّ رُكاماً مصنوعاً من عشرات الممرّات ومئات البيوت والبساتين. وكانت الدنيا قد أدغشت.

وما هي إلا ساعة حتى حُمل إليّ شاي أسود ولُفّت لي بعض السكاير ودار حديث. وببضع عبارات فارسية متمهّلة، وبضع كلمات فرنسية، شُرح لي ما أدين إليه بسلامتي. كان قد ذاع في الحي أن شريكاً لقاتل الشاه موجود في فندق الغُرباء. وإذ رأينني أهرب فقد أدركن أني كنت المذنب البطل وأردنَ حمايتي. وأسباب تصرّفهنّ؟ كان زوج إحداهن وأبو الأُخرَيَيْن قد أعدم قبل خمسة عشر عاماً متّهماً ظُلماً بالانتماء إلى طائفة منشقّة، طائفة «البابيين» الذين كانوا يدعُون إلى إلغاء تعدّد الزوجات وإلى المساواة التامّة بين الرجال والنساء وإقامة نظام ديمقراطي. وكان قمعها، بقيادة الشاه ورجال الدين، دامياً، وقد ذُبح، علاوة على عشرات الآلاف من «البابيين»، كثير من الأبرياء لمجرّد وشاية من أحد الجيران. وإذ بقيت المُحسِنة إليّ وحدها مع ابنتين صغيرتين

فإنها لم تكن لتنتظر غير ساعة الانتقام. واعتبرت النساء الثلاث أن شرفاً عظيماً قد لحقهنّ بنزول المنتقم البطل في بستانهنّ المُتواضع.

عندما يرى المرء نفسه بطلاً في أعين النساء فهل يرغب حقاً في تكذيبهن؟ لقد أدركت أنه من غير اللائق، بل من الحُمْق، تخييب أملهنّ. فقد كنت بحاجة في معركتي الصعبة من أجل البقاء إلى أولئك الحليفات، وإلى اندفاعهنّ وشجاعتهنّ، وإلى إعجابهنّ غير المسوَّغ. وعليه فقد لُذْت بصمت طلسميّ أزاح من نفوسهنّ آخر الشكوك.

ثلاث نساءٍ وحديقةٌ وازدراءٌ يُدخِل على النفس الطمأنينة، وإني لأستطيع أن أعُدَّ إلى ما لا نهايةٍ الأيام الأربعين غير الحقيقية في ذلك الربيع الفارسي القائظ. وإنه ليصعب على المرء أن يكون غريباً أكثر من ذلك، لا سيّما في عالم نساء الشرق حيث لم يكن لي أدنى مكان. ولم تكن مُحْسِنتي تجهل شيئاً من الصعوبات التي زجّت نفسها فيها. وإني لواثق من أنها كانت في الليلة الأولى وأنا نائم داخل الكوخ في آخر البستان، ممدّداً على ثلاث حصر مكدّسة، فريسة لأشد أنواع الأرق، لأنها استدعتني منذ الفجر وأجلستني متربّعاً إلى يمينها، وأجلست ابنتيها إلى يسارها، وخطبت فينا خطبة كَدَّتِ الذهن في إعدادها.

بدأتْ بامتداح شجاعتي، وكرّرت فرحتها باستقبالي. وبعد أن راعتِ الصمت بضع لحظات شرعت بغتة بفكّ أزرار ثوبها على مرأى من عينيّ الحائرتين. وتضرّج وجهي وحوّلت بصري إلّا أنها جذبتني إليها. وكان كتفاها عاريتين، وكذلك كان ثدياها. وبالكلام والإشارة دعتني إلى الرضاعة منهما. وضحكت الفتاتان ضحكاً مكتوماً، غير أن الأم كانت تجدّ جِدّ طقوس التضحية. وصدعت بالأمر واضعاً شفتيّ بأشد ما يكون من حياء على طرف

أحد الثديين ثم على طرف الآخر. وعندها عادت تستر نفسها من غير تعجّل قائلة بأكثر النبرات احتفالاً:

– لقد أصبحت بهذه الحركة ابني، وكأنك قد وُلدت من لحمي.

ثم التفتت إلى ابنتيها، وكانتا قد توقّفتا عن الضحك، وأخبرتهما بأن عليها أن تتصرّفا معي بعد اليوم وكأني أخوهما الشقيق.

ولقد بدت لي الحفلة في لحظتها مثيرة وإن مُضْحِكة. ومع ذلك فإنني اكتشفت فيها وأنا أعيد التفكير بها جميع فِطنة الشرق. فالحقّ أن وضعي كان مزعجاً جدّاً بالنسبة إلى تلك المرأة. ولم تتردّد في أن تمّد لي يد العون والإنقاذ مجازفة بحياتها، وقدّمت لي ضيافة أبعد ما تكون عن الخضوع لأي شرط. وفي الوقت نفسه، لم يكن وجود غريب، ذَكَرٍ شابّ، بجوار ابنتيها ليلَ نهارَ إلا ليثير في يوم من الأيام ما لا تُحمد عُقباه. فهل كان هناك، لتذليل هذه العقبة، أفضل من عملية التبنّي الرمزي؟ ولقد أصبح في مُكنتي مُذّاك أن أجول في البيت على هواي، وأن أنام في الغرفة نفسها، وأن أطبع قبلة على جبين «أختيّ»، فقد كان يعصمنا جميعاً ويثبّتنا وَهْمُ التبنّي.

قد يُحسّ أشخاص غيري بالوقوع في شَرَك هذا الإخراج. وأما أنا فإنّي شعرت، على العكس من ذلك، بالتمكّن والاطمئنان. فَلأنْ أجد نفسي، وقد هبطتُ في كوكب خاصّ بالنساء، لاهياً بدافع الفراغ والبلبال في عقد علاقة عابرة بإحدى المضيفات الثلاث؛ وأن أتفنّن رويداً رويداً في تجنّب الأُخرَيَيْن، وفي خداع يقظتهما، وفي استبعادهما؛ وأن أجرّ على نفسي بالضرورة عداوتهما؛ وأن ألفي نفسي بالذات مُبْعَداً مرتبكاً نادماً على إزعاج نساء لم يكنَّ لي إلا عوناً من السماء وإيلامِهِنَّ

وتخييب أملهنّ، فذاك تصرّف لا ينسجم كثيراً ومزاجي. وبعدُ فإنه ما كان لي قطّ أن أتدبّر، بذهن الغربيّ الذي أملكه، ما تمكّنت هذه المرأة من العثور عليه في ترسانة دينها الزاخرة أبداً بالوَصَفات.

وكأنما بمعجزة غدا كل شيء بسيطاً وصافياً ونقيّاً. ولو قلت إن الرغبة قد ماتت فإني أكون كاذباً، فكل شيء في علاقاتنا كان جسدياً للغاية، وكان مع ذلك، أكرّر القول، نقيّاً للغاية. وهكذا عشت في حميميّة هؤلاء النسوة بلا حُجُب ولا حياء مفرط، وفي قلب مدينة ربّما كنت فيها أكثرَ الناسِ مُلاحقةً، لحظاتٍ غيرَ مبالية من السلام والطمأنينة.

وبتراجع الزمن إلى الوراء أنظر إلى إقامتي بين أولئك النسوة وكأنها لحظة ممتازة لولاها لبقي انخراطي في الشرق مبتوراً أو سطحياً. فإليهنّ يرجع الفضل في التقدّم الكبير الذي أحرزته في فهم الفارسية الدارجة واستخدامها. وإذا كانت مضيفاتي قد بذلن في اليوم الأول جهداً مشكوراً في استجماع بضع كلمات فرنسية فإن محادثاتنا دارت كلّها فيما بعد بلغة البلاد. محادثات حامية أو فاترة، ناعمة أو فجّة، بل بذيئة في كثير من الأحيان لأنه كان لي أن أستبيح كل شيء بوصفي الأخ الأكبر ما دمت خارج حدود المحرَّمات بين المحارم. فكلّ ما هو مزاح مرخَّص به، بما في ذلك المظاهر التمثيلية العاطفية.

هل كانت التجربة تحتفظ بكلّ سحرها لو طالت؟ لن أعلم ذلك أبداً. ولست مصرّاً على أن أعلمه. ووقع حدث، مُتَوَقَّع جداً ويا للأسف، فوضع حدّاً لها. زيارة عاديّة جدّاً، زيارة الجَدَّيْن.

كنت أظلّ في العادة بعيداً عن المداخل، مدخل الـ «بيروني» المفضي إلى مسكن الرجال، وهو الباب الرئيسي، ومدخل البستان الذي منه دخلت. وكنت أتوارى من أول إنذار يُطْلَق. ولم أسمع

هذه المرة، من اللامبالاة أو من فرض الاعتداد بالنفس، صوت مقدم الزوجين العجوزين. وكنت متربّعاً في غرفة النساء أدخّن منذ ساعتين كاملتين «قلياناً» أعدّته لي «أختاي»، وقد أغفيت في مكاني والخرطوم في فمي ورأسي مُسْنَد إلى الجدار، عندما استيقظت مُجْفِلاً على سُعالٍ ضعيف صادر عن رجل.

31

كان على أمي بالتّبنيّ، وقد وصلت متأخّرة بضع ثوانٍ، أن تفسِّر سريعاً وجود ذَكَر أوروبي داخل الغرف الخاصة بها. وآثرت أن تقول الحقيقة بنبرة اختارتها أشدّ النبرات تعبيراً عن الوطنية والغلبة على أن تثلم سمعتها أو سمعة ابنتيها. من كان ذلك الغريب؟ لم يكن إلا «الفرنجي» الذي تبحث عنه الشرطة، شريك الذي قتل الطاغية وانتقم بذلك لزوجها الشهيد!

وانقضت لحظة من الحيرة، ثم صدر الحكم. فانهالت التهاني عليّ وامتُدحت شجاعتي كما امتُدحت شجاعة راعيتي. والحقّ أن تفسيرها كان التفسير السائغ الوحيد تجاه موقف بمثل هذا القدر من عدم اللياقة. فعلى الرغم من أن جلستي المسترخية في قلب الـ «الأندرون» كانت عُرضة للشُبهة فقد كان بالإمكان تسويغها بضرورة التواري عن الأنظار.

لقد سلِم الشرف إذن، ولكن بدا واضحاً مذّاك أنه كان عليّ أن أرحل. وكان أمامي سبيلان. وكان خيرهما أن أخرج متنكّراً في ثوب امرأة فأسير إلى المفوّضية الأميركية؛ أي أن أتابع بالاختصار الطريق الذي كان قد انقطع قبل بضعة أسابيع. بيد أن «أمّي» ثَنَتْني عن ذلك. فقد تأكّد لها بعد أن قامت بجولة

استكشاف أن جميع الأزقّة المؤدية إلى المفوضيّة كانت مراقبة. وعِلاوة على ذلك فإن تنكّري في ثياب امرأة فارسية، أنا الطويل القامة (مترٌ وثلاثة وثمانون)، ما كان ليخدع أيّ جندي مهما بلغ من قلّة الملاحظة.

وكان الحلّ الثاني هو إرسال نداء استغاثة إلى الأميرة شيرين حسب وصيّة جمال الدين. وأخبرت «أمّي» بالأمر فوافقتني عليه؛ وكانت قد سمعت بحفيدة الشاه القتيل - ويُقال إنّها ترثي لحال المساكين والفقراء - فعرضتْ أن تحمل إليها رسالة. وكانت المشكلة هي العثور على كلمات أستطيع مخاطبتها بها وتكون واضحة من غير أن تفضح أمري لو قُدّر لها أن تقع في أيدٍ غريبة. ولم يكن في وسعي ذكر اسمي ولا اسم السيد. وعليه فقد اكتفيت بأن أكتب في ورقة العبارة الوحيدة التي لم تقل لي غيرها: «من يدري، قد يتقاطع طريقانا!».

كانت «أمّي» قد عزمت على الاقتراب من الأميرة خلال أسبوع الأربعين على موت الشاه، آخر حلقة في سلسلة المآتم. ولم تجد صعوبة، وسط هرج المتسكّعين والنوادب اللائي يعلو وجوههنّ السخام، في تمرير الرسالة من يد إلى يد؛ وقرأتها الأميرة وبحثت بعينها مذعورة عن الرجل الذي كتبها؛ وهمست لها رسولي: «إنّه عندي!» وللحال تركت شيرين المأتم ونادت حوذيّها وأجلست «أمّي» إلى جانبها. وتوقّفت العربة المزيّنة بالشعارات الملكية أمام فندق «بريفو» منعاً لإثارة الشكوك، وتابعت المرأتان المتنكّرتان خلف نقابيهما الصفيقين سيراً على الأقدام.

وتكشّف لقاؤنا عن زيادة في ذلاقة اللسان كادت تجاوز ما كان منها في لقائنا الأول. ورازتني الأميرة بنظراتها وعلى طرفي شفتيها ابتسامة. وأمرت بغتة:

- غداً يأتي حوذيّي في الفجر لإحضارك فكن مستعداً، تلفّح بوشاح وسِرْ مطأطئاً.

كنت مقتنعاً بأنها سوف تقودني إلى مفوّضيتي. إلا أنني أدركت خطأي عندما اجتازت عربتها باب المدينة. فقد أوضحت قائلة:

- كان بإمكاني في الواقع أن أقودك إلى الوزير الأميركي، وكنت ستكون بأمان، غير أن أحداً ما كان ليجد صعوبة في معرفة كيفية وصولك إليه. وحتى وإن كان لي بعض النفوذ من انتمائي إلى الأسرة «القدارية» فإنه ليس في وسعي استخدامه لحماية من هو في ظاهر الأمر شريك لقاتل الشاه. وكنت سأضايَق، وكان من السهل الوصول عبري إلى النساء الطيّبات اللائي تلقّيْنَك بالترحاب. وما كان ليسرّ مفوّضيّتك أبداً أن تحمي رجلاً متّهماً بمثل هذه الجريمة. صدّقني أنه من الخير لجميع الناس أن تغادر فارس. سوف أقودك إلى أحد أخوالي، إنه أحد زعماء البختياريين، ولقد جاء مع محاربي قبيلته لحضور أسبوع الأربعين. وقد كشفت له عن هُويّتك وأكّدت له براءتك، إلّا أن رجاله ينبغي ألّا يعلموا شيئاً. ولقد تعهّد بمواكبتك حتى الحدود العثمانية بطرق لا تعرف القوافل بوجودها. إنه ينتظرنا في قرية شاه عبد العظيم. هل معك نقود؟

- أجل. لقد أعطيت مئتي تومان لمنقذاتي، ولكني احتفظت لنفسي بحوالي أربعمئة.

- لا يكفي ذلك. عليك أن توزّع نصف ما معك على مرافقيك وتحتفظ بمبلغ جيد لسائر الرحلة. إليك بضع قطع تركية، إنها ليست أكثر ممّا ينبغي. وهذه أيضاً رسالة أريد إيصالها إلى السيد. سوف تمرّ بالقسطنطينية طبعاً؟

كان من الصعب أن أقول لها لا. وتابعتْ وهي تدسّ الأوراق المطويّة في شق عباءتي:

ـ هذا مَحْضَر عن أول استجواب لميرزا رضا، وقد سهرت الليل أنسخه. في وسعك أن تقرأه، بل ينبغي أن تقرأه، فسوف يُعلمك بأمور كثيرة. وعِلاوة على هذا فإنه سيشغلك خلال رحلتك الطويلة. ولكنْ حذار أن يراه أحد غيرك.

كنّا قد وصلنا إلى مشارف القرية، وكانت الشرطة منتشرة في كل مكان تفتّش حتى أحمال البغال، ولكنْ مَنْ كان يجرؤ على اعتراض مركبة ملكية؟ وتابعنا طريقنا إلى فِناء بناء واسع بلون الزعفران. وكانت تتربّع في وسطه سنديانة ضخمة مُعَمِّرة يروح حولها ويجيء مقاتلون تصالب على صدر كل منهم حزامان حافلان بالطلقات. ولم يبدر من الأميرة سوى نظرة احتقار إلى هذه الزخارف الرجولية المتمّمة للشوارب الكثّة.

ـ أتركك في أيدٍ أمينة كما ترى؛ ولسوف تكون حمايتهم أفضل من حماية النساء الضعيفات اللاتي تكفّلن بأمرك حتى الآن.

ـ أشكّ في ذلك.

وتابعت عيناي فوهات البنادق المسدّدة في كل اتّجاه وضحكت وقالت:

ـ وأنا أيضاً أشكّ. غير أنهم سيقودونك بالتأكيد إلى حدود تركيا.

وفي لحظة الوداع استدركتْ قائلاً:

ـ أعلم أن الوقت ليس مؤاتياً كثيراً للحديث عن هذا، ولكنِ هل تعلمين بالمصادفة ما إذا كان قد عُثر في متاع ميرزا رضا على مخطوط قديم؟

وأشاحت عني وتهدّج صوتها وهي تقول:

ـ الحقّ أنه لم يُحْسَن اختيار الوقت. لا تتلفّظ باسم هذا المجنون قبل أن تبلغ القسطنطينية!

ـ إنه مخطوط للخيّام!

كنت على حقّ في أن أُلْحِف. وبعدُ فمن أجل هذا الكتاب بالذات أقحمت نفسي في مغامرتي الفارسية. غير أن شيرين تنهّدت تنهّدة تنمّ عن نفاد صبر وقالت:

ـ لا أعرف شيئاً. سوف أستعلم. اترك لي عنوانك فاكتب إليك. ولكنْ، رُحماكَ، تحاشَ الردّ على رسالتي.

وشعرت وأنا أخط «أناپوليس، ميريلند» بأنني قد ابتعدت، وساورني الندم لأن يكون دخولي فارس بمثل هذا الاقتضاب، وأن يكون من المبدأ بمثل هذه الرداءة في التدبير. وناولت الأميرة الورقة. وعندما سعت إلى أخذها تشبّثت بيدها. وكانت ضغطة قصيرة، ولكن مُحْكَمة؛ وضغطتْ بدورها غارزة ظفراً من أظفارها في راحتي من غير أن تجرحني، وإن تركت لبضع دقائق علامة واضحة الرسم. ولامست شفاهَنا ابتسامتان، وانطلقت منها ومني العبارة نفسها في آن:

ـ من يدري، قد يتقاطع طريقانا!

لم أشاهد خلال عامين ما يشبه الذي اعتدت تسميته طريقاً. فقد توجهنا ونحن نغادر شاه عبد العظيم إلى الجنوب الغربي باتّجاه ديار البختياريين. وبعد أن التففنا حول بحيرة «قُمْ» الملحة المياه حاذينا النهر الذي يحمل الاسم عينه، ولكن من غير أن ندخل المدينة نفسها. وكان مُرافِقيَّ يحرصون، وبنادقهم مشرعة وكأنهم يستعدون لمعركة، على تحاشي الأمكنة المأهولة، وعلى الرغم من أن خال شيرين كثيراً ما كلّف نفسه عناء إخباري قائلاً «نحن في أموك، في فرتشا، في خُميْن»، فإن ذلك لم يكن إلا صورة مجازية يقصد منها القول إننا على مشارف تلك الأمكنة التي كنا نلمح من بعيد مآذنها، وكنت أنا أكتفي بتخمين أُطُرها.

وفي جبال «لورستان»، ووراء منابع نهر «قُمْ»، خفّف مُرافِقِيَّ

من مراقبتهم إذ كنّا في ديار البختياريين. وأُقيمت وليمة على شرفي، وأُعطيتُ غليوناً من الأفيون للتدخين فأغفيت للحال وسط ضحك الجميع. وانبغى على هذا أن أنتظر بعدُ يومين قبل متابعة الطريق التي لمّا تزل طويلة: شوستر فالأهواز، وأخيراً اجتياز المستنقعات المحفوفُ بالأخطار حتى البصرة، المدينة العراقية العثمانية القائمة على شط العرب.

وها أناذا في النهاية خارج فارس سليماً مُعافى! وكان قد بقي شهر طويل أقضيه في البحر ذاهباً في سفينة شراعية من الفاوْ إلى البحرين، ثم محاذياً ساحل القراصنة حتى عدن، ثم مُصعِّداً في البحر الأحمر وقناة السويس إلى الإسكندرية مجتازاً في نهاية المطاف البحر المتوسط في سفينة قديمة تركية إلى أن أصل إلى القسطنطينية.

ولم يكن لي من تسلية طَوال هذا الهرب اللانهائي والمنهك، وإن بلا عقبات، غير قراءة الصفحات العشر المكتوبة باليد والمؤلِّفة للاستجواب الذي خضع له ميرزا رضا، ثم إعادة قراءتها. ولا ريب في أنني كنت تعبت من ذلك لو تسنى لي تسليات أخرى، غير أن تلك المواجهة المفروضة مع إنسان محكوم عليه بالموت كانت تثير فيّ فتنة لا سبيل إلى إنكارها ما دمت قادراً بسهولة على تخيّل أطرافه الدقيقة وعينيه المعذّبتين وثوب الزاهد غير المحتمل الذي يرتديه. بل كان يُخيَّل إليّ أحياناً أني أسمع صوته المضني:

«ـ ما الأسباب التي دفعتك إلى قتل شاهِنا المحبوب؟

«ـ إن من لهم عيون ترى لن يجدوا صعوبة في ملاحظة أنّ الشاه قد قُتل في المكان الذي أُسيء فيه إلى السيد جمال الدين. فما الذي فعله هذا القدّيس، سليل النبي الحقيقي، ليُجَرَّ على ذلك النحو خارج المزار؟

«ـ من الذي دفعك إلى قتل الشاه، ومن هم شركاؤك؟

«ـ أقسم بالله العليّ القدير الذي خلق السيد جمال الدين وكلَّ الناس أنه ما من إنسان غيري وغير السيد يعلم بنيّتي قتل الشاه. والسيد في القسطنطينية فجرّبوا أن تبلغوه!

«ـ ما التوجيهات التي زوّدك بها جمال الدين؟

«عندما ذهبت إلى القسطنطينية قصصت عليه الآلام التي أذاقنيها ابن الشاه. وقد ألزمني السيد الصمت قائلاً: «كفاك شكوى وكأنّك تُحيي مأتماً! ألا تعرف شيئاً غير البكاء؟ إذا كان ابن الشاه قد عذّبك فاقتله!».

«ـ ولماذا قتلت الشاه بدلاً من ابنه ما دام هو الذي أساء إليك، وما دام جمال الدين قد أشار عليك بالانتقام من الابن؟

«ـ لقد قلت في نفسي: «إذا قتلت الابن فسيقتل الشاه بما له من جبروت آلاف الأشخاص بالمقابل». وبدلاً من قطع أحد الأغصان فضّلت اجتثاث شجرة الطغيان، رجاء أن تنمو شجرة مختلفة مكانها. ومن جهة أخرى فإن سلطان تركيا قد قال للسيد جمال الدين في مجلس خاصّ إنه ينبغي التخلّص من الشاه لتحقيق وحدة جميع المسلمين.

«ـ كيف استطعت أن تعرف ما قاله السلطان لجمال الدين في مجلس خاصّ؟

«ـ السيد جمال الدين نفسه نقل إليّ ذلك. إنه يأتمنني ولا يُخفي عني شيئاً. وقد عاملني حين كنت في القسطنطينية وكأني ابنه.

«ـ إذا كنت قد عوملت معاملة حسنة هناك فلماذا رجعت إلى فارس وأنت تخشى أن تُعتقَل فيها وتُعذَّب؟

«ـ إنني ممن يؤمنون بأنه ما من ورقة تنفصل عن شجرة إن لم يكن ذلك مكتوباً منذ الأزل في لوح القَدَر. لقد كان مكتوباً أن آتي إلى فارس وأكون أداةَ الواقعةِ التي وقعت».

32

لو أن كل أولئك الناس الذين كانوا يتسكّعون على تلّة يَلْدِز حول منزل جمال الدين قد كتبوا على طرابيشهم «جاسوس السلطان» لما كشفوا عن أكثر ممّا كان يلاحظه أشدّ الزوّار سذاجة من النظرة الأولى. غير أنه ربّما كان سبب وجودهم الحقيقي تثبيط هِمَم الزوّار. والحقّ أن هذا البيت الذي كان يعجّ قبلاً بالتلاميذ والمراسلين الأجانب والشخصيات العابرة كان في ذلك اليوم المُرْهِق من شهر أيلول (سبتمبر) مُقْفِراً تماماً. ووحده الخادم كان هناك، وكان مُتَكَتِّماً كالعهد به. وقد قادني إلى الطبقة الأولى حيث وجدت المعلّم ساهماً شارداً غارقاً في أريكة من الكتّان والمخمل.

وإذا رآني مُقبلاً فقد أشرق وجهه. وأقبل نحوي واسع الخُطى وضمّني إليه واعتذر عمّا سبّبه لي من إساءة مؤكّداً أنه سعيد بأني استطعت الخلاص. وقصصت عليه بالتفصيل أمر هربي وتدخّل الأميرة قبل أن أذكر أمر إقامتي القصيرة جداً ومقابلتي فاضِلاً. ثم ميرزا رضا. وأثار مجرّد ذكر اسمه جمال الدين.

ـ لقد نمي إليّ من عهد قريب أنه شُنق في الشهر الماضي. ليغفر الله له! لقد كان يعرف مصيره بالطبع، والشيء الوحيد الذي

يدعو إلى العجب هو المهلة التي انقضت قبل تنفيذ الحكم. أكثر من مئة يوم على موت الشاه! لا ريب في أنهم عذّبوه لينتزعوا منه بعض الاعترافات.

كان جمال الدين يتكلم على مهل. وقد بدا لي أنه ضعف ونحل؛ وكانت تخترق وجهَه المطمئنَّ عادة عَرّاتٌ فتُشوِّه قَسَماته في بعض الأحيان من غير أن تنزع عنه مع ذلك سحره. وكان المرء يحسّ أنه يتألّم، ولا سيّما عندما يأتي على ذكر ميرزا رضا.

ـ لا يسعني بعدُ أن أصدّق أن ذلك الفتى المسكين الذي عالجتُه هنا بالذات في القسطنطينية، والذي كانت يده لا تفتأ ترتعش وتبدو عاجزة عن رفع فنجان من الشاي قد استطاع حمل مسدّس والإطلاقَ على الشاه وإرداءَه قتيلاً بطلقة واحدة. ألا تظنّ أنّهم استغلّوا جنونه ليُلصقوا به جريمة ارتكبها غيرُه؟

وكان جوابي الوحيد أنْ قدّمتُ له المحضر الذي كانت الأميرة قد نسخته. ووضع نظارتيه الدقيقتين وقرأ وأعاد بحميّة أو برهبة، بل بنزع من الفرح الباطني على ما بدا لي في بعض الأحيان. ثم طوى الأوراق ودسّها في جيبه وأخذ يذرع الغرفة. ومرّت عشر دقائق قبل أن يتلو هذا الدعاء الغريب:

ميرزا رضا، يا ابن فارس المفقود! آه لو كان ممكناً ألّا تكون إلا مجنوناً، آه لو كان ممكناً ألا تكون إلا عاقلاً! آه لو كان ممكناً أن ترضى بخيانتي أو ترضى بالإخلاص لي! آه لو كان ممكناً ألا توحي بغير الحنان أو بغير النفور! كيف السبيل إلى محبّتك، كيف السبيل إلى بُغضك؟ واللهُ نفسه، ما الذي سيفعله بك؟ أيرفعك إلى جنّة الشهداء أم يحشرك في جحيم الظالمين؟

ورجع إلى جلسته منهوك القوى ووجهه بين راحتيه. وظَلِلْتُ على صمتي، بل كنت أجهد في كتم صوت تنفّسي. وانتصب جمال الدين واقفاً من جديد. وبدا لي صوتُه أكثرَ دَعَةً وذهنُه أشدَّ صفاءً.

ـ إن الكلمات التي قرأتها هي بالتأكيد كلمات ميرزا رضا.
وكانت الشكوك ما تزال تساورني حتى الآن في أمره. ولقد تبدّدت، ولا ريبَ في أنه هو القاتل. ولعلّه فكّر أن يفعل ما فعل انتقاماً لي. وربّما ظنّ أنه يطيع أمري. ولكنّي على عكس ما يزعم، لم أصدر إليه قطّ أيّ أمر بالقتل. وعندما حضر إلى القسطنطينية لإخباري كيف عذّبه ابن الشاه وزبانيته كانت دموعه تنهمر. وإذ أردت التشديد من عزيمته فقد قلت له: «كفاك شكوى! يُخيَّل أن كل ما تطلبه هو أن يرثى الناس لحالك! بل أنت مستعدّ لبتر عضو من أعضائك للتأكد من أن الناس سيرثُونَ لحالك!»
ولقد قصصت عليه خرافة قديمة: عندما واجهت جيوش داريوس جيوش الإسكندر الكبير لفت مستشارو القائد الإغريقي نظره إلى أن جحافل الفرس كانت أكثر بكثير من جحافله. وما كان من الإسكندر إلا أن هزّ كتفيه بثقة وقال «إن رجالي يقاتلون لينتصروا ورجال داريوس يقاتلون ليموتوا!».
وبدا أن جمال الدين ينبش ذكرياته.
ـ وعندها قلت لميرزا رضا: «إذا كان ابن الشاه يضطهدك فاقضِ عليه بدلاً من أن تقضي على نفسك!» أتكون هذه حقّاً دعوة إلى القتل؟ وهل تعتقد حقّاً، أنت الذي يعرف ميرزا رضا، أنه من الممكن أن أعهد بمثل هذه المهمّة إلى مجنون أمكن أن يلتقيه ألف شخص هنا بالذات في منزلي؟
وأردت أن أبدو صادقاً
ـ لا يد لك في الجريمة التي يريدون نسبتها إليك، غير أنه لا سبيل إلى إنكار مسؤوليتك المعنوية.
وأثّرت فيه صراحتي.
ـ أوافق على هذا. كما أوافق على أني قد تمنّيت في كل يوم موت الشاه. ولكن ما الجدوى من دفاعي عن نفسي، فلقد صدر الحكم عليّ.

ومضى إلى خزانة صغيرة فأخرج منها ورقة مكتوبة بخط متقن.
ـ كتبت وصيّتي هذا الصباح.
ووضع ذلك النص بين يديّ وقرأت بتأثير:
«لست أتألّم من كوني قد سُجنت، ولا أخاف الموت قريباً. وسبب أساي الوحيد هو إدراكي أنني لم أستطع أن أرى إزهار ما بذرتُ من بذور. فالاستبداد ما انفكّ يسحق شعوب الشرق، وما برح الجهل يخنق صُراخها بالحريّة. ولربّما كنت نجحت لو أنني زرعت بذوري في أرض الشعب الخصبة بدلاً من زرعها في أراضي القصور الملكية الجدباء. وأنت يا شعب فارس الذي عقدت عليه أعظم آمالي، لا تَظُنَّنَ أنك بشطبك رجلاً من الوجود تستطيع نيل الحرية. إن عليك أن تتجرأ على زعزعة التقاليد البالية».
ـ احتفظ بنسخة منها وترجمها لهنري روشفور، فصحيفة «لانترانزيجان» هي الجريدة الوحيدة التي لا تزال تُعلن براءتي؛ وأما الأُخريات فينعتنني بالقاتل. وجميع الناس يرجون موتي. فليطمئنّوا، فأنا مصاب بالسرطان، سرطان الفكّ!
وكما في كلّ مرّة يخامره فيها ضعف الشكوى أسرع إلى التفكير بضحكة تنمّ عن لامبالاة زائفة، وبدعابةٍ حكيمة. وردّد وكأنّه يردّد لعنة:
ـ سرطان، سرطان، سرطان. كان الأطباء قديماً يَعْزُون جميع الأمراض إلى قِران الكواكب. والسرطان هو الذي احتفظ في جميع اللغات باسمه الفلكي. والهلع على حاله لم يُمسّ.
وإذ بقي هُنيهاتٍ مفكِّراً كئيباً فإنه لم يلبث أن استطرد بنبرة مرِحة شديدة التصنُّع، وإن زادت حدّة:
ـ إني لأَلْعَنُ هذا السرطان. ومع ذلك فما من شيء يؤكّد أنه

هو الذي سيُميتني. إن الشاه يطالب بطردي، والسلطان لا يستطيع تسليمي لأني ضيفه. ولكنّه لا يستطيع كذلك الإغضاء عن قتلِ مَلِك. لقد طالما أبغض الشاه وسلالته، وتآمر عليه في كل يوم، غير أن تعاضداً ما يزال يشدّ أخَوِيَّةَ عظماءِ هذه الدنيا في وجهِ مُزْعِجٍ مثلِ جمال الدين. والحلّ؟ سوف يقتلني السلطان هنا بالذات، وسيتعزّى الشاه الجديد لأنه على الرغم من إلحاحه في المطالبة بطردي ليس راغباً على الإطلاق في وَسْم يديه بدمي في بداية حكمه. ومن الذي سيقتلني؟ السرطان؟ الشاه؟ السلطان؟ قد لا يُتاح لي الوقت أبداً لمعرفة ذلك. وأما أنت يا صديقي الشابّ فستعرفه.

وقد أوتي الجرأة على الضحك!

الحق أني لم أعرف قطّ ذلك. فظروف موت مُصْلِح الشرق العظيم ما تزال سرّاً من الأسرار. ولقد علمت بالنبأ بعد بضعة أشهر من عودتي إلى «أنّابوليس». فقد أخبرتني ملاحظة في عدد «لانترانزيجان» الصادر في 12 آذار (مارس) 1897 م بفَقْده الذي تمّ قبل ثلاثة أيام. ولم أعلم بالرواية التي كان يتداولها تلاميذ جمال الدين عن موته إلّا في أواخر الصيف عندما وصلتني الرسالة التي كانت شيرين قد وعدت بكتابتها إليّ. فقد كتبت تقول: «كان يُقاسي منذ بضعة أشهر من آلام فظيعة في أسنانه مرتبطة ولا ريب بسرطانه. وفي ذلك اليوم، وكان الألم قد تجاوز حدّ الطاقة، أرسل خادمه إلى السلطان الذي بعث إليه بطبيب أسنانه الخاص. وفحصه هذا وأخرج من حقيبته حقنة كانت قد أُعدّت من قبل وحقنة في لِثَته وهو يشرح له أن الألم لن يلبث أن يتوقف. ولم تكن قد مضت بضع لحظات حتى تورّم فكّ المعلم. وإذا رآه الخادم يختنق فقد أسرع لاحقاً بطبيب الأسنان الذي لم يكن قد خرج بعدُ من المنزل، غير أن الرجل، بدلاً من أن يعود

أدراجه، أطلق ساقيه للريح باتجاه العربة التي كانت بانتظاره. ومات السيد جمال الدين بعد بضع دقائق. وفي المساء حضر بعض رجال السلطان فرفعوا الجثمان وغسلوه ودفنوه على عجل».

ولقد خُتمت رواية الأميرة بلا تمهيد بهذه الكلمات للخيّام بترجمتها هي: «أولئك الذين جمعوا هذا القدر من العلوم وقادونا إلى المعرفة، أما غرقوا هم أنفسهم في الشك؟ إنهم يحكون حكاية ثم يأوون إلى مضاجعهم»[1].

وأما عن مصير «المخطوط»، وهو هدف الرسالة على كل حال، فقد أخبرتني شيرين بطريقة أكثر اقتضاباً: «لقد وُجد بالفعل بين أمتعة القاتل. وهو الآن عندي. وسيكون لديك متّسع من الوقت للنظر فيه حين تعود إلى فارس».

أعود إلى فارس حيث يُرهقني ذلك القَدْرُ من الظنون والرِيَب؟

(1) جاء في إحدى الرباعيات التي عرّبها أحمد الصافي النجفي:

إنّ الألى بلغوا الكمالَ وأصبحوا ... ما بينَ صَحْبِهِم سِراج النادي

لمْ يَكْشِفوا حَلَكَ الدَّياجي بل حَكَوْا ... أسطورةً ثم انْثَنَوا لرُقادِ

(المترجم)

33

لم أكن قد احتفظت من مغامرتي الفارسية بغير بعض الغليل. شهر لبلوغ طهران، وثلاثة أشهر للخروج منها، وفي شوارعها بعض الأيام الوجيزة المثقلة، وما لا يكاد يكفي من الوقت للاستنشاق أو الملامسة أو اللَّمْح. وكان كثير من الصور لا يزال يدعوني إلى الأرض المحرّمة: كسلي الزاهي مُدخّناً لِـ «القيلان»، متربّعاً في أبخرة الجمر والتنباك؛ يدي وقد أطلقت على يد شيرين مدّة لا تزيد عن الوقت اللازم لقطع وعد؛ شفتاي على ذينك الثديين المقدَّمين بعفاف من أمّي لأمسية واحدة؛ وأكثر من كل شيء «المخطوط» الذي ينتظرني مفتوح الصفحات بين ذراعيْ حارسته.

أكاد أجرؤ على أن أقصّ على الذين لم يعرفوا قطّ وسواس الشرق أنني خرجت ذات سبت عند الغسق منتعلاً خفّاً بيتياً ومرتدياً جلبابي الفارسي وعلى رأسي «كولة» من جلد الخروف فيمّمت شطر ركن من شاطىء «أنّاپوليس» كنت أعرف أنه مُقْفِر. ولقد كان كذلك، غير أني، لدى عودتي غارقاً في أحلامي ناسياً زيّي، التفتت دائماً بطريق «كومپرومايز رود» الذي لم يكن مُقْفِراً أبداً. «مساء الخير يا سيد لوساج»، «نزهةً طيّبةً يا سيد لوساج»،

«مساء الخير يا سيدة بايماستر، يا آنسة هايتشرش»، وأخذت التحيّات تتفجّر. «مساء الخير يا مُحْتَرَم» وأيقظني حاجبا الكاهن المذعوران. وتوقّفت على الفور أتأمّل نفسي نادماً، من صدري حتى قدميّ، ثم تحسّست غطاء رأسي وحثثت الخطى. بل أظنّ أني ركضت مشتملاً بعباءتي وكأني أستر عُريي. وإذ وصلت إلى منزلي فقد تخلّصت من عتادي ولففته بحركة لا عودة إليها، قبل أن أقذف به ساخطاً في قعر خزانة للأدوات.

وحرصت جيداً على عدم تكرار فعلتي، غير أن تلك النزهة الوحيدة كانت قد ألصقت بي، مدى الحياة ولا ريب، علامة على الشذوذ لا سبيل إلى إزالتها. لقد طالما نُظر في إنكلترا إلى غرباء الأطوار نظرة رفيقة، بل نظرة إعجاب، شريطة أن يكون لهم من ثرائهم ما يعذرهم. وأما أميركا فكانت في تلك السنوات تنزعج من مثل تلك الانحرافات، وكان الناس ينخرطون في مُنْعَطَفِ القَرْنِ بحذر واحتشام. وقد لا يكون ذلك في نيويورك ولا في شيكاغو، وأما في مدينتي فكان بالتأكيد. أمٌّ فرنسية وطاقية فارسية، إنه لعمري إفراط في الغُربة بالنسبة إلى «أنّاپوليس».

هذا من الناحية المظلمة. وأما من الناحية المنيرة فإن نزوتي أسبغت عليّ للحال سمعة لا أستحقّها هي سمعة أحد كبار مستكشفي الشرق. واقترح عليّ «ماتياس ويبٌ» مدير الصحيفة المحلية، وكان قد علم بأمر نزهتي، أن أكتب مقالاً عن تجربتي الفارسية.

وكانت آخر مرّة طبع فيها اسم فارس على صفحات الـ «أنّاپوليس غازيت أند هيرالد» ترجع، على ما أظن، إلى عام 1856 م، يوم اصطدمت سفينة عابرة للأطلنطي، وهي مفخرة شركة «كونارد» وأول سفينة معدنيّة الهيكل تسير بالعجلات الناعورية، بجبل جليدي عائم. كان قد مات فيها سبعة بحّارة من مقاطعتنا. وكان اسم المنكودة «پيرسيا».

لا يهزل رجال البحر في موضوع الطوالع. وعليه فقد رأيت من الضروري أن أسجّل بصفة مقدِّمةٍ لمقالي أن «پيرسيا» كان لفظاً غير حقيقي لأن الفرس أنفسهم يسمّون بلادهم «إيران» وهي لفظة مختصرة قديمة جداً لعبارة «ايرانيا ڤانديا» التي تعني «أرض الآريين».

وذكرت بعد ذلك عُمَر الخيّام، الفارسي الوحيد الذي سبق أن عرف به معظم قرّائي، مثبتاً له رباعية مطبوعة بأعمق الشك.

«ما شهدَ النارَ والجنانَ فتىً
أيّ امرىءٍ من هناك قد جاءَ؟»

وكان هذا تمهيداً مفيداً قبل أن أبسط في بضع فقرات مكثّفة الديانات الكثيرة التي ازدهرت منذ الأزل على الأرض الفارسية، الزرادشتية والمانوية والإسلام السنّي والشيعي والفرقة الإسماعيلية التي أسسها حسن الصبّاح، وفِرَقاً أقرب إلى عهدنا هي البابية والشيخية والبهائية. ولم يفتني أن أذكّر بأن «جنّتنا» (الفردوس) أصلها كلمة فارسية قديمة هي «پارادايزا» التي تعني «الجنينة».

وهنّأني «ماتياس ويبّ» على سعة علمي الواضحة، ولكنه حين اقترحت عليه، متشجّعاً بمديحه، تعاوناً أكثر انتظاماً بدا مُحْرَجاً ثم ثائراً بغتة:

ـ أودّ حقّاً أن أجرّبك إذا وعدت بالتخلّي عن هذا الولع المزعج ببهرجة نصّك بالكلمات الوحشية!

ونمّت سحنتي عن دهشة وعدم تصديق؛ وكانت لـ «ويبّ» دوافعه:

ـ ليس في إمكان «الغازيت» أن تدفع المال باستمرار لمتخصّص ببلاد فارس. ولكنك إذا قبلت بتعهُّد مجموع الأخبار الأجنبية، وشعرت بالقدرة على وضع البلاد البعيدة في متناول مواطنينا، فهناك وظيفة شاغرة في هذه الجريدة. وسوف يُعوِّض انتشار مقالاتك عمّا تكون قد خسرته في العمق.

كنا قد استعدنا كلانا الابتسام؛ وناولني سيكارَ الصُلح قبل أن يتابع:

ـ لم يكن من وجود للخارج في نظرنا حتى أمسٍ، وكان الشرق يقف عند «كاپ كود». وفجأة حاصر صخب العالم مدينتنا الوادعة بحجة أن قرناً قد هجع وآخر في طريقه إلى النهوض.

ينبغي أن أحدّد أنّ مقابلتنا قد تمّت عام 1899 م، أي قُبيل الحرب الإسبانية الأميركية التي لم تَقُدْ جيوشنا إلى كوبا وبورتو ريكو وحسب، بل إلى الفيليبين أيضاً. فما سبق أن مارست الولايات المتحدة سلطتها بعيداً كل هذا البُعد عن شواطئها. ولم يكن انتصارنا على الإمبراطورية الإسبانية العتيقة قد كلّفنا سوى ألفي وأربعمئة قتيل، إلا أنه كان من الممكن أن تمثّل كل خسارة بالنسبة إلى «أنّاپوليس» ـ قاعدة الأكاديمية البحرية ـ فَقْدَ قريب أو صديق أو خطيب عاقد أو مُحْتَمَل؛ وكان أكثر المحافظين من أبناء مدينتي يرون في الرئيس «مكنلي» مغامِراً خطِراً.

ولم يكن ذلك رأي «ويبّ»، بيد أنه كان عليه مراعاة حالة الهلع المسيطر على قرّائه. ولكي يُفهمني ربُّ الأسرة الجادُّ الأشيبُ هذا الأمر فقد نهض وزمجر وكشّر تكشيرة مضحكة وكوّر أصابعه وكأنها براثن وحش وقال:

ـ العالم الضاري يدنو بخطى واسعة من «أناپوليس»، ومهمّتك أنت يا بنجامين لوساج تطمين مواطنيك.

وإنها لمسؤولية باهظة اضطلعت بها بلا تألُّق. وكانت مصادري الإخبارية مقالات زملائي في باريس ولندن، وفي نيويورك وواشطن وبالتميور بالطبع. وإني لأعتقد أنه ما من سطر واحد من كل ما كتبت عن حرب البوير، أو عن نزاع 1904 ـ 1905 م بين قيصر روسيا والميكادو، أو عن الاضطرابات في روسيا، يستحقّ أن يسجّل في الحوليات.

وإنه ليمكن الكلام على مهنتي صحفياً في موضوع فارس وحسب. وأنا فخور بأن أقول إن «الغازيت» كانت أول صحيفة أميركية تتوقع الانفجار الذي سيحدث وتشغل أخباره في الأشهر الأخيرة من عام 1906 م مساحات واسعة في كل صحف العالم. ولقد استشهدتْ أكثر من ستين جريدة في الجنوب والساحل الشرقي لأول مرّة، بل لآخر مرّة على ما يبدو، بمقالات الـ «أنّاپوليس غازيت أند هيرالد»، بل نقلتها كلمة كلمة في بعض الأحيان.

وهذا تدين لي به مدينتي وجريدتها. وأنا أدين به لشيرين. والحقّ أنه بفضلها لا بفضل تجربتي الفارسية الهزيلة استطعت فهم ضخامة الأحداث التي كانت على وشك الوقوع.

لم أكن قد تلقّيت شيئاً من أميرتي منذ أكثر من سبعة أعوام. أفكان عليها أن تجيبني بصدد «المخطوط»؟ لقد فعلت، ولم يكن جوابها يشفي غليلاً، غير أنه كان محدّداً؛ ولم أكن أنتظر منها كلمة واحدة. ولا يعني هذا أني فقدت الرجاء. ففي كل مرة كان يأتيني فيها البريد كانت الفكرة تداعب خاطري، وكنت أبحث في المغلّفات عن خطّ معيّن، عن طابع من الطوابع التي تحملها الرسائل العربية، عن الرقم خمسة بشكل القلب. ولم أكن أخشى خيبة الأمل اليومية، بل كنت أحياها تكريماً للأحلام التي كانت تساورني.

عليّ أن أقول إن أسرتي كانت قد غادرت في ذلك العهد «أنّاپوليس» للإقامة في بالتميور حيث كانت تتركّز مذّاك أهمّ نشاطات والدي، وكان بصدد أن يُنشىء فيها، مع اثنين من أخوته الذين يصغرونه، مصرفه الخاص. وأما أنا فقد آثرت البقاء في المنزل الذي وُلِدْتُ فيه، مع طبّاختنا العجوز نصف الصمّاء، وفي مدينة كان أصدقائي الخلّص فيها قلّة قليلة. ولا أشكّ في أن وحدتي كانت تُضفي على انتظاري حميّة متزايدة.

وانتهى الأمر بشيرين إلى الكتابة إليّ ذات يوم. لم يكن هناك كلمة واحدة عن «مخطوط سمرقند»؛ ولا كان في هذه الرسالة الطويلة شيء شخصي اللهمّ إلّا أنها كانت تبدأ بـ «صديقي العزيز». وكانت البقية سرداً يوماً بيوم للأحداث الجارية حواليها. وكانت العلاقة دقيقة مائرة بالتفاصيل التي لم يكن أيّ منها نافلاً حتى حين كان يبدو كذلك لعينيَّ غير المتخصّصتين. وكنت متدلّهاً بذكائها الرائع ومُعْجَباً بأن تكون قد اختارتني من بين جميع الناس لتوجيه ثمرة أفكارها.

وأصبحت أعيش مذّاك على وَقْع مراسيلها، واحداً كل شهر، سرداً للوقائع نابضاً بالحياة، سرداً كان من الممكن أن أنشره كما هو لو لم تُلزمني مراسلتي شديدَ الكِتْمان. حتى وإن كانت قد سمحت لي بنهبها بسخاء. الأمر الذي فعلتُه بلا حشمة، مُمتاحاً بغزارة من رسائلها، مترجماً منها أحياناً مقاطع كاملة من غير أن ألجأ إلى المزدوجات أو إلى أية علامة من علامات الاقتباس.

ومع ذلك فقد بقيت طريقتي في تقديم الوقائع إلى قرائي مختلفة جدّاً عن طريقتها. فما كانت الأميرة لتفكّر قطّ مثلاً في أن تكتب:

«انفجرت الثورة الفارسية عندما خطر في بال وزير بلجيكي الخاطر المشؤوم بالتنكّر في زي «مّلا».

ولم يكن هذا بعيداً مع ذلك عن الحقيقة. على الرغم من أن تباشير الثورة كان من الممكن اكتشافها في نظر شيرين منذ استشفى الشاه في «كونتريكسفيل» عام 1900 م. فإذا كان العاهل راغباً في الذهاب إليها مع حاشيته فقد كان في حاجة إلى المال. ولما كانت خزينته فارغة كعادتها فقد طلب قرضاً من قيصر روسيا الذي أعطاه مبلغ اثنين وعشرين مليوناً ونصف المليون من الروبلات.

وقلّما كانت هدية بمثل هذا المقدار من السمّ. فلكي تطمئنّ سلطات سان بطرسبورغ إلى أن جارها الجنوبي الذي كان على شفا الإفلاس باستمرار سوف يدفع مثل هذا المبلغ فإنها طالبت بتسلُّم مهمّات الجمارك الفارسية لاسترجاع مالها من عائداتها مباشرة، ونالت مُرادها. وذلك طوال خمس وسبعين سنة! وإذ كان القيصر مدركاً فداحة هذا الامتياز، وكان خائفاً من قلق القوى الأوروبية الأخرى من جرّاء وضع اليد الكامل هذا على تجارة فارس الخارجية، فقد تحاشى أن يعهد بالجمارك إلى رعاياه وآثر الطلب إلى الملك ليوبولد الثاني بالقيام بالمهمة بدلاً منه ولحسابه. وعلى هذا اجتمع عند الشاه ثلاثون موظّفاً بلجيكياً أخذ تأثيرهم يتّسع بشكل باعث على الدوار. وتوصّل أعلاهم رتبة، وهو شخص يدعى السيد «نوس»، إلى الارتفاع بخاصة إلى أسمى طبقات الحكم. فقد كان عشية الثورة عضواً في المجلس الملكي الأعلى ووزيراً للبريد والبرق وخازناً عاماً لمالية فارس، ورئيس دائرة الجوازات ومدير الجمارك العام. واهتمّ عِلاوة على ذلك بتنظيم الضرائب العامة، وإليه يُعزى فرض ضريبة جديدة على أحمال البغال.

ومن نافل القول إن السيد «نوس» كان قد أصبح في تلك المرحلة أبغض الناس على قلوب أهل فارس ورمزاً للهيمنة الأجنبية. وكان يرتفع بين الفينة والفينة صوت مطالباً بطرده الذي كان يزيد من تسويغه أنه لم يكن يتحلّى بسمعة المعصوم من الفساد ولا بحجّة الأهليّة. غير أنه استمر في مكانه يدعمه القيصر، أو بالحري البطانة المنحلّة المرهوبة الجانب المحيطة بهذا الأخير، وقد غدا يُعَبِّر عن أهدافها بصوت مرتفع في صحافة سان بطرسبورغ الحكومية: ممارسة وصاية لا مشاركة فيها على فارس والخليج الفارسي.

وبدا أن موقف السيد «نوس» غير قابل للزعزعة؛ وبقي كذلك إلى أن تزعزع حاميه نفسه. وقد حدث هذا بأسرع ممّا كان يتوقّع أشد الحالمين من الفرس. وعلى مرحلتين. الحرب أوّلاً مع اليابان، وقد انتهت وسط دهشة العالم أجمع بهزيمة القيصر وتدمير أسطوله. ثم غَضَبُ الروس الناجمُ عن المهانة التي أنزلها بهم خطأ الحكّام غير الأكفياء: تمرّد بحّارة «پوتمپكين» وعصيان «كرونستاد» وثورة «سيباستوپول» المسلّحة وأحداث موسكو. ولن أطيل ذكر هذه الوقائع التي لم يتسنَّ لأحد نسيانها، مكتفياً بالإلحاح على ما أحدثته من أثر تخريبيّ في فارس، ولا سيّما عندما اضطرّ نيقولا الثاني إلى الدعوة إلى جلسة برلمان، الـ «دوما» في نيسان (ابريل) 1906.

لأنه في هذا الجوّ بالذات طرأ أكثر الأحداث تفاهة: حفل راقص مقنّع عند موظف بلجيكي كبير خطر فيه للسيد «نوس» أن يحضر متنكّراً في زيّ «مُلّا». وكانت همهمات وضحكات وتصفيق، واجتمع الناس حول الوزير وهنّأوه ووقفوا لالتقاط صورة فوتوغرافية. وما هي إلا أيّام حتى كانت مئات من النسخ عن تلك الصورة توزّع في سوق طهران الكبرى.

34

أرسلت إليَّ شيرين نسخة عن تلك الوثيقة. وما زلت أحتفظ بها، ويحدث أن ألقي عليها حتى الآن نظرة تنمّ عن حنين وغبطة. ويُرى فيها زهاءُ أربعين شخصاً جالسين على سجّادة ممدودة بين أشجار حديقة، أربعون من الرجال والنساء يلبسون الأزياء التركية واليابانية والنمساوية؛ وفي الصف الأول في الوسط السيد «نوس» متنكّراً بشكل يسهل معه ظنّ الناظر إلى لحيته البيضاء وشاربه الذي بلون الفلفل ممزوجاً بالملح بأنه زعيم ديني كثير التقوى. وأما تعليق شيرين على ظهر الصورة فهو: «يُعاقَب على عدد لا يُحصى من الجرائم وعُوقب على زلّة».

الهزء برجال الدين، إن ذلك لم يكن بالتأكيد في نية «نوس». ولم يكن بالإمكان أن يؤخذ عليه في تلك المناسبة سوى انعدام الإدراك الآثم وغياب الحصافة وذرّة من فساد الذوق. وكانت غلطته الحقيقية أنه لم يفهم أنّ عليه نسيان نفسه بعض الوقت منذ اللحظة التي مثّل فيها حصان طروادة لحساب القيصر.

وقامت تجمّعات غاضبة على الصورة المنشورة، وحدثت بعض الحوادث وأغلقت السوق الكبرى أبوابها. وطولب في بادىء الأمر برحيل «نوس»، ثم برحيل الحكومة بكامل أعضائها.

ووُزِّعت مناشير تطالب بتأسيس برلمان كما في روسيا. وكانت جمعيات سريّة تعمل منذ سنين داخل صفوف الشعب تعلن عن انتمائها إلى جمال الدين، وفي بعض الأحيان إلى ميرزا الذي نصّبته الظروف رمزاً للنضال في وجه الاستبداد.

وحاصر القوزاقيون الأحياء القائمة في وسط المدينة. وسرت شائعات روّجتها السلطات تنيد بأن قمعاً لا مثيل له سوف ينزل بالمتمرّدين، وأن أبواب السوق الكبرى ستُفتح بقوة السلاح وتُترك نهباً للعسكر، وهو تهديد طالما ذُعر له التجّار منذ القِدَم.

وهذا ما دعا في التاسع عشر من تموز (يوليو) 1906 م وفداً من التجّار وسماسرة الأسواق إلى لقاء القائم بالأعمال البريطاني لأمر طارىء: لو تعرّض أناس لخطر الاعتقال واضطروا إلى الاحتماء بالمفوضيّة فهل تتمّ حمايتهم؟ وكان الجواب بالإيجاب. وانسحب الزوّار لاهِجينَ بالشكر غارقين في الانحناءات.

وفي المساء نفسه حضر صديقي فاضل وزمرة من أصحابه إلى المفوضيّة فاستقُبِلوا بالترحاب. وعلى الرغم من أنه لم يكن قد جاوز الثلاثين فإنه كان قد أصبح وريثاً لأبيه أحدِ أغنى تجّار السوق الكبرى. بيد أنّ ثقافته الواسعة كانت قد زادت من مكانته وكان تأثيره في نظرائه كبيراً. ولم يكن في وسع الدبلوماسيين البريطانيين إلّا أن يقدّموا لرجل في مثل رتبته واحدة من الغرف المنذورة للزائرين المرموقين. ومع ذلك فقد رفض العرض وعبّر عن رغبته في الإقامة في حدائق المفوّضيّة الفسيحة متذرِّعاً بحرارة الجوّ. وقال إنه أحضر لهذا الغرض خيمة وسجّادة صغيرة وبعض الكتب. وأخذ مضيفوه يراقبون تفريغ الحمولة مزمومي الشفاه مرتعشي الحواجب.

وحضر في اليوم التالي ثلاثون تاجراً بالطريقة نفسها للاستفادة من حقّ اللجوء. وبعد ثلاثة أيام، أي في الثالث والعشرين من

تموز (يوليو)، كان في المفوّضيّة ثمانمئة وستون تاجراً. وأصبحوا في السادس والعشرين خمسة آلاف. واثني عشر ألفاً في الأول من آب (أغسطس).

وإنه لمنظر غريب منظر هذه المدينة الفارسية المزروعة في حديقة إنكليزية. ففي كل مكان خِيام مجموعة بحسب الانتماء الحِرَفيّ. وسرعان ما نُظِّم فيها العيش فأقيم مطبخ خلف جناح الحرس، وأخذت قدور ضخمة تجوب مختلف «الأحياء» بمعدّل ثلاث ساعات لنوبة الخدمة الواحدة.

لم يكن هناك أثر لأية فوضى، والضجيج كان قليلاً، فالناس لاجئون، وهم في «بست» على حدّ قول الفُرس، وبكلام آخر فإنهم يزاولون مقاومة سلبية صارمة في كنف مزار. والمزارات كثيرة في منطقة طهران: ضريح شاه عبد العظيم، والاصطبلات الملكية، وأصغر «بست» فيها هو المدفع ذو العجلات في ميدان «توپخانه»: إذا تشبّث به مستجير فإنه ليس لقوات النظام الحقّ في لمسه. غير أن تجربة جمال الدين كانت قد أظهرت أن السلطة لم تكن لتتسامح طويلاً في هذا الشكل من الاحتجاج. والحصانة الوحيدة التي تعترف بها هي حصانة المفوّضيات الأجنبية.

لقد حمل كل لاجىء إلى الإنكليز «قليانه» وأحلامه معه. وكان يفصل بين الخيمة والأخرى محيط من الفروق. فَحَوْل فاضل تجتمع النخبة العصرية؛ ولم يكونوا غير حفنة، ولكنّهم كانوا مئات من الشبّانَ والشيب منظّمين في «أنجمان»، أي في مجتمعات سرّية تقريباً، وكانت أحاديثهم تدور بلا انقطاع عن اليابان وروسيا، ولاّ سيّما عن فرنسا التي كانوا يتكلّمون لغتها ويواظبون على قراءة كتبها وصحفها، فرنسا سان سيمون وروبسبيير ورسو وڤالديك ـ روسو. وكان فاضل قد قصّ بعناية حكاية نصّ القانون القاضي بفصل الدين عن الدولة وقد صُوِّت عليه قبل عام في باريس،

وكان قد ترجمه ووزّعه على أصحابه، وكانوا يناقشونه بحماسة. ولكنْ بصوت خافت لأن جماعة من «الملالي» [جمع مُلّا] كانت مجتمعة غير بعيد من حلقتهم.

وكان رجال الدين منقسمين: فقسم يرفض كلّ ما يأتي من أوروبا، حتى فكرة الديمقراطية أو البرلمان أو العصرنة. وكانوا يقولون؛ «لماذا نكون في حاجة إلى دستور وعندنا القرآن؟» ويردّ عليهم العصريون بأنّ الكتاب قد ترك للناس أمر حكم أنفسهم ديمقراطياً إذ يقول: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى/الآية 38].

ثم يضيفون بمهارة أنه لو كان للمسلمين يومَ موت النبي دستور ينظّم مؤسسات دولتهم الناشئة لما عرفوا الصراعات الدامية على الخلافة التي أفضت إلى تنحية الإمام عليّ.

وفيما وراء النقاش العقائدي كان معظم «الملالي» متقبّلين مع هذا فكرة «الدستور» لإنهاء الاستبداد الملكي. وإذ كانوا قد جاءوا بالمئات لاتّخاذ «بست» فقد راقهم مقارنة عملهم بهجرة النبي إلى المدينة، وآلام الشعب بآلام الحسين بن علي الذي تُعتبر معاناته أقرب معادل إسلامي لمعاناة المسيح. وفي حدائق المفوّضيّة كان بعض البكّائين المحترفين، الـ «روزخوان»، يروون لمستمعيهم آلام الحسين. وكان القوم يبكون ويجلدون أنفسهم وينوحون بلا تحفُّظ على الحسين وعلى أنفسهم وعلى فارس الضائعة في عالم مُعادٍ، المتدهورة قرناً بعد قرن في انحطاط بلا قرار.

وظلّ أصدقاء فاضل بعيدين عن هذه التظاهرات، فقد علّمهم جمال الدين الحذر من الـ «روزِخوان». ولم يكونوا يُصغون إليهم إلا بتسامح قلِق.

ولقد لفتت نظري إشارة باردة من شيرين في إحدى رسائلها. فقد كتبت تقول: «فارس مريضة، وعند سريرها عدد من الأطباء،

عصريين وتقليديين، وكلّ يعرض أدويته والمستقبل رهن بمن يفوز بالشفاء. وإذا انتصرت هذه الثورة كان على «الملالي» أن يتحوّلوا إلى ديمقراطيين؛ وإذا أخفقت وجب على الديمقراطيين أن يتحوّلوا إلى «ملالٍ».

وكان جميعهم في الوقت الحاضر في الخندق نفسه والحديقة نفسها. وفي السابع من آب (أغطس) كانت المفوّضيّة تعدّ ستة عشر ألف «بستيّ»، وكانت شوارع المدينة خالية، فما من تاجر يتمتّع بقسط من الوجاهة إلا وقد «هاجر». ولم يكن أمام الشاه سوى الاستسلام. ففي الخامس عشر من آب (أغسطس)، أي بعد أقلّ من شهر على «البست»، أعلن عن تنظيم عمليات، بالاقتراع المباشر في طهران وغير المباشر في الأقاليم، لانتخاب مجلس وطني استشاري.

والتأم أول برلمان في تاريخ فارس منذ السابع من تشرين الأول (أكتوبر). وأثبت الشاه نباهة عظيمة بأن أوفد لإلقاء خطاب العرش معارضاً من طراز رفيع، الأمير مالكوم خان، وهو أرمني من أصفهان وأحد رفاق جمال الدين، بل الرفيق الذي كان قد استضافه وآواه خلال إقامته الأخيرة في لندن. ولقد كان هذا العجوز البريطاني السمْتِ قد حلم طوال حياته بالوقوف في «البرلمان» قارئاً على ممثّلي الشعب خطابَ ملكٍ دستوري.

وليبحث الراغبون في الانكباب عن كثب على هذه الصفحة من التاريخ عن مالكوم خان في وثائق العصر. فاليوم، كما في أيام الخيّام، لا تعرف فارس حكامها بأسمائهم، وإنما تعرفهم بألقابهم، «شمس المُلك» و«عماد الدين» و«ظلّ السلطان». ولقد خُلع على الرجل الذي كان له شرف تدشين عهد الديمقراطية أكثر الألقاب رواء: «نظام المُلك». فيا لفارس المحيِّرة التي لا تتبدّل في اضطراباتها ولا تتغيّر في خضمّ هذا القَدْر من التحوّلات.

35

لقد كان امتيازاً أن يشاهد المرء يقظة الشرق، فقد كانت تلك لحظة عارمة بالانفعال والحماسة والشكّ. فما الأفكار المشعّة أو البشعة التي أمكن أن تفرخ في مخّه الخدِر؟ وما الذي سيفعله وهو ينهض؟ هل سينقضّ انقضاضاً أعمى على أولئك الذين أيقظوه؟ لقد كنتُ أتلقّى رسائل من القرّاء يسألونني فيها مَكْروبين طالبين مني أن أكون عرّافاً. فإذا كانوا لا يزالون يذكرون ثورة «ذوي القبضات» الصينيين عام 1900 م في بكين، والقبض على عدد من الدبلوماسيين الأجانب واتخاذهم رهائن، ومصاعب الحملة العسكرية في مواجهة الامبراطورية العجوز، ابنة السماء المرهوبة، فقد كانوا يخافون من آسيا. أفتكون فارس مختلفة؟ ولقد أجبت بتصميم «أجَل»، مطمئناً للديمقراطية الوليدة. والحقّ أن دستوراً كان قد سُنّ، وسُنّت معه شرعة لحقوق المواطنين. وكانت تقوم نوادٍ في كل يوم، وتظهر صحف، تسعون صحيفة يومية ومجلة أسبوعية في بضعة أشهر. وكانت أسماؤها «الحضارة» و«المساواة» و«الحرية» أو بشكل أكثر فخامة «أبواق البعث». وكثيراً ما استُشهد بها في الصحافة البريطانية أو في صحف المعارضة الروسية، الـ «رِيْش» الليبرالية، والـ «سوفرميني مير» القريبة من الاشتراكيين

الديمقراطيين. وحازت جريدة طهرانية هجّاءة نجاحاً منقطع النظير منذ صدور عددها الأول، وكانت أقلام رساميها تتخذ أغراضها الفضلى من رجال البلاط الفاسدين ومن جواسيس القيصر، وأكثر من ذلك من الأتقياء المزيّفين.

كانت شيرين جذلى. فقد كتبت تقول: «لقد سعى يوم الجمعة الماضي بعض «الملالي» الشباب إلى حشد بعض الناس في السوق الكبرى ناعتين الدستور بأنه بدعة هرطوقية، وأرادوا حضّ الناس على المسير إلى «البهارستان» مقرّ البرلمان. بلا جدوى. وقد جهدوا في رفع عقائرهم وظلّ أهل البلد غير مبالين. وبين الفينة والفينة كان أحد المارة يتوقّف ويُصغي إلى طرف من الخطبة ثم يبتعد هازّاً كتفيه. ولم يلبث أن أقبل ثلاثة من أجلّ علماء المدينة، وبلا مقدّمات دَعَوا الواعظين للرجوع إلى بيوتهم من أقصر الطرق، ومن غير أن يرفعوا أبصارهم إلى ما فوق رُكَبِهم. إني لا أكاد أجرؤ على التصديق، فلقد مات التعصّب في فارس».

وقد جعلتُ هذه العبارة الأخيرة عنواناً لأجمل مقال كتبته. وكنت قد تشرّبت حماسة الأميرة تشرُّباً جعل من نصيّ شهادة إيمانٍ حقيقية. وطالبني مدير الـ «غازيت» بمزيد من الاعتدال، بيد أن القرّاء ـ إذا أنا احتكمت إلى تنامي عدد الرسائل التي تلقيتها ـ قد وافقوا على حميّتي.

وكانت إحدى الرسائل تحمل توقيع شخص يدعى هوارد ك. باسكرڤيل، وهو طالب في جامعة پرنستون بنيوجرسي. وكان قد حصل منذ مدة قريبة على البكالوريوس في الأدب ويأمل في زيارة فارس للاطلاع عن كثب على الأحداث التي كنت أصفها. وقد هزّتني إحدى عباراته: «إني مقتنع أشد الاقتناع بأنه إذا لم يتوصّل الشرق في بداية القرن هذا إلى الاستيقاظ فإن الغرب لن يتمكّن قريباً من النوم». وشجّعته في ردّي على القيام بهذه الرحلة واعداً

إياه بتزويده عندما يتّخذ قراره بأسماء بعض الأصدقاء للاحتفاء به.

وبعد بضعة أسابيع جاء باسكرڤيل إلى أنّاپوليس يعلنني وجهاً لوجه أنه قد حصل على وظيفة مدرّس في مدرسة «ميموريال بويز سكول» التي تديرها في تبريز البعثة البروتستانتية الأميركية؛ وكان عليه أن يُعلّم الصبيان الفرس اللغة الإنكليزية والعلوم. وكان سيرحل للتوّ وهو يطلب مني النُّصح ورسائل التوصية. وبادرت إلى تهنئته واعداً إياه من غير تفكير بزيارته إذا ما ذهبت إلى فارس.

ولم أكن أفكّر في الذهاب إليها عمّا قريب. ولم تكن الرغبة هي التي تنقصني، وإنما كنت لا أزال متردّداً في القيام بهذه الزيارة بسبب التُّهَم الباطلة التي كانت تثقل عليّ. ألم أكن محسوباً شريكاً في مقتل ملك؟ وعلى الرغم من التغييرات التي حدثت في طهران فإني كنت أخشى أن يُقبض عليّ عند الحدود بسبب مذكّرة قديمة العهد، وألّا أتمكّن من إخطار أصدقائي أو مفوّضيتي.

غير أن رحيل باسكرڤيل دفعني إلى القيام ببعض الترتيبات لتصحيح وضعي. وكنت قد وعدت شيرين بألّا أكتب إليها على الإطلاق. وإذ كنت لا أريد المجازفة برؤيتها تقطع مراسلتها فقد توجّهت إلى فاضل الذي كنت أعلم أن نفوذه كان يتوطّد يوماً عن يوم. فقد كانت كلمته تُسمع أكثر من كلمة أيّ نائب في المجلس الوطني الذي تُتّخذ فيه أعظم القرارات.

ووصلني ردّه بعد ثلاثة أشهر وديّاً حارّاً مُرْفَقاً على الأخصّ بورقة رسمية تحمل ختم وزارة العدل وتؤكّد أني طاهر من كل ظنّ بالمشاركة في مقتل الشاه العجوز؛ وبالتالي فإنه مسموح لي بالتجوّل بحريّة في جميع إيالات فارس.

ومن غير أن أنتظر المزيد أبحرت إلى مرسيليا ومنها إلى سالونيك فالقسطنطينية فطرابزون قبل أن ألتفّ على ظهر بغل حول جبل أرارات وصولاً إلى تبريز.

وبلغتها في يوم قائظ من شهر حزيران (يونيو). وما كدت أستقرّ في فندق الحيّ الأرمني حتى كانت الشمس تماسُّ سقوف المنازل. وكنت مُصِرّاً مع ذلك على مقابلة باسكرڤيل بأسرع ما يمكن، وبناء على ذلك توجّهت إلى مقرّ البعثة البروتستانتيّة، وهو بناء منخفض ولكنه فسيح ومطليّ حديثاً بالأبيض الناصع وسط غابة من أشجار المشمش. وكان هناك صليبان مكتومان على السياج، وتحت باب الدخول علم مزيّن بالنجوم.

وتلقّاني بستاني فارسي ليقودني إلى مكتب الكاهن، وهو رجل طويل مُلْتَحٍ أحمر الشعر له هيئة البحّارة وقبضته قوية ومضيافة. وقبل أن يدعوني إلى الجلوس كان قد عرض عليّ سريراً يؤويني طوال مدة إقامتي.

ـ لدينا غرفة جاهزة على الدوام للمواطنين الذين يفاجئوننا ويشرّفوننا بالزيارة. ولستَ هدفاً لأية معاملة خاصّة، فأنا أكتفي باتّباع التقليد السائد منذ إنشاء هذه البعثة.

وعبّرتُ عن أسف صادق بقولي:

ـ سبق أن أودعت حقيبة متاعي في الفندق وأنوي متابعة طريقي بعد غدٍ إلى طهران.

ـ تستحقّ تبريز أكثر من يوم ينقضي على عجل. فكيف يمكنك الحضور إلى هنا من غير أن ترضى بإضاعة يوم أو اثنين في متاهات أكبر بازار في الشرق، ومن غير أن تشاهد أطلال المسجد الأزرق المذكور في «ألف ليلة وليلة»؟ إن الرحّالين مستعجلون جدّاً في أيامنا هذه، مستعجلون للوصول، للوصول بأي ثمن، ولكنّ الطريق لا يُحسب بنهايته وحسب. ففي كل مرحلة يصل المرء إلى مكانٍ ما، وفي كل خطوة يمكن اكتشاف وجه خفيّ من وجوه دنيانا، ويكفيه أن ينظر، وأن يتمنّى، وأن يصدّق، وأن يحبّ.

وبدا آسفاً حقّاً لرؤيتي مسافراً رديئاً. وألفيتني مرغماً على تبرير نفسي.

ـ الحقّ أن لديّ عملاً طارئاً في طهران، غير أني عرّجت على تبريز لرؤية صديق يُعَلِّم عندكم، هوارد باسكرڤيل.

وكفى ذكر هذا الاسم لتلبيد الجو. فلم يعد هناك أيّ مرح، ولا أية حيوية، ولا أيّة مؤاخذة أبوية. لم يعد هناك سوى سحنة منزعجة، بل متهرّبة كما دار في خلدي. وساد صمت ثقيل، وبعده:

ـ هل أنت صديق هوارد؟

ـ بشكل ما، فأنا المسؤول عن مقدمه إلى فارس.

ـ إنها لمسؤولية فادحة!

وبحثت بحثاً عن ابتسامة فوق شفتيه. وبدا لي بغتة مهموماً شائخاً، وتراخت كتفاه، وبدت نظرته شبه متوسّلة.

ـ إني أدير هذه البعثة منذ خمسة عشر عاماً، ومدرستنا أفضل مدارس المدينة، وفي وسعي الاعتقاد بأن عملنا نافع ومسيحي. والذين يشاطروننا نشاطاتنا يعتنون بتقدُّم هذه البلاد، وإلا فصدّقني أنه ما من شيء يُجبرهم على الإتيان من ذلك المكان البعيد جداً لمواجهة وسطٍ مُعادٍ في أغلب الأحيان.

لم يكن هناك ما يدفعني إلى الشكّ في كلامه، بيد أن الحماسة الت لجأ إليها الرجل للدفاع عن نفسه ضايقتني. فلم يكن قد مضى على وجودي في مكتبه غير دقائق، ولم اتّهمه بشيء ولا سألته شيئاً. وعليه فقد اكتفيت بهزّ رأسي بأدب. وتابع:

ـ عندما يُبدي أحد المبعوثين لامبالاة بإزاء الشقاء الذي يرسف الفُرس فيه، أو عندما لا يفرح معلّم بتقدّم تلامذه، فإني أنصحه جازماً بالعودة إلى الولايات المتحدة. إنه يحدث أن تضعف الحماسة، ولا سيّما في نفوس من هم أصغر سنّاً. وأي شيء يفوق هذا الموقف تمشّياً مع القوانين البشرية؟

وإذ انتهى هذا الاستهلال فقد سكت المحترَم وأصابعُه الضخمة متلجلجة حلو غيلونه. وبدا أنه يلقى مشقّة في العثور على الكلمات. وظننت أن من واجبي تسهيل مهمّته. وتبنّيت أشد النبرات جِياداً وقلت:

ـ تريد أن تقول لي إنّ هوارد فقد عزمه بعد هذه الأشهر القليلة، وأنه تبيّن أن حماسته للشرق لم تكن غير حماسة عابرة؟

وأجفل.

ـ يا الله، لا، لم أكن أعني بكلامي باسكرفيل! كنت أحاول أن أشرح لك ما يحدث لبعض متطوّعينا. وأما مع صديقك فالعكس هو الذي يجري، وهذا ما يجعلني أكثر قلقاً إلى أبعد الحدود. فهو بمعنىً من المعاني أفضل مدرّس تعاقدنا معه على الإطلاق، وتلاميذه يُحْرِزون تقدُّماً خارقاً، وأولياؤهم لا يحلفون إلا بحياته، ولم يسبق أن تلقّت البعثة مثل هذا القدر من الهدايا، حُملاناً وديوكاً وحلوى، وكل ذلك على شرف باسكرفيل. والمشكلة معه أنه يرفض التصرّف وكأنه أجنبي. ولو أنه يتسلّى بلبس زيّ الناس هنا، وبأكل الـ «پولو»، وبتحيّتي بلهجة البلد لكنت أكتفي بالابتسام من جرّاء ذلك. بيد أن باسكرفيل ليس بالرجل الذي يقف عند المظاهر، فقد انخرط بلا تحفّظ في المعركة السياسية، فهو يُثْني في الصفّ على «الدستور»، ويشجّع تلاميذه على انتقاد الروس والإنكليز والشاه و«الملالي» الرجعيين. بل إني لأرتاب في أن يكون ما يدعونه هنا «ابن آدم»، أي عضواً من أعضاء الجمعيات السريّة.

وتنهّد.

ـ بالأمس قامت أمام سياجنا مظاهرة يقودها اثنان من أشهر الزعماء الدينيين للمطالبة برحيل باسكرفيل، وإلا فبإغلاق البعثة بلا قيد ولا شرط. وبعد ثلاث ساعات قامت مظاهرة أخرى في

المكان عينه تهتف لهوارد وتطالب بإبقائه. وأنت تدرك ولا شكّ أنه إذا طال أمد الصراع فلن يكون في مقدورنا البقاء طويلاً في هذه المدينة.

ـ أظنّ أنك قد حدّثت هوارد في هذا.

ـ مئة مرّة، وبجميع النبرات. وجوابه لا يتغيّر، وهو أن يقظة الشرق أهمّ بكثير من مصير البعثة، وأنه إذا أخفقت الثورة أُرغمنا على كل حال على الرحيل. وفي وسعي بالطبع إنهاء عقده، غير أن عملاً كهذا لن يثير سوى سوء التفهّم والعداوة بين من ساندونا على الدوام من أفراد الشعب. والحلّ الأوحد هو في أن يحدّ باسكرفيل من غُلْوائه. وربما أمكنك هدايته سواء السبيل؟

وطلبتُ أن أرى باسكرفيل من غير أن أتعهّد بالقيام بمثل هذه المهمّة. وأضاءت ومضة مباغتة لحية المحترَم الحُميراء. وهبّ واقفاً وقال:

ـ اتبعني، سأريك باسكرفيل، وأظنّ أني أعرف أين هو.

تأمّله بصمت تفهمْ دوافعي وتشاطرْني حيرتي في أمري.

الكِتَاب الرابع

شَاعِر تَائِه

غدونا لذي الأفلاكِ ألعاب لاعب
أقولُ مَقالاً لستُ فيه بكاذبِ
على نَطْعِ هذا الكونِ قد لَعِبَتْ بنا
وعُذنا لصُندوق الفَنَا بالتَّعاقُبِ

عمر الخيّام

36

في الأصيل الأمغر المخيِّم على بستان مُسوَّر حَشْدٌ مُنْتَحِبٌ. وكيف السبيل إلى التعرُّف على باسكرڤيل؟ فجميع الوجوه مُقتَّرة! واتّكأت إلى شجرة أنتظر وأراقب. وعند عتبة كوخ مُضاء يقوم مسرح مُرْتَجَل. والـ «روزِخوان» القاصّ الباكي يستدرّ دموع المؤمنين وصراخهم ودماءهم.

ويخرج من الظلّ رجل اختار الألم طوعاً. إنه حافي القدمين عاري الجذع تلتفّ حول يديه سلسلتان غليظتان؛ وها هوذا يطلقهما في الهواء ويتركهما تسقطان وراء كتفيه فوق ظهره؛ والحديد مصقول، والجلد يصاب بالرضوض ويندعك، بيد أنه يصمد، ويحتاج إلى ثلاثين بل خمسين ضربة ليظهر أول أثر للدم طرطشةً سوداء تنسكب دفقات خلّابة. وإنه لمسرح الآلام، وإنها للعبة الآلام القائمة منذ الأزل.

واشتدّ الجَلْد مصحوباً بزفير صائت ردّدت الجماهير صداه، وتكرّرت الضربات ورفع القاصّ صوته ليطمس قَرْعها. وعندها برز ممثِّلٌ فهدّد بسيفه المشاهدين واستنزل بتكشيراته اللعنات على نفسه. ثم انهالت بضع رشقات من الحجارة. ولم يبقَ على المسرح طويلاً، وما لبث أن ظهر من كان ضحيّته. وأطلق الحشد

زعقة. ولم أستطع أنا نفسي قَمْعَ صرخة. إذ كان الرجل يجرّ نفسه على الأرض مفصول الرأس.

والتفتُّ إلى المحترَم مُستفظِعاً فطمأنني بابتسامة باردة وهمس:

ـ إنها حيلة قديمة. يؤتى بولد، أو برجل قصير جدّاً، ويثبَّت على رأسه رأسُ خروف مذبوح مقلوباً بطريقة يكون فيها النحر الدامي موجّهاً إلى فوق، ويُلَفّ الجميع في قماش أبيض مثقوب في المكان الملائم. وكما ترى فإن التأثير أخّاذ.

وجذب نَفَساً من غليونه. وأخذ الرجل المفصول الرأس ينطنط ويدور على المسرح دقائق طويلة. قبل أن يُخلي المكان لشخص عجيب منتحب.

إنه باسكرڤيل!

وألححت بنظري من جديد على المحترَم؛ فاكتفى برفعة ملغزة من حاجبيه.

وكان أغرب ما في الأمر أن يكون هوارد لابساً على الطريقة الأميركية، بل أنْ يعتمر قبعة عالية يثير مرآها الضحك على الرغم من الجوّ المأساوي السائد.

ومع ذلك فقد صاح الحشد وانتحب ولم يكن على أيّ من الوجوه، بقدر ما استطعت أن أرى، أقلّ أثر من آثار اللهو. باستثناء وجه الكاهن الذي تنازل في النهاية فوضّح لي:

ـ هناك على الدوام في هذه الاحتفالات الجنائزية شخص أوروبي، وهو ينتمي ـ ويا للعجب! ـ إلى طائفة «الأخيار». فالعادة تقضي بأن يكون في البلاط الأموي سفير من الفرنجة، وأن يتأثّر لموت الحسين أعظمِ شهيد شيعيّ، وأن يُبدي عالياً شجبه للجريمة فيُحكَم عليه هو نفسه بالموت. وبديهي أنهم لا يملكون على الدوام أوروبياً لإظهاره على المسرح، ولذا فإنهم يستعينون على ذلك بتُركيّ أو فارسيّ أبيض البشرة. غير أنه منذ

وصول باسكرڤيل إلى تبريز وهم يستدعونه على الدوام لتمثيل هذا الدور. وهو يمثّل تمثيلاً رائعاً. ويبكي بكاءً حقيقياً!

وعاد حامل السيف في هذه اللحظة وأخذ يحوّم في صخب حول باسكرڤيل. وجمد هذا وأسقط قبعته بضربة من يده كاشفاً شعره الأشقر المفروق فرقاً أنيقاً إلى اليسار، ثم جثا على ركبتيه متمهّلاً تمهُّلَ شخص يتحرّك تلقائياً، وتمدّد على الأرض وقد أضاء شعاعٌ وجهَه الطفوليّ الأمرد ومقلتيه الدامعتين، ونثرت يد قريبة على بذلته السوداء حفنة من البَتّلات.

ولم أعُدْ أصغي إلى الجمهور، فعيناي شاخصتان إلى صديقي، وأنا أنتظر في قلق أن ينهض مجدّداً. وبدا لي الاحتفال بلا نهاية. وإني لأتحرّق شوقاً إلى استعادة الرجل.

وما هي إلا ساعة حتى التقينا في دار البعثة حول خشاف ساخن بحبّ الرمان. وتركنا الكاهن وحدنا. ورافقنا صمت متردّد. وكانت عينا باسكرڤيل لا تزالان حمراوين. واعتذر قائلاً بابتسامة منكسرة.

ـ إني أُرَمِّم ببطء روح الغربيّ التي أمتلكها.

ـ لديك متّسع من الوقت فالقَرْن ليس إلا في بدايته.

وتنحنح وحمل الطاسة الساخنة إلى شفتيه، وغرق من جديد في تأمُّل ساكن. ثم قال بمشقّة:

ـ عندما وصلت إلى هذا البلد لم أكن أفهم أن يتفجّع رجال بالغون ملتحون على مقتلِ ارتُكِب منذ ألفِ ومئتي عام. والآن فهمت. فإذا كان الفرس يعيشون في الماضي فلأن الماضي دارُهم، ولأن الحاضر دارٌ غريبةٌ لا شيء فيها يخصّهم. وكل ما هو في نظرنا رمز للحياة العصرية، لتفتُّح الإنسان وتحرّره، هو في نظرهم رمز للهيمنة الأجنبية: الطُرُق معناها روسيا؛ سكة الحديد والتلغراف والمصرِف معناها إنكلترا؛ البريد معناه النمسا ـ هنغاريا . . .

ـ . . . وتعليم العلوم معناه السيد باسكرفيل من البعثة البروتستانتية الأميركية.

ـ بالضبط. فأي خيار يملكه أهل تبريز؟ فإما أن يتركوا أبناءهم في المدرسة التقليدية يردِّدون طَوال عشر سنوات ما ردَّده أجدادهم في القرن الثاني عشر [الميلادي] من عبارات مشوَّهة؛ وإما أن يرسلوهم إلى صفّي فيحصلوا على تعليم معادِل للتعليم الذي يتلقّاه صغار الأميركان، ولكنْ في ظل صليب وعَلَم مزيّنٍ بالنجوم. لسوف يكون تلاميذي أفضل التلاميذ وأمهرهم وأكثرهم نفعاً لبلادهم، ولكنْ كيف السبيل إلى منع الآخرين من النظر إليهم على أنهم مرتدُّون خَوَنَة؟ لقد تساءلت عن ذلك منذ الأسبوع الأول على وصولي، ووجدت الحلّ خلال حفلة مثل الحفلة التي شاهدتَها قبل قليل.

«وخالطت الحشد، وتعالى حولي النحيب. وإذ كنت أراقب تلك الوجوه الكئيبة المدمَّرة، وأحدِّق في تلك العيون المذعورة الزائغة المتضرِّعة، فقد تكشّف لي بؤس فارس برمّته، نفوساً ممزَّقة يحاصرها حِداد لا نهاية له. ومن غير أن أدري أخذت دموعي تسيل. ولاحظ الحضور ذلك، ونظروا إليّ فتأثّروا ودفعوني إلى المسرح حيث جعلوني أمثل دور السفير الفرنجي. وفي اليوم التالي حضر أولياء تلاميذي للقائي؛ لقد كانوا سعداء بأن يتمكّنوا بعدُ من إجابة مَنْ يأخذون عليهم إرسالهم أبناءهم إلى البعثة البروتستانتية: «لقد عهدتُ بابني إلى المعلِّم الذي بكى على الإمام الحسين». وتضايق بعض الزعماء الدينيين، وإن نجاحي ليفسِّر عِداءهم لي، إذ هم يفضِّلون أن يبدوَ الأجانب أجانب».

فهمت بشكل أفضل ما كان من تصرّفه، غير أن ارتيابي لم يزايلني:

ـ وهكذا فإن حلّ مشكلات فارس يكون في نظرك بالانضمام إلى موكب النادبين!

ـ لم أَقُلْ هذا. فليس البكاء وصفة طبّية. ولا هو حِذق ولا مهارة. إنه ليس سوى حركة مكشوفة ساذجة تدعو للرثاء. فلا ينبغي أن يجهد أحد في سفح الدمع. والشيء الوحيد المهمّ هو عدم احتقار مأساة الآخرين. وعندما رآني الناس أبكي، عندما رأوني أتخلّى عن لامبالاة الأجنبي المتعالية، جاءوا يقولون لي سرّاً إنه لا ينفع البكاء، وأن فارس ليست بحاجة إلى نادبين إضافيين، وأن خير ما يمكنني فعله هو أن أُغدِق على أبناء تبريز التعليم الملائم.

ـ إنها لأقوال حكيمة. كنت على وشك أن أقول لك الشيء نفسه.

ـ بيد أنه لو لم أبكه لما جاءوا يحدّثونني. ولو لم يشاهدوني أبكي لما تركوني أقول للتلاميذ إن هذا الشاه فاسد، وأن الرؤساء الدينيين في تبريز ليسوا قطّ أفضل منه!

ـ لقد قلت إذن هذا في الصفّ!

ـ أجل، قلت هذا أنا الشاب الأميركي غير الملتحي، ولقد جَلَدْتُ أنا المدرّس الصغير في مدرسة البعثة البروتستانتيّة التاج والعمائم ووافقني تلاميذي الرأي ومعهم ذووهم. والمستاء الوحيد كان المحترَم!

وإذ رآني مرتبكاً فقد أضاف:

ـ لقد حدّثتُ التلاميذ أيضاً عن الخيّام، وقلت لهم إن ملايين الأميركيين والأوروبيين قد جعلوا من «رباعياته» الكتاب الذي يقرأونه قبل النوم، وجعلتهم يستظهرون أشعار «فتزجيرالد». وفي اليوم التالي حضر جَدُّ أحد التلاميذ لمقابلتي وهو لا يزال متأثّراً بما أخبره حفيده، وقال لي: «نحن أيضاً نحترم كثيراً الشعراء الأميركيين!» وكان عاجزاً بالطبع عن تسمية واحد منهم، ولكن ما هَمَّ، فقد كان ذلك في نظره طريقة للتعبير عن الاعتزاز والعرفان.

ولم يكن ردّ فعل جميع الأولياء على هذا النحو ويا للأسف، فقد جاء أحدهم شاكياً وقال لي في حضرة الكاهن: «لقد كان الخيّام سكّيراً وكافراً!» وأجبت: «إنك بقولك هذا لا تشتم الخيّام بل تمدح السُكْر والكُفْر!» وأوشك المحترم أن يختنق.

وضحك هوارد ضحكة طفل. إنه لا سبيل إلى تقويمه، وإنه ليستدعي التأثُّر.

ـ أنت تُعلن على هذا بمَرَحٍ كلَّ ما أنت متّهم به! أتكون أيضاً «ابن آدم»؟

ـ هل قال لك المحترَم هذا أيضاً؟ يساورني شعور بأنكما تحدّثتما طويلاً عني.

ـ لم نكن نملك معرفة مشتركة بغير هذا الأمر.

ـ لن أخفي عنك شيئاً فأنا أملك وجداناً يماثل وجدان وليدٍ طُهْراً. لقد جاء رجل لمقابلتي منذ حوالي شهرين. ولقد سألني، وهو عملاق مُشَوْرَب، عمّا إذا كان بإمكاني أن أحاضر في مقر الـ «أنجمان»، النادي الذي هو عضو فيه. في أي موضوع؟ لن تستطيع أبداً أن تخمّن. في نظرية «دارون»! وفي جوّ الغليان السياسي السائد في البلد وجدت الأمر مسلّياً ومثيراً. وقَبِلْت. وجمعتُ كل ما استطعتُ الحصول عليه بشأن ذلك العالِم، وعرضت نظريّات ثالبيه، وأعتقد صادقاً أن أدائي كان مُضجِّراً، غير أن القاعة كانت غاصّة وقد استمع الناس إليّ بخشوع. ولقد ذهبت مذّاك إلى اجتماعات أخرى في موضوعات شتّى. فأولئك الناس متعطّشون عطشاً شديداً إلى المعرفة. وهم أيضاً أشدّ الناس انتصاراً للدستور. ويحدث أن أَمُرَّ على مقرّهم لاستطلاع آخر أنباء طهران. ينبغي أن تتعرّف إليهم فهم يحلمون بالعالَم الذي نحلم به أنا وأنت.

37

قليلة هي الدكاكين التي تظلّ أبوابها مفتوحة في المساء في بازار تبريز، غير أن الشوارع تبقى على حالها من الحركة ويعقد الرجال عند مفترقات الطرقات مجالس السمر في حلقات من الكراسي المقشّشة والـ «قليانات» التي يطرد دخانها رويداً رويداً آلاف الروائح التي خلّفها النهار. وتبعتُ خُطى هوارد، وكان ينعطف من زقاق إلى زقاق من غير ما نظرة تردّد؛ وكان يتوقّف من وقت إلى آخر لتحية قريب من أقرباء تلاميذه، وكان الصِبْية يتوقّفون في كل مكان عن اللعب ليفسحوا له مجال المرور.

ووصلنا في النهاية إلى باب نهشه الصدأ. ودفعه رفيقي وعبرنا حديقة صغيرة ذات أشواك إلى بيت من اللِّبن انفتح بابه، بعد سبع قرعات حادّة، وهو يَصُرُّ، على غرفة فسيحة يضيئها صفّ من المصابيح المقاوِمة للريح كانت معلّقة في السقف مترجّحة بلا انقطاع بفعل تيّار هوائي. ولا بدّ أن الأشخاص الموجودين كانوا قد ألفوها؛ وأما أنا فقد خامرني شعور بأني ركبت متن قارب غير مأمون. فما استطعت تحديد نقطة واحدة في أي وجه من الوجوه، وأحسست بحاجة إلى الاستلقاء بأسرع ما يمكن وإغماض عينيّ بعض الوقت. غير أن الترحيب طال إلى ما لانهاية. فلم يكن

باسكرفيل بالنكرة في اجتماع «أبناء آدم» وكان يُستقبل بحماسة، وكان من حقّي لمجرّد أني رافقته أن أحظى بمعانقات أخوية تجدّدت شَرْعاً عندما صرّح هوارد بأني كنت السبب في مجيئه إلى فارس.

وعندما ظننتُ أن الوقت قد حان للجلوس والاستناد بعد لأي بظهري إلى الجدار، وقف رجل طويل في صدر الغرفة. وكان على كتفيه طيلسان طويل أبيض يشير بما لا يدع مجالاً للخطأ إلى أنه الشخص المرموق بين المجتمعين. وتقدّم خطوة باتجاهي:

ـ بنجامين!

ونهضتُ وتقدّمت خطوتين وفركتُ عينيّ. فاضل! وارتمى كل منّا بين ذراعي الآخر في قَسَم ينمّ عن الدهشة.

ولكي يفسّر لرفاقه هذا الدفق العاطفي الذي لا يتلاءم كثيراً ومزاجَه فقد توجَّه إليهم قائلاً:

ـ كان السيد لوساج صديقاً للسيد جمال الدين!

وللحال لم أعد زائراً مرموقاً بل أمسيت نُصُباً تاريخياً أو تذكاراً مقدَّساً؛ ولم يَعُدْ أحد يدنو مني إلّا بإجلال مُرْبِك.

وقدّمتُ هوارد إلى فاضل، فلم يكونا قد تعارفا إلّا بالصيت؛ ففاضل لم يكن قد جاء منذ أكثر من عام إلى تبريز مع أنها مسقط رأسه. ومن جهة أخرى فإن وجوده هذا المساء بين هذه الجدران المبقَّعة تحت هذه الأضواء الراقصة كان فيه بعض الشذوذ والبعث على القلق. أفلم يكن واحداً من القادة الطليعيين للنواب الديمقراطيين، وأحد أعمدة الثورة الدستورية؟ أفكان الوقتُ وقتَ ابتعاد عن العاصمة؟ أسئلة طرحتها عليه. وبدا منزعجاً.. وكنت مع ذلك قد تكلّمت بالفرنسية وبصوت خافت. ونظر نظرة خاطفة إلى من بجواره، ثم كان كل ما ردّ به قوله:

ـ أين تقيم؟

ـ في فندق الحيّ الأرمني.

ـ سآتي لزيارتك في الليل.

في حوالي منتصف الليل كنّا ستّة في غرفتي. أنا وباسكرفيل وفاضل وثلاثة من رفاقه قدّمهم إليّ ـ حسبما تقضي السريّة ـ بأسمائهم الأولى.

ـ سألتَني في مقرّ الـ «أنجمان» عن سبب وجودي هنا لا في طهران. اعلم أن السبب هو ضياع العاصمة منذ مدّة من يد الدستور. ولم يكن في وسعي إعلان ذلك بهذه العبارة لثلاثين شخصاً، ولو فعلت لنفخت في رياح الذعر. ولكنّها الحقيقة.

وكنّا جميعاً من الذهول بحيث أُرْتِجَ علينا. فأوضح:

ـ منذ أسبوعين جاء صحفي من سان بطرسبورغ لزيارتي، إنه مراسل جريدة «رَيْش» ويُدعى «پانوف» غير أنه يوقّع باسم مستعار «تانيه».

وكنت قد سمعت به، وكانت مقالاته تُذكَر أحياناً في الصحافة اللندنية.

وتابع فاضل:

ـ إنه اشتراكي ديمقراطي وعدو للقيصرية، بيد أنّه تمكّن عند وصوله إلى طهران منذ بضعة أشهر من إخفاء قناعاته وتدبُّرِ أمرِ الدخول إلى المفوضية الروسية، ولا أدري بأي صُدفة أو أيّ حيلة استطاع أن يضع يده على وثائق تثير الشبهات: مشروع انقلاب ينفِّذه القوزاق لإعادة فرض حكم ملكي مطلق. وكان كل شيء مُعَدّاً وواضحاً ومفصَّلاً. وكان ينبغي إطلاق اللصوص في البازار لضرب ثقة التجّار في النظام الجديد، وكان على الزعماء الدينيين توجيه التماسات إلى الشاه بإلغاء الدستور المخالف على حدّ زعمهم للإسلام. ولقد جازف «پانوف» بالطبع حين أحضر إليّ هذه الوثائق. وشكرتُه على ذلك وطلبت على الفور اجتماعاً

استثنائياً للبرلمان. وإذ عرضت الوقائع بالتفصيل فقد طالبت بعزل الشاه واستبداله بأحد أبنائه الشباب، وبحلّ الكتيبة القوزاقية واعتقال رجال الدين المُجَرِّمين. وتعاقب على المنصّة عدة خطباء للتعبير عن استنكارهم وتأييد مقترحاتي.

«وفجأة دخل أحد الحجّاب يخبرنا أن وزيريْ روسيا وإنكلترا المفوَّضين موجودان في المبنى ويحملان مذكّرة مستعجلة لنقلها إلينا. وعُلّقت الجلسة وخرج رئيس المجلس ورئيس الوزراء؛ ولدى عودتهما كان وجهاهما كوجوه الموتى. فقد أنذرهما الدبلوماسيان أنه إذا أُقيل الشاه وَجَدَتِ القوّتان أنفسهما مضطرَّتين مع الأسف للتدخّل عسكرياً. ولم يكن يُهيَّأ لخنقنا وحسب، بل لقد مُنعنا حتى من الدفاع عن أنفسنا!

وسأل باسكرڤيل مذعوراً:

ـ ولماذا هذه الضراوة؟

ـ لا يرغب القيصر في وجود حكم ديمقراطي على حدوده، وكلمة برلمان تجعله يرتعد غضباً.

ـ ولكنْ ليست هذه حال البريطانيين!

ـ لا. غير أنه إذا تمكّن الفرس من حكم أنفسهم كما يفعل البالغون فقد يوسوس ذلك للهنود! وعندها لا يكون أمام الإنكليز سوى توضيب أمتعتهم. ثم هناك النفط. فقد حصل أحد الرعايا البريطانيين، المستر نوكس دارسي، عام 1901 م على حق استثمار النفط في الإمبراطورية الفارسية بأسرها لقاء مبلغ عشرين ألف ليرة استرلينية. ولقد كان الإنتاج إلى الآن ضئيلاً، غير أن آباراً ضخمة اكتُشفت منذ بضعة أسابيع في منطقة القبائل البختيارية، ولا شكّ أنك سمعت بذلك. ومن شأن هذا أن يمثّل مَوْرِداً مهمّاً للبلاد. وعليه فقد طلبتُ من البرلمان أن يعيد النظر في الاتّفاق مع لندن للحصول على شروط أكثر إنصافاً؛ وقد

وافقني على ذلك معظم النواب. ومذّاك لم يعد وزير إنكلترا يدعوني إلى منزله.

وسألت متفكّراً:

ـ ومع ذلك فإن «البست» كان قد تمّ في حدائق مفوّضيته.

ـ كان الإنكليز يقدّرون في ذلك العهد أن نفوذ الروس كان كبيراً جدّاً وأنه لم يكن يُترك لهم إلّا النصيب القليل من قالب الحلوى الفارسية؛ وعليه فقد شجّعونا على الاحتجاج وفتحوا لنا حدائقهم، بل إنه يُقال إنهم هم الذين أمروا بطبع الصورة التي تُورِّط السيد «نوس». وعندما انتصرت حركتنا استطاعت لندن الحصول من القيصر على اتفاقية للاقتسام: يصبح شمال فارس منطقة نفوذ روسي، ويكون جنوبه مَحْمِيَّة إنكليزية. وما إن نال البريطانيون مرادهم حتى بطل فجأة اهتمامهم بديمقراطيتنا؛ فهم، على غرار القيصر، لا يرون فيها الآن غير الأضرار ويؤثرون رؤيتها تختفي من الوجود.

وانفجر باسكرڤيل قائلاً:

ـ بأي حقّ؟!

وطالعه فاضل بابتسامة أبوية قبل أن يتابع حكايته قائلاً:

ـ خار عزم النواب إثر زيارة الدبلوماسيين. وإذ كانوا عاجزين عن مواجهة هذا القَدْر من الأعداء دَفْعَةً واحدة فإنهم لم يجدوا خيراً من مهاجمة المسكين «بانوف». فاتّهمه عدة خطباء بأنه مُضلِّل وفوضوي قد يكون هدفه الوحيد إشعال حرب بين فارس وروسيا. وكان الصحفيّ قد أتى معي، وكنت قد تركته في مكتب قريب من باب القاعة الكبرى ليتمكّن من الإدلاء بشهادته إذا لزم الأمر. وها هم النواب أولاءِ يطالبون الآن باعتقاله وتسليمه إلى مفوّضية القيصر. ولقد قُدِّم اقتراح بهذا المعنى.

«إنّ هذا الرجل الذي ساعدنا على حكومته بالذات سوف

يُسْلَم إلى الجلّاد! ولم أستطع أنا الشديد الهدوء في العادة تمالك نفسي فاعتليت كرسيّاً وصرخت كالمجنون: «أقسم بتربة أبي أن استنفر «أبناء آدم» إذا اعتُقل هذا الرجل وأن أُغرِق هذا البرلمان بالدم. ولن يخرج حيّاً من هنا أيّ شخص يوقّع على هذا الاقتراح!» وكان في وسعهم أن يرفعوا عني حصانتي وأن يعتقلوني بدوري. ولم يجرؤوا. وعلّقوا الجلسة إلى اليوم التالي. وفي الليلة نفسها غادرت العاصمة ووصلت اليوم إلى المدينة التي وُلِدْتُ فيها. وقد رافقني «پانوف»، وهو مختبىء في مكان ما بتبريز بانتظار الرحيل إلى الخارج».

وطال بنا الحديث. وما هي إلا أن داهمنا الفجر، وارتفع الأذان للصلاة وازداد النور حدّة. وكنا نتجادل ونكدّس ألف مستقبل مظلم ثم نعود إلى الجدال ولا نفكّر في التوقّف لشدّة ما نحن فيه من خَوَر. وتمطّى باسكرڤيل وقطع حديثه ونظر في ساعته ونهض كمن ينهض وهو نائم حاكّاً عنقه حكّاً حثيثاً وقال:

– إنها السادسة، رباه، ليلة بيضاء! بأي وجه سأقابل تلاميذي؟ وماذا سيقول المحترَم وهو يراني أدخل في هذه الساعة؟

في وسعك على كل حال أن تزعم أنك كنت بصحبة امرأة!

غير أن مزاج هوارد لم يكن يسمح له بالابتسام.

لا أريد الحديث عن المصاقبة، فليس للصُدْفة كبير دور في القضية، غير أنّ عليّ أن أشير إلى أنه في اللحظة التي انتهى فيها فاضل من وصف ما كان يحاك للديمقراطية الفارسية الفتيّة من مكيدة استناداً إلى الوثائق التي سرقها «پانوف» كان تنفيذ الانقلاب قد بدأ.

والحقّ أنه، كما علمت فيما بعد، في نحو الساعة الرابعة صباحاً من ذلك الأربعاء الواقع في الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) 1908 م تحرّكت وحدة من ألف قوزاقي بقيادة العقيد

«لياخوف» نحو «البهارستان» مقرّ البرلمان في قلب طهران. وحوصر المبنى وروقبت مداخله. وإذ لاحظ الأمر بعض أعضاء من «أنجمان» محليّ فقد هرعوا إلى مدرسة ثانوية زُوِّدت حديثاً بتلفون واتّصلوا ببعض النواب ورجال الدين الديمقراطيين من أمثال آية الله بهبهاني وآية الله طباطبائي. ووصل هؤلاء قبل الفجر إلى المكان ليشهدوا بحضورهم على تعلّقهم بالدستور. والعجيب أن القوزاق تركوهم يمرّون. فقد كانت الأوامر الصادرة إليهم تقضي بمنع الخروج لا الدخول.

ولم يتوقّف حشد المحتجّين عن الازدياد. وعند ارتفاع النهار كانوا عدة مئات من بينهم عدد كبير من «أبناء آدم». وإذ كانوا مزوَّدين بالبنادق، ولكن بالقليل من الذخائر، أي بستين رصاصة لكل منهم، فإنه لم يكن هناك ما يسمح بالدفاع عن مقرّ. أضف أنهم كانوا متردِّدين في استخدام تلك الأسلحة والذخائر. وقد اتّخذوا بالفعل مواقع على السطوح وخلف النوافذ، بيد أنهم لم يكونوا يدرون ما إذا كان عليهم البدء بالإطلاق وإعطاء الإشارة لمذبحة لا يمكن تجنّبها، أم إذا كان ينبغي أن ينتظروا سلباً أن تتمّ تدابير الانقلاب.

والحقّ أن هذا هو بالذات ما كان يؤخّر هجوم القوزاق. فقد كان لياخوف يحيط به ضباط روس وفرس منهمكاً في ترتيب عسكره ومدافعه، وقد أُحصي منها ستة في ذلك اليوم، وكان أفتكها موضوعاً في ميدان «توپخانه». وقد مرّ العقيد على حصانه عدّة مرات على مرمى نار المدافعين، غير أن الشخصيات الموجودة منعت «أبناء آدم» من الإطلاق تخوّفاً من أن يَتَذَرّع القيصر بمثل هذا الحادث لاجتياح فارس.

وأعطي الأمر بالهجوم في حوالي منتصف الضحى. وعلى الرغم من عدم التكافؤ فإن المعركة اسْتَعَرت طَوال ست ساعات

أو سبع. وقد توصّل المقاومون إلى تعطيل ثلاثة مدافع بسلسلة من الضربات الجريئة.

ولم يكن ذلك سوى بطولة اليأس. وعند الغروب ارتفع علم الهزيمة الأبيض على أول برلمان في التاريخ الفارسي. غير أن لياخوف أمر رجال مدفعيته بالضرب من جديد بعد مرور بضع دقائق على آخر طلقة. فقد كانت توجيهات القيصر واضحة: لا يكفي إلغاء البرلمان وإنما ينبغي هدم مبناه ليراه أهل طهران أطلالاً ويبقى ذلك عبرة للجميع إلى الأبد.

38

لم تكن المعارك قد انتهت بعدُ في العاصمة عندما انفجر أول قتال في تبريز. وكنت قد مررت لاصطحاب هوارد عند انصراف التلاميذ، فقد كنا على موعد في مقر الـ «أنجمان» للذهاب مع فاضل لتناول الغداء عند أحد أقربائه. ولم نكن قد دخلنا بعد متاهة البازار عندما سُمعت طلقات نارية بدا أنها قريبة.

وبفضول مشوب بالطيش توجّهنا نحو المكان الذي انطلقت منه الأصوات لنرى على بُعد مئة متر تقريباً حشداً هاتفاً من السائرين: غبار ودخان وغابة من الهراوات والبنادق والمشاعل المتوهّجة، وصيحات لم أكن أفهمها لأنها كانت باللسان «الأزاري»، وهو لهجة تركية لأهالي تبريز. وجهد باسكرڤيل في الترجمة: «الموت للدستور! الموت للبرلمان! الموت للكفرة! يحيا الشاه!» وكان عشرات من الأهالي يتراكضون في جميع الاتجاهات. وكان عجوز يجرّ عنزة مذعورة بطرف حبل. وعثرتِ امرأة وأعانها على النهوض ابنها الذي لم يكد يبلغ السادسة وأسندها وهي تواصل فرارها ظالعة.

ونحن أيضاً حثثنا الخُطى إلى مكان الموعد. وعلى الطريق كانت زمرة من الشبّان تقيم حاجزاً من جذعي شجر تكدّس فوقهما

بفوضى كبيرة طاولات وقطع قرميد وكراسيّ وصناديق وبراميل.

وتعرّفوا علينا فتركونا نمرّ ناصحين إيّانا بالإسراع لأنّ «هم آتون إلى هنا»، «يريدون إحراق الحيّ»، «لقد حلفوا بأن يذبحوا جميع أبناء آدم».

وفي مقرّ الـ «أنجمان» كان أربعون شخصاً أو خمسون يحيطون بفاضل الوحيد الذي لم يكن يحمل بندقية. ولم يكن معه من سلاح غير مسدس من طراز منليشر نمساوي بدا أنه غير صالح إلّا للإشارة إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه كل شخص. وكان هادئاً وأقلّ قلقاً ممّا كان البارحة، هادئاً كما يكون الرجل النشيط عندما ينتهي الانتظار المُمِضّ.

وقال لنا بنبرة انتصار خفيّة:

– إليكما، إن كل ما أخبر به «پانوف» كان صحيحاً. لقد قام العقيد لياخوف بانقلابه وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً على طهران وفرض فيها منع التجوّل. ومنذ هذا الصباح انفتحت معركة مطاردة أنصار الدستور في العاصمة وجميع المدن الأخرى. بدءاً بتبريز.

وأبدى هوارد تعجّبه قائلاً:

– لقد انتشر كل شيء بسرعة.

– إن قنصل روسيا، وكان قد أخبر برقياً نبأ قيام الانقلاب، هو الذي أعلم رؤساء تبريز الدينيين بالأمر هذا الصباح. ودعا هؤلاء أنصارهم للتجمّع ظهراً في «الدواشي»، حيّ الجمّالين. ومن هناك انتشروا في أرجاء المدينة. وتوجّهوا أول ما توجّهوا إلى منزل صحفي من أصدقائي، علي مشدي، وسحبوه من وسط عويل امرأته وأمه وحزّوا عنقه ويُمناه وتركوه في بحيرة من الدماء. ولكن اطمئنوا فسوف يثأر لعليّ قبل حلول المساء.

وخانه صوته فتدبّر لحظة راحة وتنفُّس عميق قبل أن يستأنف قائلاً:

– إذا كنتُ قد أتيتُ إلى تبريز فلعلمي بأن هذه المدينة سوف تصمد. والأرض التي نقف عليها في هذه اللحظة لا تزال تحت حكم الدستور. وهنا يقوم منذ الآن مقرّ البرلمان ومقرّ الحكومة الشرعية. ولسوف تكون معركة رائعة تنتهي بانتصارنا. اتبعاني.

وتبعناه مع ستة من أنصارنا فقادنا إلى الحديقة ودار حول المنزل حتى وصل إلى سُلَّم خشبية ينتهي طرفها في كتلة كثيفة من ورق الشجر. وبلغنا السطح وعبرنا عبّارة أفضت بنا إلى درجات أخرى لنجد أنفسنا في غرفة صفيقة الجدران ضيّقة النوافذ وكأنّها كُوى الرمي في الأبراج. ودعانا فاضل لإلقاء نظرة: كنّا نشرف على أشدّ مداخل الحيّ عَطَباً، وكان يحميه حاجز في الوقت الحاضر. وخلفه جثا عشرون رجلاً مسدِّدين بنادقهم.

وأوضح فاضل:

– هناك غيرهم في مثل عزمهم. إنهم يسدّون جميع منافذ الحيّ. وإذا وصل الرَّهْط استُقبِل بما يستحقّه.

ولم يكن «الرَّهْط»، كما سمّاه، بعيداً. فلا بدّ أنه توقّف في الطريق لإشعال منزلين أو ثلاثة من منازل «أبناء آدم»، إلّا أنه لم يكن قد كَلَّ ولا استسلم، فقد كانت الجلبة والطلقات النارية تقترب.

وبغتة عرانا بعض الارتعاش. ومهما توقّع المرء أمراً، ومهما كان محتمياً بجدار فإن مرأى جمهور هائج يزعق حتى الموت ويهجم عليه مباشرة هو أكثر المِحَن بعثاً على الهلع.

وهمست بشكل غريزيّ:

– كم عددهم؟

وأجاب فاضل بصوت مرتفع واضح مُطَمْئِن:

– ألف، ألف وخمسمئة على الأكثر.

قال ذلك قبل أن يضيف وكأنه يُصدر أمراً:

ـ الآن جاء دورنا لإنزال الرعب في قلوبهم.

وطلب من مساعديه أن يعهدوا إلينا ببندقيتين. وتبادلت وهوارد نظرات شبه مرِحَة؛ ورُزنا هذين الشيئين الباردين بدهشة واشمئزاز.

وهتف فاضل:

ـ تمركزوا في النوافذ وأطلقوا النار على أي شخص يقترب. وأما أنا فينبغي أن أغادركم لأني أحتفظ بمفاجأة لهؤلاء البرابرة!

وما إن خرج حتى نشبت المعركة. ولا ريب في أن الكلام على معركة فيه غلوّ. فقد أقبل المشاغبون زمرةً مخبَّلة واندفعت طليعتهم إلى الحاجز وكأنها في سباق عقبات. وأطلق «أبناء آدم» النار. رشقةً. ثم أخرى. وسقط زهاء عشرة من المهاجمين وتقهقر الباقون، ونجح واحد فقط في تسلّق الحاجز ولكنْ لكي تنفذ فيه حربة بندقية وكأنها سَفّود. وتلا ذلك زعيق احتضار؛ وأشحتُ بوجهي.

وبقي معظم المتظاهرين في الوراء بحذر مكتفين بالترديد بصوت أبحّ الشعارات نفسها «الموت لِـ. . .» ثم دُفع من جديد بزمرة لمهاجمة الحاجز، وكان الهجوم هذه المرة منهجياً بعض الشيء، أي بإطلاق النار على المدافعين وعلى النوافذ التي انطلقت منها العيارات. وأصيب أحد «أبناء آدم» في جبينه فكان الفقيد الأوحد في معسكره. فرشقات رفاقه كانت قد عادت تحصد صفوف المهاجمين الأولى.

وخارت قوى الهجوم فتراجعت وتداولت في صخب. وتجمّعت لمحاولة جديدة عندما زلزل الحيَّ دويٌّ. فقد سقطت قذيفة وسط المشاغبين نجم عنها مذبحة تبعها فرار. وعندها رفع المدافعون بنادقهم وهم يصيحون «مشروتي! مشروتي!» ـ أي دستورا ـ وكانت تُلْمَحُ من الجهة الأخرى للحاجز عشرات الجثث الممدّدة. وهمس هوارد:

ـ لا يزال سلاحي بارداً، فأنا لم أطلق أيّة رصاصة. وأنت؟

ـ ولا أنا.

ـ يا لغرابة أن يكون في خطّ مرماي رأس إنسان لا أعرفه، وأن أضغط على الزناد لقتله. . .

ووصل فاضل بعد لحظات، نشيطاً طلق المحيّا.

ـ ما كان رأيكم في مفاجأتي؟ إنه مدفع فرنسي قديم، من طراز «دو بانج» باعنا إيّاه ضباط في الجيش الإمبراطوري. إنه فوق السطح، تَعَالَوْا للتفرّج عليه! سوف يأتي يوم قريب نقيمه فيه وسط أوسع ساحة في تبريز ونكتب عليه «لقد أنقذ هذا المدفع الدستور!».

ووجدت قوله مسرفاً في التفاؤل، على الرغم من أنني لم أستطع المعارضة في أنه حاز في بضع دقائق انتصاراً ذا مغزى. وكان هدفه واضحاً: الإبقاء على جزيرة صغيرة يتمكّن فيها آخر المخلصين للدستور من التجمّع والاحتماء والتفكير على الأخصّ معاً في ما ينبغي عليهم عمله في المستقبل.

ولو أن أحدهم قال لنا في ذلك اليوم الكَدِر من حزيران (يونيو) إننا سوف نعيد إلى فارس بأسرها حريّتها المسروقة، وإن ذلك سيكون انطلاقاً من بضعة أزقّة متداخلة من أزقة بازار تبريز، وبحفْنتينْ من البنادق من طراز «لوبل» وبمدفعنا الوحيد من طراز «دو بانج»، فمن كان يصدقه؟

ومع ذلك فإن هذا هو ما حصل، ولكنْ ليس من غير أن يدفع أخلصُنا وأنقانا حياته ثمناً له.

39

إنها لأيام قاتمة في تاريخ بلد الخيّام. أكان ذلك هو الفجر الموعود للشرق؟ فمن أصفهان إلى قزوين، ومن شيراز إلى همذان، كانت الصيحات نفسها تتصاعد من مئة صدر بل ألف صدر أعمى: «الموت لِـ . . . ! الموت لِـ . . . !» ومذّاك أصبح على المرء أن يختبىء ليقول بالحرية والديمقراطية والعدل. فلم يَعُدِ المستقبل سوى حلم محرَّم، وطورد أنصار الدستور في الشوارع، وخُرِّبت مقرّات «أبناء آدم» وكُدِّست كتبهم وأُحرقت. ولم يكن بالمستطاع وقف السيل البشع في أي مكان على امتداد رقعة فارس.

في أي مكان إلا في تبريز. وحتى في المدينة الباسلة فإنه حين انقضى اليوم الذي لا آخر له، اليوم الذي تمّ فيه الانقلاب، كان حيّ واحد من ثلاثين حيّاً هو الذي لا يزال صامداً، إنه الحي المعروف باسم «أمير خيز» في أقصى الشمال الغربي من البازار. وفي تلك الليلة تناوب بضع عشرات من الأنصار الشباب على حراسة المنافذ، في حين كان فاضل يخطّ على خريطة مدعوكة سهاماً متطلّعة، في مقرّ الـ «أنجمان» بعد تحويله إلى مركز قيادة عامة.

وكنا حوالي عشرة أشخاص نتابع بحماسة أقلّ الانحرافات التي كان يخطّها وقد ضخّمها اهتزاز المصابيح المعلّقة. واعتدل النائب في جلسته.

ـ لا يزال العدوّ تحت صدمة الخسائر التي أنزلناها به. وهو يظننا أقوى ممّا نحن. إنه لا يملك مدافع ولا يعرف كم نملك منها. وعلينا أن نستغلّ الوضع لتوسيع رقعتنا. فلن يلبث الشاه أن يبعث بجيوش، ولن تلبث أن تبلغ تبريز في غضون بضعة أسابيع. وعلينا في أثناء ذلك أن نكون قد حرّرنا المدينة برمّتها! ولسوف نهاجم ابتداء من الليلة.

وأكبّ فأكبّتْ جميع الرؤوس، رؤوس حاسرة وأخرى مغطّاة أو معصوبة.

وأوضح قائلاً:

ـ نجتاز النهر بالمباغتة ونغذّ السير باتجاه القلعة فنهاجمها من ناحيتين، من البازار ومن المقبرة. وسوف تكون لنا قبل المساء.

لم تؤخذ القلعة قبل انقضاء عشرة أيام. فقد كانت المعارك طاحنة عند كلّ شارع، غير أن المقاومين كانوا يتقدّمون، فجميع المعارك كانت تنتهي لمصلحتهم. واستحوذ بعض «أبناء آدم» على مكتب الـ «أندو أوروبيان تلغراف» فكان بالإمكان الاتصال بوساطته اتصالاً دائماً بطهران وغيرها من مدن البلد، وكذلك بلندن وبومباي. وفي اليوم نفسه انضمّت ثكنة للشرطة حاملة بائنةً هي مدفع رشاش من طراز «مكسيم» وثلاثون صندوقاً من الذخيرة. وأعادت هذه الانتصارات الثقة إلى نفوس الأهالي فتشجّعوا شبّاناً وشيباً وتقاطروا بالمئات إلى الأحياء المحرَّرة مصطحبين أسلحتهم في بعض الأحيان. وما هي إلا أسابيع حتى دُفع بالعدو إلى الضواحي. ولم يبق في يدهم، إلى الشمال الشرقي من المدينة، غير منطقة قليلة السكان تمتدّ من حيّ الجمّالين إلى معسكر صاحب الديوان.

وفي حوالي منتصف تمّوز (يوليو) شُكِّل جيش من المتطوعين، كما شُكِّلت إدارة مؤقتة عُهِد فيها إلى هوارد بمسؤولية التموين، وأصبح مذّاك يقضي وقته وهو يذرع البازار لإحصاء المؤن؛ وكشف التجّار عن روح تعاونيّ رائع. وكان هو نفسه يخوض على خير ما يرام نظام الموازين والمكاييل الفارسي.

وقد قال لي:

ـ يجب نسيان الليترات والكيلوغرامات والأونصات والپنتات. فهنا يتحدّثون عن «الجوّ» و«المثقال» و«السِير» و«الخروار»، وهو حِمْل حمار.

وكان يحاول تثقيفي:

ـ الوحدة الأساسية هي «الجوّ»، وهو حبّة من شعير متوسطة الحجم يُحتفظ معها بغلافها بعد قصّ الشعيرات الزائدة في طرفيها.

وانفجرت ضاحكاً وأنا أقول:

ـ يا للدقّة! إنه لأمر عسير.

وحدج المعلّم التلميذ بنظرة عتاب. ولكي أُكفِّر عمّا اقترفت فقد اعتقدت أن عليّ إثبات اجتهادي.

ـ «الجوّ» إذن هو أصغر وحدة قياسية.

واستنكر هوارد قائلاً:

ـ كلا، على الإطلاق.

ورجع برباطة جأش إلى مذكراته وقال:

ـ إن وزن حبة من شعير يوازي وزن سبعين حبّة من خردل، أو إذا أردت، ست شعرات من ذنب بغل.

وفي المقابل كانت وظيفتي خفيفة! فنظراً لجهلي باللغة المحكيّة فقد كانت مهمّتي الوحيدة هي الاتصال الدائم بالرعايا الأجانب لطمأنتهم على مقاصد فاضل والسهر على أمنهم.

وينبغي أن يُعْلَم أن تبريز كانت حتى إقامة سكة الحديد عبر القفقاس قبل عشرين عاماً باب الوصول إلى فارس والمَعْبَر الاضطراري للمسافرين والبضائع والأفكار. وكان لعدّة شركات أوروبية فروع فيها، مثل الشركة الألمانية التي يملكها السيدان موسّيغ وشويننمن، أو الشركة المغفلة للتجارة الشرقية، وهي مؤسسة نمساوية ذات شأن. وكان فيها كذلك قنصليات والبعثة البروتستانتيّة الأميركية وعدّة مؤسسات أخرى، وإني لسعيد بالقول إن الرعايا الأجانب لم يكونوا غرضاً للعدوان في أية لحظة من شهور الحصار الصعبة.

بل هناك ما هو خير من هذا، فقد كانت تسود أُخوّة مؤثِّرة. ولا أريد الحديث عن نفسي ولا عن باسكرڤيل ولا عن پانوف الذي سرعان ما انضمّ إلى الحركة. بل أودّ أن أحيّي هنا أشخاصاً آخرين مثل السيد مور مراسل جريدة لـ «مانشستر غرديان» الذي جُرح في المعركة ولم يكن قد تردّد في حمل السلاح إلى جانب فاضل؛ أو القبطان «أنجيور» الذي ساعدنا على حلّ معضلات تموينية كثيرة وأسهم في أن يثير بمقالاته في جريدة الـ «آسيا الفرنسية» في باريس والعالم أجمع اندفاعة التضامن التي أنقذت تبريز من المآل البشع الذي كان يهدِّدها. وكان وجود الأجانب الفعّال في نظر بعض رجال الدين بالمدينة حجة على المدافعين عن الدستور، و«إنهم ـ وأنا أورد ما قالوا ـ لحثالة من الأوروبيين والأرمن والـ «بابيين» والكفرة من كل صنف». ولم تتسرّب هذه الدعاية مع ذلك إلى الناس فظلّوا يحيطوننا بعاطفة ترشح بالعرفان، وكان كل رجل أخاً لنا وكل امرأة أختاً أو أمّاً.

وإذا كان من حاجة للتحديد فإن الفرس هم أنفسهم الذين جلبوا للمقاومة منذ اليوم الأول أكثر الدعم عفوية وضخامة. فهناك أوّلاً سكّان تبريز الأحرار، ثم المهاجرون الذين كان عليهم بسبب

قناعاتهم أن يهربوا من مدنهم أو قراهم ليجدوا ملاذاً في آخر قلعة من قلاع الدستور. وكانت تلك حال مئات «أبناء آدم» الذين هرعوا من كل أرجاء الإمبراطورية ولم يكن لهم من هَمٍّ غير امتشاق أحد الأسلحة. وكانت كذلك حال عدّة نوّاب ووزراء وصحفيين من طهران كانوا قد نجحوا في الخلاص من الشبكة الكبرى التي أمر العقيد لياخوف بنصبها وأخذوا يصلون في معظم الأحيان زُمَراً صغيرة منهوكة القوى فاقدة الرشد زائغة الأبصار.

غير أن أَنْفَسَ المُرهَقين ولا مِراء كانت شيرين التي تحدّت منع التجوّل وخرجت بسيارتها من العاصمة من غير أن يجرؤ القوزاق على اعتراضها. واستقبل الأهالي سيارتها الفخمة بالإكبار ولا سيّما أن سائقها كان من مدينة تبريز، وأحد النادرين في قيادة سيارة مثل هذه السيارة.

وأقامت الأميرة في قصر مهجور. وكان قد بناه جدّها الشاه العجوز القتيل ليقضي فيه شهراً من السنة. غير أنه أصيب بوعكة ـ كما تقول الأسطورة ـ منذ الليلة الأولى فنصحه منجّموه بألّا تطأ قدماه مكاناً بمثل هذا الشؤم. ولم يكن أحد قد سكنه منذ ثلاثين عاماً؛ وكان يُدعى بشيء من الفزع «القصر الخالي».

ولم تتردّد شيرين في تحدّي سوء الطالع وغدا مقرّها مذّاك وسط العاصمة. وكان موجّهو المقاومة يحبّون الاجتماع في حدائقه الفسيحة التي تمثل جزيرة رطبة منعشة في عشيّات الصيف تلك. وكنت في أكثر الأحيان بصحبتهم.

وكانت الأميرة تبدو سعيدة في كل مرة برؤيتي فقد نسجت مراسلاتنا فيما بيننا تواطؤاً ما كان لأحد أن يتدخّل فيه. ولم نكن وحدنا قطّ بالطبع، فقد كان هناك في كل اجتماع أو لدى كل وجبة زهاء عشرة من الرفاق. وكنا نتناقش، وكنا نمزح في بعض الأحيان ولكن دونما إفراط. فالألفة ليس مسموحاً بها أبداً في

فارس، والأدب مطلوب ومُبَجَّل، وكثيراً ما يميل المرء إلى القول عن نفسه إنه «عبد طَيْفِ العظمة» التي يتحلّى بها الشخص الذي يخاطبه، وما إن يكون الموقف موقف صاحب سموّ، وصاحبة سموّ على الأخصّ، حتى يأخذ بتقبيل الأرض، إن لم يكن بالأفعال فعلى الأقل بأكثر العبارات تكلّفاً.

ثم كانت تلك الأمسية المثيرة، أمسية الخميس في السابع عشر من أيلول (سبتمبر) على وجه التحديد. وكيف لي أن أنساها؟

لقد انصرف جميع رفاقي لأسباب شتى، وحتى أنا استأذنت مع آخرهم. وفي اللحظة التي كنت أعبر فيها السياج الخارجي أدركت أني كنت قد تركت إلى جانب مقعدي حقيبة اعتدت أن أضع فيها بعض الأوراق المهمّة. وعليه فقد عدت أدراجي، ولكنْ من غير أن يكون في نيّتي على الإطلاق رؤية الأميرة مجدّداً؛ فقد كنت مقتنعاً بأنها انسحبت بعد أن ودّعت زائريها.

لا، لم يكن الأمر كذلك. فقد كانت لا تزال جالسة وحيدة وسط عشرين مقعداً مهجوراً. مهمومةً شاردة اللبّ. ومن غير أن أرفع بصري عنها لممت حقيبتي بأشدّ ما في وسعي من بطء. وكانت شيرين لا تزال ساكنة الأوصال، وقد بدا طيفها جانبياً، وكانت غير شاعرة بوجودي. وفي صمت محتشم جلست وصرفت الوقت في تأمّلها. وبذلك الشعور الذي جعلني أعود اثني عشر عاماً في الزمن، ألفيت نفسي وألفيتها في القسطنطينية في صالون جمال الدين. وكانت جالسة يومها على هذا النحو، جانبياً، وخمار أزرق يتوّج شعرها منسدلاً إلى أسفل كرسيّها. تُرى كم كان عمرها؟ سبعة عشر عاماً؟ ثمانية عشر؟ وأما التي تبلغ اليوم الثلاثين فهي امرأة وادعة، امرأة ناضجة، سَنِيَّة. وممشوقة كما في اليوم الأول. وقد عرفتْ على ما يبدو كيف تصمد للإغراء الذي

يصيب نساء طبقتها: الفراغ والنهم والتهالك إلى آخر العمر على أريكة وثيرة. أيكون قد سبق أن تزوجت، أتكون مطلّقة؟ أتكون أرملة؟ إننا لم نتحدّث قط عن هذا.

ووَدِدْتُ أن أقول بصوت هادىء: «لقد أحببتك مُذْ كنا في القسطنطينية». وارتجفت شفتاي ثم انطبقتا من غير أن تُرسلا أدنى صوت.

وكانت شيرين مع ذلك قد التفتت إليّ على مهل. وقد تأملتني بلا دهشة وكأنني لم أكن قد ذهبت ولا كنت قد رجعت. وتردّدتْ نظرتها وتبنّت رفع الكلفة في مخاطبتي:

فِيمَ تفكِّر؟

وانفجر الجواب من شفتيّ:

– فيكِ. من القسطنطينية إلى تبريز.

وطافت بوجهها ابتسامة ربما كانت مرتبكة، غير أنها لم تشأ بالتأكيد أن تكون حاجزاً. ولم أجد أنا ما أفعله خيراً من ترداد صيغتها التي كانت قد غدت بيننا شبه رمز للعرفان:

– من يدري، قد يتقاطع طريقانا!

وشغلتنا هُنيهات من الذكريات الخرساء. ثم قالت شيرين:

– لم أغادر طهران من غير أن أصطحب الكتاب.

– «مخطوط سمرقند»؟

– إنه على الدوام فوق المنضدة الصغيرة بقرب سريري، ولست أتعب أبداً من تصفّحه، وأنا أحفظ عن ظهر قلب «الرباعيات» والأخبار التي بهامش النصّ.

– إني لأهب عن رضى عشر سنوات من عمري لقاء ليلة مع هذا الكتاب.

– وأنا أهب عن رضى ليلة من عمري.

وفي اللحظة التالية كنت منكبّاً على وجه شيرين، وتلامست

شفاهنا وانطبقت أجفاننا، ولم يعد من وجود حولنا لشيء سوى رتابة صرير الجنادب المضخّم في رأسيْنا المرهقيْن. وكانت قبلة طويلة، قبلة لاهبة، قبلة السنين التي عُبِرت والعقبات التي ذُلِّلت.

وخوفاً من وصول زوّار آخرين، ومن اقتراب بعض الخدم، فقد نهضنا وتبعتها في ممرّ مسقوف وباب لا يخطر في بال أحد أنه موجود وسلَّم مكسّرة الدرجات وصولاً إلى جناح الشاه السابق الذي امتلكته حفيدته. وانغلق مصراعان ثقيلان وأُزلج مزلاج ضخم وأمسينا وحيدين معاً. ولم تعد تبريز مدينة منعزلة عن العالم، بل كان العالم هو الذي يذوي بعيداً عن تبريز.

وقبّلتُ عشيقتي الملكية في سرير ذي أعمدة وسُجُف. وحللت بيدي كل عقدة وكل زرّ وشرعت أعيد بأصابعي وراحتيّ وشفتيّ رسم كل انحناء من انحناءات جسدها، وكانت تهبه لدغدغاتي وقبلاتي الخرقاء، وكانت تطفر من عينيها المغمضتين دموع حرّى.

وعند الفجر لم أكن قد فتحت «المخطوط» بعدُ. وكنت أراه على منضدة صغيرة إلى الجانب الآخر من السرير، بيد أن شيرين كانت تنام عارية ورأسها فوق عنقي وثدياها متروكان لِصَقَ ضلوعي، وما كان شيء في الدنيا ليجعلني أتحرّك. وكنت أستنشق زفيرها وعبَقَها وليلها، وأتأمّل أهدابها وأبحث يائساً عن حلم السعادة أو الكَرْب الذي كان يُرْعِش تلك الأهداب. وعندما استيقظت كانت طلائع صخب المدينة قد ترامت إلينا. وكان عليّ أن أتوارى على عجل واعداً نفسي بتخصيص ليلة غرامي القادمة لكتاب الخيّام.

40

وإذ خرجت من «القصر الخالي» فقد مشيت شاذّاً كتفيّ ـ فالفجر ليس حارّاً قطّ في تبريز ـ متقدِّماً على هذا النحو من الفندق من غير أن أفتّش عن طرق مختصرة. فلم أكن على عجلة من أمري، وكنت بحاجة إلى التفكير لأن غليان الليل لم يكن قد هدأ بَعْدُ في داخلي، فقد كنت أحيا مجدّداً صوراً وحركات وكلمات مهموسة، ولم أكن أدري ما إذا كنت سعيداً. وكنت أحسّ إحساساً أكيداً بنوع من الامتلاء، غير أنه امتلاء يعتريه شعور لا مناص منه بالذنب، هذا الشعور اللصيق بالغراميّات غير المشروعة. وكانت تعاودني بلا هوادة أفكار ملحّة كما تكون الأفكار في الليالي المسهَّدة: «أتكون قد عادت إلى النوم بعد ذهابي وقد ارتسمت بسمة على شفتيها؟ أتكون نادمة بعض الندم؟ هل ستكون مُواطِئة أم مُجافِية عندما أراها من جديد ولا نكون وحدنا؟ لسوف أعود هذا المساء وأبحث في عينيها عن يقين».

ودوّت فجأة طلقة مِدفع. وتوقّفتُ وأصختُ السمع. أيكون مدفعنا «دو بانج» الشجاع الأوحد؟ وتبع ذلك سكون ثم لعلعة رصاص كثيف أعقبتها هدأة. واستأنفت مسيري بخطوة أقلّ عزماً؛ واحتفظت بأُذني متنبّهة. وحصل دويّ جديد تبعه دوي ثالث على الأثر. وفي هذه المرة قلقتُ؛ فما كان بالإمكان أن يُطْلِق مدفع

واحد بمثل هذه الوتيرة، وكان ينبغي أن يكون هناك مدفعان، بل عدّة مدافع. وانفجرت قذيفتان على بُعد بضعة شوارع منّي. وشرعت أجري. باتّجاه القلعة.

لم يلبث فاضل أن أكّد لي النبأ الذي كنت أخشاه: كانت طلائع القوات التي بعث بها الشاه قد وصلت ليلاً. وتمركزت في الأحياء التي يسيطر عليها الزعماء الدينيون. وكان في أعقابها عساكر آخرون. وكانوا يتلاقون من كل صوب. وكان حصار تبريز قد بدأ.

كانت الخطبة التي ألقاها العقيد لياخوف، حاكم طهران العسكري وصانع الانقلاب، قبل رحيل عساكره إلى تبريز على الوجه التالي:

«أيها القوزاق البواسل

«الشاه في خطر، فقد رفض أهالي تبريز سلطانه وشنّوا عليه الحرب لإرغامه على الاعتراف بالدستور. ومعلوم أن الدستور يرمي إلى إلغاء امتيازاتكم وحلّ كتيبتكم. وإذا قُدِّر له أن ينتصر فسيجوع نساؤكم وأولادكم. إن الدستور الدُّ أعدائكم وعليكم محاربته كالأُسود. لقد أثرتم في العالم أجمع أشدّ الإعجاب بتدميركم البرلمان فتابعوا عملكم الرامي إلى السلام واستحقوا المدينة الثائرة وأنا أعدكم بلسان مَلِكَيْ روسيا وفارس بالمال والإنعام. إن كل ما تحويه تبريز من خيرات مِلْكٌ لكم، وليس عليكم سوى نيلها!».

وكان الأمر الصادر زعيقاً في طهران وسان بطرسبورغ وهمساً في لندن هو إيّاه: ينبغي تدمير تبريز فهي تستأهل أَمْثَلَ العقاب. وإذا غُلِبَتْ لم يجسر أحد على الحديث عن الدستور ولا عن البرلمان ولا عن الديمقراطية؛ وسيكون في وسع الشرق أن يعود إلى نوم القبور.

وعلى هذا النحو كان سيشهد العالم أجمع خلال الأشهر التالية سباقاً غريباً ومؤلماً: فبينما كان مَثَل تبريز قد بدأ يؤجج لهيب المقاومة في أنحاء مختلفة من فارس، كان الحصار الذي تكابده المدينة نفسها يشتدّ يوماً عن يوم. أفكان أنصار الدستور سيجدون الوقت الكافي للنهوض من جديد، وإعادة تنظيم أنفسهم واستئناف القتال قبل أن ينهار مَعْقِلُهم؟

لقد أحرزوا في شهر كانون الثاني (يناير) نصراً كبيراً أَوَّلَ: فقد ثارت العاصمة القديمة أصفهان بدعوة من الزعماء البختياريين أخوال شيرين وأكّدت تعلّقها بالدستور وتضامنها مع تبريز. وعندما بلغ النبأ المدينة المحاصرَة عمّت الفرحة الناس على الفور. وتردّد الهتاف بلا كَلَلٍ طَوال الليل: «تبريز ـ أصفهان، ها إن البلاد تستيقظ!» غير أن هجمة ضخمة في اليوم التالي بالذات أرغمت المدافعين على التخلّي عن عدّة مواقع في الجنوب والغرب. ولم يَعُدْ هناك سوى طريق لربط تبريز بالعالم الخارجي، وهي الطريق المؤدّية إلى الشمال باتّجاه الحدود الروسية.

وبعد ثلاثة أسابيع ثارت مدينة «رشت» هي الأخرى. وأطاحت، على غرار أصفهان، سلطان الشاه وجاهرت بالدستور وبالمقاومة التي أبداها فاضل. وعمّت تبريز فرحة جديدة. غير أن المحاصِرين رُدُّوا على الأثر: قُطِعت آخر طريق وتمّ تطويق تبريز. ولم يَعُدِ البريد يصل، ولا المؤن. ولم يكن بدٌّ من تنظيم تموين شديد الصرامة للاستمرار في إطعام سكان المدينة البالغ عددهِم زهاء مئتي ألف نسمة.

وقامت تحالفات جديدة في شباط (فبراير) وآذار (مارس) 1909 م. فقد امتدّت رقعة الدستور الآن إلى شيراز وهمذان ومشهد وأستراباذ وبندر عبّاس وبوشير. وتكوّنت في باريس لجنة للدفاع عن تبريز على رأسها شخص يُدعى «ديولافوا»، وهو

مستشرق بارز؛ وقامت الانطلاقة نفسها في لندن برئاسة اللورد «لامنغتون»؛ وأهمّ من هذين أيضاً أن يُعلن الزعماء الدينيون الشيعة المقيمون في كربلاء، في العراق العثماني، أنفسهم رسمياً ومن غير التواء في صفّ الدستور منكرين «الملالي» الرجعيين.

لقد انتصرت تبريز.

غير أن تبريز كانت تموت.

فإذ وجد الشاه نفسه عاجزاً عن مواجهة ذلك القَدْر من المتمرّدين، وذلك القَدْر من التنكُّر، فقد تشبّث بفكرة لا تحور: ينبغي هدم تبريز أصلِ البلاء. فإذا ما سقطت وَهَن الآخرون. وإذا لم ينجح في الاستيلاء عليها بالهجوم فقد قرر إجاعتها.

وعلى الرغم من نظام الإعاشة فقد ندر وجود الخبز. وقد أُحصي في نهاية آذار (مارس) عدّة موتى، من الشيوخ والأطفال الرضّع على الأخص.

وأخذت الصحافة في لندن وباريس وسان بطرسبورغ تستنكر. وتنتقد القوى التي ذُكِّر بأنه لا يزال لها في المدينة المحاصرة رعايا غدت حياتهم مهدَّدة بَعْدُ بالخطر. وكانت أصداء هذه المواقف تترامى إلينا بطريق البَرْق.

واستدعاني فاضل ذات يوم ليقول لي:

ـ لن يلبث الروس والإنكليز أن يُجْلُوا رعاياهم ليكون في الإمكان سحق تبريز من غير أن يثير سحقُها كثيراً من التأثّر في سائر أنحاء العالم. ولسوف يشقّ علينا ذلك كثيراً، إلّا أني أودّ أن تعلم أنني لن أعارض في هذا الإجلاء. ولن أستبقي أحداً هنا رغماً عنه.

وكلّفني إعلام من يهمّهم الأمر بأن كل شيء سيُبذل لتسهيل رحيلهم.

وعندها حدث أغرب ما يمكن أن يحدث. ويتيح لي حضوره

بوصفي شاهداً ممتازاً أن أغضّ الطرف عن كثير من الحقارات البشرية.

كنت قد بدأت جولتي مخصّصاً أُولى زياراتي للبعثة البروتستانتيّة التي كنت أخشى قليلاً أن أقابل فيها مديرها المحترَم وأحتمل توبيخاته. أفما كان سيؤاخذني، هو الذي كان يتّكل عليّ لِتَبْصِرَة هوارد، على أني اتّبعت الطريق عينها؟ والحقّ أن استقباله كان فاتراً، بل يكاد يكون مهذّباً.

غير أنه ما إن عرضت عليه سبب سعيي حتى أجاب دونما ظلٍّ من تردّد:

ـ لن أذهب. فإذا كان بالإمكان تنظيم قافلة لإجلاء الأجانب فإنّ بالإمكان كذلك تنظيم قوافل مماثلة لتموين المدينة الجائعة.

وشكرت له موقفه الذي بدا لي متوافقاً مع المَثَل الديني والإنساني الأعلى الذي يُحرِّكه. ثم ذهبت أزور ثلاثة محلّات تجارية مجاورة كان الجواب فيها ـ ويا لعظيم دهشتي! ـ مثلَ الجواب الأول. فما كان التجّار أقلّ من الكاهن رغبة في عدم الرحيل. وقد شرح لي أحدهم، وهو إيطالي، الأمرَ بقوله:

ـ إذا أنا تركت تبريز في هذا الوقت العصيب فسأشعر بالعار في العودة إليها فيما بعدُ لاستئناف أعمالي. وعليه فإني باقٍ. وقد يُسهم وجودي في جعل حكومتي تتصرَّف.

وفي كل مكان كان الجواب هو إيّاه، مباشِراً واضِحاً لا رجوع فيه، وكأنما كانت هناك كلمة سرّ. وحتى عند السيد راتسلو القنصل البريطاني! وحتى عند موظفي القنصلية الروسية، باستثناء القنصل السيد بوخيتانوف، كان الجواب هو نفسه: «لن نذهب!» وقد بلّغوه إلى حكومتَيْهم المصعوقتَيْن.

وفي المدينة شدّد تضامن الأجانب الرائع من العزائم. إلّا أن الوضع ظلّ هشّاً. وفي الثامن عشر من نيسان (ابريل) أبرق راتسلو

إلى لندن يقول: «الخبز نادر الوجود اليوم، وغداً يكون أندر فأندر». وفي التاسع عشر كان بلاغ جديد: «الوضع مُقْنِط، ويدور الكلام هنا على محاولة أخيرة لفكّ الحصار».

والحقّ أن اجتماعاً عُقِد في ذلك اليوم بالقلعة وأعلن فيه فاضل أن جيوش الدستور تتقدّم من رشت نحو طهران وأن السلطة القائمة على وشك الانهيار. ويكفي قليل من الوقت لرؤيتها تسقط لحساب انتصار قضيّتنا. غير أن هوارد تحدّث بعده للتذكير بأن الأسواق كانت فارغة في الوقت الحاضر من كل مادّة قابلة للطبخ.

ـ لقد سبق أن ذبح الناس الحيوانات المنزلية وقطط الميازيب، وهناك أُسَر برُمَّتها تهيم في الشوارع بحثاً عن رمّانة يابسة أو كسرة خبز من خبز البرابرة تائهة في مجرى صخريّ. والخطر داهم بأن يلجأوا إلى أكل لحوم البشر.

ـ أسبوعين فقط، علينا الصمود أسبوعين وحسب!

كان صوت فاضل ضارِعاً. بيد أنه لم يكن في وسع هوارد أن يفعل شيئاً:

ـ لقد سمح لنا خزيننا بالعيش إلى اليوم. والآن فإننا لا نملك شيئاً نوزّعه. لا نملك شيئاً أبداً. لسوف يغدو السكان إرباً إرباً بعد أسبوعين وتصبح تبريز مدينة أشباح. لقد مات في الأيام الأخيرة ثمانمئة شخص من الجوع ومن عدد لا يُحصى من الأمراض المرتبطة بالجوع.

وردّد فاضل:

ـ أسبوعين فقط! أسبوعين لا أكثر! حتى وإن اقتضى الأمر أن نصوم!

ـ إننا جميعاً نصوم منذ عدّة أيام!

ـ ما العمل إذن؟ نستسلم؟ نستغني عن هذه الموجة الرائعة من الدعم وقد غذّيناها بصبر وتجلّد؟ أمَا من وسيلة للصمود؟

الصمود. الصمود. لم يكن لدى اثني عشر رجلاً ذاهلين فاقدي الرشد جوعاً وخَوَراً، بل نشوةٌ من نصر في متناول اليد أيضاً، إلا هاجس واحد: الصمود.

وقال هوارد:

ـ قد يكون هناك حلّ. ربما...

واتّجهت جميع الأنظار إلى باسكرڤيل.

ـ محاولة خَرْجة، بالمباغتة. فإذا تمكنّا من استعادة هذا الموضع ـ وأشار بإصبعه إلى نقطة على الخريطة ـ كان في وسع قواتنا خرق الحصار وإعادة الاتّصال بالخارج. وقد يَمْثُل السلام في الوقت الذي يقضيه العدوّ في لَمِّ شتاته وتمالُك أمره.

وأعلنتُ على الفور معارضتي الاقتراح؛ وكان رأي القادة العسكريين من رأيي؛ وقد حكموا جميعاً، بلا استثناء، بأنه انتحاري. فقد كان العدو فوق مرتفع على بعد خمسمئة متر من خطوطنا. وكان الأمر يقضي باجتياز هذه المسافة من الأرض المكشوفة، وبتسلّق سور ضخم من الطين المجفَّف، وبإخراج المدافعين ثم إقامة ما يكفي من القوات في الموقع للصمود أمام الهجمة المضادة التي لا محيد عنها.

وتردّد فاضل. ولم يكن ينظر إلى الخريطة، بل كان يسائل نفسه على الأثر السياسي الذي ستحدثه العملية. هل تتيح اغتنام بضعة أيام؟ وطال النقاش واحتدم. وكان باسكرڤيل يُلحّ ويُقدِّم الحجج، وما لبث مور أن سانده. ولوّح مراسل «الغارديان» بخبرته العسكرية الشخصية مؤكّداً بأن أثر المباغتة قد يكون حاسماً. وحسم فاضل الأمر في النهاية بقوله:

ـ ما زلتُ غير مقتنع، ولكنْ لمّا لم يكن بالإمكان مواجهة عمل آخر فإنّي لا أعارض ما اقترحه هوارد.

وكان أن انطلق الهجوم في اليوم التالي، العشرين من نيسان

(ابريل)، في الساعة الثالثة صباحاً، واتُّفق على أنه إذا قُدِّر أن يُستولى على المواقع في الساعة الخامسة قامت عمليات في نقاط متعدّدة من الجبهة لمنع العدو من دفع عدد من العسكر في هجوم مضاد. غير أن المحاولة بدت فاشلة منذ الدقائق الأولى؛ فقد استقبل زنّار من النار الخَرْجَة الأولى بقيادة مور وباسكرڤيل وزهاء ستين متطوِّعاً آخرين. وكان واضحاً أن العدوّ لم يكن قطّ قد فوجيء. أفيكون أحد الجواسيس قد أبلغه بتدابيرنا؟ لا يمكن الجزم بذلك، فقد كان القِطاع محصَّناً على كل حال، إذ عهد به لياخوف إلى واحد من أمهر ضبّاطه.

وإذا كان فاضل حكيماً فقد أمر بوضع حدٍ للعملية من غير تريّث، وأطلق الإشارة بالانسحاب، وهي نوع من الهديل الطويل؛ وانكفأ المقاتلون. وقد جُرح عدد منهم بينهم مور.

واحد فقط لا يرجع، إنه باسكرڤيل. فقد صُعق من الرشقة الأولى.

ولسوف تعيش تبريز ثلاثة أيام حافلة بالتعازي، تعازٍ محتشمة في البعثة البروتستانتيّة، وتعازٍ صاخبة حارّة مستنكِرة في الأحياء التي يسيطر عليها «أبناء آدم». وكنت أصافح الأيدي محمرَّ العينين ـ كان أكثر تلك الأيدي مجهولاً مني ـ وأُسْلِم نفسي إلى معانقات لا تنتهي.

وكان في موكب الزائرين قنصل إنكلترا. وقد انتحى بي جانباً وقال:

ـ قد يعزّيك بعضَ العزاء أن أخبرك بأنني تلقّيت بعد موت صديقك بستّ ساعات بلاغاً من لندن يفيد بأنه عُقد اتفاق بين القوى بشأن تبريز. وهكذا فإن موت باسكرڤيل لم يذهب سدى. وهناك حملة عسكرية تتّجه إلى المدينة لتخليصها وتموينها. ولإجلاء الطائفة الأجنبية فيها.

ـ حملة عسكرية روسية؟

وقال راتسلو موافقاً:

ـ بالطبع. إنهم الوحيدة الذين يملكون جيشاً في الجوار. غير أننا حصلنا على ضمانات. لن يُضايق أحدٌ أنصارَ الدستور، وستنسحب جيوش القيصر ما إن تنجز مهمّتها. وإني معتمد عليك لإقناع فاضل بإلقاء السلاح.

لماذا قبلت؟ بفعل الضنى؟ بفعل الخَوَر؟ بتأثير حسّ قَدَرِيّ فارسيّ تغلغل في ذاتي؟ المهمّ أني لم أحتجّ، واقتنعت بأني منذور لهذه المهمّة الكريهة. ومع ذلك فإني قرّرت ألا أذهب إلى فاضل على الفور. وفضّلت أن أهيم بعض الوقت بالقرب من شيرين.

لم أكن قد التقيتها منذ ليلة غرامنا إلّا أمام الملأ. وكان الحصار قد خلق في تبريز جوّاً جديداً. وكان يُحكى باستمرار عن تسرّبات معادية. وكان يُتوهّم رؤية الجواسيس والمخرِّبين في كل مكان. وكان رجال مسلّحون يقومون بدوريات في الشوارع ويحرسون منافذ الأبنية الرئيسية. وكان عددهم عند أبواب «القصر الخالي» يبلغ في معظم الأحيان خمسة أو ستة، وأكثر من ذلك أحياناً. وعلى الرغم من أنهم كانوا مستعدّين على الدوام لاستقبالي بأكثر الابتسامات إشراقاً فإن حضورهم كان يمنعني من كل زيارة متستّرة.

وإذا كانت المراقبة قد تراخت ذلك المساء في كل مكان فقد تسلّلت إلى غرفة الأميرة. وكان الباب مواربأ؛ ودفعته من غير ضجّة.

كانت شيرين في السرير جالسة و«المخطوط» مفتوح فوق ركبتيها المرفوعتين. وانزلقت إلى جانبها كتفاً لصق كتف وردفاً

لصق ردف. ولم تكن بنا، لا أنا ولا هي، رغبة في الملاطفات، بيد أننا تواصلنا في تلك الليلة بطريقة أخرى غائصينْ في الكتاب نفسه. وكانت تقود عينيّ وشفتيّ، فهي تعرف كل كلمة وكل لوحة؛ وأما أنا فكانت معرفتي تتمّ للمرّة الأولى.

وكثيراً ما ترجمت على طريقتها إلى الفرنسية أجزاء قصائد بحكمة شديدة الدقّة وجمال شديد الاستعصاء على الزمن ينسى المرء معهما أن تلك القصائد كانت قد أُنشدت منذ ثمانية قرون في بستان من بساتين نيسابور أو أصفهان أو سمرقند.

«تختبىء الطيور الجريحة لكي تموت».

كلمات تنضح بالتحدّي والتأسي، ومناجاة مؤلمة لشاعر مغلوب على أمره وعظيم.

«سلام إلى الإنسان في ظلمة صمت الآخرة».

بيد أنها كذلك كلمات فرح ولا مبالاة جليلة:

«هاتي خمراً ولتكُنْ في مثل ورد خدّيك.

«وليَكُنْ ندمي في مثل خَفّة خصلات شعرك.

بعد أن أنشَدْنا الرباعيات حتى آخر رباعية وأُعجبنا طويلاً بكل منمنة فيها رجعنا إلى بداية الكتاب لتصفُّح الأخبار الواردة في هامشه. فكان أول ما طالعني فيها ما أورده «ورطان»، وهو يفي بنصف الكتاب أو أكثر قليلاً، وقد عرفت بفضله في تلك الليلة قصة الخيّام و«جهان» والأصدقاء الثلاثة. ثم كانت بعد ذلك، في نحو ثلاثين صفحة لكل خبر، أخبار القيّمين على مكتبة أَلَمُوت، الأب والابن والحفيد، وقد تحدّثوا عن مآل «المخطوط» مآلاً مدهشاً بعد اختطافه من مَرْو، وما كان من تأثيره في الحشّاشين مع خلاصة تأريخية عن هؤلاء حتى الزحف المغولي.

وقد قرأتْ لي شيرين السطور الأخيرة التي كنت أفكّ خطّها بصعوبة: «كان عليّ أن أفرّ من أَلَمُوت عشيةَ تدميرها متوجِّهاً إلى

كرمان مسقط رأسي حاملاً معي مخطوط الخيّام النيسابوري الذي لا يضارعه أحد. وقد عزمت على إخفائه في اليوم نفسه آملاً ألّا يُعثر عليه قبل أن تغدو أيدي الناس جديرة بحمله. ولهذا فإني أتوكّل على الله العليّ، فهو يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء». ولقد تلا هذا تاريخ يوافق تبعاً لاحتسابي الرابع من آذار (مارس) عام 1257 م.

وبقيت ساهماً. ثم قلت:

ـ لقد صَمَتَ «المخطوط» في القرن الثالث عشر (الميلادي) وتلقّاه جمال الدين هدية في القرن التاسع عشر. فماذا تُرى حدث في هذه الأثناء؟

قالت شيرين:

ـ سُبات طويل. قيلولة شرقية لا تنتهي. ثم صحوة مُجفِلة بين ذراعي ذلك المجنون ميرزا رضا. أليس من كرمان مثل قيّمي مكتبة أَلَمُوت؟ أيدهشك أن تكتشف له جَدّاً من الحشّاشين؟

كانت قد نهضت وتوجّهت للجلوس على مقعد بلا ظهر أمام مرآتها البيضوية وفي يدها مشط. ولكنت ظلِلْتُ ساعاتٍ أرقب الحركات الساحرة الصادرة عن ذراعها العارية، بيد أنها ردّتني إلى الواقع المبتذل.

ـ عليك أن تستعدّ للذهاب إن لم تكن راغباً في أن يفاجئك أحد في سريري.

والحقّ أن ضوء النهار كان قد بدأ يغمر الغرفة، وكانت الستائر شديدة الشفافية، وقلت في فتور:

ـ صحيح، كدت أنسى سُمعتك.

والتفتتْ إليّ ضاحكة.

ـ تماماً، إني متمسّكة بسمعتي، ولست أريد أن يُقال في جميع خدور فارس إن أجنبياً جميلاً تمكّن من قضاء ليلة كاملة

إلى جانبي من غير أن يفكّر في خلع ملابسه. وعليه فإن أحداً لن يشتهيني؟

وبعد أن أَعَدْتُ «المخطوط» إلى صندوقه طبعت قبلة على شفتي عشيقتي ثم جريت عبر دهليز وبابيْن خفيّيْن لأَغْرَقَ من جديد في صخب المدينة المحاصرَة.

41

لماذا اخترت أن أذكر باسكرڤيل من بين جميع الذين ماتوا في تلك الأشهر الأخيرة؟ ألأنه كان صديقي ومواطني؟ لا ريب في ذلك. ولأنه لم يكن له من طموح أيضاً غير رؤية هذا الشرق ينبعث، على الرغم من كونه غريباً عنه، على الحرية والديمقراطية. أفيكون قد ضحّى بنفسه سُدى؟ وهل سيذكر الغرب بعد عشر سنوات أو عشرين سنة أو مئة مِثاله، أم هل ستذكر فارس صنيعه؟ إني لأتحاشى التفكير في الأمر خشية الوقوع مجدّداً في السوداوية التي لا محيص منها، والتي تساور مَنْ يعيشون بين عالميْن، عالميْن يستويان في كونهما واعديْن ومخيّبيْن.

ومع ذلك فإني إذا حصرت اهتمامي بالأحداث التي تلت عن كثب موت باسكرڤيل استطعت الزعم بأن ذلك الموت لم يكن سُدى.

فقد حدث التدخّل الأجنبي ورفع الحصار ووصول قوافلَ التموين. أكان ذلك بفضل هوارد؟ قد يكون سبق أن اتُّخذ القرار، غير أن موت صديقي عجّل في إنقاذ المدينة، وإن آلافاً من أهل البلد الجوعى ليدينون له ببقائهم على قيد الحياة.

إن المرء ليرتاب في أنّ دخول القيصر المدينة المحاصرَة ما

كان ليحمل السرور إلى فاضل. وقد جهدت في أن أزيّن له الاستسلام.

ـ ليس الأهالي في حال تسمح لهم بالمقاومة، والهدية الوحيدة التي ما زال في وسعك تقديمها إليهم هي إنقاذهم من المجاعة، وإنك لتدين بهذا لهم بعد كل الآلام التي قاسَوْها.

ـ قتال دام عشرة أشهر ليجد المرء نفسه خاضعاً للقيصر نيقولا حامي الشاه!

ـ الروس لا يتصرّفون من تلقاء أنفسهم، إنهم منتدَبون من الأسرة الدولية برمّتها، وأصدقاؤنا في العالم أجمع يصفّقون لهذه العملية. وإنّ رفضها ومحاربتها إضاعة للربح العظيم المتمثّل في الدعم الذي بُذل لنا حتى الآن.

ـ الخضوع، إلقاء السلاح، في حين لاحت تباشير النصر!

ـ أأكون أنا من تردّ عليه أم يكون القَدَر هو الذي تستغيث به وتناديه؟

وأجفل فاضل وأمطرتني نظراته بوابل من العتاب.

ـ لا تستحقّ تبريز مثل هذه المهانة!

ـ لستُ أملك للأمر شيئاً، ولستَ تملك شيئاً، وهناك أوقات يكون فيها أيّ قرار سيّئاً، ويجب اختيار القرار الذي يجلب أقلّ مقدار من الندم!

وبدا أنه هدأ وشرع يفكّر مليّاً.

ـ ما المصير الذي كُتب لأصدقائي.

ـ البريطانيون يضمنون سلامتهم.

ـ وأسلحتنا؟

ـ في وسع كل إنسان أن يحتفظ ببندقيته، فلن تُفَتَّش البيوت باستثناء البيت الذي قد ينطلق منه الرصاص. بيد أنه ينبغي تسليم السلاح الثقيل.

ولم يبدُ مطمئناً على الاطلاق.

ـ ومن الذي سيُرغم غداً القيصر على سحب جيوشه؟

ـ يجب ترك هذا الأمر لمشيئة السماء!

ـ أرى أنك أضحيت بغتةً رجلاً شرقياً!

على المرء أن يعرف فاضل ليعلم أن «شرقياً» نادراً ما كانت على لسانه إطراء. ولا سيّما مع التكشيرة المريبة التي أرفقها بها. وأحسست بأني مرغم على تغيير خطّتي؛ وعليه فقد نهضت وأنا أطلق تنهّدة صاخبة.

ـ لا ريب في أنك على حقّ، لقد أخطأت باللجوء إلى الحِجاج، سأبلّغ قنصل إنكلترا بأني لم أستطع أقناعك، ثم أرجع إلى هنا وأبقى بجانبك إلى النهاية.

وأمسك فاضل بكُمّي.

ـ لم أتّهمك بشيء، بل إني لم أرفض اقتراحك.

ـ اقتراحي؟ لم أفعل سوى نقل الاقتراح الإنكليزي، وقد حدّدت لك عمّن صدر.

ـ اهدأ وأفهم ما أقول! إني أعلم جيداً إني لا أملك الوسائل للحيلولة دون دخول الروس تبريز، وأعلم كذلك أني لو أبديت لهم أدنى معارضة لأدانني العالم بأسره، بدءاً من مواطنيَّ الذين لا ينتظرون سوى الخلاص أيّاً كان مصدره. بل إني لأعلم أن نهاية الحصار هزيمة للشاه.

ـ ألم يكن هذا هو هدف معركتك؟

ـ هيه، كلّا، تَبَصَّرْ! في وسعي أن أبغض هذا الشاه، غير أنه ليس الشخص الذي أقاتله، فلا يمكن أن يكون الانتصار على طاغية هدفاً نهائياً، وأنا أقاتل لكي يعي الفرس أن عليهم أن يكونوا أحراراً، أبناء آدم، كما نقول نحن هنا، أن يؤمنوا بأنفسهم، بقوّتهم، أن يجدوا لأنفسهم مكاناً في عالم اليوم. هذا

هو ما رغبت في تحقيقه هنا. لقد خلعتْ هذه المدينة سلطة الملك والزعماء الدينيين، لقد تحدّت «القوى»، وأثارتْ في كل مكان مساندة أصحاب المروءة وإعجابهم. وكان أهل تبريز على وشك الانتصار، غير أنهم لا يريدون تركهم ينتصرون، إنهم يخشون كثيراً أُمثولتهم، ويريدون إذلالهم، وعلى هذا الشعب الأبيّ أن يسجد أمام جنود القيصر للحصول على خبزه. وعليك أنت يا من وُلد حرّاً في بلد حرّ أن تدرك ذلك.

وتركتُ بضع لحظات تنساب قبل أن أختم:

ـ وبماذا تريدني أن أجيب قنصل إنكلترا؟

وافترّ ثغر فاضل عن أكثر الابتسامات تصنّعاً:

ـ قل له إنه يسعدني أن أجد لي ملاذاً من جديد بالقرب من جلالتها الفاتنة.

كان عليّ أن أنتظر بعض الوقت لأدرك إلى أي حدّ كانت مرارة فاضل مُبرَّرة. ففي المدى القريب بدا أن الأحداث تتنافى مع مخاوفه. فلم يلبث في القنصلية البريطانية سوى بضعة أيام. وسرعان ما قاده السيد راتسلو في سيارته عبر الخطوط الروسية إلى نواحي قزوين. وهناك أُتيح له الانضمام إلى الجيوش الرافعة لواء الدستور التي كانت تتهيّأ بعد انتظار طويل للتقدّم باتّجاه طهران.

والواقع أن الشاه كان يحتفظ بوسيلة ردع قوية لأعدائه ما بقيت تبريز مهدّدة بالاختناق، كما كان في إمكانه بعدُ إفزاعهم واحتواؤهم. وما إن رُفع الحصار حتى شعر أصدقاء فاضل بأنهم أحرار في تحرّكاتهم وبدأوا مسيرتهم من دون إبطاء إلى العاصمة. في فيلقينْ سار الأول من قزوين في الشمال والثاني من أصفهان

في الجنوب. وقد استولى هذا الأخير، وكان يتألف أساساً من أفراد القبائل البختيارية، على قُمْ في الثالث والعشرين من حزيران (يونيو). وما هي إلا أيّام حتى أُذيع بيان إنكليزي روسي مشترك مطالباً أنصار الدستور بإنهاء أعمالهم الهجومية في الحال لعقد تسوية مع الشاه. وإلّا وجدت القوّتان أنفسهما مرغمتين على التدخّل. بيد أن فاضلاً ورفاقه أداروا أُذُنا صمّاء وحثّوا الخطى: ففي التاسع من تمّوز (يوليو) كانت عساكرهم تتضامّ تحت أسوار طهران؛ وفي الثالث عشر منه دخل ألفا رجل منهم العاصمة من باب غير محروس في الشمال الغربي بالقرب من المفوّضيّة الفرنسية على مرأى من مراسل «لوطان» المذهول.

وعندها حاول لياخوف وحده المقاومة. فقد تمكّن بثلاثمئة رجل وبضعة مدافع قديمة ورشّاشينْ سريعيِ الطلقات من طراز «كروزو» أن يحتفظ بالسيطرة على عدّة أحياء في وسط المدينة. وتتابعت المعارك ضارية حتى السادس عشر من تمّوز (يوليو).

وفي ذلك اليوم أقبل الشاه في الساعة الثامنة والنصف لاجئاً إلى المفوّضيّة الروسية يحفّ به بشكل احتفالي خمسمئة من الجنود ورجال البلاط. وكان عمله بمثابة تنحٍ عن الحكم.

ولم يكن لقائد القوزاق من خيار غير إلقاء السلاح. وأقسم على احترام الدستور بعد ذاك ووضع نفسه في خدمة المنتصرين. شرط ألّا تُحلّ كتيبته. وقد وُعد بذلك حسب الأصول.

وعُيِّن شاه جديد هو الابن الأصغر للشاه المخلوع، ولم يكن قد بلغ الثانية عشرة؛ وكان في رأي شيرين التي عرفته في المهد، مراهقاً دمِثاً مرهف الإحساس ليس فيه قسوة ولا انحراف البتّة. وعندما اجتاز العاصمة غداة المعارك للذهاب إلى القصر برفقة الوصيّ عليه السيد سميرنوف استُقبل بالهتاف «يحيا الشاه». وكان ينطلق من الصدور التي كانت تزعق البارحة: «الموت للشاه!».

42

كانت صورة الشاه الفتيّ حسنة وملكية وهو يبتسم دونما إفراط ويلوّح بيده البيضاء لتحيّة رعاياه. ولكنّه ما إن يكون في القصر حتى يُثير كثيراً من الهمّ في نفوس حاشيته. فقد كان لا يتوقّف عن البكاء بفعل إقصائه الفظّ عن أبويه، بل لقد حاول الفرار في ذلك الصيف للانضمام إلى أبيه وأمّه. وإذ أُدرِك فقد حاول شنق نفسه في سقف القصر. وعندما شرع يختنق ساوره الخوف واستغاث. وأمكن تخليصه في الوقت المناسب. وكان لهذه الحادثة الأليمة أثر طيّب في نفسه: فلسوف يقوم بعد أن شُفي ممّا كان يُكرِبُه بأداء دور الملك الدستوري على خير ما يرام من الجدارة والبساطة.

كانت السلطة الحقيقية في تلك الأثناء بيد فاضل وأصدقائه. فقد افتتحا العهد الجديد بعملية تطهير سريعة؛ أُعدم ستة من أنصار النظام القديم بينهم الزعيمان الدينيان الرئيسيان في تبريز، وهما اللذان قادا الصراع مع «أبناء آدم»، كما أُعدم الشيخ فضل الله نوري. وكان هذا متّهماً بالإفتاء في المذابح التي أعقبت الانقلاب في العام السابق؛ وقد حُكم عليه للاشتراك في القتل وصدّقت السلطة الدينية الشيعية العليا قرار الإعدام. ولكنه ما من

ريب في أنه كان للحُكم أيضاً قيمة رمزية: لقد كان نوري مسؤولاً عن الإفتاء بأن الدستور بِدعة. ولقد شُنق في الحادي والثلاثين من تمّوز (يوليو) عام 1909 م في ميدان «توپخانه» ويُقال إنه همس قبل أن يموت: «لستُ رجعياً!» وأنه لم يلبث أن أضاف مخاطباً أنصاره المبثوثين في الحشد أن الدستور مخالف للدين وأنه ستكون للدين الكلمة الأخيرة.

بيد أن مهمّة المسؤولين الجدُد الأولى كانت إعادة بناء البرلمان: فقام البناء من بين الأنقاض ونُظّمت الانتخابات. وفي الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) دشّن الشاه رسمياً «المجلس» الثاني في تاريخ فارس. بهذه الكلمات:

«باسم الله مانح الحرية، وبرعاية إمام الزمان الخفيّة، يُفتتح المجلس الاستشاري الوطني بالفرح واليُمن».

«لقد حتّم التقدّم الثقافي وتطوّر العقول وقوع التغيير فوقع من خلال محنة قاسية، إلا أن فارس قد عرفت على كرّ العصور كيف تتغلّب على كثير من الأزمات، وها هوذا شعبها يرى اليوم رغباته وقد تحقّقت. وإنه ليُسعدنا أن نلاحظ أن هذه الحكومة التقدّميّة تتمتّع بمساندة الشعب، وأنها في سبيلها إلى إعادة الهدوء والثقة إلى البلاد.

«ولكي تتمكّن الحكومة ويتمكّن البرلمان من تحقيق الإصلاحات المنشودة فإن عليهما أن يُوليا إعادة تنظيم الدولة الاهتمام الأول، ولا سيّما تنظيم الأموال العامة وفاقاً للقواعد المعتمدة في الأمم المتحضّرة.

«والله نسأل أن يسدّد خطى ممثّلي الأمة ويوفّر لفارس الشرف والاستقلال والسعادة».

غمرت الفرحة طهران في ذلك اليوم فلم تتوقف المسيرات في الشوارع ولا الغناء في المنعطفات، وارتُجلت قصائد كانت جميع

كلماتها تُقَفّي الكلمات «دستور» و«ديمقراطية» و«حريّة»، وقدّم الباعة للمارّة أنواع الشراب والحلوى، وأعلنت عشرات من الصحف التي كانت قد دُفنت في زمن الانقلاب عن انبعاثها بإصدار طبعات خاصّة.

وعند هبوط الليل أضاءت المدينةَ ألعابٌ ناريّة. وقد أقيمت مدرّجات في حدائق «البهارستان». وعلى منصة الشرف جلس السلك الدبلوماسي وأعضاء الحكومة الجديدة والنواب والأعيان من رجال الدين ونقابات السوق الكبرى. ولمّا كنتُ صديقاً لباسكرڤيل فقد حظيت بمقعد في الصفوف الأولى؛ وكان خلف مقعد فاضل بالضبط. وتوالت الانفجارات والمفرقعات، وكانت السماء تتلألأ تلألؤاً متقطّعاً والرؤوس تنكفىء إلى خلف والوجوه تشرئب وتعتدل في ابتسامات طفولية مُشْبَعَة. وفي الخارج كان «أبناء آدم» يردّدون بلا كلل منذ ساعاتٍ الشعارات نفسها.

لست أدري أيّ صوت ولا أية صيحة أعادت إلى ذهني هوارد. ما كان أحراه بأن يكون في العيد! وفي اللحظة نفسها التفت إليّ فاضل:

ـ تبدو حزيناً.

ـ حزيناً، كلا بالطبع! لقد رغبت على الدوام في سماع الناس يصيحون بكلمة «حرية» في أرض الشرق. غير أن بعض الذكريات تحاصرني.

ـ أبعِدْها، ابتسم، تمتّع، انتهز آخر هنيهات الجذل!!

إنها لكلمات مقلقة انتزعت مني في ذلك المساء كل رغبة في الاحتفال. أكان فاضل يتابع، بعد انقضاء سبعة أشهر، النقاشَ القاسي الذي كان قد باين بيننا في تبريز؟ أكان لديه أسباب جديدة تشغل اهتمامه؟ ولقد عزمت على الذهاب إليه في اليوم التالي مباشرة للحصول منه على توضيح. غير أني عدلت في نهاية الأمر. وتحاشيت طَوال عام كامل أن ألتقيه.

لأية أسباب؟ أظنّ أني كنت أُفاقم بعد المغامرة المضنية التي عشتها شكوكاً ملحّة في حكمة التزامي في تبريز. فهل كان من حقّي وقد أتيت إلى الشرق لقصّ أثر مخطوط أن أتورّط إلى هذا الحد في معركة لم تكن معركتي؟ وأبداً فأقول بأي حقّ كنت قد نصحت هوارد بالحضور إلى فارس؟ لقد كان باسكرفيل في لغة فاضل وأصدقائه شهيداً؛ وكان في نظري صديقاً ميتاً، مات في أرض غريبة من أجل قضية غريبة، صديقاً سوف يكتب إليّ والداه يوماً ليسألاني في آلم صِيَغ التهذيب عمّا دفعني إلى تضليل ابنهما.

أهو الندم إذن بسبب هوارد؟ أقول إنه بالأصح نوع من هاجس بالاحتشام. ولست أدري إذا كانت هذه هي الكلمة الملائمة، غير أني أسعى إلى القول إنه بعد انتصار أصدقائي لم تكن بي أدنى رغبة في التبختر في طهران وأنا أسمع امتداح مآثري المزعومة في أثناء حصار طهران. لقد قمت بدور عَرَضيّ وهامشي، وكان لي على الأخص صديق، مواطن بطوليّ، ولم يكن في نيّتي التلفّع بذكراه للحصول على الامتيازات والتقدير.

واعترف بأني شعرت بإلحاح بالرغبة في التواري، في جعل الناس ينسَوْنني، في الكفّ أبداً عن مخالطة السياسيين وأهل النوادي والدبلوماسيين. والشخص الوحيد الذي كنت أراه كل يوم بلذّة ما كانت قطّ لتخيب، هو شيرين. ولقد أقنعتها بالذهاب للإقامة في أحد المقرّات العائلية فوق مرتفعات «زرقنده»، وهي مصيف يقع خارج العاصمة. واستأجرت أنا نفسي بيتاً صغيراً في الجوار، غير أنه كان لإنقاذ المظاهر، إذ كانت أيامي ولياليّ تنقضي بقربها بالتواطؤ مع خادماتها.

وحدث لنا في ذلك الشتاء أن قضينا أسابيع بكاملها من غير أن نغادر حجرتها الفسيحة. وعلى دفء كانون رائع من النحاس كنا نقرأ «المخطوط» وبعض الكتب الأخرى، ونُمضي ساعات

رخيّة في تدخين «القليان» وشرب نبيذ شيراز، والشمبانيا في بعض الأحيان، وتكسير فستق كرمان وقضم ملبن أصفهان؛ وكانت أميرتي تعرف كيف تكون سيّدة راقية وطفلة غريرة في الوقت نفسه. وكان لدى كل منّا تجاه الآخر حنان لكل لحظة.

وكانت «زرقنده» تعجّ بالناس مع أول موجات الحرّ. وكان للأجانب فيها وللأثرياء من الفرس مساكن فخمة، وكانوا يقيمون فيها أشهراً طوالاً من الكسل وسط نبات وافر. وما من شكّ في أن قرب هذا الفردوس وحده كان يجعل سأم طهران الممضّ محتمَلاً في نظر كبير من الدبلوماسيين. ومع ذلك فقد كانت «زرقنده» تفرغ في الشتاء. ولم يكن يبقى فيها سوى البستانيين وبعض الحرس والقلّة النادرة من الذين لا يزالون على قيد الحياة من سكانها الأصليين. وكنت وشيرين بحاجة ماسّة إلى هذا القَفْر.

وابتداء من نيسان (ابريل) ويا للأسف! كان المصطافون يجدّدون انتجاعهم. وكان بعض المتسكّعين يهيمون أمام جميع الأسيجة، وبعض المشائين يهيمون في جميع الدروب. وبعد كل ليلة، وبعد كل قيلولة، كانت شيرين تقدّم الشاي إلى زائرات ذوات عيون غير محتشمة. وكان عليّ باستمرار أن أختبىء، وأن ألوذ بالفرار عبر الدهاليز. وكان أمر الخَدَر الناعم قد انتهى وأزفت ساعة الرحيل. وعندما أبلغت أميرتي بذلك بدت حزينة ولكنْ مستسلمة.

ـ كنت أظنّك سعيداً.

ـ لقد عشت لحظة نادرة من السعادة وأودّ وقفها ما دامت لم تفسد لأستعيدها وهي لا تزال على حالها. إني لا أملّ تأمّلكِ بدهشة وحبّ. ولا أريد أن يغيّر الحشد الذي يجتاحنا نظرتي. وإني لأبتعد في الصيف لألقاك من جديد في الشتاء.

ـ الصيف، الشتاء، تبتعد، تلقاني من جديد، إنك لتظنّ

نفسك مالكاً بلا عقاب للفصول والسنوات وحياتك وحياتي. ألم تتعلّم شيئاً من الخيّام؟

وغاصت عيناها في عينيّ وكأنها تريد قراءة ما في داخلي كما يُقرأ الكتاب المفتوح. وكانت قد أدركت كل شيء، وتنهّدت:

– إلى أين تنوي الذهاب؟

لم أكن قد عرفت ذلك بعدُ. لقد أتيت مرّتين إلى فارس، وفي المرتين عشت فيها محاصَراً. وكان قد بقي عليّ اكتشاف الشرق بأسره، فهناك، من البسفور إلى بحر الصين، تركيا التي كانت قد ثارت في الوقت الذي ثارت فيه فارس وأنزلت سلطانها الخليفة وازدهت مذّاك بالنوّاب والشيوخ والنوادي وصحف المعارضة؛ وأفغانستان الأبيّة التي تمكّن البريطانيون من إخضاعها، ولكنْ بأيّ ثمن! وكان هناك بالطبع فارس التي ينبغي الطواف بها كلها. فلم أكن أعرف غير تبريز وطهران. ولكن أين أصفهان؟ وأين شيراز وقاشان وكرمان؟ وأين نيسابور وقبر الخيّام، تلك الصخرة الرمادية التي تحرسها من قرون أجيال لا تكلّ من البَتّلات؟

وأي هذه الطرق المُتاحة ينبغي سلوكه؟ لقد اختار «المخطوط» عنّي فاستقللت القطار في كراسنوڤودسك واجتزت أشكباد ومَرْوْ القديمة وزرت بُخارى.

وذهبت على الأخصّ إلى سمرقند.

43

كنت شديد الفضول لرؤية ما تبقى من المدينة التي تفتّح فيها شباب الخيّام.

ماذا حلّ بحيّ «أسفزار» وتلك البركة القائمة وسط البستان الذي تعاطى فيه عمر كؤوس الغرام و«جِهان»؟ وهل بقي بعدُ أثرٌ من ضاحية «ماتريد» التي كان فيها الورّاق اليهودي يعجن في القرن الحادي عشر (الميلادي) أغصان شجر التوت الأبيض وفاقاً للوصفات الصينية القديمة؟ وظلِلتُ أُطوِّف عدة أسابيع سيراً على القدمين، ثم على ظهر بغل؛ وساءلت الباعة والمارّة وأئمة المساجد، ولكنني لم أستطع الإفادة إلا من تكشيرات تنمّ عن الجهل. وابتسامات مستظرِفة ودعوات للقرفصة على أرائكهم المستطيلة الزرقاء بلون السماء لمشاركتهم تناول الشاي.

وكان من حظّي أن ألفيت نفسي ذات صباح في ميدان «ريغستان». وكان تمر قافلة، قافلة صغيرة؛ لم يكن فيها غير ستة أو سبعة من جِمال «بكتريان» ذات الوبر الكثيف والأخفاف السميكة. وقد توقّف الجمّال غير بعيد مني أمام دكّان خزّاف ممسكاً لِصق صدره بحَمَلٍ حديث الولادة؛ واقترح مقايضة، وشرع الحِرَفيّ في الجدال؛ ومن غير أن يُبعد يديه عن الجرّة ولا عن

الدولاب أشار بذقنه إلى كدسة من القدور المصقولة. وكنت أرقب الرجلين وقلنسوتيهما الصوفيتين السوداوين المحاطتين بشريطين، وثوبيهما المقلّمين، ولحيتيهما المحمّرتين، وحركاتهما القديمة قِدَمَ الدهر. فهل هناك جزء واحد دقيق من المشهد لم يكن على ما كان عليه في زمن الخيّام؟

وهبّ نسيم خفيف، وأخذ الرمل يُحوِّم والثياب تنفتح، واكتسى الميدان غلالة غير حقيقية. وأَجَلْتُ الطرْف. كانت ثلاثة صروح تنتصب حول «ريغستان»، ثلاثة مجمّعات ضخمة وأبراج وقباب وبوّابات وأسوار عالية مزيّنة بالفسيفساء المنمنمة والزخارف المائجة بالذهب والجَمَز والفيروز. وخطوط رائعة الدقّة. لا يزال كل شيء جليلاً غير أن الأبراج انحنت والقباب بُقِرَت والواجهات تبقّعت وأبلاها الزمن والريح وعصور طويلة من اللامبالاة؛ وما من نظرة ترتفع نحو تلك الصروح العملاقة المتعالية الفخمة المُتَجَاهَلَة التي تمثّل مسرحاً عظيماً لمسرحية تدعو للرثاء.

وانسحبت متقهقراً؛ واصطدمت بقدم فاستدرت لأعتذر ووجدتني وجهاً لوجه مع رجل في زيّ أوروبي مثلي وقد أقبل من الكوكب البعيد نفسه. ودار حديث. كان روسيّاً عالِم آثار. وهو أيضاً كان قد جاء يحمل ألف سؤال. غير أنه كان قد حصل على بعض الأجوبة.

ـ صروف الدهر في سمرقند تتقلّب من زلزال إلى زلزال، من لوح مصقول إلى لوح مصقول. فعندما دمّر المغول المدينة في القرن الثالث عشر (الميلادي) أضحت الأحياء المأهولة أكداساً من الأنقاض والجثث. ولم يكن بدّ من هجرها؛ وذهب من ظلوا على قيد الحياة يبنون مساكنهم في مكان آخر أبعد إلى الشمال. حتى غطّت المدينة القديمة، سمرقند السلاجقة، طبقاتٌ متراكمة شيئاً فشيئاً من الرمال فلم تعُد سوى حقل فسيح مُشْرِف. وتحيا

تحت الأرض كنوز وأسرار؛ وفوق السطح مَراعٍ. وينبغي فتح كل شيء ذات يوم ونبش المنازل والشوارع. وعندما تُحرَّر سمرقند على هذا النحو فإنها تستطيع أن تحكي لنا حكايتها.

وتوقّف عن الكلام.

ـ هل أنت عالم آثار؟

ـ لا. إن هذه المدينة تجتذبني لأسباب أخرى.

ـ أيكون تطفّلاً أن أسألك عنها؟

وحدّثته عن «المخطوط» والقصائد وأخبارها واللوحات التي تمثّل عشّاق سمرقند

ـ ما أشد رغبتي في رؤية هذا الكتاب! أتعلم أنّ كل ما كان في تلك الحقبة قد دُمِّر؟ كما لو أن لعنة حلّت. الأسوار، القصور، الجنائن، البساتين، الأقنية، أماكن العبادة، الكتب، أهمّ التحف. والآثار التي نعجب لها اليوم قد بنيت فيما بعدُ أيامَ تيمورلنك وذرّيته، وعمرها أقلّ من خمسة قرون. وأما من عصر الخيّام فلم يَبْقَ سوى كسرات من الخزف، وكما أعلمتني منذ قليل ذلك «المخطوط»، وهو ناجٍ خارق. وإنه لامتياز أن تتمكّن من الإمساك به وتصفّحه كما يحلو لك. امتياز ومسؤولية فادحة.

ـ صدّقني أني أدرك هذا جيّداً. فمنذ سنوات، منذ أن علمت أن هذا الكتاب موجود، وأنا لا أحيا إلا لأجله، وقد قادني من مغامرة إلى مغامرة، وأصبح عالمه عالمي، وحارِسَتُه عشيقتي.

ـ وقمتَ بهذه الرحلة إلى سمرقند لاستطلاع الأمكنة التي يصفها؟

كنت أرجو أن يدلّني أهل المدينة على الأقل على مواضع الأحياء القديمة.

واستأنف مخاطبي:

ـ آسف أن يكون عليّ تخييب ظنّك، غير أنك لن تحصد عن

الحقبة التي تستهويك سوى الخرافات وحكايات الجنّ والشياطين. فهذه المدينة تتعهّدها بشغف ولذّة.

ـ أكثر مما تفعل مدن آسيوية أخرى؟

ـ أخاف كثيراً أن يكون الأمر كذلك. وإني لأتساءل عمّا إذا كانت مجاورة هذه الأطلال لا تلهب بشكل طبيعيّ خيال معاصرينا المساكين. ثم هناك تلك المدينة المدفونة تحت التراب. فكم من ولد وقع خلال العصور في الصدوع ولم يظهر بعد ذلك، وكم من صوت عجيب سُمع أو تُوهّم سماعه وكان صادراً على ما يبدو من أحشاء الأرض! وعلى هذا النحو وُلدت أشهر أسطورة عن سمرقند، الأسطورة التي هي في أصل كثير من الغموض الذي يلفّ تسمية المدينة.

وتركته يروي.

ـ يُحكى أن ملكاً من ملوك سمرقند أراد أن يحقّق ما يحلم به كل إنسان: أن يفرّ من الموت. وإذا كان مقتنعاً بأن الموت يُقبل من السماء، وكان راغباً في القيام بعمل يمنعه من إدراكه، فقد ابتنى قصراً تحت الأرض، قصراً شاسعاً من الحديد وسدّ جميع منافذه. وإذ كان ثريّاً خيالياً فقد اصطنع فيه شمساً تشرق في الصباح وتغرب في المساء كي تدفئه وتعيّن له مرّ الأيام. غير أن إله الموت تمكّن ويا للأسف من خداع نباهة الملك وانسلّ إلى قلب القصر لإنجاز عمله. وكان عليه أن يثبت لجميع الناس أنه ما من مخلوق يهرب من الموت، مهما تكن قوّته أو ثروته أو حذقه أو صلفه. وهكذا أضحت سمرقند رمز اللقاء المحتوم بين الإنسان وقَدَره.

إلى أين أذهب بعد سمرقند؟ لقد كانت عندي أقصى أطراف الشرق، وملتقى كل ما يثير الأعجاب، وموضع حنين لا يُسْبَرُ غَوْرُه. وعليه فقد قرّرت في اللحظة التي كنت أغادر فيها المدينة

أن أعود إلى بلادي؛ وكان رجائي أن أبلغ «أنّابوليس» وأقضي فيها بضع سنوات مقيماً للراحة من أسفاري. وألا أستأنف الرحيل إلا فيما بعد.

وعليه فقد كوّنت أحمق مشروع: العودة إلى فارس واصطحاب شيرين و«مخطوط الخيّام» والهيام معاً مجهولَيْن في بعض الحواضر الكبرى، باريس أو فيينا أو نيويورك. أليس الفردوس هو أن نعيش أنا وهي في الغرب على إيقاع الشرق؟

وفي طريق العودة كنت على الدوام وحيداً شارداً لا يشغل بالي غير الحُجج التي سأقدّمها إلى شيرين. فلسوف تقول في نزق: الرحيل، الرحيل، ألا تكتفي بأن تكون سعيداً؟ لكنني ما كنت لأقطع الأمل في إزاحة تحفّظاتها.

عندما أنزلتني العربة التي استأجرتها عند ضفة الكاسبيين أمام بابي المقفل في «زرقنده» كانت هناك سيارة، من طراز «جويل 40» ترفع في وسط سقفها علماً مزيّناً بالنجوم. وترجّل سائقها واستخبر عن هُويّتي. وساورني شعور أخرق بأنه كان ينتظرني منذ يوم رحيلي. ولكنه طمأنني بأنه لم يكن هنا إلا منذ الصباح.

ـ لقد قال لي سيّدي أن أنتظرك حتى تأتي.

ـ كان من الممكن أن أعود بعد شهر أو بعد سنة، أو ربّما لا أعود البتّة.

غير أن دهشتي لم تزعجه قط.

ـ لكنْ ما دمتَ هنا!

وناولني ورقة حرّرها شارلز و.راسل وزير الولايات المتحدة المفوّض.

«عزيزي السيد لوساج

«أكون سعيداً جداً إذا استطعت المجيء إلى المفوّضيّة بعد ظهر هذا اليوم في الساعة الرابعة. الأمر يتعلق بقضية مهمّة وعاجلة. وقد طلبتُ من سائقي أن يبقى في تصرّفك».

44

كان بانتظاري في المفوّضيّة رجلان بنفاد الصبر المكبوت نفسه. راسل ببذلة رمادية وربطة عنق متموّجة بشكل فراشة وشارب مسترخ شبيه بشارب الرئيس تيودور روزفلت وإنْ كان طرفاه أدقّ رسماً؛ وفاضل في عباءته البيضاء الأبدية وطيلسان أسود وعمامة زرقاء. وكان الدبلوماسي هو الذي افتتح بالطبع الجلسة في فرنسية متردِّدة وإن كانت صحيحة.

ـ الاجتماع المعقود اليوم هو أحد الاجتماعات التي تغيّر مجرى التاريخ. فَعَبْر أشخاصنا تلتقي أمّتان متحدِّيتينْ المسافات والفوارق: الولايات المتحدة، وهي أمّة فتيّة ولكنّها ديمقراطية قديمة، وفارس، وهي أمّة قديمة عمرها آلاف السنين ولكنّها ديمقراطية فتيّة.

قليل من الغموض ونفحة من الفخامة ونظرة إلى فاضل للاطمئنان إلى أن الحديث لم يكن ليزعجه. وذلك قبل أن يتابع:

ـ كنتُ منذ بضعة أيام مدعوّاً إلى نادي طهران الديمقراطي، وقد عبّرت لمستمِعِيَّ عن عميق تعاطفي مع الثورة الدستورية. ويشارك في هذا الشعور الرئيس تافت ووزير خارجيتنا السيد نوكس. وعليّ أن أوضح أن هذا الأخير على علم باجتماعنا اليوم وأنه ينتظر مني أن أخبره برقياً بالنتائج التي نتوصّل إليها.

وترك لفاضل أن يوضح لي قائلاً:

ـ أتذكر ذلك اليوم الذي أردت فيه إقناعي بعدم مقاومة جيوش القيصر؟

ـ تلك السُّخرة!

ـ لم أجِد عليك قط، لقد فعلتَ ما كان ينبغي أن تفعل، وكنتَ من وجهةٍ ما على حقّ. غير أن شيئاً لم يكذِّب مع الأسف ما كنت أخشاه، فالروس لم يغادروا قطّ تبريز، وأهل المدينة خاضعون لإهانات يومية، فالقوزاق ينتزعون مناديل النساء في الشوارع، وأبناء آدم يُسجنون بأوهى الذرائع.

«وهناك مع ذلك ما هو أخطر. أخطر من احتلال تبريز وأخطر من مصير رفاقي. إن ديمقراطيتنا هي التي تشرف على الغرق. لقد قال السيد راسل «فتيّة» وكان في وسعه أن يضيف «هشّة»، «مُهدَّدة». كل شيء في الظاهر يسير سيراً حسناً، فالشعب أسعد حالاً والبازار مزدهر ورجال الدين يُبدون ميلاً إلى التصالح. ومع هذا فإنه ينبغي حدوث معجزة للحيلولة دون انهيار البناء. لماذا؟ لأن خزائننا فارغة كما في الماضي. فقد كان للعهد البائد طريقة عجيبة في استيفاء الضرائب، يُكري كل إيالة إلى أحد الكواسر فيفصد دم الشعب ويحتفظ بالمال لنفسه مكتفياً باقتطاع جزء منه لشراء امتيازات الحماية من القيصر. ومن هنا جميع ويلاتنا. فإذا كانت الخزينة فارغة فإننا نقترض من الروس والإنكليز، ولكي يضمن هؤلاء ديونهم فإنهم يحصلون على التنازلات والامتيازات. وبهذه الوسيلة تدخَّل القيصر في شؤوننا وأرخصنا جميع خيراتنا. والسلطة الجديدة تواجه الصراع الذي واجهه المسؤولون السابقون: إذا لم تتمكن من جباية الضرائب كما تجبيها البلدان العصرية تحتّم عليها قبول وصاية «القوى». وأوّل الطوارىء بالنسبة إلينا هو تصحيح أوضاعنا المالية. إن

عصرنة فارس تبدأ من هنا؛ وهذا هو ثمن الحرية التي تتطلع فارس إليها.

ـ إذا كان العلاج بمثل هذا الوضوح فماذا ينتظر الناس لاستخدامه؟

ـ ما من فارسي قادر اليوم على الاضطلاع بمثل هذه المهمّة. إنه لمحزن قول هذا في أمّة مؤلّفة من عشرة ملايين نسمة، ولكنْ ينبغي عدم التقليل من ثقل الجهل. فلم يتلقَّ هنا سوى حفنة من الناس تعليماً حديثاً شبيهاً بالتعليم الذي يحظى به موظّفو الدولة الكبار في الأمم المتقدّمة. والمجال الوحيد الذي نملك فيه كفايات كثيرة هو مجال الدبلوماسية. وأما في سائر المجالات، سواء في الجيش أو الألعاب الرياضية أو على الأخص المال، فإنه العَدَم. ولو كان في وسع نظامنا أن يدوم عشرين أو ثلاثين سنة لأنشأ بلا ريب جيلاً كفيلاً بتولّي أمور جميع هذه القطاعات. وأفضل حلّ يطالعنا بانتظار ذلك هو الاستعانة بأجانب شرفاء من ذوي الكفاية. وليس سهلاً العثور عليهم، أعلم ذلك. ولقد كانت لنا في الماضي أسوأ التجارب مع «نوس» و«لياخوف» وكثيرين غيرهما. بيد أني لا أقنط. وقد بحثت هذا الموضوع مع بعض الزملاء في البرلمان والحكومة ونظنّ أن في مقدور الولايات المتحدة مساعدتنا.

قلت بشكل عفوي:

ـ إني فخور بهذا، ولكنْ لماذا بلدي بالذات؟

وردّ شارلز راسل على ملاحظتي بحركة تنمّ عن الدهشة والقلق. غير أن جواب فاضل لم يلبث أن هدّأها.

ـ لقد استعرضنا جميع «القوى» قوّة قوّة. فالروس والبريطانيون سعيدون جدّاً بدفعنا إلى الإفلاس لتقوية هيمنتهم علينا. والفرنسيون حريصون جداً على علاقاتهم بالقيصر فيشغلوا

أنفسهم بمصيرنا. وبشكل أعمّ فإن أوروبا بأسرها ضالعة في لعبة التحالفات والتحالفات المعاكسة التي لن تكون فارس فيها سوى عُمْلة مبتذلة للمقايضة أو مجرّد بَيْدَقٍ على رقعة الشطرنج. وحدها الولايات المتحدة قادرة على الاهتمام بنا من دون أن تسعى لاجتياحنا. وعليه فقد توجّهت إلى السيد راسل وسألته عمّا إذا كان يعرف أميركياً قميناً بالاضطلاع بمثل هذه المهمّة الفادحة. وعليّ الاعتراف بأنه هو الذي ذكر اسمك وكنت أنا قد نسيت تماماً أنك تلقّيت دراسة في الشؤون المالية.

وأجبت:

ـ إني أعتزّ بهذه الثقة، غير أني لست بالتأكيد الرجل الذي تحتاجون إليه. فأنا، بالرغم من الدبلوم الذي حُزْتُه، ماليّ تافه، ولم تُقدَّر لي فرصة قطّ لامتحان معلوماتي. وينبغي لوم والدي الذي بنى من السفن ما لم أحتج معه إلى العمل لأعيش. ولم يسبق لي قطّ أن اهتممت بغير الأمور الأساسية، أي التي لا نفع منها: السفر والمطالعة والحبّ والاعتقاد والشكّ والعِراك. والكتابة في بعض الأحيان.

ضحكات مرتبكة وتبادل نظرات مذهولة. وتابعت:

ـ عندما تعثرون على رجلكم أستطيع الوقوف إلى جانبه وتزويده بالنصائح وإسداء خدمات كثيرة إليه، ولكنْ ينبغي أن يُطلب منه هو الأهلية والعمل. إني مُفْعَم بحُسْن الإرادة، بيد أني جاهل وكسول.

وإذا استنكف فاضل عن الإلحاح فقد اختار أن يجيبني بالنبرة نفسها:

ـ هذا صحيح، وأنا عليه شهيد. وبعدُ فإن فيك عيوباً أخرى أعظم وأشدّ. فأنت صديقي، وكل الناس يعرفون هذا، ولن يكون لخصومي سوى غرض واحد: مَنْعُك من النجاح.

كان راسل يصغي وقد تجمّدت على وجهه ابتسامة وكأنها قد نُسِيَتْ. فلم يكن مزاحنا ليلائم بالتأكيد ذوقَه، غير أنه لم يتخلَّ عن رباطة جأشه. والتفت فاضل إليه.

ـ يؤسفني تخاذل بنجامين، إلا أن تخاذله لا يغيّر شيئاً من اتّفاقنا. ولربما كان من الأفضل أن يُعهد بهذا النوع من المسؤولية إلى رجل لم يسبق أن تدخّل من قريب ولا من بعيد في الشؤون الفارسية.

ـ هل تفكّر في أحد؟

لا أملك اسماً في ذهني. وأريد شخصاً صادقاً شريفاً حرّ التفكير. وهذا الجنس موجود عندكم كما أعرف، وإني لأتخيّل الشخص جيّداً، بل يكاد يكون في مقدوري القول إني أراه أمامي؛ رجل أنيق، نظيف، مستقيم السَّمْت، مستقيم النظرة، مستقيم الحديث. رجل يشبه باسكرڤيل.

أُبرق بلاغ الحكومة الفارسية إلى مفوّضيّتها في واشنطن في الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)، وهو يوم أحد يقع فيه عيد الميلاد، بالعبارات التالية:

«اطلبوا على الفور من وزير الخارجية أن يصلكم بالسلطات المالية الأميركية لتوظيف خبير أميركي بعيد عن الاهتمام بمصالحه الشخصية في منصبِ قيِّم عام على الخزينة بموجب عقد مبدئي مدّته ثلاث سنوات وقابلٍ للتعديل بموافقة البرلمان. وسوف يُكلَّف إعادة تنظيم موارد الدولة وتحصيل العائدات وإنفاقها يعاونه محاسب خبير ومفتّش يشرف على التحصيل في الأقاليم.

«وقد أعلمنا وزير الولايات المتحدة المفوَّض في طهران أن وزير الخارجية موافق. اتصلوا به مباشرة وتحاشَوْا أن تلجأوا إلى الوسطاء. انقلوا إليه هذه الرسالة وتصرّفوا تبعاً لاقتراحاته».

في الثاني من شباط (فبراير) وافق المجلس على تعيين الخبراء الأميركيين بأغلبية كبرى وسط وابل من التصفيق.

وما هي إلا أيام حتى قُتل على قارعة الطريق وزيرُ المال الذي كان قد قدَّم المشروع إلى النواب، قتله شخصان من جورجيا. وفي المساء نفسه حضر ترجمان المفوّضيّة الروسية إلى وزارة الخارجية الفارسية وطلب تسليمه القاتلَيْن بوصفهما من رعايا القيصر من غير إبطاء. وعرف كل الناس في طهران أن هذا العمل كان جواب سان بطرسبورغ على اقتراع البرلمان، غير أن السلطات آثرت التسليم كيلا تفسد علاقاتها بجارها الجبّار. وعليه فقد سيق القاتلان إلى المفوّضيّة ثم إلى الحدود؛ وما إن اجتازها حتى أصبحا طليقيْن.

وأقفل البازار أبوابه احتجاجاً ودعا «أبناء آدم» إلى مقاطعة البضائع الروسية؛ بل لقد أشير إلى أعمال انتقامية من الرعايا الجورجيين، «الكُرج»، الكثيرين في البلاد. ومع ذلك فقد دعت الحكومة تساندها الصحافة إلى الأناة بالقول إن الإصلاحات الحقيقية سوف تبدأ قريباً، فالخبراء قادمون ولن تلبث خزينة الدولة أن تمتلىء فندفع ديوننا ونزيح جميع الوصايات ويغدو لنا مدارس ومستشفيات وجيش حديث يُرغم القيصر على مغادرة تبريز ويمنعه من إبقائنا تحت سيفه المُصْلَت.

كانت فارس تتوقّع المعجزات. والحقّ أن المعجزات سوف تحدث.

45

المعجزة الأولى أنبأني بها فاضل. هامساً، ولكنْ بحماسة المنتصر:

ـ أنظر! لقد أكّدت لك أنه سيكون شبيهاً بباسكرفيل!

وكان ذلكم «مورغن شوستر» خازن مالية فارس العام، وكان يدنو لتحيتنا. وكنا قد ذهبنا للقائه عن طريق قزوين. وقد وصل مع أهله في عربات بريد قديمة الطراز هزيلة الدوّاب. وإنه لغريب ذلك الشبه بهوارد: العينان أنفسهما والأنف نفسه والوجه الحديث الحلاقة نفسه، ولعله أشد استدارة بقليل، والشعر الفاتح اللون نفسه يفرقه الفرقُ عينُه، والقبضة المصافِحة ذاتها مهذَّبة ولكنْ غازية. ولا بدّ أن طريقتنا بالتفرّس في وجهه قد ضايقته، غير أنه لم يُظهر شيئاً من ذلك؛ والحقّ أنه كان عليه أن يتوقّع وهو يحلّ على هذا النحو في بلد أجنبي، وفي ظروف بمثل هذا الاستثناء، أن يكون هدفاً لفضول مستمرّ. فلسوف يُراقَب طَوال إقامته ويُحدَّق فيه ويُلاحق. بسوء قصد في بعض الأحيان. وسوف يُسَجَّل كل عمل من أعماله وكل إغفال يُبديه ويُعَلَّق عليه ويُمْدَح أو يُلْعَن.

وما إن مرّ أسبوع على وصوله حتى انفجرت الأزمة الأولى. فقد سأل بعض الشخصيات من المئات الذين كانوا يحضرون

للترحيب بالأميركيين، سألوا شوستر عن الموعد الذي ينوي فيه زيارة المفوّضيّتين الإنكليزية والروسية. وكان جواب المسؤول ينمّ عن التملّص. غير أن الأسئلة ازدادت إلحاحاً وشاع الأمر وأثار نقاشاً محتدماً في البازار: هل ينبغي أن يقوم «الأميركي» بزيارات مجاملة إلى المفوّضيتيْن أم لا؟ وكانت المفوّضيتان قد أشاعتا أنهما تعرّضتا للسخرية وتوتّر الجوّ. ونظراً للدور الذي اضطلع به فاضل في مَقْدَم شوستر فقد كان مُحرَجاً بشكل خاص لهذا الخلل الدبلوماسي الذي كان يهدِّده بإعادة النظر في مهمّته بأكملها. وسألني التدخّل.

وعليه فقد توجّهت إلى مواطني في قصر «أتابك»، وهو بناء من الحجر الأبيض مؤلَّف من ثلاثين حجة فسيحة مؤثّث قسم منها على الطراز الشرقي وقسم على الطراز الأوروبي، يرزح بالسجاجيد والتحف وتنعكس أعمدة واجهته المُترَفة في صفحة بركة. وتحيط به حديقة مترامية الأطراف تتخلّلها مجاري المياه والبحيرات الاصطناعية، فهو فردوس فارسي حقيقي يمتصّ صريرُ جنادبه ضوضاءَ المدينة. وكان واحداً من أجمل مساكن طهران الفخمة. وكان ملكاً لرئيس وزراء سابق قبل أن يشتريه تاجر زرادشتي ثريّ من أشدّ المتحمّسين للدستور، وقد وضعه بلا مقابل بتصرّف الأميركيين.

استقبلني شوستر على درجات باب القصر. وإذ كان قد استراح من وعثاء السفر فقد بدا لي في ريعان الشباب. فلم يكن عمره إلا أربعاً وثلاثين عاماً، وما كانت تلك الأعوام لتبين على حقيقتها. وأنا الذي كان يظنّ أن واشنطن سترسل خبيراً أشيبَ سحنتُه سحنةُ راهب!

ـ جئت أحدّثك عن قضية المفوّضيتيْن.

ـ أنت أيضاً!

وتظاهر بأن الأمر يسلّيه. وألححت:

ـ لست أدري إن كنت تدرك الحجم الذي اتّخذته هذه القضية البروتوكولية. لا تنسَ أننا في بلد الدسائس!

ـ ما من أحد يبتهج مثلي بالدسائس.

ضحك مجدّداً، غير أنه توقّف بغتة مستعيداً تماماً هيئة الجدّ التي يقتضيها منصبه.

ـ ليس الأمر أمر بروتوكول وحسب أيها السيد لوساج، فهناك المبادىء. وقد استعلمت كثيراً قبل القبول بهذا المنصب عن عشرات الخبراء الأجانب الذين قدِموا قبلي إلى هذا البلد. ولم يكن ينقص بعضهم الأهلية ولا حُسن الإرادة. غير أنهم أخفقوا جميعاً. فهل تعرف لماذا؟ لأنهم وقعوا في الشَرَك الذي أُدعى اليوم للوقوع فيه. لقد عيّنني برلمان فارس أميناً عاماً لخزينة فارس، وعليه فقد كان من البديهي أن أخبر بوصولي الشاه والوصيّ والحكومة. وأنا أميركي وأستطيع على هذا أن أقوم أيضاً بزيارة هذا الرجل الساحر السيد راسل. ولكن لماذا يُطلب مني أن أقوم بزيارات مجاملة للروس والإنكليز والبلجيكيين والنمساويين؟

«سأقول لك لماذا؟: لأنهم يريدون أن يظهروا للجميع، للشعب الفارسي الذي يتوقّع كثيراً من جانب الأميركيين، وللبرلمان الذي استخدمنا على الرغم من جميع الضغوط التي نالته، أن مورغن شوستر أجنبي مثل جميع الأجانب، أنه «فَرَنْجي». وما إن أكون قد بدأت بزياراتي الأولى حتى تنهال الدعوات؛ فالدبلوماسيون أناس ظرفاء ومِضيافون ومثقّفون، وهم يتكلّمون اللغات التي أعرفها ويلعبون ما أُحسِن من ألعاب. ولسوف أعيش هنا سعيداً أيها السيد لوساج بين البريدج والشاي والتنس والخيل والحفلات التنكّرية الراقصة، وعندما أرجع إلى بلادي بعد ثلاث سنوات أكون قد أصبحت ثرياً وسعيداً وملوّحاً

بالشمس وممتّعاً بالعافية. بيد أني لم آتِ من أجل هذا أيها السيد لوساج!».

كان يصيح على وجه التقريب. وقد أغلقتْ يدٌ خفيّة، ربما كانت يد زوجته، باب غرفة الاستقبال بتكتّم. ولم يبدُ أنه لاحظها. وتابع:

ـ لقد أتيت في مهمّة محدَّدة بدقّة: تحديث مالية فارس. وقد استنجد بنا هؤلاء الناس لثقتهم بمؤسساتنا وطريقتنا في إدارة الأعمال. وليس في نيّتي تخييب ظنّهم. ولا خديعتهم. فأنا من أمّة مسيحية أيها السيد لوساج، وهذا يعني لي شيئاً ما. أية صورة يتصوّرها الفرس اليوم عن الأمم المسيحية؟ صورة إنكلترا المغرقة في المسيحية وهي تستحوذ على نفطهم، أم صورة روسيا المغرقة في المسيحية وهي تفرض عليهم إرادتها عملاً بالقانون المقيت، قانونِ الطَرَفِ الأقوى؟ ومن هم المسيحيون الذين خالطوهم إلى الآن؟ وفي أي عالم سنعيش نحن وهم معاً؟ ألا نملك خياراً غير الاقتراح عليهم بأن يكونوا عبيدنا أو يكونوا أعداءنا؟ ألا يُمكن أن يكونوا شركاء، أن يكونوا سواسية؟ وإنه لمن حسن الحظّ أن يستمرّ بعضهم في تصديقنا والإيمان بِقِيَمنا، ولكنْ إلى متى يستطيعون بعدُ كَمّ آلاف الأصوات التي تماهي الأوروبي والشيطان؟

«كيف ستكون فارس في غدٍ؟ إنّ ذلك يتعلّق بسلوكنا، بالمثال الذي نقدّمه. لقد أنستْ تضحيةُ باسكرفيل وحشيةَ كثيرين منّا. وإني لأجِلُّه جدّاً، غير أني أؤكّد لك أني لا أنوي أن أموت، وكل ما أرجوه هو أن أكون نزيهاً. وأما فارس فسأخدمها كما أخدم شركة أميركية، لا أسرقها بل أجهد في تطهيرها وجعلها تزدهر، وسوف أحترم مجلس الإدارة، ولكنْ من غير تقبيل أَيْدٍ ولا انحناءات تعظيم».

كانت دموعي قد بدأت تسحّ بغباوة فسكت شوستر وتأمّلني بتأنٍ وشيء من القلق.

ـ إذا كنت قد جرحتك عن غير قصد بنبرتي أو بكلماتي فأرجوك المغفرة.

ونهضت ومددت إليه يدي للمصافحة.

ـ لم تجرحني أيها السيد شوستر، لقد بلبلتني وحسب. سوف أنقل أقوالك إلى أصدقائي الفرس، ولن يكون ردّ فعلهم مختلفاً عن ردّ فعلي.

وإذ خرجت من عنده فقد هرعت إلى الـ «بهارستان»؛ وكنت أعرف أني أجد فيه فاضلاً. وما إن لمحتُه من بعيد حتى صِحْتُ:

ـ فاضل، إنها معجزة أخرى!

في الثالث عشر من حزيران (يونيو) قرّر البرلمان الفارسي باقتراع لم يسبق له مثيل أن يعهد بالسلطة المطلقة إلى مورغن شوستر لإعادة تنظيم مالية البلاد. وأخذ مذّاك يُدعى بانتظام لحضور مجلس الوزراء.

وفي تلك الأثناء أضحت حادثة أخرى حديث البازار ودواوين القنصليات فقد سرت شائعة مجهولة المصدر، وإنْ يكن من السهل الحدس به، تتّهم مورغن شوستر بالانتماء إلى طائفة فارسية. وقد يبدو الأمر غير معقول، غير أن مروّجيه كانوا قد أحسنوا تقطير سمّهم ليُكْسِبوا هَذْرهم مظهراً واقعيّاً. وما هي إلا عشيّة وضحاها حتى كان الأميركيون موضع ريب في نظر جمهور الناس. وكُلِّفتُ مرة أخرى تحديث أمين الخزينة العام بالموضوع. وكانت علاقاتنا قد توطّدت بعد لقائنا الأول. وأخذ يدعوني «بن» وأخذت أدعوه «مورغن». وشرحت له موضوع الاتّهام.

ـ يُقال إن بين مساعديك «بابيين» أو «بهائيين» مشهورين، وقد أكّد فاضل صحّة ذلك. ويُقال أيضاً إن البهائيين قد أنشأوا فرعاً

نشِطاً جدّاً في الولايات المتحدة. وقد استُنتِج من ذلك أن جميع أميركيي المفوّضيّة هم في الواقع بهائيون أقبلوا يغنمون مريدين تحت ستار تطهير مالية البلاد.

وفكّر مورغن لحظة وقال:

ـ سأجيب عن السؤال الوحيد المهمّ: لا، لم أحضر للتبشير ولا للدعوة، وإنما لإصلاح الأمور المالية الفارسية التي هي بحاجة ماسّة إلى ذلك. وأضيف لمعلوماتك أني لست بالطبع بهائياً، وأني لم أعلم بوجود هذه الطوائف إلا في كتاب للأستاذ «براون» قبل مجيئي تماماً، وأني عاجز أيضاً عن التمييز بين «بابيّ» و«بهائيّ». وأما عن مساعديّ، وهم زهاء خمسة عشر في هذا البيت الكبير، فإن جميع الناس يعلمون أنهم كانوا هنا قبل مجيئي. وعملهم يرضيني، وهذا هو الشيء الوحيد المهمّ. ولم أعْتَدِ الحكم على معاونيَّ تبعاً لمعتقدهم الديني أو للون ربطة عنقهم!

ـ أُدركُ جيداً مسلكك، فهو مطابق لقناعاتي. غير أننا في فارس، والحساسيات تكون مختلفة في بعض الأحيان. لقد التقيت للتوّ وزير المالية الجديد. وفي تقديره أنه ينبغي لإسكات القادحين إقالة المساعدين المعنيين بالأمر، أو على الأقلّ بعضهم.

ـ وزير المالية منشغل بهذه القضية؟

ـ أكثر ممّا تظنّ. وإنه ليخشى أن تُعرِّض للخطر العمل الذي يجري في قطاعه برمّته. وقد رجاني إطلاعه على نتيجة مسعاي عند حلول هذا المساء.

ـ لن أؤخّرك إذن. تقول له على لساني إنّ أيّ مساعد لن يُقال، وأن القضية تقف بالنسبة إليّ عند هذا الحدّ!

ونهض؛ وكان عليّ أن ألحّ:

ـ لستُ متأكّداً أن هذا الجواب شافٍ يا مورغن!

– آه! هكذا؟ إذن تضيف على لساني: «سيدي وزير المال، إذا لم يكن لديك ما هو أفضل من التحديق إلى دِين بُستانيٍّ فإني أستطيع أن أقدّم لك ملفّات أهمّ من ذلك لتزجية وقتك».

ولم أنقل إلى الوزير إلا مضمون أقواله، بيد أني أظنّ أن مورغن قد كرّرها عليه بنفسه حرفياً في أوّل مناسبة. من غير أن يثير على أي حال أدنى مأساة. والواقع أن جميع الناس كانوا سعداء بأن تُقال بعض الأمور الجوهرية بصراحة في نهاية المطاف.

وقد أسرّت إليَّ شيرين يوماً بقولها:

– منذ مجيء شوستر إلى هنا أصبح الجوّ أكثر عافية وأشدّ نظافة. وإن المرء ليظنّ أنه يحتاج إلى قرون للخروج من وضع مشوّش ومتشابك. ويظهر رجل بغتة فيعاود الإخضرارُ، كما بقوة سحريّة، الشجرةَ التي كان يُعتقد هلاكها فتغدق من جديد الأوراق والثمار والظلال. لقد جدّد هذا الرجل إيماني برجال بلدي. فهو لا يخاطبهم بوصفهم أهل البلاد المحلّيين، إذ هو لا يحترم الحساسيات والدناءات، وإنما بوصفهم أناساً فيستعيد المحليون إحساسهم بإنسانيتهم. هل تعلم أن العجائز في أسرتي يدعون له في صلواتهنّ؟

46

لن أعدُو الحقيقة أبداً إذا أكّدت أن فارس برمّتها كانت تعيش في ذلك العام (1911 م) زمن «الأميركيّ»، وأنه كان من بين جميع المسؤولين أكثرَهم شعبية بما لا مراء فيه، وأشدَّهم نفوذاً. فكانت الصحف تسانده في ما يقوم به بحماسة جعلته يسعى في بعض الأحيان إلى جمع محرّريها ليعرض عليهم مشاريعه، بل لِيَنْشد مشورتهم في بعض الأمور الشائكة.

وكانت مهمّته الصعبة على الأخص، وهذا أهمّ ما في الأمر، تشقّ طريقها إلى النجاح. فقد عرف شوستر، حتى قبل إصلاح النظام الضريبي، كيف يسوّي أمر الموازنة بمجرد الحدّ من السرقة والتبذير. فقَبْلَهُ كان كثير من الشخصيات من أمراء ووزراء ووجهاء يرسلون إلى الخزينة مطالبهم متمثّلة في رقم يدوّنونه فوق ورقة مبقّعة بالدُّهن، وكان الموظفون مُجْبَرين على تلبيتها تحت طائلة فُقدان منصبهم أو حياتهم. ولقد تغيّر كل شيء بوجود مورغن بين عشية وضحاها.

وهذا مثال من بين عدّة أمثلة. ففي السابع عشر من حزيران (يونيو) وجد شوستر نفسه مُطالَباً في مجلس الوزراء بنبرة مؤثّرة بمبلغ اثنين وأربعين ألف تومان لدفع رواتب الجنود في طهران. وقد قال «الأمير العظيم» وزير الحربية:

ـ وإلا فإن ثورة سوف تشتعل ويتحمّل مسؤوليتها الكاملة أمين الخزينة العام.

وكان جواب شوستر:

ـ لقد حصل السيد الوزير منذ عشرة أيام على مبلغ مماثل. فماذا فعل به؟

ـ أنفقتُه في دفع جزء من الرواتب المتأخّرة، فعائلات الجنود تشكو الجوع، وجميع الضباط غارقون في الديون، والحالة لا تُطاق!

ـ وهل السيد الوزير واثق من أنه لم يتبقَّ شيء من ذلك المبلغ؟

ـ ولا حتى درهم واحد!

عندها أخرج شوستر من جيبه قطعة صغيرة من الكرتون الرقيق عليها كتابة بخط دقيق وأخذ يطالعها علناً قبل أن يؤكّد قائلاً:

إن المبلغ الذي دفعته الخزينة منذ عشرة أيام قد أُودع بكامله في حساب السيد الوزير ولم يُنفَق منه تومان واحد، وعندي هنا اسم صاحب المصرف والأرقام.

ونهض «الأمير العظيم»، وهو عملاق ممتلىء شحماً، ملتمعاً غضباً، وبسط راحة يده فوق صدره وأجال نظرة حانقة في زملائه:

ـ هل يُسعى إلى وضع شرفي موضع الاتّهام؟

وإذا لم يطمئنه أحد بشأن هذه النقطة فقد أضاف:

ـ أقسم بأنه إذا كان مثل هذا المبلغ في حسابي فعلاً فإني آخر من يعلم بالأمر.

وإذا ظهرت حوله بعض التكشيرات الدالّة على عدم التصديق فقد تقرّر استدعاء صاحب المصرف وطلب شوستر إلى أعضاء الوزارة البقاء في أماكنهم. وما إن أُعلن وصول الرجل حتى خفّ وزير الحربية للقائه. وبعد أن تبادلا بعض الهمسات رجع «الأمير العظيم» إلى زملائه وعلى وجهه ابتسامة ساذجة وقال:

ـ إن هذا المصرفيّ اللعين لم يفهم توجيهاتي ولا دفع بعدُ المال للجنود. إنه سوء تفاهم!

وأُسدل الستار بمشقّة على الحادثة، غير أن كبار رجال الدولة لم يجرؤوا بعد ذلك على الانصراف بغبطة إلى نهب الخزينة الذي كان مستمرّاً منذ قرون. وكان هناك ولا شكّ بعض الذين لم يَرُقْهم الأمر، غير أنه لم يكن في مقدورهم إلا السكوت لأن معظم الناس، حتى من المسؤولين في الحكومة، كانوا يملكون ما يدفعهم إلى الرضا: فللمرّة الأولى في التاريخ أخذ الموظّفون والجنود والدبلوماسيون الفرس في الخارج يتلقّون رواتبهم في مواعيدها.

وأخذ الاعتقاد بمعجزة شوستر يسود في الأوساط المالية الدولية بالذات. والدليل إن الإخوة «سليغمان»، وهم مصرفيون في لندن، قرّروا إعطاء فارس قرضاً بقيمة أربعة ملايين ليرة إسترلينية من غير أن يفرضوا الشروط المهينة التي كانت ترافق في العادة هذا النوع من المعاملات. فلا اقتطاع من المداخيل الجمركية، ولا رهن من أي نوع كان، وإنما هو قرض عادي لزبون عادي محترم يُفترض أنه مليء. وكانت تلك خطوة مهمّة. وكانت سابقة خطرة في نظر مَنْ يَسْعَوْن إلى استعباد فارس. وتدخّلت الحكومة البريطانية لمنع القرض.

وكان القيصر قد لجأ في ذلك الوقت إلى طرائق أشدّ قسوة. فقد عُلم في تمّوز (يوليو) أن الشاه السابق واثنين من إخوته هم في طريق العودة على رأس جيش من المرتزقة لاستعادة السلطة. أفلم يكن محتَجَزاً في أوديسّا بالإقامة الجبرية مع وعد قاطع من الحكومة الروسية بعدم السماح له أبداً بالعودة إلى فارس؟ وإذ سئلت سلطات سان بطرسبورغ عن ذلك فقد أجابت بأنه أفلت من مراقبتها وسافر بجواز مزيّف، وأن سلاحه كان قد نُقل في صناديق

تحمل علامة «ماء معدني»، الأمر الذي يُعفيها هي من كل مسؤولية عن ثورته. وعلى هذا فإنه يكون قد غادر مقرّه في أوديسّا واجتاز مع رجاله بضع مئات الأميال التي تفصل أوكرانيا عن فارس، وأبحر بسلاحه في سفينة ركّاب روسية واجتاز البحر الكاسبي ونزل على الساحل الفارسي، وكل ذلك من غير أن تكون حكومة القيصر وجيشه والـ «أوخرانا»، شرطته السرّية، قد أُبلغت بالأمر؟

ولكن ما الفائدة من الحِجاج؟ كان يجب على الأخصّ منع الديمقراطية الهشّة من الانهيار. وطلب البرلمان من شوستر فتح اعتمادات. ولم يجادل «الأميركي» هذه المرّة. بل عمل على العكس على أن يُجهَّز جيشٌ خلال بضعة أيام بأفضل جهاز ممكن وبذخائر وفيرة، موحياً هو نفسه باسم قائده، أفراييم خان، وهو ضابط ألمعيّ أرمنيّ سوف يوفَّق في مدة ثلاثة أشهر في إبعاد الشاه السابق وإعادته إلى الجانب الآخر من الحدود.

بصعوبة أمكن تصديق ذلك في دواوين قنصليات العالم أجمع: أتكون فارس قد غدت دولة حديثة؟ لقد كانت مثل هذه الثورات تطول عادةً سنواتٍ وسنوات. وكان الجواب عن ذلك يتمثّل لدى معظم المراقبين في طهران كما في الخارج في كلمة واحدة سحرية: شوستر. وقد تعدّى دوره في الوقت الحاضر مجرّد دور أمين الخزينة العام. وكان هو الذي أوحى إلى البرلمان بإصدار مرسوم يُعلَن فيه الشاهُ السابق خارجاً على القانون. والإعلان على جدران جميع مدن البلد عن «مطلوب» بأصرح أساليب رعاة البقر «في أقصى الغرب»، ومَنْح مبالغ كبيرة لمن يساعد على أسر المتمرِّد الإمبراطوري وأخويه. الأمر الذي انتهى بالناس إلى إسقاط اعتبار الملك المخلوع في عيون الشعب.

ولم يكن غضب القيصر ليهدأ. فقد أصبح واضحاً له مذّاك

أن مطامعه في فارس لا يمكن أن تتحقّق ما دام شوستر هناك. وكان ينبغي ترحيله وخَلْقُ حادثة، حادثةٍ ضخمة. وقد كُلّف أحد الرجال ذلك: «پوختيانوف» القنصل السابق في تبريز وقد أصبح قنصلاً عاماً في طهران.

«المهمّة» كلمةٌ خجول، إذ ينبغي الكلام في ذلك الظرف على «مؤامرة» مدبّرة بعناية وإن كانت تخلو من كثير من النباهة. فالبرلمان كان قد قرّر مصادرة أموال أَخَوَي الشاه السّابق اللذين كانا يقودان الثورة إلى جانبه. وإذ كُلِّف شوستر تنفيذ الحكم بوصفه أمين الخزينة العام فقد أراد الاضطلاع بالأمر بأكثر الطرائق مطابقة للقوانين. وكانت المِلكية المعنيّة الرئيسية تقوم غير بعيد من قصر «أتابك» وتخصّ الأمير الإمبراطوري المدعو «شعاع السلطنة»؛ وقد أرسل إليها «الأميركي» مفرزةً من الدرك وموظفين مدنيين مزوَّدين بالمذكّرات القانونية. ووجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع قوزاقيين يرافقهم ضبّاط قنصليون روس منعوا الدرك من دخول المِلكية مهدّدين باستخدام القوّة إن لم ينسحبوا بأسرع ما يمكن.

عندما أُنبىء شوستر بما حدث أرسل أحد معاونيه إلى المفوّضيّة الروسية فاستقبله «پوختيانوف» مقدِّماً إليه بنبرة عدوانية التفسير التالي: لقد كتبت والدة الأمير «شعاع السلطنة» إلى القيصر والقيصرة تطلب حمايتهما التي أغدقاها عليها بسخاء.

لم يصدّق «الأميركي» ما سمع وقال: لأَنْ يتمتّع الأجانب في فارس بامتياز عدم الخضوع للعقاب، وأن يُحال دون محاكمة قَتَلَةُ وزير لأنهم من رعايا القيصر فذاك أمر جائر، إلا أنه قاعدة قائمة صعب تعديلها؛ وأما أن يضع فُرْسٌ ممتلكاتهم بين ليلة وضحاها في حماة ملك أجنبي لخرق قوانين بلادهم فذاك إجراء جديد لم يسبق العمل به ولا يُعقل. ولم يشأ شوستر أن يُذعن للأمر.

وأصدر أمراً إلى رجال الدرك بالاستيلاء على الممتلكات المعنيّة من دون اللجوء إلى العنف ولكنْ بحزم. وفي هذه المرّة تركهم «يوخيتانوف» يفعلون. وكان قد افتعل الحادثة وأنجز مهمّته.

لم يتأخر ردّ الفعل. فقد نَشر بلاغ في سان بطرسبورغ يؤكّد أن ما حدث يعدِل عدواناً على روسيا وإهانة للقيصر والقيصرة ويطالب باعتذار رسمي تقدّمه حكومة طهران. وذُعر رئيس الوزراء الفارسي وطلب النُّصح من البريطانيين؛ وأجابت وزارة الخارجية البريطانية أن القيصر لم يكن ليمزح، وأنه حشد الجيوش في «باكو» وهو يستعدّ لاجتياح فارس، وأن الحذر يقضي بتقبُّل الإنذار.

وعليه فقد زار وزير الخارجية الفارسي في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1911 م المفوّضيّة الروسية مُفْعَمَ النفس بالغمّ والخزي وصافح بمجاملة مفرطة يد الوزير المفوّض وهو يتلفّظ بالكلمات التالية:

«لقد كلّفتني حكومتي يا صاحب السعادة بتقديم الاعتذار باسمها عن الإهانة التي لحقت بالضبّاط القنصلين لحكومتكم».

وأجاب ممثل القيصر وهو لا ينفكّ يضغط على اليد التي مدّت إليه.

«اعتذاركم مقبول بوصفه ردّاً على إنذارنا الأول، غير أنه عليّ إخباركم أن إنذاراً ثانياً يُحضَّر في سان بطرسبورغ. وسوف أخبرك بمضمونه حالما يصل إليّ».

وأُنجز الوعد. فبعد خمسة أيام، أي في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، عند الظهر، قدّم الدبلوماسي إلى وزير الخارجية نصّ الإنذار الجديد مضيفاً شفاهة أنه سبق أن حصل

على موافقة لندن وأنه ينبغي أن يتلقّى الردّ بعد ثمانٍ وأربعين ساعة.

البند الأول: إقالة مورغن شوستر.

البند الثاني: عدم استخدام خبير أجنبي على الإطلاق من غير الحصول مسبّقاً على موافقة المفوّضيّتين الروسية والبريطانية.

47

في مقرّ المجلس كان ستة وسبعون نائباً ينتظرون، وكان بعضهم بالعمامة وبعض بالطربوش وبعض بالطاقية، وكان بعض «أبناء آدم» من أشدّهم نضالاً لابسين الزيّ الأوروبي. وفي الساعة الحادية عشرة صعد رئيس الوزراء إلى المنصة وكأنه يصعد إلى مشنقة وقرأ بصوت لاهث نصّ الإنذار الذي يَذْكُر دعم لندن للقيصر، وذلك قبل أن يعلن قرار حكومته: عدم المقاومة وقبول الإنذار وإقالة «الأميركيّ»؛ وبكلمة واحدة العودة إلى وصاية «القوّتين» بدلاً من الانسحاق تحت جَزَماتهما. ومحاولةً منه لتحاشي أسوأ العواقب كان بحاجة إلى تفويض صريح؛ وها هوذا يطرح مسألة الثقة مذكّراً النواب بأن مدّة الإنذار تنتهي ظهراً، وأن الوقت محسوب ولا يمكن أن يطول النقاش إلى ما لانهاية. وكان طَوال مداخلته لا يفتأ يوجّه نظرات قلقة إلى رواق المدعوين الذي كان يتربّع فيه «پوخيتانوف» إذ لم يجرأ أحد على منعه من الدخول.

لم يكن هناك عندما عاد رئيس الوزراء إلى الجلوس هزء ولا تصفيق. فلا شيء سوى صمت ثقيل مُمِضّ لا يمكن استنشاقه. ثم نهض سيّد جليل من ذرية النبي ومن أشدّ أنصار الحداثة، وقد طالما ساند مهمّة شوستر بحماسة، فقال في خطبة مقتضبة:

ـ ربما هي مشيئة الله أن تُنتزع حريتنا وسيادتنا منا بالقوة. غير أننا لن نتخلّى عنهما من تلقاء أنفسنا.

وكان صمت جديد. ثم مداخلة أخرى بالاتّجاه نفسه والاقتضاب عينه. ونظر السيد «پوخيتانوف» جهاراً إلى ساعته. ورآه رئيس الوزراء فسحب بدوره سلسلة تنتهي بساعة جيب منقوشة ونظر فيها. إنها الثانية عشرة إلا ربعاً. وجُنَّ جنونه ونقر الأرض بعصاه طالباً الانتقال إلى الاقتراع. وانسحب أربعة نواب على الفور متذرّعين بذرائع شتى؛ وقال الاثنان والسبعون الباقون «لا». لا لإنذار القيصر. لا لرحيل شوستر. لا لموقف الحكومة. واعتُبر رئيس الوزارة على هذا مستقيلاً فانسحب مع أعضاء وزارته أجمعين. ونهض «پوخيتانوف» هو الآخر؛ وكان النصّ الذي عليه إبراقه إلى سان بطرسبورغ قد كُتب.

صُفق الباب فردّد سكونُ القاعة صدى انصفاقِه، وبقي النواب وحدهم. لقد انتصروا غير أنه لم تكن بهم قطُّ رغبة في الاحتفال بنصرهم. إن زمام السلطة في أيديهم: فمصير البلاد ودستورها الفتيّ مرجعه إليهم. فماذا كان في وسعهم أن يفعلوا به، وماذا كانوا يريدون أن يفعلوا؟ لم يكونوا يدرون شيئاً. وإنها لجلسة غير واقعية ومؤثِّرة ومشوَّشة. ومن بعض الوجوه صبيانية. وكانت تنبثق بين الحين والحين فكرة ما تلبث أن تُسْتَبْعَد:

ـ ماذا لو طلبنا إلى الولايات المتحدة إرسال بعض الجند؟

ـ ولماذا تُراهم يأتون، إنهم أصدقاء الروس. أليس الرئيس روزفلت هو الذي صالح القيصر والميكادو؟

ـ لكنْ هناك شوستر، أفلا يرغبون في مساعدته؟

ـ شوستر رجل شعبي في فارس؛ ويكاد الناس في بلاده يعرفون اسمه. ولا بدّ أن المسؤولين الأميركان لا ينظرون بعين الرضا إلى إفساد علاقته بسان بطرسبورغ ولندن.

– في وسعنا أن نقترح عليهم إقامة خط سكة حديدية. قد يجذبهم الأمر، وقد يأتون لمساعدتنا.

– قدْ. ولكن ليس قبل ستة أشهر، وسيكون القيصر هنا في غضون أسبوعين.

– والأتراك؟ والألمان؟ ولم لا يكون اليابانيون؟ ألم يسحقوا الروس في منشوريا؟ وعندما اقترح نائب شاب من كرمان وهو يبتسم شبه ابتسامة منح عرش فارس للميكادو، انفجر فاضل:

– علينا أن نعلم مرّة واحدة وأخيرة أنه ليس في مقدورنا استدعاء أهل أصفهان! وإذا خضنا معركة فستكون في طهران وبمساعدة أهل طهران وبالأسلحة الموجودة في هذه اللحظة في العاصمة. كما حدث في تبريز منذ ثلاثة أعوام. ولن يكون عدد القوزاق الذين سيرسلونهم إلينا ألفاً بل خمسين ألفاً. وعلينا أن نعلم أننا سنقاتل بلا أدنى نصيب في الربح.

لو كانت هذه المداخلة المثبِّطة من شخص غيره لأثارت سيلاً من الاتّهامات. ولكنّ كلماتها وقد صدرت عن بطل تبريز أشهر «أبناء آدم» فُهمت كما ينبغي أن تُفهم على أنها تعبير عن واقع جائر. وكان صعباً، انطلاقاً من هذا، التبشير بالمقاومة. ومع ذلك كان هذا ما فعله فاضل.

– إذا كنا مستعدّين للقتال فذلك فقط من أجل الحفاظ على المستقبل. أليست فارس تعيش إلى اليوم على ذكرى الإمام الحسين؟ ومع ذلك فإن هذا الشهيد لم يَقُدْ سوى معركة خاسرة، وقد غُلب وسحق وذُبح، وهو الذي نكرِّمه. إن فارس بحاجة إلى الدم لتنمو. ونحن اثنان وسبعون بعدد صحابة الحسين. فإذا متنا غدا هذا المجلس مزاراً ورسخت الديمقراطية قروناً في أرض الشرق.

أبْدَوْا جميعاً استعدادهم للموت، إلا أنهم لم يموتوا. لا

لأنهم وهنوا أو خانوا قضيّتهم. فقد سَعَوْا على عكس ذلك إلى تنظيم الدفاع عن المدينة، وتقدّم عدد كبير من المتطوّعين، من «أبناء آدم» على الأخصّ، كما في تبريز. ولكن بلا نتيجة. فقد كانت جيوش القيصر بعد أن اجتاحت شمال البلاد في طريقها الآن إلى العاصمة. وكان الثلج وحده هو الذي يُبَطِّىء قليلاً تقدّمها.

وفي الرابع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) قرّر رئيس الوزراء المخلوع استعادة السلطة بالقوة. فبمساعدة القوزاق وقبائل البختياريين وقسم مهمّ من الجيش والدرك جعل من نفسه سيِّد العاصمة وأعلن حلّ البرلمان. واعتقل عدّة نواب وحكم على أكثرهم نشاطاً بالنفي، وعلى رأسهم فاضل.

وكان أول عمل قام به النظام الجديد قبول نصّ إنذار القيصر رسمياً. وأنبأت رسالة مهذّبة مورغن شوستر بانتهاء خدماته أميناً عاماً للخزينة. ولم يكن قد أمضى في فارس سوى ثمانية أشهر حافلة باللهاث والجنون والدوار، ثمانية أشهر كان من الممكن أن تغيّر وجه الشرق.

في الحادي عشر من كانون الثاني (نوفمبر) 1912 م اصطُحب شوستر مجدداً بالتكريم. فقد وضع الشاه الشاب في تصرّفه سيارته الخاصة وسائقها الفرنسي السيد «ڤارليه» لإيصاله إلى مرفأ «أنزلي»، وكنّا كثيرين، من أجانب وفرس، في وداعه، بعضنا في فِناء مقرّه وآخرون على طول الطريق. ولم يكن هناك هتافات بالطبع وإنما إيماءات متكتّمة من آلاف الأيدي ودموع من الرجال والنساء وحشد مجهول كان يبكي بكاء حبيبة مهجورة. ولم تحدث طوال الطريق سوى حادثة بسيطة جداً: التقط قوزاقيّ حجراً لدى مرور الموكب وقام بحركة لرميه باتجاه «الأميركي»؛ بل إني لأعتقد أنه لم يصل بحركته إلى غايتها.

حين توارت السيارة خلف باب قزوين سِرْتُ خطوات بصحبة تشارلز راسل ثم تابعت طريقي ماشياً إلى قصر شيرين. وقد قالت وهي تتلقاني:

ـ تبدو مضطرباً كلّ الاضطراب.

ـ لقد ودّعت شوستر للتوّ.

ـ آه! لقد رحل في النهاية!

لم أكن واثقاً ممّا إذا كنت قد أدركت نبرة تعجّبها. فما لبثتْ أن زادت كلامها إيضاحاً:

ـ أتساءل اليوم عمّا إذا لم يكن من الأفضل لو أنه لم يطأ قطّ أرض هذا البلد.

ونظرت إليها مستفظِعاً.

ـ أنتِ تقولين لي هذا!

ـ أجل، أنا شيرين التي تقول هذا. أنا التي صفّقت لمقدم «الأميركي»، أنا التي وافقت على كل عمل من أعماله، أنا التي رأتْ فيه نوعاً من مُخلِّص، آسف الآن لأنه لم يبقَ في أميركا البعيدة.

ـ ولكن ما الذي أخطأ فيه؟

ـ لم يخطىء في شيء حقّاً، وهذا دليل قاطع على أنه لم يفهم ما فارس.

ـ إنّي حقّاً لا أفهم.

ـ ألا يُعاقَب عقاباً مزدوجاً وزيرٌ يكون على حقّ حِيال مَلِكه، وزوجةٌ تكون على حقّ حيال زوجها، وجنديٌّ يكون على حقّ حيال ضابطه؟ إنه لمن الخَطَل في نظر الضعفاء أن يكون المرء على حقّ. وفارس ضعيفة بإزاء الروس والإنكليز، وكان عليها أن تتصرَّف تصرُّف الضعيف.

ـ إلى الأبد؟ ألا ينبغي أن تنهض يوماً وتنشىء دولة عصرية

وتعلّم شعبها وتدخل جوقة الأمم الزاهرة المحترمة؟ هذا هو ما حاول شوستر أن يفعله.

ـ لهذا أحمل له كبير الإعجاب. غير أني لا أستطيع الامتناع عن التفكير في أنه لو كان أقلّ نجاحاً في مسعاه ما كنّا اليوم في هذه الحال التي يُرثى لها: ديمقراطيتنا أثَرٌ بعد عينْ، وأرضنا مُجتاحَة.

ـ ما دامت مطالع القيصر هي إيّاها فإنه كان ينبغي أن يحدث هذا عاجلاً أو آجلاً.

ـ من الخير أن يتأخّر حدوث البلاء! ألا تعرف حكاية الملّا نصر الدين والحمار الناطق؟

ونصر الدين هذا هو البطل نصف الخرافي في جميع النوادر والمواعظ في فارس وطبرستان وآسيا الصغرى. وقصّت شيرين:

ـ يُحكى أن ملكاً نصف مجنون حكم على نصر الدين بالموت لسرقته حماراً. وبينما كان نصر الدين يُقاد لتنفيذ الحكم صاح: «الحقّ أن هذا الحيوان هو أخي، وقد مسخه ساحر في هذه الصورة، غير أنه لو عُهِد به إليّ مدّة عام لعلّمته أن يستعيد الكلام ويحكي مثلَك ومثلي!» وأثار الأمر الملك فطلب من المتّهم ترديد وعده قبل أن يُصدر أمره قائلاً: «حسناً! ولكنْ إذا لم يتكلّم الحمار بعد انقضاء يوم واحد على العام فسوف تُعْدَم». وعندما خرج نصر الدين نادته امرأته قائلة: «كيف يمكن أن تعِد بأمر كهذا؟ تعلم جيداً أن هذا الحمار لن يتكلّم». وأجاب نصر الدين: «بالطبع أعلم، غير أنه بعد عام قد يموت الملك أو يموت الحمار أو أموت أنا».

وأضافت الأميرة:

ـ لو احسنّا كسب الوقت فربما انزجّت روسيا في حروب البلقان أو في الصين. ثم إن القيصر ليس مُخلّداً، وقد يموت أو

تزلزله المشاغبات والثورات كما حدث قبل ست سنوات. لقد كان علينا أن نصبر ونصابر، وأن نخادع ونراوغ ونتراجع ونكذب، وأن نعد. تلك كانت دائماً حكمة الشرق؛ وقد شاء شوستر أن يتقدّم بنا على إيقاع الغرب فقادنا مباشرة إلى الغرق.

كان يبدو أنها تتألم لاضطرارها إلى قول ذلك؛ وعليه فقد تحاشيت معارضتها. فأضافت:

ـ تذكّرني فارس بسفينة شراعية منكودة. فالبحّارة لا يفتأون يجأرون بالشكوى من أن الريح غير كافية لدفعهم. وفجأة ترسل عليهم السماء إعصاراً عِقاباً لهم.

وظللنا لحظة طويلة ساهمَيْن مَكْرُوبَيْن. ثم أحطتُها بذراع حانية.

ـ شيرين!

أتكون الطريقة التي لفظت بها اسمها؟ لقد أجفلت ثم ابتعدت عني وهي تحدّق فيّ تحديقاً ملؤه الارتياب وقالت:

ـ إنك راحل.

ـ أجل. ولكنْ بطريقة أخرى.

ـ كيف يمكن أن يرحل المرء «بطريقة أخرى»؟

ـ أرحل معك.

48

شربور، العاشر من نيسان (ابريل) عام 1912 م.

أمامي على امتداد البصر «المانش» وكأنه قطيع أغنام فضيّة وادعة. وإلى جانبي شيرين. وبين أمتعتنا «المخطوط». وحولنا حشد غيرُ متوقَّع، شرقيٌّ حسب المنى.

لقد طال الكلام على المشاهير المتوهّجين الذين حملتهم الباخرة «تيتانيك» حتى إنه نُسي تقريباً أولئك الذين أُنشئت لهم هذه الباخرة العملاقة: المهاجرون، تلك الملايين من الرجال والنساء الذين لم تعُد تقبل أية أرض بإطعامهم فهم يحلمون بأميركا. وكان على الباخرة أن تُجري عملية لمّ شتات حقيقية: فمن ساوثمبتون الإنكليز والإسكندنافيون، ومن كوينزتاون الإيرلنديون، ومن شربور أولئك القادمون من بلاد أبعد من يونانيين وسوريين وأرمنِ الأناضول ويهود سالونيك أو أوروبا الشرقية وكرواتيين وصِرب وفرس. وكانوا أولئك الشرقيين الذين استطعت مراقبتهم في المحطّة البحرية ملتصقين بأمتعتهم البائسة نافدي الصبر للانطلاق، قلقين بين الحين والحين، باحثين بغتة عن استمارة مفقودة أو طفل كثير الحركة أو صرّة مستعصية كانت قد تدحرجت تحت مقعد. وكان كلّ منهم يحمل في أعماق نظراته مغامرة ومرارة وتحدّياً،

وكانوا جميعاً يستشعرون بمجرّد وجودهم في الغرب امتيازاً يتمثّل في الاشتراك في الرحلة التدشينيّة لأقوى باخرة ركاب وأحدث باخرة ركّاب وأثبت باخرة ركّاب انبثقت على الإطلاق من دماغ إنسان.

ولم يكن شعوري الشخصي مختلفاً قطّ. وإذ كنت قد تزوّجت قبل ثلاثة أسابيع في باريس فقد أخّرت رحيلي بقصد وحيد هو أن أقدّم إلى شريكتي رحلة زواج تليق بالبذخ الشرقي الذي كانت تعيش فيه. ولم تكن نزوةً لا طائل تحتها. فقد أبدت شيرين طويلاً معارضة لفكرة الإقامة في الولايات المتحدة، ولو أن همّتها لم تضعف بعد صحوة فارس التي لم تكتمل لما قبلت أبداً أن تتبعني. وكنت أطمح إلى أن أعيد حولها بناء عالم أكثر انتماءً إلى حكايات الجنّيات من الذي أُجبرتْ على تركه.

وقد خدمت الـ «تيتانيك» مخططاتي خدمة رائعة. فقد بدا أنها من تصميم أناس راغبين في أن يجدوا في هذا القصر العائم أفخم التسليات الموجودة على اليابسة من مثل بعض مباهج الشرق: حمّام تركي في مثل استرخاء حمامات القسطنطينية أو القاهرة؛ شرفات مزخرفة بالنخيل؛ وفي غرفة الرياضة، بين العارضين المتوازيتين وجواد القفز الخشبي، كان يقوم جَمَل آلي كهربائي مخصّص لإشعار راكبه، بمجرد ضغطة على زر عجيب، بالترجّحات التي يحدثها السفر في الصحراء فوق ظهر جمل.

بيد أننا لم نكن نسعى فقط ونحن نستكشف الـ «تيتانيك» إلى إخراج ما يوحي بالغربة من مكامنه. فقد كان يحدث أن ننصرف إلى ملذّات أوروبية خالصة فنتذوّق المحار ثم فراخاً محمَّرة بطريقة مدينة ليون، وهو طبق تخصّص في صنعه رئيس الطبّاخين «پروكتور»، يُصاحبها نبيذ صنع في «كوس ديتورنيل» عام 1887 م ونحن نستمع إلى جوقة يرتدي أفرادها بذلات سموكن زرقاء داكنة

ويعزفون «حكايات هوفمان» أو «الغيشا» أو «المغولي الأعظم» لـ «لودر».

وهي لحظات زاد في قيمتها عندي وعند شيرين أننا كنا مضطرّيْن خلال علاقتنا الطويلة في فارس إلى الاستخفاء. فعلى الرغم من فساحة أجنحة أميرتي وخُلَّبها في تبريز و«زرقنده» وطهران فإني كنت أعاني على الدوام من الشعور بأن حبّنا محبوس داخل جدرانها وما من شاهد عليه غير المرايا المنقوشة وغير خادمات يَغْضُضْنَ من أبصارهن. وكنا ننعم في الوقت الحاضر باللّذة المبتذلة المتمثّلة في رؤية الناس إيّانا معاً، رجلاً وامرأة يتأبّط أحدهما ذراع الأخرى، وأن تغمرنا النظرات الغربية نفسها، وكنّا نحاشي حتى ساعة متأخرة دخول قمرتنا على الرغم من أني اخترتها من أفسح القمرات في الباخرة.

وكانت مُتعتنا النهائية نزهة المساء. فما إن نُنهي عشاءنا حتى نذهب للقاء أحد الضباط، وكان هو إياه على الدوام، فيقودنا إلى خزانة حديدية نسحب منها «المخطوط» ونحمله بإعزاز في جولة خلال الجسور والممرّات. وكنا نجلس على أرائك الخيزران في المقهى ونقرأ كيفما اتفق بعض الرباعيات ثم نستقلّ المصعد إلى رواق الاستراحة حيث نتبادل، من غير أن نهتمّ بأننا عرضة للتلصُّص، قبلة حارة في الهواء الطلق. وكنا نحمل معنا في ساعة متأخرة «المخطوط» إلى غرفتنا فينام فيها قبل أن يُعاد إلى الخزانة نفسها في الصباح بوساطة الضابط عينه. ولقد كان ذلك طقساً يُبهج شيرين، حتى إنني كنت أفرض على نفسي واجباً يتلخّص في أن استظهر ما فيه من تفاصيل لبيانها في اليوم التالي بلا أقلّ حَيْد.

وهكذا فإني فتحت «المخطوط» في أمسيتنا الرابعة على الصفحة التي كتب فيها الخيّام في زمانه:

«تسألُ من أين لنا نفحة الحياة،

«فإن كان ينبغي اختصار قصة طويلة

«قلتُ إنها تنبثق من أعماق المحيط،

«ثم يبتلعها المحيط بغتة من جديد».

واستهوتني الإشارة إلى المحيط: وأردت أن أقرأ قراءة أكثر بطئاً فقاطعتني شيرين بقولها:

ـ أتوسّل إليك!

لقد بدا أنها كانت تختنق؛ وتفرسّت فيها بقلق. وقالت بصوت مُكمَد:

ـ كنت أعرف هذه الرباعية عن ظهر قلب، ويساورني فجأة شعور بأني أسمعها للمرّة الأولى. إنها كما لو. . .

غير أنها عدلت عن الإيضاح والتقطت أنفاسها قبل أن تقول وقد اطمأنت قليلاً:

ـ كنت أودّ لو أننا قد وصلنا.

وهززت كتفيَّ وقلت:

ـ لو أن في العالم باخرة يمكن السفر على متنها من دون خوف فهي هذه بالتأكيد. وكما قال القبطان «سميث» فإن الله نفسه لا يستطيع إغراق هذه الباخرة!

وإذا كنتُ قد اعتقدتُ إني أُطمئنها بهذه الكلمات وهذه النبرة المرحة فإنّ ما حدث كان العكس. فقد تشبّثت بذراعي وهي تغمغم:

ـ لا تقُلْ هذا بعدُ قطّ! بعدُ قطّ!

ـ لماذا تتلبّسين هذه الحال؟ تعلمين جيّداً أنها لم تكن سوى مزحة!

ـ حتى الملحد عندنا لا يجسر على التلفظ بمثل هذه العبارة.

كانت ترتعد. ولم أدرك عنف ردّ فعلها. واقترحت عليها أن ندخل قمرتنا وكان عليَّ أن أسندها كيلا تقع في أثناء السير.

وبدا في اليوم التالي أنها استعادت ما كانت عليه. وقُدتها في محاولة للتسرية عنها لاكتشاف روائع الباخرة، بل امتطيت الجمل الكهربائي الراجف مجازفاً بتحمل ضحكات «هنري سليپر هارپر» صاحب المجلة الأسبوعية التي تحمل الاسم نفسه، وكان قد بقي بصحبتنا بعض الوقت وقدّم لنا الشاي وقصّ علينا أخبار أسفاره إلى الشرق قبل أن يعرّفنا بكثير من الاحتفالية إلى كلبه الپيكيني الذي رأى من المناسب تسميته «صان يات سين» تكريماً غامضاً لمحرِّر الصين. غير أن شيئاً لم يُفلح في فكّ تقبُّض وجه شيرين.

وفي المساء ظلّت صامتة عند العشاء؛ وبدا أنها خائرة. وعليه فقد رأيت من الحذر العدول عن نزهتنا الطقسية وتركت «المخطوط» في خزانته، ودخلنا القمرة للنوم. وغرقتْ على الفور في نوم متقلّب. وأما أنا فقضيتُ قسماً من الليل في ملاحظتها إذ كنتُ قلقاً عليها وغير متعودٍ كثيراً على النوم في مثل هذا الوقت المبكّر.

علامَ الكذب؟ عندما اصطدمت الباخرة بالطوق الجليدي لم أدرك ما حدث. وما أظنني تذكرت أني سمعت قبيل منتصف الليل ما يشبه تمزّق غطاء من أغطية السرير في القمرة المجاورة إلا بعد الحادث حين حُدِّدت لي اللحظة التي وقع فيها الاصطدام. ولست أذكر أنني تلقّيت صدمةً ما. حتى إني انتهيت إلى الإغفاء، لأستيقظ مُجْفِلاً عندما سمعتُ أحدهم يقرع على الباب زاعقاً بعبارة لم أستطع إدراك مغزاها. ونظرت إلى ساعتي فإذا هي الواحدة إلّا عشر دقائق. وارتديت الروب دي شامبر وفتحت الباب. كان الرواق خالياً. غير أني سمعت من بُعد أحاديث بصوت مرتفع قلّما هو مألوف في هذا الوقت المتأخر من الليل. ومن غير أن أقلق حقّاً قرّرت الذهاب لاستطلاع ما يجري متجنّباً طبعاً إيقاظ شيرين.

والتقيت في السلّم مضيفاً فتكلّم بنبرة عارية من إشعار بالخطورة عن «بعض مشكلات صغيرة» طرأت. وقال إن القبطان يريد أن يتجمّع كل ركّاب الدرجة الأولى عند جسر «الشمس» في أعلى الباخرة.

ـ هل عليّ أن أوقظ زوجتي؟ لقد كانت متوعّكة أثناء النهار.

أجاب المضيف في تكشيرة تنمّ عن الارتياب.

ـ قال القبطان «جميع الناس».

ورجعت إلى القمرة وأيقظت شيرين بكلّ ما يقتضيه الموقف من لطف مداعباً جبينها فحاجبيها، لافظاً اسمها، ملصقاً شفتيّ بأُذنها. وما إن أرسلتْ نخرة تذمّر حتى همستُ لها:

ـ عليك أن تنهضي، ينبغي علينا الصعود إلى السطح.

ـ لن أفعل هذا المساء فأنا أشعر ببرد شديد.

ـ ليست القضية قضية نزهة، إنها أوامر القبطان.

وكان لهذه الكلمة الأخيرة فعل السحر فقفزت من السرير وهي تصرخ:

ـ يا إلهي.

ولبستْ على عجل، ومن غير نظام، وكان عليّ أن أهدئها وأقول لها أنْ تخفّف من سرعتها وأنّا لسنا على عجلة من أمرنا إلى هذا الحدّ. ومع ذلك فإننا عندما وصلنا إلى السطح كانت تسوده حميّة مؤكّدة، وكان الركّاب يُوَجَّهون إلى قوارب النجاة.

وكان هناك المضيف الذي التقيته قبلاً فذهبت إليه؛ ولم يكن قد فقد شيئاً من مرحه. وقال وهو يسخر من الصيغة:

ـ النساء والأولاد أوّلاً.

وأخذت بيد شيرين راغباً في جرّها إلى الزوارق، بيد أنها رفضت أن تتحرّك، وتوسّلتْ قائلة:

«المخطوط»!

قد نضيعه في الزحمة! إنه محميّ بشكل أفضل في الخزانة الحديدية.

ـ لا أرحل إلّا به!

وتدخّل المضيف قائلاً:

ـ ليس في الأمر رحيل، إننا نُبْعِد الركّاب لساعة أو ساعتين. ولو أردتِ رأيي لقلت إن ذلك ليس ضرورياً أيضاً. لكن القبطان هو السيّد على السفينة...

لن أقول إنها تركت نفسها تقتنع. لا، فكل ما في الأمر أنها تركت نفسها تُقاد من يدها بلا مقاومة. وذلك حتى مقدّم السفينة إذ ناداني ضابط وقال:

ـ من هنا أيها السيد، إننا بحاجة إليك.

واقتربت.

ـ هذا القارب ينقصه رجل، هل تُحسن التجذيف؟

ـ مارسته سنوات في خليج «تشيزاپيك».

سُرَّ للأمر ودعاني إلى اتّخاذ مكان في القاربِ وساعد شيرين على تجاوز السطح. وكان في القارب زهاء ثلاثين شخصاً وعدد من المقاعد التي لا تزال خالية، غير أن الأوامر كانت بالاقتصار على نقل السيدات، وبعض المجذِّفين المدرَّبين.

وحملونا إلى سطح المحيط بطريقة تجافي ذوقي قليلاً، غير أني استطعت تثبيت المركب وبدأت أجذّف للذهاب إلى أين، إلى أي نقطة من هذا المدى الشاسع الأسود؟ لم يكن لديّ أدنى فكرة، ولا كان المهتمّون بالإنقاذ يعرفون هم الآخرون شيئاً، وقرّرت الابتعاد عن الباخرة والانتظار على بعد نصف ميل إلى أن ينادونا بإشارةٍ ما.

وكان همّنا جميعاً في الدقائق الأولى أن نقي أنفسنا من البرد. وهبّت ريح خفيفة صقيعية مانعةً إيّانا من سماع اللحن الذي

كانت جوقة الباخرة تعزفه. ومع ذلك فإننا عندما توقّفنا على مسافة بدت لي ملائمة انكشفت لنا بغتة حقيقة الأمر: كانت الـ «تيتانيك» مائلة بوضوح إلى الأمام، وأخذت أضواؤها تضعف شيئاً فشيئاً. لقد مُسِسنا جميعاً وخرسنا. وفجأة سُمع نداء، نداء رجل كان يسبح؛ وشغّلت قارب النجاة وتقدّمت منه؛ وساعدتني شيرين وراكبة أخرى على رفعه إلى متن القارب. وبعد قليل أشار إلينا ناجون آخرون بدورهم فذهبنا نلتقيهم. وفيما نحن مستغرقون في هذا العمل أطلقت شيرين صيحة. لقد كانت الـ «تيتانيك» الآن في وضع عمودي وقد تلاشت أنوارها. وظلت هكذا دقائق خمساً لا تنتهي ثم غاصت بجلال إلى حيث كان قَدَرها.

فاجأتنا شمس الخامس عشر من نيسان (ابريل) ممَّددِيْن خائريْن محاطيْن بوجوه مُشْفِقة. وكنا على متن الباخرة «كارپاتيا» التي هرعت تلتقط الغرقى بعد تلقّيها رسالة استغاثة. وكانت شيرين بجانبي، صامتة. فمنذ أن رأينا الـ «تيتانيك» تغرق وهي لم تَفُهْ بكلمة، وكانت عيناها تتحاشياني. ولقد وددت أن أهزّها وأذكّرها بأننا نجونا بأعجوبة وأن معظم الركّاب قد قَضَوْا وأنه كان حولنا على هذا السطح نساء فقدن أزواجاً وأطفالاً أصبحوا يتامى.

لكنني تحاشيت أن أعظها. فقد كنت أعرف أن ذلك «المخطوط» كان بالنسبة إليها، كما بالنسبة إليّ، أكثر من جوهرة وأنفس من تحفة أثرية، وأنه كان إلى حدّ ما سبباً في وجودنا معاً. وما كان فَقْدُه بعد هذا القدر من المْحَن إلا ليحزن شيرين أشدّ الحزن. وشعرت بأن من الحكمة ترك الزمن المُصْلِح يفعل فعله.

وعندما اقتربنا من مرفأ نيويورك في وقت متأخر من مساء

الثامن عشر من نيسان (ابريل) كان في انتظارنا استقبال صاخب: كان بعض كتّاب الريبورتاج قد سعوا إلى لقائنا على متن قوارب استأجروها، وأخذوا يخاطبوننا مستعينين بمكبّرات للصوت ويزعقون بأسئلة تبرَّع بعض الركّاب بالإجابة عنها وهم يضعون أيديهم كالأبواق حول أفواههم.

وما إن رست الـ «كارپاتيا» حتى اندفع صحفيون آخرون إلى الناجين وكل منهم يحاول لحدْس بمن في مقدوره سرد أصدق حكاية أو أكثرها إثارة. وكان الذي اختارني محرّر شاب من جريدة «أيفننغ صن». وكان يهمّه أكثر ما يهمّه سلوك القبطان «سميث» وأفراد طاقمه لحظة وقوع الكارثة. هل استسلموا للرعب المجنون؟ هل أخْفَوا الحقيقة عن الركّاب في أثناء مبادلتهم الحديث؟ هل صحيح أنهم منحوا أفضلية الإنقاذ لركّاب الدرجة الأولى؟ وكان كل سؤال من هذه الأسئلة يجعلني أفكّر وأنقب في ذاكرتي؛ وتكلّمنا طويلاً ونحن ننزل من الباخرة أوّل الأمر، ثم ونحن وقوف على الرصيف، وكانت شيرين قد ظلت بعض الوقت بجانبي من غير أن تتخلّى عن صمتها ثم إنها توارت. ولم أكن أملك أي سبب للقلق، فما كان في وسعها حقّاً أن تبتعد، وكانت بالتأكيد قريبة جداً مختبئة خلف ذلك المصوِّر الذي كان يوجّه إليّ برقاً يُعشي الأبصار.

ومدحني الصحفي وهو يتركني على نوعيّة شهادتي، وأخذ عنواني لكي يتّصل بي فيما بعد. وعندها نظرت حواليّ وناديت بصوت أخذ يقوى ويقوى. ولم تكن شيرين هناك. وقرّرت ألّا أتحرّك من المكان الذي تركتني فيه لكي تطمئنّ إلى العثور عليّ. وانتظرت ساعة، ساعتين، وأخذ الرصيف يُقفر شيئاً فشيئاً.

أين أبحث؟ ذهبت أول ما ذهبت إلى مكتب «هوايت ستار»، وهي الشركة التي تنتمي إليها الـ «تيتانيك». ثم درت على الفنادق

التي أنزل فيها الناجون لقضاء ليلة. ولكن مرّة ثانية لم يكن من أثر لزوجتي، ورجعت إلى الأرصفة وكانت مُقْفِرة.

عندها قرّرت أن أنطلق إلى المكان الوحيد الذي كانت تعرف عنوانه ويمكن أن يخطر لها عندما تهدأ أن تجدني فيه. بيت «أنّاپوليس».

لقد انتظرت طويلاً إشارة من شيرين، ولكنها لم تجيء قطّ، ولم تكتب لي، ولا ذكر أحد قطّ اسمها أمامي.

وأنا أتساءل اليوم: هل وُجدت يا تُرى؟ هل كانت شيئاً غير كونها ثمرة كوابيسي الشرقية؟ وفي الليل، وفي وحدتي، في غرفتي الفسيحة، عندما يداهمني الشكّ، عندما تتشوّش ذاكرتي، عندما أشعر بأن عقلي يترنّح، أنهض فأشعل جميع الأضواء وأجري فأستعيد رسائلها الماضية التي أتظاهر بفضّها وكأني تلقيتها لتوّي فاستنشق عطرها وأقرأ منها أسطراً؛ بل إن برودة نبرتها بالذات تشدّ من أزري وتسبغ عليّ وهم العيش مجدّداً في حبّ وليد. وعندها فقط أعيد ترتيبها وقد استعدت هدوئي وأغوص من جديد في الظلام مستعدّاً لترك نفسي بلا وجل لانبهارات الماضي: عبارة أُطلقت في صالون من صالونات القسطنطينية، ليلتان بلا نوم في تبريز، كانون نار في شتاء «زرقنده». ومن رحلتنا الأخيرة هذا المشهد: كنا قد صعدنا إلى رواق الاستراحة وتبادلنا في زاوية معتمة خالية قبلة طويلة. وكنت قد وضعت «المخطوط» مسطّحاً على إحدى صُوى الرسوّ لكي أمسك وجهها بيديّ. وعندما لمحته شيرين انفجرت ضاحكة، وابتعدت ثم قالت للسماء في حركة مسرحيّة:

– رباعيّات الخيّام على الـ «تيتانيك»! زهرة الشرق تحملها زُهيرة الغرب! ليتك ترى يا خيّام اللحظة الحلوة التي كُتب لنا أن نحياها!

المحتويات